

دار العين للنشر

ملحمة السَّراسْوة

رواية

شياطين .. ملائكة

أحمد صبري أبو الفتوح

ملحمة

السَّراسْوة

شياطين.. ملائكة

ملحمة

السَّراسْوة

شياطين.. ملائكة

رواية

أحمد صبرى أبو الفتوح

الطبعة الأولى / ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م



دار العين للنشر

٩٧ كورنيش النيل، روض الفرج، القاهرة

تليفون: ٢٤٥٨٠٣٦٠، فاكس:٢٤٥٨٠٩٥٥

www.elainpublishing.com

الغلاف : بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٤٦٣٨ /٢٠١٢

I.S.B.N: 978 - 977 - 490 - 161 - 4

الروايـة الرابعة من

ملحمة

السَّراسْوة

شياطين.. ملائكة

أحمد صبرى أبو الفتوح

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أبو الفتوح، أحمد صبري

ملحمة السراسوة (شياطين.. ملائكة)/ أحمد صبري أبو الفتوح.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٢

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ١٦١ ٤

١- الملاحم الشعبية.

٢- الملاحم العربية.

أ- العنوان.

٣٩٨,٢

رقم الإيداع / ٤٦٣٨ / ٢٠١٢


فراق





الذين يسترون بالليل ويقفون من خلف النوافذ يراقبون زخات المطر وهى تضرب الأسطح والنوافذ والأبواب يراودهم الأمل بأن يكون أهل العزبة منشغلين عنهم بأحوالهم مع البلل، وطالما يرفض المطر التوقف فإن عليهم أن يسرعوا بوضع أغراضهم فوق العربات وينطلقوا خارجين.

أحبال المطر تذكرهم بخروج جدهم أحمد السرسى من بلدهم البعيد سرس، فرارا من بطش والى مصر القديم محمد على باشا، بعد أن شنق ببلطته رأس مملوكه الأثير قفل، وبجداتهم القدامى وهن يقاومن الخوف والظلام والبرد، ويخضن بأبنائهن فى الوحل، وكذلك يذكرهم الليل، لكن ما أبعد الشبه، فهم الليلة يحدقون فى السماء المحتجبة خلف ستار من البخار كأنه دخان، ويتحينون ساعة الخروج من عزبة أبيهم وجدهم، عزبة أحمد السرسى، ليس فرارا من بطش أحد، ولكن لأنهم غاضبون.

أسماعهم تلتقط نداءات تتقاطع مع استرسال المطر ووطأة سريان الليل، فأحبال الماء تتسرب من الأسقف، تبلل الفُرُشَ وتُغْرِق ظهور الماشية والدواب والقطعان، وتقتحم على الدواجن خزائنها فتقرقر فى غضب،

والأوانى التى يضعونها لتتلقى الماء لا تنفك تمتلئ، يدلقونها فى الشوارع الموحلة فيأخذ الماء طريقه للعودة من جديد إلى الدور الغارقة.

ودون مقدمات يشرع المطر فى التوقف، كأن أبواب السماء التى انفتحت لزمن محدد وغرض معلوم أخذت وقتها وأمضت غرضها، وتخف حدة المطر، ويطمئن الناس إلى أن شيئا خارجا عن الحسبان لم يقع فتتخافت الأصوات، وتتوارى الاستغاثات، ويسود صمت بليغ، ويقول الخارجون إنها اللحظة المناسبة.

لا يعرفون أن السراسوة واقفون هناك، خلف النوافذ والأبواب، متسترون هم أيضا بالليل والسكون والغرق، يرقبون بأحاسيس متباينة خروج الشيخ يوسف سيد احمد وأسرته من عزبة أبيه وجده إلى قرية الربع، ليعيش هناك إلى جوار أخواله وأصهاره، ويمعنون النظر بين مصدق ومكذب.

انكسار الجدة مريم سيد احمد سيدة الدار الكبيرة كان باديا للعيان منذ فترة ليست بالقليلة، هى التى لم يكسرها الحبس، ولا رحيل أبيها تاركا يتيمين فى عهدتها، سليمان ابن شقيقها يحيى الذى رحل عن الدنيا فى حياة أبيها وهو لم يكد يفارق الصبا، وأخيها يوسف، ابن مليكة التى زوجتها لأبيها فى شيخوخته، كسرها الخلاف الذى دب فى جنبات الدار الكبيرة، ورأى انكسارها كل أبناء الأعمام، وتوزعوا بين يقينين، يقين بأن انكسارها هو بداية النهاية لفرع أصيل من أفرع عائلتهم الكبيرة، وتهديد أخيها يوسف بالخروج من عزبة أبيه وجده يضع قدمى النهاية على بداية الطريق، ويقين آخر بأنها وهى القائدة واسعة الحيلة والمرأة النادرة لن تترك

الأمور تمضى إلى نهايتها، لا بد ستخرج من جعبتها حيلة تردع بها مليكة أرملة أبيها، وشكران زوجة أخيها يوسف، وحتى لو نفذ يوسف تهديده وخرج فإنها ستعود به لا محالة إلى العرين، ولو بعد حين.

من وراء النوافذ ومن خلال شقوق الأبواب يرقب السراسوة العربات والجمال والمطايا وهى تحمل أكداس الأشياء، ويرهفون السمع ليميزوا الهسهسات، فالحكايات القديمة لما تزل حية فى الصدور، وخروج يوسف ليس إلا حلقة أخرى مريرة من حلقات الخروج فى تاريخهم الطويل.

فقديما خرج جدهم الأكبر من بلدهم البعيد سرس، وما أن استقروا فى هذا المكان حتى خرج عمهم موسى ومعه شقيقه السيد إلى ديرب نجم، وتوفى موسى غريبا، ولحق به السيد، ودفنا فى ديار الغربة، وها هو الصراع الذى أرادت له الجدة مريم أن يظل مكتوما يأبى إلا أن يدوى فى الآذان معلنا عن نفسه، فلقد باع يوسف أرضه فجأة، ظلت مداولات البيع بينه وبين حفظى أفندى باشكاتب المديرية القديم ومالك الأراضى المجاورة للعزبة سرية حتى أعلن يوسف توقيع عقد البيع وقبض كامل الثمن، وذهبت أدراج الرياح محاولاة الجدة مريم فى التعمية على ما يجرى فى الدار الكبيرة، فيوسف الذى عاش حتى اللحظة لا يكسر لها كلمة، والذى اعتاد أن ينادى سليمان ابن أخيه بلقب الشيخ مراعاة لفارق السن بينهما، يوسف هذا هو الذى ضج أخيرا، وأعلن أمام أهل العزبة أنها - وهى اخته الكبرى التى تولت تربيته بعد رحيل أبيه - سرقت أجزاء من أرضه وأعطتها لسليمان، لا لشىء إلا لأنه ابن أخيها الشقيق.

خلف النافذة تقف الجدة مريم، الندم يأكلها، يخرج من رأسها عامود

نار يكاد يحرق الوجود كله، فالعمر الذى بذلته لإعلاء راية دار سيد احمد السرسى فوق كل الرايات ضاع سدى، ومحاولات التآخى التى جاهدت لتربى عليها اليتيمين يوسف وسليمان باءت بالفشل، أبت إلا أن تساوى بين اليتيمين فى كل شىء، وأعطت لسليمان من أرضها هى ما تكمل به نصيبه ليكون مساويا لنصيب يوسف، وعندما زوجت سليمان من سُلَيْمَة ابنة الشيخ سرحان عقيل صاحب العزبة التى نشأت حديثا فى الجوار عزمت على أن تسترد أرضها، وتساوى بين يوسف وسليمان، حتى لو اضطرت إلى إظهار المزيد من الحزم مع مليكة أرملة أبيها، لتمنعها من دفع ابنها يوسف فى اتجاه التمرد.

لكنها استدرجت إلى قرية الربع لتخطب ليوسف ابنة الرجل ذى الأصل التركى القريب الشيخ محمد شوكت، لم تفطن إلى الفخ الذى أوقعتها فيه مليكة إلا عندما دخل يوسف بشكران، وصارت الكلمات المكتومة صريحة وجارحة، فشكران لا تكف عن التعريض بالعزبة وسكانها، ولا تنفك تقارن بين حياتها فى دار أبيها فى الربع حيث الخدم والحشم الذين لا ينقطعون عن الخدمة ليلا ونهارا، وبين الحياة البائسة فى العزبة التى ينام فيها الناس كالدواجن، بعد آذان العشاء.

صاعقة أصابت الجدة مريم من كلمات الزوجة المتمردة، لكنها فضلت ألا ترد، وألا تتحدث مع يوسف فى شأنها، إذ هى لا تريد أن تزيد الخلافات التى تلوح نذرها فى الأفق بينه وبين زوجته، والراجع إلى شراسة طبعها، حتى أنه عزم ذات مرة على طلاقها، ولولا تدخلها هى وليس أى أحد آخر لأوقع الطلاق، لكنها وأمام إصرار شكران على إهانة الجميع رافقته

فى إحدى روحاته إلى الغيط لتفاتحه فى الأمر، ويا للصدمة التى أصابتها وهى تسمع منه ما أوقف الدماء فى عروقها، فبدلا من أن يواسيها، أو يعلن عدم رضائه عن تصرف زوجته، أعلنها بعزمه على فعل أى شىء ما لم ترد إليه الأرض التى أخذتها من نصيبه وأعطتها لسليمان، فإذا كان أبوه قد تنازل لحفيده عن مساحة من الأرض برغم أنه لا يرث، فإنها لا تملك أن تزيد على ما فعل أبوه قيراطا واحدا.

من تلك اللحظة أدركت الجدة مريم أن الحرب ستندلع لا محالة فى دار أبيها، فما تبقى من أرضها لا يعوض ما أخذه سليمان من أرض أخيها، إذ لم تكن قد استردت بعد ما كانت قد أعطته لسليمان من أرضها قديما، ثم إنها صارت تسمع اعتراضات بناتها بدعوى انحيازها ضدهن، والمباعدة بينهن وبين ابن شقيقها وأخيها اللذين يرفلان فى النعيم، وتحتشد دارهما بالخدم والعمال، وبالضيوف من علية القوم، يجيئون ويذهبون ولا يعرف أحد من السراسوة من هم ولماذا جاءوا.

على الجانب الآخر من الفناء يتظاهر سليمان بالنوم، هو على يقين من أن عمته حزينة بالقدر الذى يساوى حزن العزبة كلها، فلماذا يتحمل عبئا تحمله هى عن الجميع؟، وتحاول سُلَيْمَة أن تجتذبه ليرى من خلف النافذة ما يدور فى الجناح الآخر من الدار فينهرها لتتركه ينام، لكنه لا يستطيع النوم، ثمة شعور يملأ عليه كيانه، ويربكه، شعور يخجله فيرفض الاعتراف به، يفزعه أنه يتعامل مع شعوره بالراحة بتلقائية، فها هو عمه الأصغر منه يخرج مع أسرته الصغيرة من العزبة ليعيش إلى جوار أصهاره وأخواله فى الربع. وبخروجه لن يتبقى فى العزبة من ذوى المكانة الرفيعة

سوى خاله الشيخ زكريا، لكن أخواله يقدمونه عليهم دائما، ويضعونه فى أعلى مكان، هو وعمه الأصغر يوسف، وبخروج عمه لن يعود أحد إلى مزاحمته هذه المكانة، والوقوف فى طريقه مُعيّبا مسلكه فى الدعة وحب الراحة.

معارك ضارية تدور فى صدر سليمان وهو يتظاهر بالنوم، لكنه لا يأبه بلغط الخارجين، ولا ببكاء طفل عمه الصغير الذى لا يفهم لماذا يزعجونه ولا يتركونه ينام، لا يعرف متى اكتشف أنه لا ينتمى لجده، الذى حاول ذات مرة أن يمنع عنه أسباب الحياة بدعوى أنه لا يرث، ولا لأبيه الذى رحل وتركه جنينا فى بطن أمه، فلم يهنأ مرة واحدة بالنداء عليه، أو بالهرولة بين قدميه كما يفعل كل الأطفال، ولا لأمه التى تزوجت بعد مولده ورحلت دون أن يعيقها وجوده الطفل، ثلاثتهم غدروا به، لم يدركوا قسوة الاستيقاظ فى قلب الليل على أفكار تتلون بسواد لا يبدده إلا الطلوع الحزين للصبح، ولا حتى لعمته، التى تكفلت به منذ نعومة أظافره، فى حياة جده وبعد رحيله، فحسب الحكايات التى سمعها من أمه فى إحدى زياراتها له كانت عمته السبب فى فرارها إلى الزواج والرحيل، يوم أن أجبرتها على الاختباء فى الدار لتتفادى اتهامها بالتخطيط للزواج من كل من كان يصلح للزواج بها من أبناء أعمامها، و لم يفلح حديث أمه فى خلق أى قدر من الانتماء لها، فقط أوغرت صدره ضد عمته، التى حرمته من أمه لما اضطهدتها وأجبرتها على الفرار، وهى إذا كانت قد كفلته منذ نعومة أظافره وحتى الآن إلا أنها فى النهاية حرمته حقوق اليتم كاملة، فلقد دافعت عنه بشراسة، وقاتلت من أجله كما تقاتل الكلبة من يسطون

على جرائها، حتى ضد أبيها، وبدا فى الظاهر كأنه محظوظ، هو اليتيم التعس، الذى تمنى لو أن عمته لم تكن هناك فيطابق ظاهره باطنه، كما كل الأيتام، فهى فى النهاية لم تستطع أن تملأ أى قدر من الفراغ الذى يمتلئ به، أو تعمر ركنا واحدا من الخواء الذى يعيش داخله، والذى تصرخ فيه ذئاب مسعورة، وشياطين ومردة، فأين لعمته من كل هذا!!؟

يعرف أن شيئا ما انكسر فى العلاقة التى تربطه بعمته، هى التى فضلته على الجميع، حتى على بناتها، ربما تكون البداية فى رحيل زوجها، فالركن الذى كان يملؤه من فراغ روحه لم تستطع هى أن تملأه، لا هى ولا أحد أخواله، والحوار الذى كان طوال الوقت يدور بينه وبين زوجها ضاع كأنه لم يكن حقيقيا ذات يوم، إنه يفتقده الآن كما تفتقد الروح طمأنينتها، وبعد رحيل الرجل اكتفى الجميع بإشباعه بعاطفة هى بديل الأمومة المفقودة، لكن حوار الأب والصديق انمحى برحيله، لذا فإن عمته عندما أشرفت زوجته على وضع مولودها الأول فاتحته فى أمر تسمية المولود، وفوجئت به يقول إنه لن يطلق على طفله اسم أبيه أو جده، ولما وضعت زوجته مولودها أطلق عليه اسم حمدان، ولم يكن أحد من بين من يعرفون يسمى بهذا الاسم سوى عمدة شنوان، الابن الأصغر للأعرابى عدو الأسرة القديم مساعد السمدانى، الذى تربطه به صداقة تجعلهما لا يفترقان إلا عند الذهاب إلى النوم!!.

رفضه تسمية أول أبنائه باسم أبيه أو جده ربما يكون بداية كسر ذلك الشيء الغامض فى العلاقة بينه وبين عمته، أو هو الأمر الذى أوصل أصوات الانكسار إلى سمعيهما، ومنذ ذلك الوقت أخذت عمته قرارها

بالابتعاد عن طريقه، الذى تملؤه كما تقول تناقضات تعجز عن فهمها، ففى تلك الأيام كانت وراءها مهام تنتظر منها مجهودات لا تقل ضخامة عن تلك التى قامت بها من قبل، أولها البحث لأخيها الأصغر يوسف عن عروس تليق بمقامه، وعن طريق تحتفظ معه فيه بعلاقة مميزة، وليس من بد فى أن تعيد لعلاقتها مع أمه مليكة الزخم الذى كان فى السنوات القليلة التى أعقبت رحيل أبيها، يوم فردت جناحيها لتظلل بهما فرخين يتيمين لا ينتميان إلى أى أحد فى العالم إلا إليها، دون سواها.

لكن مليكة وشكران نجحتا فيما قضت عمته أيامها لتتجنبه، وها هما تتقدمان الركب بعمه الأصغر الذى باع أرضه لحفظى أفندى نكاية فيه هو قبل عمته، العم الذى يرحل دون أن يفاتحه أو يفاتح عمته فى أمر نصيبه فى الدار الكبيرة، التى تكفى لحياة أسرتين كبيرتين معا، بغرفها العديدة ومخازنها وحظائرها وأفنيتها.

بأذنيها المرهفتين تسمع الجدة مريم تململ حفيدها قطب فى نومه، وصرير أضراسه الذى تعرفه جيدا، لكنها تنشغل بما يدور فى الخارج، حيث الهسهسات تتصاعد آذنة بالرحيل، ويأخذ يتيم ابنتها سكينة فى إطلاق صيحات تعرفها جيدا، فهو فى كل مرة بعد أن يستيقظ يخبرها بأنه رأى رجلا قالوا إنه أبوه، فيأخذ فى النداء عليه بأعلى صوت، لكن الرجل لا يأبه لندائه، ويواصل المضى دون حتى أن يلتفت، ويسألها الطفل فى براءة: لماذا لا يلتفت إلىّ يا جدتى؟!، لماذا يتركنى ويمضى والأولاد جميعهم يمسكون بأيادى آبائهم؟!، وتأتى إجابتها من وراء قلبها، لذا فإنها لا تملأ عقله، ولا ترد لهفته، الآن هو مستغرق فى النوم، وليس

مطلوبا منها أن تجيب على تساؤلاته التى تشرخ قلبها المليئ بالندوب.

إنهم يرحلون، طابور من الدواب والإبل يغوص فى الوحل والليل، من بين الأشباح تميز الجدة مريم جرم أخيها، بقامته المديدة وجسده الممشوق وطربوشه الذى لا يخفيه الليل، وعباءته التى تدور مع أكتافه العالية، كم هو غاضب هذا الشاب الذى يخوض فى الوحل دافعا آخر عربة محملة بالأغراض لتدور عجلاتها!، وكم هو مصر على الخروج حتى لا تجمعه بها وبسليمان دنيا واحدة!.

يا لبؤس دار سيد احمد السرسى فى تلك الليلة البعيدة!!، ويا للحزن الذى كان يخيم عليها!!، أرى الجدة مريم "الثانية" وأنا جالس إلى مكتبى على بعد تسعة عقود تبكى خروج أخيها بكاءً يُعَمِّقُه الليل والخوف والمطر، وذكريات أحداث قديمة تجرى فى أغوار متناهية البعد فى نفسها، تراها كأنها تجرى أمامها، ونداءات اليتيم قطب على رجل يقولون إنه أباه، لكنه يواصل المضى ولا يلتفت.

تغيب الهسهسات فى سكون الليل الموحل، وتختفى طقطقات العجلات الخشبية التى تجرها الجياد، وتخلو العزبة من يوسف السرسى وزوجته وأمه، وطفله يحيى، نعم، يحيى، فعندما أعلنت شكران أن أحشاءها مشغولة بطفل أعلن يوسف بفخر أن طفله إذا جاء ذكرا هو يحيى، على اسم أخيه الراحل، والد سليمان، وإذا كانت بنتا فهى مليكة، وتوارت الجدة مريم لتبكى، فسليمان الذى يرتبط بالعزبة كلها، إذ هم إما أعمامه أو أخواله يرفض إطلاق اسم أبيه أو جده أو حتى واحد من أخواله على مولوده، أما يوسف ذى النصف التركى والزوجة التى تعود

إلى أصل تركى قريب يعلن على الملأ والفخر يملؤه أن مولوده هو يحيى، وإذا جاءت أنثى فهى مليكة، أمه!، هى النفس البشرية العجيبة، التناقضات التى تستعصى على الإدراك!، والتى تعجز عن سبر غورها الأفهام!.

فى الطرف الشرقى من العزبة تقع دار الشيخ زكريا، الابن الأكبر للراحل موسى السرسى، هو الآن يغط فى النوم، فلقد قضى اليوم كله فى محاولة إثناء ابن عمه عن الخروج، لكنه فشل، عجز حتى عن إقناعه بتأجيل الأمر لأيام، ريثما يبحث مع الجدة مريم أمر إعادة الأرض التى حصل عليها سليمان من نصيبه، لم يكن على يقين من إمكانية رد تلك الأرض، ولا من قدرة الجدة مريم على إنفاذ ذلك فيما لو قبلت به، فسليمان ما أن أعلنت عمته فرض المساواة بينه وبين عمه يوسف فى تركة جده حتى سارع باقتطاع الأرض التى تحقق ذلك التساوى وأدخلها ضمن أملاكه، ولم يقم برد الأرض التى أعطتها إياه من نصيبها لتعوضه عن نقصان أرضه، وتولى عماله الذين ينبثون فى كل جنبات العزبة زراعة الأرض المقتطعة بعد ضمها لأراضيه، فالعزبة الصغيرة صارت تمتلئ بالغرباء، يزرعون أراضى سليمان ويعملون فى الوسية التى يباشرها الشيخ زكريا، ويشم فى تراب أراضيها – كما يقول – عرق أبيه.

أولئك الرجال من أبناء موسى السرسى يقتلهم اعتقاد يوسف سيد احمد بأنهم منحازون إلى سليمان لأنه ابن أختهم، هذا ما أعلنه الشيخ عمر الابن الأصغر قبل ليلتين فقط من خروج يوسف، قاله لرئيفة ابنة الجدة مريم الصغرى، التى تزوجها على زوجته الأولى إنه يشعر بسكين تشق قلبه نصفين، فيوسف إذ يخرج من العزبة يعيد إلى ذاكرته كل الأحداث المريرة

التى وقعت فى تاريخ الأسرة، وبخاصة خروج أبيه إلى ديرب نجم، الذى أعقبه خراب وقع على أدمغتهم و لم يفيقوا منه حتى اللحظة، ولكنه لا يقدر على التدخل وإيجاد حل حتى لا يفقد صلته بسليمان، إبن أخته الذى حرمته الحياة من كل المحبين، أبيه وأمه وجده، ومن إطلالة واحدة فى عمق عينيه يعرف المرء أن حب الناس جميعا لا يعوضه هذا الحرمان.

أما الشيخ عبد الرحمن، الابن الأوسط للراحل موسى السرسى فإنه وهو ينعم بحضن زوجته فردوس الغاوى لا يخفى تجاهله لكل ما يصيب أبناء عمه سيد احمد بالذات، حتى ولو كان أحدهم هو سليمان ابن أخته، فتجربة زواجه المريرة من الست ابنة عمه سيد احمد، ومعايرتها له بفقره وخيبة أبيه جعلته لا يكرهها فحسب، بل ويكره كل من يذكره بها، حتى ولو كان ابن أخته، لذا فإنه أقرب إلى الشماتة منه إلى الحزن، فها هم من يتصورون أنفسهم من عجينة أخرى غير عجينة البشر ويسلكون على أنهم السادة تجرى عليهم من الأحوال ما يجرى على البشر كافة، يتفسخون وينقسمون، يتسابون ويتشامتون، وليس الإحساس الذى يملأ صدره إلا عزاءً طال البحث عنه، وها هو يجده بعد طول انتظار.

لا يوجد أحد من أهل العزبة أقرب إلى قلبى يوسف وسليمان معا من حسانين الضبع، فبرغم فارق الوضع بينهم، حيث يرفل يوسف وسليمان فى النعيم فيما يعانى حسانين شظف العيش إلا أنهما على صداقة تستعصى على الأفهام، فحسانين هو مبعث البهجة فى حيات يوسف بالذات، ترافقا فى الغيط سنوات عديدة، وعبثا معا وهما طفلين، ثم وهما مراهقين، عن طريقه عرف كيف يصنع من مهروس الملوخية مادة لزجة يدلك بها عضوه

الشديد البياض ذا الرأس الحمراء كالبلحة إلى أن تصيبه رعدة السقوط فى بئر النهاية، وعندما أشاع السراسوة الحكايات عن عضو حسانين الضبع وحجمه الرهيب كان يوسف هو من أكد ذلك، بل إنه وأترابه راهنوا على قدرة الضبع على رفع قالب طوب بعضوه، وعندما فعلها أعطوه الرهان، صناديق دخان كثيرة وأقماع سكر تأتيهم فى الدار الكبيرة رأسا من الحوامدية.

فى رحلة خروجه لا يرافق يوسف من السراسوة إلا حسانين الضبع، ولقد بحثوا فى الغرف عن أى شىء نسوه، ثم أعطى يوسف لحسانين الضبع مفاتيح جناحه فى الدار ليسلمها للجدة مريم، وترك لها معه رسالة ستظل على مدى الأيام تتردد فى أذنيها، إنه لا يقبل العيش فى المكان الذى ظلم فيه، ويطلب مبلغا معينا إذا أراد سليمان أن يشترى نصيبه فى الدار، وليقم عنه حسانين بأمر البيع، حتى لا يضطر إلى وضع عينيه فى عينى ابن أخيه الذى يترك دار أبيه ليفارقه.

يكتفى باقى السراسوة بالنظر من خلال فرجات الأبواب والنوافذ، ويشقون الأبواب ليشاهدوا الركب المغادر، منهم من يجاهر بأن تكون المغادرة إلى غير رجعة، ومنهم من يمصمص الشفاة على صورة التأسى وهو شامت، ومنهم من يبتلع الحزن فى صمت.

يعرفون كلهم أن يوسف نسيج منفرد فى عائلة سيد احمد السرسى، فعلى عكس مسار الأحداث نشأ محبا للعمل متفانيا فيه، حتى اقترب من أن يكون آلة لا تكف عن الدوران. أرجع الكثيرون ذلك إلى بعضه التركى الذى ورثه عن أمه مليكة، لكن سليمان هاجم الفكرة، قال إن الأتراك

أناس غلاظ القلوب والأفهام، لا يحبون العمل، ويعشقون الدعة والنساء، وأرجع حب عمه الأصغر للعمل إلى أبيه، سيد احمد السرسى، الذى ملأ الدنيا نشاطا وعملا، وربحا فاق كل ما يحصل عليه السراسوة مجتمعين، ولما عرف يوسف بما قال سليمان مضى إلى المزيد من العمل، ومشاركة العمال أيام عملهم الشاقة، حتى أنه كان يسرح إلى الغيطان قبل شروق الشمس ولا يعود إلا مع اقتراب موعد صلاة العشاء، دون أن يصيبه الكلل أو يتسرب إليه الملل، قدرة تعجّب منها أقرب الأقربين، حتى أمه وزوجته سليطة اللسان، التى اتهمته بإهمالها وسكنى الغيطان ليبتعد عنها، بل وتشاجرت معه المرة تلو المرة، لكنه صعّر خدّه ورمى بمشاجراتها وألفاظها المسمومة وراء ظهره، ومضى غير آبه.

ينام بعد صلاة العشاء فيما يظل سليمان ساهرا حتى مطلع الفجر، وفيما تقتصر علاقاته على أعداد محدودة من الأهل أو الأقارب تتشعب علاقات سليمان بصورة مذهلة، فلا يقصد العزبة قاصد إلا ويكون مستقره فى ضيافته، لا ينافسه فى هذا إلا خاله الشيخ زكريا، وهكذا تنقل سليمان بين لذات الحياة وعاش حياة السهر والصخب ومرافقة الخلان، يذهب إلى النوم فى الوقت الذى يصحو فيه يوسف من نومه متأهبا للخروج إلى الغيطان لمباشرة أعماله، تناقض عجيب لا يقدر أحد على تفسيره، لكن أعمال سليمان كانت بفضل الجدة مريم تعرف طريقها إلى الاكتمال، على أيدى عمال أحسنت اختيارهم لينوبوا عنه، إذ لا يليق – هكذا كانت تؤمن – أن يباشر ابن أخيها الأعمال اليدوية التى ينغمس فيها يوسف حتى أذنيه، وأغراه ذلك بالمزيد من التمتع بالحياة، وفى أعماقها رأت الجدة مريم

أن انغماس ابن أخيها فى الحياة الهانئة هو نوع آخر من التمرد على داخله المجروح.

تهدأ الأفكار الثائرة فى صدر الجدة مريم فتقترب من حفيدها قطب وتأخذه فى حضنها، عله هذه المرة ينعم فى منامه برؤية أبيه عن قرب، أو بالتفاتة ترد لهفته، فبعد أن كان الحلم يأتيه كل بضع ليال صار يزوره كل ليلة، وقد يأتيه فى الليلة الواحدة بضع مرات.

آن للجدة مريم وقد تفسخت دار سيد احمد السرسى التى انقطعت لإعلاء رايتها عشرات السنين أن تلتفت إلى بناتها وأحفادها، وأن تمسح على رؤوس الجميع معتذرة عن أنهم كانوا دائما فى المرتبة الثانية من تفكيرها، إذا ما قورنوا بيوسف وسليمان، فإبنتها سكينة خاصمتها الدنيا، وأخذت منها باليمين ما أعطت بالشمال، حسدها الناس على زواجها من موسى ابن محمد الطوخى وكان زهرة شباب الأسرة، ولم تكد تمر شهور حتى رحل تاركا طفله جنينا فى بطنها، وتزوجها من بعده شقيقه شعبان، وهكذا انتقل الطفل قطب وهو ابن عامين إلى كنف جدته، كأنما كتب علي الجدة مريم أن تربى الأيتام جيلا بعد جيل، وبرغم أن شعبان غضب لخروج الطفل من داره إلا أن الجدة رفضت أن تتركه هناك، خشية أن يتسبب وجوده فى فشل تتحمل ابنتها نتيجته.

لم تتنبه الجدة مريم إلى أن حفيدها "قطب" عرف طريقه إلى الدار الكبيرة فى فترات انشغالها، وهكذا صار وهو لما يزل فى الثالثة أو الرابعة مرغوبا من أهل الدار الكبيرة، يكلفونه بأعمال تناسب سنه الصغيرة، كأن يساعد فى تبييت الدواجن فى أعشاشها أو الجرى وراء الأرانب للإمساك

بها، ومع مرور الوقت صار يعرف كيف يجمع البيض من الأعشاش أو من فوق أسطح الأفنية، حيث تختار الدواجن مخابئ لوضع البيض، وفى فترات الخصام الطويلة بين شكران زوجة يوسف وسُلَيْمَة زوجة سليمان صار هو الرسول الذى لا مفر منه بينهما، حتى تتواصل الحياة، وتعلم مع مرور الوقت كيف يوازن الأمور فى علاقته بالطرفين، وأن يبدو على الحياد برغم ميله لسُلَيْمَة، لكنه اجتهد ليخفى ميله، فوجود مليكة إلى جانب شكران جعل خصامها مع سُلَيْمَة أمرا محتملا، فحماتها تتواصل معها طوال الوقت، وهما معا تمثلان ضربة ساحقة لسُلَيْمَة، وكانتا فى أوقات الخصام تعزلانها وقتا يطول إلى حد ينبئ بأنه بلا نهاية، لذا فإن سُلَيْمَة بسبب ذلك عرفت الطريق إلى الحديث إلى نفسها، وحدث ذلك مرات عديدة فى وجود قطب، ومرة بعد مرة صارت تتحدث إليه هو الطفل عما يحزنها من أمور شكران ومليكة معها.

كل ذلك كان يجرى والجدة مريم غير منتبهة، وعندما يجن الليل تأخذ قطب بيديها لتنظفه، وتغير ملابسه ليذهب إلى النوم، فى دارها الملحقة بدار أبيها، والتى استقرت فيها بعد رحيل زوجها وزواج بناتها الواحدة تلو الأخرى، وكانت ابنتها الصغرى رئيفة قد بقيت فترة لم تطل كثيرا، ولما طلبها الشيخ عمر لنفسه أجابت طلبه.

لم تكن الجدة مريم لتدع حفيدها قطب يروح فى النوم دون أن يطلعها على مسار يومه، وعن طريقه كانت تعرف كثيرا مما يدور فى الدار الكبيرة.

فى غمرة احتدام الخلاف بين يوسف وسليمان تشاجرت شكران مع

سُلَيْمَة، واجتمع أهل الزوجتين من عزبة سرحان ومن الربع، وتردد اسم الطفل قطب فى أحاديث الزوجتين، وخشى الجميع أن يؤدى تردد اسمه إلى طرده من لدن جدته، و لم تجد الجدة بدا من أن تقاتل بشراسة لتخرج اليتيم من أحاديث الزوجتين المتناحرتين، ونجحت فى أن تنأى به عن الخلاف المحتدم، وكانت تلك هى المرة الأولى التى ضربته فيها بقسوة، حتى لا يزج بنفسه فى الخلاف الذى لا ينتهى بين المرأتين، وانكسر شىء جديد فى قلبها – وكانت العلل قد بدأت تسكنه – لما رأته ينزوى فى ركن بعيد ويبكى بكاء صامتا يقطع نياط القلوب، لم تعرف كيف تواسيه، أو تفهمه أنها قست عليه ليظل آمنا فى دارها، وقامت وأخذته فى حضنها، ولما فعلت صار البكاء الصامت نحيبا غريبا جعلها تجهش فى البكاء، وبدون أن تدرى امتدت يد الطفل لتربت على ظهرها، كان يواسيها، وانفجر فى بكاء مر لأنه أبكاها، وقبل أن تهدأ نهنهاته أخذت على نفسها عهدا بألا تعود لضربه أبدا، مهما حدث.

يدور كل هذا فى نفس الجدة مريم وهى تأخذ حفيدها فى حضنها، والدموع تَسَّاقَطُ من عينيها التى أصابها الوهن، كما أصاب قلبها وأعضاءها. لقد انقطعت أصوات الخارجين، وها هى تحدق فى الظلام فترى الركب يواصل المضى فى الطريق المتجه إلى الربع، ويطل من السديم وجه أخيها ببياضه الرائق المشرب بالحمرة، يمتطى بغلته البنية، وأمامه يحيى الصغير الذى لا يكاد ينطق أولى كلماته، وعلى المطايا مليكة تضج بالسعادة، وتتراقص فوق ملامحها المترهلة تعبيرات شتى، وكذا شكران التى قلبت كل شىء فى دار سيد احمد السرسى، رأسا على عقب، الدار

التى لم يعرف أحد شيئا من أسرارها على مدى عقود، وترى حسانين الضبع يرافق الخارجين، وتهدأ قليلا عندما تصل إلى هذا القدر من التخيل، ففى الغد ستعرف من حسانين حقيقة ما دار فى رحلة الخروج الغاضبة، والكلمات التى قالها يوسف أثناء الرحيل، ووصف الدار التى انتقل إلى الربع ليقيم فيها.

يبتعد الخارجون بقدر يسمح لهم بالالتفات إلى الوراء، ليروا ما إذا كان للعزبة أثر، من فوق بغلته التى تقاوم الزلق يقول يوسف لحسانين الضبع:

– فى ليلة كهذه خرج جدنا الأكبر من بلدنا البعيد سرس

ويجيبه الضبع:

– جدنا كان هاربا

ويسمح له الصمت أن يردف:

– إنه مجرد خلاف كان يمكن تسويته بالقليل من الصبر

ويراه لا يتكلم فيكمل بصوت خفيض:

– أسلمت أذنيك للنسوان

ويتصنع المرح:

– وعلى رأى أبى الله يرحمه، مشورة المرأة العاقلة تخرب الدار سنة، فكيف إذا كانت حمقاء؟!، أو كانتا اثنتين!؟

يحرص على ألا يصل صوته إلى مليكة وشكران، وشكران بالذات، فهى لا تكف عن الشجار مع زوجها، وهو الوحيد الشاهد على أنه طلقها

ذات مرة، وجلب واحدا من أبناء أم جمعة صاحبة الكُتَّاب الشهير ليردها إلى عصمته، ويغضب حديثه يوسف فينفعل:

– أنت من تقول هذا؟! أنت؟!

فيجيبه الضبع متحديا:

– نعم أنا الذى أقول هذا

ويمعن النظر فى قلب الليل:

– من غيرى يقوله إذا لم أفعل؟!

يسأله يوسف:

– والأرض التى سرقوها منى؟!

فيجيبه:

– لم يسرق أحد منك شيئا، هى أرض سيد أحمد السرسى، وهو ابن سيد أحمد السرسى مثلك.

مليكة تدرك أن حوارا غاضبا يدور فتسأل:

– ما الذى يقوله الضبع يا أبا يحيى؟

وحتى لا يحدث ما لا يحمد عقباه يجيبها يوسف:

– لا شيء يا أمى.

ويواصلون المضى فى قلب الليل، وعلى مشارف الربع يبرز لهم الأصهار والأخوال فيشاركون فى قيادة الركب إلى الدار الجديدة.

خـان الغـربـاء





وكانت الأمور فى عزبة أحمد السرسى قد تطورت إلى حد بعيد، صار الانقسام هو سمة الحياة فيها، وتباعدت المواقف، فدار سيد أحمد أمست منغلقة على نفسها، وبعيدة عما يدور فى بيوت السراسوة الآخرين، الذين تطحنهم الأزمة وتفقرهم.

إنجلترا وعدت بالجلاء عن مصر، لكن كل ذى عينين كان يدرك أن الانجليز يستخفون بالمصريين، ويفترضون أن مصر من أملاك امبراطوريتهم، ولا يصدق أحد أن انجلترا ستتخلى فى أى زمن منظور عن بوابة امبراطوريتها فى آسيا وأفريقيا.

وفى عام 1904 انعقد الاتفاق بين انجلترا ممثلة فى وزير خارجيتها سايكس وفرنسا ممثلة فى وزير خارجيتها بيكو، وبموجب هذا الاتفاق تخلت فرنسا عن حقوقها المزعومة ومصالحها فى مصر، وعن الإصرار على تحديد فترة الاحتلال الانجليزى مقابل تخلى انجلترا عن حقوقها المزعومة ومصالحها فى مراكش، وضمنت انجلترا بذلك احتلالا لمصر دون منغصات أوروبية، وتوافد على مصر نفر من عتاة الاستعماريين الانجليز

الذين يعتبرون أن المصريين عنصر بشرى تابع وخاضع وذليل بطبيعته، وذلك بعكس العنصر الأنجلو سكسونى الذى يعتبر جنسا حاكما، وأن إنفاق أى نقود على تعليم المصريين حتى عند مستوى الحد الأدنى منه هو تبذير خطير للأموال، إذ لا فائدة من تدريبهم على إدارة شئونهم بأنفسهم، لذا فإن اللورد كرومر المندوب السامى الانجليزى ألغى وبكل حسم أية بادرة لتقديم تعليم مجانى فى المدارس القليلة القائمة، وفى المدارس العليا، وجعلت سياسته التعليم بصفة عامة والعالى منه بصفة خاصة بمثابة التفوق الذى يتميز به الأغنياء، وعارض بشدة الاقتراحات بإنشاء جامعة فى مصر، إذ فضلا عما سبق كان يخشى أن تفجر الجامعة الروح الوطنية الخطرة.

ترتب على تلك السياسة العنصرية أن أحجم الانجليز حتى عن فرض الثقافة الانجليزية على مصر، بعكس ما فعلته فرنسا مع مستعمراتها فى شمال إفريقيا، وكان كرومر يرى أن تحويل المصريين إلى انجليز زائفين لن يأتى بأية نتيجة مرجوة، بل إنه كان يحتقر المصريين القلائل الذين تمكنوا من الحصول على تعليم فى الجامعات الأوروبية واتخذوا الطابع الأوروبى، لكنه لم يتدخل فى نظام التعليم الإسلامى المتمثل فى الكتاتيب الملحقة بالمساجد، فالإسلام كنظام اجتماعى تقدمى – فى رأيه – نظام فاشل للغاية؛ ومصر تحت ظله لن تصبح أبدا مجتمعا متحضرا.

ولضمان تسديد ديون الخديوى إسماعيل التى يستهلك قسطها السنوى نصف إيرادات مصر أسهم الانجليز فى إصلاح السدود والترع التى شيدت فى عهد محمد على باشا وإسماعيل، وتوسعوا فى تحسين نظام الرى، وتوجوا أعمالهم بإنشاء سد جديد عند أسوان وفر كميات كبيرة

من الماء جعلت تدفقه فى النيل منتظما ما بين موسم الفيضان وباقى شهور السنة، ونتيجة لذلك تحسنت إلى حد ما إنتاجية الأرض.

لكن ذلك لم يجد نفعا، فلقد غرق الفلاحون فى الديون، وتركزت الثروة أكثر وأكثر فى أيدى كبار ملاك الأراضى، وأدرك الناس أن كرومر يخطط لجعل مصر مزرعة للقطن الرخيص اللازم لمحالج القطن فى لانكشاير، وصار واحد بالمائة من الناس معظمهم من الأجانب يمتلكون فوق الأربعين بالمائة من مجموع مساحة الأرض الزراعية فى مصر، فيما أكثر من ستين بالمائة من المصريين لا يملكون فى بلدهم شبرا واحدا.

كان الخديوى توفيق الذى وضعه الإنجليز على كرسى الحكم فى مصر خلفا لأبيه المعزول إسماعيل مجرد ألعوبة فى يد الإنجليز، وكان هو والطبقة التركية الجركسية الحاكمة ممن يرحبون بالاستعمار الانجليزى سعداء باستعادة سيطرتهم الشكلية على شكل الحياة فى البلاد، وسعداء بالسياسات الاستعمارية التى راكمت الثروات فى أيديهم، وأدت إلى المزيد من إفقار الناس، ولما توفى توفيق فى العام 1892 تولى من بعده ابنه عباس حلمى، وبرغم صغر سنه حاول تأكيد ذاته، فاعترض على اختيار الانجليز للوزراء، وانتقد مستوى تسليح وتدريب الجيش على يد الانجليز، وتزامن توليه الحكم مع تأجج المشاعر الوطنية التى استشرت عقب انهيار ثورة عرابى.

تصور عباس حلمى أنه إذ يقود تحديا للحكم الانجليزى للبلاد لا بد سيحصل على معاونة ودعم استانبول، فمصر لا تزال ولو من الناحية الإسمية تتبع الدولة العثمانية، لكن السلطان عبد الحميد خذله كالمعتاد،

فلم يكن على استعداد لأن يعرض علاقته مع انجلترا والدول الأوروبية الأخرى للخطر من أجل واحدة من الولايات، حتى ولو كانت مصر، لذا فإن الاستعمارى العتيد كرومر لم يكن يشعر بأى قلق من جراء تحركات الخديوى الشاب.

قصمت حملة إعادة غزو السودان بقوات مصرية انجليزية ظهر مالية مصر، تحملت الخزانة المصرية نفقات الحملة بالكامل، ووقعت النهضة الوطنية المصرية وهى بصدد مناهضة الاحتلال الانجليزى فى خلط أصاب الحركة الوطنية المصرية بالاضطراب، فمصطفى كامل ورفاقه كانوا من أنصار الجامعة الإسلامية التى تتعارض مع فكرة الاستقلال الوطنى، فيما المعتدلون ومن بينهم محمد عبده وسعد زغلول كانوا متهمين بالتعاون مع كرومر وسلطات الاحتلال.

أصابت لعنة حادثة دنشواى(*) فى العام 1906 كل من اقترب منها،

(*) دنشواى قرية مصرية تقع فى مديرية المنوفية، وفى موسم حصاد القمح كان نفر من ضباط الاحتلال الانجليزى يصطادون الحمام فى محيط القرية وأجرانها، وانطلقت من بندقية أحدهم رصاصة أصابت سيدة مصرية وأردتها قتيلة، وأصيب الضباط الانجليز بالذعر ففروا من القرية خشية انتقام أهلها، ولأن الوقت كان صيفا سقط أحدهم مصابا بضربة شمس، ولفظ أنفاسه بين يدى أحد الفلاحين كان يحاول إنقاذه، واتهم بعض من أهل القرية بقتله، وجرت محاكمة المتهمين فى محكمة مخصوصة ترأسها بطرس غالى باشا، وكان فتحى زغلول شقيق سعد زغلول باشا أحد قضاتها، ومثل الادعاء المحامى الشهير إبراهيم بك الهلباوى، وقضت المحكمة بإعدام البعض وسجن وجلد الباقين، ونصبت المشانق فى أحد الأجران، وتم تنفيذ حكم الإعدام والجلد على مرأى من أهل القرية جميعا، وكانت تلك الحادثة سببا فى تأجيج المشاعر الوطنية وفضح ممارسات الاحتلال الانجليزى لمصر، وقاد الاحتجاجات الزعيم الوطنى والمحامى الشاب مصطفى كامل باشا.

رحل كرومر عن مصر، واعتزل الحياة العامة لما فضحته الصحافة الأوروبية، والتهب الشعور الوطنى المصرى ضده، واغتال شاب وطنى بطرس غالى رئيس الوزراء الذى ترأس محكمة دنشواى وقضى بإعدام بعض الفلاحين المتهمين وجلد بعضهم الآخر، ولم تفلح محاولات جورست الذى خلف كرومر فى إصلاح الأمور فاضطر لمغادرة مصر فى العام 1911، وخلفه كيتشنر فعمل على تهميش دور الخديوى عباس وبعثرة الوطنيين المصريين، لكنه كون هيئة تشريعية منتخبة جزئيا، وأعطاها بعض السلطات التى تتعلق بفرض الضرائب والحق فى استجواب الوزراء، وهى الجمعية التشريعية التى انتخب سعد زغلول باشا وكيلا لها، حيث قاد نشاطا برلمانيا ظاهرا، ووجه انتقادات حادة للوزراء ولأداء الحكومة، ووضع اندلاع الحرب العالمية الأولى نهاية سريعة لتلك المارسة المؤقتة للحكم الدستورى فى مصر.

كلنا يعرف أن تركيا انضمت لألمانيا فى الحرب فأعطت مبررا لأن تعلن بريطانيا الحماية على مصر، وتزيل السيادة العثمانية الإسمية عليها، وكان الخديوى عباس حلمى فى رحلة إلى أوروبا فتم إبلاغه بالتنازل عن العرش، وأحل الانجليز عمه حسين كامل الطاعن فى السن محله، وتم منحه لقب سلطان، لكنه سرعان ما رحل عن الدنيا فى العام 1917 فأحل الانجليز محله أخوه الأصغر أحمد فؤاد، الذى تلقى تعليمه فى إيطاليا حيث كان يعيش هناك فى المنفى مع والده الخديوى إسماعيل.

اختيار أحمد فؤاد تم برغم أنه لم يكن يخفى عدم تعاطفه مع مصر ومشكلاتها، ولم يكن يعرف شيئا ذا قيمة عن اللغة التى يتحدث بها سكان البلاد التى سيجلس على عرشها.

فى الحرب العالمية الأولى فرض الانجليز على مصر أن تساعد فى أعمال الدفاع عن قناة السويس ضد الهجوم التركى عليها، وعمل ما يزيد على عشرين ألف مصرى فى عمليات النقل التى تتم على ظهور الجمال والدواب، وفى فرق العمل فى فلسطين وفرنسا، وتكبدت مصر خسائر بشرية هائلة.

أراد الانجليز الشر بمصر، لكن الأحداث تجاوزت إرادتهم، رأوا أنه يتعذر وضع تعريف للمصرى الحقيقى، وكما كان يدعى كرومر فإن مصر دولة يتعذر تصنيفها، وإذا قدر لها أن تحظى بهيئة للحكم الذاتى ينبغى أن يكون لكافة الجاليات الموجودة بها تمثيل فى تلك الهيئة، كالإيطاليين واليونانيين والمالطيين وغيرهم ممن يشاركون فى معظم الثروة فيها، بغض النظر عن أعدادهم الضئيلة للغاية، بل إن المستشار القانونى البريطانى قدم أثناء الحرب العالمية الأولى اقتراحا بدستور ينص على منح المستشارين الانجليز والجاليات الأجنبية سيطرة دائمة على كافة التشريعات، لكن الروح الوطنية المصرية التى تم كبتها أثناء الحرب العالمية الأولى تفجرت بقوة عقب انتهائها، وأصبح وجود الأمة المصرية أمرا لا يمكن تجاهله.

فى تلك الأجواء خرج يوسف السرسى بأسرته من عزبة أبيه وجده إلى حيث أصهاره وأخواله فى قرية الربع، وبخروجه صارت الحياة فى الدار الكبيرة جد مختلفة، كأنما ترقبت الأحداث رحيل يوسف لتنطلق فى مسار جديد، فلقد خلت الدار من المنغصات، هكذا رأى سليمان، وهكذا رأت سليمة، ولم يعد قطب الصغير يجد نفسه مشدودا إلى اتجاهين متضادين، إتجاه سليمة واتجاه شكران، فكل شىء صار يدفع إلى اتجاه واحد، هو اتجاه

سُلَيْمَة، صار عونا لها فى الكثير من الأمور، ونتيجة لملازمته الدار الكبيرة توطدت علاقته بأبنائها، وعلى الأخص الابن الأكبر حمدان، وعن طريقه بدأ فى تعلم القراءة والكتابة.

فى واحدة من مرات وجودها فى الدار الكبيرة رأت الجدة مريم ما جعلها تتخذ قرارا بألا يتناول حفيدها قطب الطعام فى الدار الكبيرة تحت أى ظرف، ففى ذلك اليوم دخلت الدار وقت العصر لشأن ما فوجدتهم يضعون الطعام فوق المائدة ويقبلون عليه بنهم، على طريقته دعاها سليمان:

– شاركينا الطعام يا مريم

شكرت له عرضه وهى ماضية فى البحث عن غرضها، ووصلت إلى الفناء فوجدت "قطب" قابعا فى أحد الأركان، يتناول طعاما وضعوه له هناك. عندما رأته ارتسمت فوق ملامحه ابتسامة باهتة، حملت كل معانى اليتم والخجل، وأحدثت تلك الابتسامة أثرها فى قلبها، وانقلبت عائدة دون أن تستوفى غرضها.

فى ذلك اليوم البعيد أخذت قرارا بألا يتناول حفيدها طعامه لدى ابن أخيها فى الدار الكبيرة، مهما كان الأمر، لم يكن بوسعها أن تضرب الطفل أو تعنفه، فنحيبه الصامت يشرخ صدرها ويفتت ما تبقى من قلبها، ونظرات عينيه اليتيمتين المنكسرتين تحطم مقاومتها على الصمود، لذا فإنها ظلت بقية اليوم تتناول النشوق المرة بعد المرة ليعينها على تدبر أمرها، وكانت قد أقبلت على تعاطيه قبل سنوات حتى أدمنته، و لم تعد تستطيع

أن تستغنى عنه، وصار "حُقّ النُشوق" ضيفا ملازما جلبابها، حتى أن الخياطة التى تخيط ملابسها كانت تختصها بجيب مخصوص له فى كل ملابسها، وفى روحاتهم إلى مدينة السنبلاوين كان السراسوة يجلبون لها المزيد والمزيد من تلك الأحقاق، حتى لا تفاجأ بنفاذه.

فضلت أن تتحدث إلى حفيدها ولا تنهره، كان بسببيله للذهاب إلى النوم عندما طلبت منه أن يجيئها بحق النشوق لتتناول بعضا منه، مد الطفل لها يده بالحق فقبضت عليها، جفل وحاول العودة إلى الوراء، ظنه أنها ستعاقبه، مثلما فعلت فى مرة سابقة، لكن ابتسامة عينيها ولهجتها الشفيقة حدثته بعكس ما يظن فاستسلم ليدها، أجلسته إلى جوارها:

– قل لى يا قطب

أجاب متهيبا:

– نعم يا جدتى

– من وضع لك الطعام فى وسط الدار؟

بعد تردد قال:

– زوجة خالى

واصلت:

– سُلَيْمَة؟

أومأ برأسه أن نعم، وبعد طول صمت اتجهت إليه بكليتها:

– انظر يا قطب

لحظات ترقب وأردفت:

– أنا جدتك وأنت تحبنى أليس كذلك؟

كاد الطفل يبكى، فكلما تحدثت معه على هذا النحو تنتهى بأن تأمره بما يؤلمه، فهو يعرفها كما يعرف كل شق فى الدار الكبيرة، ولما أعادت عليه السؤال أومأ برأسه مصدقا، ووجدها تقول:

– إذا كنت تحبنى حقا لا تتناول أى طعام فى دار خالك سليمان

وبدون أن تنتظر إجابته انطلقت تؤكد:

– لا تضطرنى إلى منعك من الذهاب إلى هناك، فقط لا أريدك أن تتناول أى طعام هناك، وسأترك لك طعاما كثيرا هنا، فى هذه الخزانة

وأشارت إلى خزانة خشبية تقبع فى الصالة الصغيرة لدارها، وواصلت:

– كل الطعام الذى تحبه سأضعه هنا، فإذا كنت موجودة سأضعه لك بنفسى

ونظرت فى عمق عينيه:

– وإذا لم أكن موجودة تأتى به أنت

وانتظرت برهة لترى أثر حديثها فيه ثم سألته:

– هل تفعل هذا لخاطرى؟

أجابها بشىء من التردد:

– نعم يا جدتى

أخذته في صدرها وراحت تمسح على رأسه، وقبل أن يروح في النوم وجدها تقول:

– لا تقل لأحد إني طلبت منك هذا

ثم وهي تخمش بحنو ظهره الصغير:

– وإذا عرضوا عليك الطعام قل إنك أكلت قبل ذهابك إلى هناك

لكنه كان في طريقه إلى السقوط في بحيرة الأحلام، وخرجت موافقته في صورة شهيق أعقبه زفير طويل يمهد للانخراط في النوم.

لأنها خشيت أن ينسى ما تحدثت به إليه قبل استغراقه في النوم أعادته عليه في الصباح، لا تعرف أن نفس اليتيم لا تنسى اللوعة التي تتركها قسوة الآخرين معه، أو حتى عدم الاكتراث.

لكنه أفشى السر لسليمة في اليوم نفسه، فعندما قدمت إليه الطعام ورفض تناوله استدرجته لتعرف سره، فأخبرها بما دار بينه وبين جدته، ولما استيقظ زوجها عند الظهر لم تنتظر حتى يفرغ من فطوره وشكت إليه تصرف عمته، وأخذ سليمان وهو يتناول فطوره يقلب الأمر على مختلف جوانبه، فتلك أول مرة تفعل فيها عمته ذلك، وكان كما عودته منذ طفولته يناديها باسمها المجرد، وتذكر ما حدث بالأمس، عندما دخلت عليهم وهم يتناولون طعام الغذاء، و لم يشك لحظة في أنها رأت "قطب" يتناول طعامه في الفناء، ولا بد أن ذلك الموقف هو السبب، وعزم على ألا يدع الأمر يمر مرور الكرام.

فاجأها وهي جالسة في حجرتها، كانت قد استنشقت لتوها قدرا

من النشوق، و لم تمسح أنفها من آثاره العالقة به، ولما سمعته ينادى من خارج الدار دعته للدخول، فلابد أن أمرا خطيرا هو الذى يدفعه إلى الالتجاء إليها، آخر شيء توقعته أن يكون قطب قد نقض عهده معها. مرت براحتها لتسوى مكانا لسليمان فى فرشتها يجلس إليه لكنه ظل واقفا، كان غاضبا وهو يسأل:

– أصحيح يا مريم أنك أمرت "قطب" بألا يتناول طعاما فى دارى؟!.

وصعقت، إلا أنها سرعان ما تمالكت، وأجابت فى هدوء:

– نعم

عاد للسؤال:

– هل أعرف لماذا؟!.

رفعت وجهها متحدية:

– بدون أسباب يا ابن أخى

وقف متحيرا، لا يعرف كيف يخرج من الموقف، وفضل أن يستدير عائدا، لكنه عند الباب التفت إليها، ورأى أن يقول:

– أنا بنفسى وليس أحد غيرى من رأى أن يتناول الولد طعامه بمفرده.

وصمت برهة ليرى أثر حديثه فى نفسها، ولما لم يهتد إلى يقين أكمل:

– قلت إن هذا يرفع عنه الحرج ويجنبه الخجل فيأخذ كفايته من الطعام.

وانقلب عائدا إلى الدار الكبيرة، دون أن يستوثق من أثر حديثه فى نفسها.

أمور كثيرة زلزلت كيان عزبة أحمد السرسى عقب خروج يوسف إلى الربع، ففى ضحى أحد الأيام أفاق السراسوة على قدوم رجال يرتدون ملابس أفرنجية وطرابيش إلى العزبة، وسألوا عن دار الشيخ سليمان السرسى.

الوقت كان مبكرا، وسليمان لم يستيقظ بعد. قادهم أحد العمال إلى مندرة الضيوف بعد أن فتح النوافذ عن آخرها. وكان سليمان قد قضى ليلة ساهرة صحبة أصدقائه، قضوا الليل يتسامرون، ويتدارسون ما أوردته الصحف من تحركات يقودها سعد زغلول باشا ورفاقه.

الحرب العالمية الأولى كانت قد وضعت أوزارها، والرئيس الأمريكى ويلسون أعلن مبادئه الأربعة عشر للصلح وإنشاء عالم جديد، ولم تكن مصر لتتخلف عن المطالبة بحقها فى الاستقلال، فلقد ذهبت أدراج الرياح وعود الانجليز بإعطائها الاستقلال، حتى برغم ما قدمته مصر لهم فى الحرب، لذا اجتمع سعد زغلول باشا وعدد من رفاقه واتفقوا على أن يتوجهوا إلى دار السفارة الانجليزية للمطالبة بتمكينهم من السفر إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح، الذى تقرر انعقاده لوضع نظام عالمى لما بعد الحرب، مستبشرين بما أعلنه الرئيس ويلسون فى مبادئه من إعطاء الشعوب الحق فى تقرير المصير.

رفض المندوب السامى البريطانى أن يقابلهم، وأمام إصرارهم اضطر

لمقابلتهم، وادعى أن مصر لا تتوافر فيها مقومات الدولة الحديثة، لذا فهى غير مؤهلة لحكم نفسها، ولما أعلنوه بأن مصر بلد قديم، أقدم من انجلترا نفسها، أنكر عليهم نيابتهم عن الشعب، وطالبهم بتقديم الدليل على أنهم دون غيرهم الممثلون له فانصرفوا من دار السفارة يحملون تصميما لا يلين على إكمال ما بدأوه.

الجريدة التى يواظب سليمان السرسى على الحصول عليها أوردت أن ذهن القادة تفتق عن مخرج من مأزق الدليل على نيابتهم ووكالتهم عن الشعب، تمثل فى جمع توكيلات من أبناء الشعب للنيابة عنهم وتمثيلهم أمام مؤتمر الصلح للمطالبة باستقلال البلاد، وطوال الليلة الفائتة كان يتدارس مع الأصدقاء كل هذا، واتفقوا على أن يبدأوا من غدهم فى البحث عن طريق للاتصال بمن يتولون هذا الأمر للانخراط فيه.

لكن المنظمين لحملة التوكيلات سبقوهم، فها هم رجال سعد زغلول باشا ينتظرون فى المندرة الملحقة بالدار الكبيرة لمقابلته، فى البدء لم يستطع أن يخمن من هؤلاء الضيوف، وما سبب سؤالهم عنه، ظنه أنهم ربما يكونون من رجال الإدارة، جاءوا لأغراض من نوع قياس جديد للأراضى أو شق ترعة جديدة، أو حتى تنظيم حملة للتعفير وتطهير المنازل وقاية من الأوبئة المنتشرة، وعندما أقبل عليهم مرتديا قفطانه المقصب وواضعا طربوشه فوق رأسه عرف منهم هاشم ابن حفظى أفندى، باشكاتب المديرية السابق والمالك الذى تجاور أراضيه عزبتهم، والذى باعه عمه يوسف أرضه، وكان قد التقاه من قبل فى مناسبات عديدة، وقبل أن تنتهى أحاديث الترحيب أعلن الضيوف أنهم فى عجلة من أمرهم.

قلبه كاد يتوقف من الفرح وهم يعلنونه بأنهم يوكلون إليه مع ستة من رفاقه على مستوى مديرية الدقهلية أمر تشكيل لجان للحصول على توكيلات من الناس لسعد باشا ورفاقه، ويطلبون منه التوقيع على أوراق معهم تفيد قبوله المهمة، و لم يكن سليمان ليدع أمرا كهذا يمر دون دعوة أصدقائه للاشتراك فيه، واستمهل الضيوف ساعات ليقابلوا رفاقه فاعتذروا بضيق الوقت، لكنه أقسم بأغلظ الأيمان ألا يبرحوا داره إلا بعد تناول الطعام، وقبل أن يكمل قسمه كان فناء الدار الكبيرة مشغولا بذبح الدواجن وأفراخ الحمام تمهيدا لإعداد الطعام، وجهزت الركائب وانطلقت إلى البلاد المجاورة لدعوة الأصدقاء والرفاق ليوافوه على الغذاء، وأرسل فى طلب صديقه حسانين الضبع، حيث طلب منه التوجه إلى الربع، ولا يعود إلا وبصحبته عمه يوسف.

أشياء كثيرة ربطت فى ذلك الضحى البعيد بين سليمان السرسى وضيوفه وعلى الرأس منهم هاشم أفندى حفظى، وفى فناء الدار الكبيرة مضوا فى إعداد الطعام دون أن يستشيروا الجدة مريم فى أى شىء، ومن خلال وجودها فى دارها المطلة على الدار الكبيرة اجتهدت لتنظر بعينيها الكليلتين عمال ابن أخيها وهم يروحون ويجيئون، ونساء الفلاحين الذين يساعدون فى إعداد الطعام، واشتعل فى صدرها حريق أصاب كل جزء منها بالحسرة، حسرة تكاد تزهق الروح، و لم يكن قطب هناك ليخبرها بما يدور، وسر الاهتمام الذى يبدو على الجميع، حتى عمال الحظائر ونساء الأجراء، فلقد رافق قطب حسانين الضبع فى مشواره العاجل إلى الربع، أردفه الضبع وراءه على المطية وانطلق إلى هناك، و لم يرد قطب أن يخبر

جدته حتى لا تمنعه. كان الفضول يأكله، فهو منذ رحل خاله يوسف السرسى لم يذهب إلى دارهم الجديدة هناك مرة واحدة.

كل شيء حدث فى ذلك النهار البعيد سطرته الذاكرة فى سجلات التاريخ الأسرى المروى، اجتمع فى دار سليمان السرسى كل رؤساء العائلات فى المنطقة المحيطة، وبعض العمد، كما تكالب الناس على العزبة من كل مكان، منهم من لحق بالطعام والأكثر لم يلحق به، لكنهم سهروا حتى صباح اليوم التالى يبحثون تنظيم جمع التوكيلات فى تلك البقعة الواقعة فى شرق الدلتا، وقدم سليمان عمه إلى ضيوفه قائلا:

- عمى الشيخ يوسف السرسى

وتندروا جميعا، إذ العم أصغر من ابن الأخ بما يقارب العقد من الزمان، لكن طريقة التقديم أعجبت يوسف فبالغ فى الاهتمام بضيوف ابن أخيه، وقال المتطفلون إن سليمان كعادة أبناء سيد احمد السرسى تمكن من جمع شمل أسرته بأقل مجهود.

لم يدع سليمان لذلك الاجتماع أحدا من أخواله، وتوجه الشيخ عمر إلى أخيه الأكبر الشيخ زكريا يسأله إن كان يعرف شيئا عما يدور فى دار ابن أختهم فأسدى إليه الشيخ زكريا النصح:

- أردب ما هولك ما تحضر كيله، تتعفر دقنك وتتعب فى شيله.

ولم يعجب الحديث الشيخ عمر، فرئيفة زوجته الجديدة التى لحظت ما يدور فى العزبة، والأقدام المسرعة التى لا تترك على الأرض علامة، رأت أن تخطف رجليها لترى إن كانت أمها مشتركة فى إعداد تلك الوليمة،

وعندما وصلت وجدتها حبيسة دارها، عازفة حتى عن تناول جرعة الظهيرة من النشوق، وهناك عرفت أنهم تجاهلوها بطريقة مهينة، وعبثا حاولت أن تصطحبها لتقضى اليوم لديها، لكنها رفضت، وأمام إلحاحها كادت أن تطردها من الدار، ولما لم تجد رئيفة فائدة من إلحاحها انقلبت عائدة إلى دارها والدموع تملأ عينيها.

تعرف أن ما يقتل أمها هو تجاهل سليمان ابن أخيها لها، والذى وضح جليا منذ غادر يوسف إلى الربع، فكأنهم كانوا فى حاجة إليها لكسب الحرب ضد يوسف وأمه وزوجته المتمردة، ولما تحقق لهم ما أرادوا وخرج يوسف من العزبة لم يعودوا فى حاجة إليها، وكانت الجدة مريم دائمة الانتقاد لطريقة سُلَيْمَة زوجة سليمان فى إعداد الطعام، فهى سليلة قبيلة بدوية لا تجيد من الطهى إلا الأكلات البسيطة على طريقة الأعراب، أما هى فإنها فى مضمار الطعام لا تضارع، لكنهم تجاهلوها، وكدأب ابن أخيها الذى فضلته دوما على بناتها وقدمته عليهن لم يفكر فى أن يستعين بها فى إعداد الولائم التى لا تفرغ منها داره، ولم تكن لتظن أنه يتعمد تجاهلها، وأرجعت ذلك فى البداية إلى كثرة انشغاله وإقباله على الحياة، لكنها فى هذا اليوم بالذات أدركت أنه يتعمد ذلك، كما لو أنه يبلغها بطريقته بأن دورها فى حياته قد انتهى.

العزاء الذى حدث فى ذلك اليوم هو زيارة أخيها يوسف لدارها، ففيما هى منكفئة على نفسها فوجئت به فوق رأسها، بعوده الفارع وقامته الجميلة، ووجهه الصبوح الذى يضج بالحياة، وعينيه الزرقاوين كبحيرة

صافية، لم ينتظر لتنهض لملاقاته وانحنى يقبل رأسها، ولما استكانت لذراعيه القويتين جلس إلى جوارها، كانت تجلس فوق أريكة موضوعة أسفل نافذة تطل على الدار الكبيرة، وعرف يوسف أنها تراقب ما يدور هناك، ومن خلال الصمت الذى فرضته عليه اكتفى بالنظر من خلال النافذة المشرعة هوالآخر، كم هو مؤلم أن تنظر من خلال نافذة مشرعة إلى أناس يتجاهلونك!!، هذا ما قاله لنفسه وهو يضم بذراعه الفتية كتفيها الهزيلين، يا ألله!، كم هزلت مريم!، إلى حد أنه سمع وهو يضمها طقطقات عظامها، وكم تغيرت ملامحها التى كانت فتية ذات يوم!.

يتمنى أن يحدثها بما تحبه، لكنه اضطر لأن يفضفض معها كما اعتاد وهو ساكن فى الدار الكبيرة، باح لها بأحزانه، فطفله يحيى مصاب بشلل فى إحدى ساقيه، وفيما تنمو الأخرى تتخلف المصابة عن النمو، فكأنها جنين قدم، وأخبرها بأن شكران حامل، وأنه يتوقع ولادة طفله الجديد بين لحظة وأخرى، لكنها كعادتها لاتكف عن الشجار والمشاكسة، ولمحت الجدة مريم فى كلماته نبرة ضيق تنذر بأنه ربما لا يتحملها إلى ما لا نهاية، وعادت إلى واقعها وهو يسألها عن أحوالها فأجابته بحيدة حتى لا تؤلمه، فهى على يقين من أنها أساءت إليه، عندما لم تسترضه قبل أن تفعل بأرضه ما فعلت، لكنه عزف عن الحديث فى أمور بعينها، يكفى أنه يعود إلى دار أبيه ضيفا، وهو يتعمد المجيئ إلى هنا حتى لا تنقطع صلته بابن أخيه الذى هو فى مقام أخيه الأكبر، إذ هما فى النهاية ابنا سيد احمد السرسى، الرجل الذى لا يحمل له أية ذكرى، ولا يعرف حتى كيف كانت ملامحه.

قبل أن ينصرف دخل عليهم الشيخ عمر ورئيفة، وكانت بطنها تشير إلى حملها، وخطواتها تشى بقرب الولادة، وبعد أن سلم عليهما عابثها بقوله:

- إذن سيشرفنا مولودك قريبا يا رئيفة

فأجابته وهى مملوءة بالخجل:

- إن شاء الله يا خالى

رئيفة كأمها تعرف أنه خرج غاضبا، وأنه يحمل فى داخله روح أبيه، وقدرته على تجاوز الأمور بسرعة، بل وطريقته فى تجاهل الخلافات والتعامل مع الجوانب الحسنة فى الآخرين، والروح العملية المحضة التى تجعله يتجاوز عن السيئات ولا يحيد عن الهدف الذى يصبو إليه، وكان الشيخ عمر شغوفا بلقائه، فهو منذ رحل إلى الربع لم يره مرة واحدة، لكنهما اكتفيا بالسلام كابنى عم وتحدثا فى الأمور العامة، و لم يتطرقا إلى ما كان، ولا إلى ما دعاه للحضور إلى الدار الكبيرة فى هذا اليوم، وطوفا بالأحوال كعادة الأقارب عندما يتحاشون الانغماس فى مسائل يعرفون كم هى مؤلمة.

الشيخ عمر لم يكن مجرد زوج لرئيفة الابنة الصغرى للجدة مريم، قبل أى شيء هو ابن عم الجدة، وخاض معها حروبا ضارية، مع العبادى صقر وابنه، وفى محنة الاتهام بالقتل والتمرد، وفى المحاكمة التى لما تزل آثارها تطن فى الآذان، وأخيرا فى حرب حريق العزبة التى خاضتها مع زوجها المرحوم يونس الراوى، وفى النهاية حرب تزويج أبيها لينجب ولدا يمتنع

بوجوده ميراث الأعمام. فى كل تلك الظروف اقتربا من بعضهما البعض، أعجبها فيه طيبته وعقله، ودأبه فى رأب أى صدع فى علاقته بالآخرين، ولما طلب يد ابنتها وأبناؤه من زوجته الأولى يماثلونها فى العمر لم تتردد لحظة فى الموافقة، لم تكن لترد كلمة أقرب ابناء أعمامها إلى قلبها، ومن يوم زواج رئيفة منه قرت عيناها، فلقد واكب ذلك اندلاع الحرب فى دار سيد احمد السرسى، وكانت فى أمس الحاجة إلى سماع رأيه، لكنها لم تعمل بمشورته، فلقد نصحها بأن تسترد أرضها التى أعطتها لسليمان طالما اتجهت إلى قسمة أرض أبيها بين ولديه، وأشار إلى قطب يتيم ابنتها سكينة وقال:

- هذا اليتيم أولى بنصيبه من تلك الأرض

كانت تريد من يصادقها على ما فعلت، إذ لم تكن فى حال تسمح بخوض معركة من نوع جديد، فالأرض التى منحتها لابن أخيها دخلت ضمن حدود أرضه بالفعل، وشب الفتى وتزوج ومارس على الأرض كل حقوق الملكية، كيف لها إذن أن تستردها، أو تطالب باستردادها هكذا وبدون تمهيد؟!، هى فى حاجة إلى بعض الوقت لاستردادها، وإلا فقطيعة نهائية ستقع بينها وبين ابن أخيها، وهى التى أنفقت حياتها من أجله.

لم يحدث انصراف يوسف وعودته إلى الدار الكبيرة أى فارق، فلقد انغمست رئيفة فى ترتيب دار أمها، وعبثا حاولت الجدة مريم أن تثنيها عن ذلك، لكن الإبنة الدؤوبة رفضت إلحاحها، واستمرت فى العمل وكأنها ليست على وشك الولادة، فيما الشيخ عمر جالس إلى جوارها على الأريكة أسفل النافذة المطلة على الدار الكبيرة، يتبادل معها الحديث

وينظر هو الآخر إلى ما يدور هناك، قصده ألا يتركها تواجه قطيعة يعلم أنها لا تستطيع أن تواجهها وحدها، فإذا استطاع أن يستدرجها للحديث فإنه يكون قد قطع شوطا فى سبيل التسرية عنها، من أجل هذا بادرها بالسؤال:

– لو دخل علينا سليمان الآن فماذا أنت فاعلة يا أم أبيك؟!.

كان يعابثها من جهة، ويفتح الجرح على اتساعه من جهة، عله يلتئم على نظافة، وأشاحت بوجهها بعيدا، لا تريد أن تسير فى الطريق الذى يأخذها إليه، و لم يكن ليدع الفرصة تمر فأردف:

– سيقول لك: هؤلاء الناس الذين يجلسون فى المندرة ياعمتى رجال سعد زغلول باشا، ويريدوننى لأرافقهم فى جولة تشمل أركان المديرية الأربعة، من المنزلة حتى المحلة الكبيرة، ومن البحر الكبير حتى بنها العسل، ولقد جئت لأودعك.

كانت مغتاظة إلى درجة تمنت فيها لو أنها عادت إلى الأيام الخوالى، إذن لعنفته، لكنها حافظت على هدوئها فيما هو على يقين من أن داخلها يغلى، و لم يجد بدا من أن ينهى حديثه بقبلة شفيقة فوق رأسها، وشعر بالسخونة تخرج منها كأنها مرجل، وبدلا من أن تشارك الشيخ عمر حديثه راحت تتوعد "قطب"، الذى لم تره منذ قدم هؤلاء الرجال الذين يقبعون فى المندرة الكبيرة، لا تعرف أنه بعد عودته من الربع بقى عند الدار الكبيرة مع الأطفال الذين من سنه والأكبر منه، بل ومع الرجال الذين يسترقون السمع إلى الأحاديث التى تدور فى المندرة، ويتلصصون على هؤلاء الذين يرتدون ملابس غريبة، ويتحدثون بلهجة رقيقة، لا تمت للمكان بصلة،

وقد يصل الأمر إلى تناوب التلصص حتى لا ينكشف أمرهم وتنالهم ضربة من خيزرانة أحدهم، فهى تؤلم كأنها الكرباج، ولكنها فى الحقيقة أرحم من قرصة الأذن بأصابع حسانين الضبع.

أيام كثيرة مرت وسليمان يرافق الرجال الذين زاروه فى ضحى ذلك اليوم، وعبثا حاولت مريم أن تتسقط أخباره، لكن سُلَيْمَة التى جاءتها الفرصة لتتخلص من نفوذها إلى الأبد لم تكن لتفلتها، حتى ولو تصرفت معها على غير ما تهوى، وطالما أن "قطب" الصغير يتردد على الدار الكبيرة من وراء ظهر جدته، بل ويتناول الطعام الذى تقدمه له، ويضطر إلى تناول ما تقدمه له جدته فى دارها حتى لا ينكشف أمره، فإن استعماله فى معرفة أخبار جدته يظل أمرا ممكنا، بل وفى معرفة الأحاديث التى تتبادلها مع زائريها، من بناتها وأبناء عمومتها وغيرهم، ولم يكن الطفل ليجد بدا من الانصياع لأمرها حتى لا تتجهم فى وجهه، وتحرمه مما تقدمه له من طعام وحلوى، ومن مشاركة ابنها الأكبر حمدان ألعابه، وتعلم المزيد من القراءة والكتابة، على يد المعلم الذى يأتى من السنبلاوين رأسا مرتين كل أسبوع.

أثناء غياب سليمان فى جولته مع رجال سعد باشا تواترت الأنباء عن التفاف الناس حول مطالب وكلاء الوفد، كأنهم نيام واستيقظوا، لكن الأخبار التى تجيئ من "مصر" لم تكن مشجعة، فالانجليز يتهكمون من حماس الناس لعمل التوكيلات، والمندوب السامى يعلن فى كل مكان أنه لن يسمح للوفد بالسفر إلى باريس، حتى لو حصلوا على توقيعات وبصمات أصابع المصريين جميعا، وكلما أوشكت الأنباء على أن تفت فى

عضد الرجال كانوا سرعان ما يتعافون منها، كأنما تتلبسهم روح جديدة.

لم تُسْتَثْنَ بقعة من كل الربوع من زياراتهم والبحث عن متطوعين للحصول على توقيعات الناس بتوكيل سعد باشا ورفاقه، وانخرطت عزبة أحمد السرسى فى الأحاديث التى عمت أركان مصر كلها، وابتدع الأطفال ألعابا تمثل سعد باشا وهو يطارد الانجليز بعصاه ذات اليد المعقوفة، حتى إذا ما لحق بهم انهال بها على ظهورهم، فيما يهرع الانجليز فارين من أمامه، وصيحاتهم تتعالى بالآلام.

تولى أمر جمع التوقيعات على التوكيلات التى تركها رجال سعد باشا خالاه الشيخان زكريا وعمر، فضلا عن حسانين الضبع ومنصور الطوخى، الذى نشط إلى حد أثار قدرا هائلا من التندر، فهو لا ينفك يقف فى كل مكان يذهب إليه متحدثا عن سعد باشا ورفاقه، كأنهم كانوا معه بالأمس، وأودعوه أسرارهم وخططهم، وكان على استعداد للإجابة على كل الأسئلة، وفى تلك الفترة اطلق عليه السراسوة اسم "ذلوكة"، إذ كان يكثر من استخدام اسم الإشارة "ذلك" فى كل جملة ينطقها، وكانت تعجب السامعين إلى درجة أنهم كانوا يستعيدونها منه المرة تلو مرة، وهكذا لم يجد الشيخ زكريا بدا من أن يطلب من أخيه الأصغر أن ينبه ابن عمه "ذلوكة" إلى أن يقتصد فى تكرار الكلمة حتى لا يتندر عليه الناس، لكن نصيحة الشيخ عمر ذهبت سدى، وبقيت الكنية التى نحتها الشيخ زكريا عالقة بالرجل حتى وصلت معه إلى قبره.

جمع السراسوة توقيعات كل البلاد والعزب المحيطة، وقال الشيخ زكريا لأخيه وأبناء أعمامه:

– إذا كان رجال سعد باشا قد اختاروا سليمان ليشارك فى الحملة، إذن فلنريهم قدْرَه

وأردف بعد صمت:

– فقدْرُ سليمان هو قدرُ السراسوة

هزت الكلمات أجساد السامعين، وراحوا فى ذلك اليوم يتحلقون حول الأكبر منهم ليسمعوا حكايات أجدادهم، وقصة الخروج الدامى من بلدهم البعيد سرس، وحكايات جدهم الأكبر الشيخ أحمد السرسى، الذى هزم الذئاب والعفاريت والبدو، وأنشا لأبنائه وأحفاده ملاذا وسكنا هو تلك البقعة المباركة التى أسماها باسمه، عزبة أحمد السرسى، وفى داخل كل دار اجتمعوا حول حكاياتهم الفرعية، استعاد أبناء محمد الطوخى ذكرى قطيع الأبقار الذى قدم به رجال جدهم لأمهم الكبرى شام، حتى أسماها السراسوة "أم بقر"، وقصوا على أبنائهم ذكرى الخلاف بين جدهم محمد الطوخى وأخيه سيد أحمد، مدافعين ربما للمرة الألف عن مسلكه فى الشهادة ضد أخيه فى المحكمة، وفى دار أحمد الضبع قصّ الرجال على أبنائهم ذكرى جدتهم زكية، تلك الزوجة الحزينة التى كافحت على مدى سنوات طويلة لتحصل من جدهم الأكبر الشيخ أحمد السرسى على ولد تدشن به وجودها فى رحاب الأسرة، وكان ذلك المولود هو جدهم أحمد الضبع، واستعادت دار إبراهيم ذكرى ذلك المارد الجبار الذى لطالما طوى البلاد طيّا، ومزق بيديه العاريتين رجال الأعرابى مساعد السمدانى، وتذكروا بمرارة واقعة دفنه الرهيبة، يوم أن قبض عليه رجال الأعرابى ودفنوه حيّا لتنهشه ذئاب التل، وكما

ارتبط أبوهم بعمهم سيد احمد ارتباطا وثيقا، ها هو مؤمن إبراهيم يعيد الكرة، ويلتزم الدار الكبيرة هو الآخر، وبين الحين والحين يقصد إلى الربع ليزور يوسف السرسى، ولم تبتعد دارى موسى والسيد عن الذكريات القديمة، حتى قبل خروج أبويهما إلى ديرب نجم، فذكرى ذلك الخروج الحزين لما تزل منطبعة فى أذهانهم وأبدانهم ونفوسهم المنكسرة، واقدارهم ومعيشتهم التى تضمن بالكاد لهم الحياة.

لكن دار سيد احمد السرسى انطوت على خواء، فلقد هجرها يوسف بعد أن لحق بأصهاره وأخواله فى الربع، وها هو سليمان يجوب البلاد ضمن رجال سعد باشا ليحصل على توكيلات الشعب بالسفر إلى مؤتمر الصلح فى باريس، ولم يبق فى دار سيد احمد كلها إلا سُلَيْمَة، التى تحافظ قدر استطاعتها على إبعاد الجدة مريم عن دارها، حتى لا تضطر مع وجودها للتقهقر خطوات إلى الخلف، وراحت تدشن لنفسها وضع سيدة الدار بغير منازع، وسيدة العزبة بالتبعية.

فى تلك الليلة البعيدة وضعت الجدة مريم حفيديها "قطب" وسليمان فى الفراش وراحت تقص عليهما حكاياتها، لم يكن سليمان الابن الأكبر لابنتها تاج من سيد احمد الطوخى يعرف من حكايات الأسرة إلا تلك التى تتعلق بجدته شام، وقطيعها من الأبقار الذى قدم من بعيد يسد عين الشمس، لكنه مع قطب فى تلك الليلة البعيدة سمع ما لم يسمعه من قبل، سمع حكايات الجدة الكبرى مريم الأولى، وقتالها رجال الأعرابى عبد الله الجياصى، وحكاية ذلك المملوك القديم قفل، وبلطة جدهما أحمد السرسى التى انغرست فى رأسه الضخم، وسمعا حكايات أبيها، جدهما

الأكبر سيد احمد، وكيف زوجته وهو فوق السبعين ليرزق بولد فيمتنع على أخوته وراثته، و لم يكن أى منهما يقدر أن يمعن النظر فى الحكايات ليدرك أن الأجداد الذين حُرموا الميراث بمجيئ يوسف سيد أحمد أجدادهم هم، إذ كانوا مسحورين بالحكايات، حتى أن خيالهم كان يطوف بأماكن مسحورة ذات ألوان غريبة، كأنها ليست من العا لم.

وسقط الطفلان فى بحيرة النوم، لكنها استمرت تقص على الفراغ حكاياتها الساحرة، تستمد منها اليقين بأن تضحياتها من أجل دار سيد أحمد السرسى لم تذهب سدى، وتؤكد على أنها لا تزال حية، وأن الأقدار تمنحها دورا جديدا، يتمثل فى تربية هذا اليتيم الذى يغوص فى الفراش مجردا من الأب والأم، وليس له إلا هى، جدته لأمه، وهؤلاء الأحفاد الذين يجيئون إلى دارها لينعموا ببعض الخيرات التى حرمتهم منها من قبل، لم تكن لتكف عن الاسترسال فى الحكى، فكأنما يقف أطفال دار سيد أحمد السرسى منصتين لتلك الحكايات التى لا تدرى إن كان أحد سيقصها على مسامعهم يوما، أم أنهم سينشأون منقطعى الصلة بتاريخهم وحادثاته الكبرى، أو لعلهم سينشأون على حكايات ليس لها من الحقيقة إلا النذر اليسير.

أخرجها من حكاياتها طرق خفيف على حافة النافذة، كأنه يأتيها من عمق الحكايات القديمة، فالشيخ عمر كان واقفا هناك، ينهى إليها أنه فى طريقه إلى المقاطعة لجلب الداية، فلقد هاجمت رئيفة آلام المخاض، وأنه تركها فى الدار وحدها، وعلى الفور دبت فيها روح غريبة، وتبدلت حالها فنشطت كفتاة فى العشرين، فها هى صغرى بناتها تضع مولودها الأول،

وأمومة صغرى بناتها تعنى اكتمال رسالتها، وإذا كان الله قد منحها رسالة جديدة لتربية أحفادها فإن ذلك سيترجم فى عمر جديد يضاف إلى عمرها، وكانت وهى فى الطريق إلى دار رئيفة تمضغ الذكريات، مع ابتهالات تعلم منذ القدم كيف ترددها بتلقائية، كأنها منطبعة فى كيانها.

دار الشيخ عمر عبارة عن صالة كبيرة وثلاث حجرات، إحداها مخصصة للضيوف وأخرى مخصصة لزوجته الأولى وأبنائها، والثالثة دخل فيها على رئيفة، فى هذه الحجرة كانت رئيفة تضع يديها فى ظهرها وتقطعها جيئة وذهابا، تهون على نفسها آلام المخاض وتتعجل قدوم من يأخذ بيدها، والجدة مريم تعرف شعور البكر عندما تهاجمها أوجاع أول مولود، تلقفتها بين يديها وأجلستها أمامها، ومدت يديها لتعرف الوضع على حقيقته، أدركت أن أمامهما ساعة أو ساعتين، فهى لم تفرغ ماءها بعد، وسألت ابنتها عن قدر الآلام التى تهاجمها فأخبرتها بأنها طرقات ضخمة تهاجم خصرها وأسفل ظهرها وأجنابها تجعلها لا تقوى على الوقوف على قدميها، ولكن على فترات متباعدة، وعرفت الجدة أن الطلق وإن كان شديدا إلا أن تباعده يبعث على الاطمئنان، وهى لن تقدم إليها شيئا يقوى الطلق ريثما يعود الشيخ عمر بالداية، إذ هى لو فعلت فربما تفرغ الفتاة ماءها مبكرا وتصبح الولادة عسرة.

لا تعرف متى انضمت إحسان زوجة الشيخ عمر الأولى إليهما، وقرصت الجدة مريم ابنتها رئيفة فى فخذها عندما رأت الامتعاض على ملامحها من وجود ضرتها، وبعد نوبة ألم صغيرة عادت للوجه تعبيراته الطبيعية، وبدلا من الامتعاض امتلأت القسمات بتقلصات طرقات الطلق

الذى أخذ يتسارع بصورة جعلت الفتاة العاقلة تنسى عقلها وتطلق صرخات متعاقبة تنذر بأن الآلام لم تعد تطاق، وأمرتها الجدة مريم بأن تنهض من فراشها وتمشى فى الغرفة، وفور أن وقفت انفجر شلال الماء، أغرق رجليها وجرى على أرضية الحجرة، وأخذ الفتاة رعب أطلقت بتأثيره صرخة هزت أركان العزبة.

لا تدرى رئيفة كيف هاجمها يقين بأنها تموت، وأن ماءها يسقط ساحبا الحياة من جسدها، وقبل أن تسقط من طولها لحقت بها ضرتها، وحملتها بمعونة الجدة مريم إلى فرشتها، حيث وضعتها على ظهرها، وأمرتها الجدة مريم أن تفتح رجليها على آخر اتساع لهما، ومدت يديها فشعرت برأس المولود قادمة، لم تجد أى عناء فى الإمساك به، و لم تشعر بحاجة إلى جذبه إذ هو يقاتل ليخرج، وإن هى إلا لحظة حتى شعرت بكتفيه يبرزان، ومن خلفهما ينزلق الجسد خارجا للحياة.

تلك كانت اللحظة التى قدم فيها الشيخ عمر وبصحبته الداية البدينة، والتى ما أن عرفت بتمام الولادة حتى أطلقت زغرودة ترجع صداها فى أركان العزبة النائمة، وتولت الداية عن الجدة مريم أمر تنظيف آثار الولادة وقطع الخلاص، وكل ما يمكن عمله من أمور لاحقة على الميلاد، أما الطفل، والذى تأكدت الجدة مريم من أنه ذكر فلقد احتوته لفائف أعدتها سلفا و لم تضعه فى لفائفه إلا بعد أن أمسكته من قدميه ورفعته مقلوبا ليصرخ وينفث من أنفه سوائل الميلاد.

لا يعرف الشيخ عمر ما الذى يجب عليه فعله، فصحيح أنه رزق من إحسان بأربعة من الأبناء لكن ميلاد طفل من رئيفة أمر يختلف، ففى

المرات السابقة كانت أم إحسان وأخواتها هن الحاضرات، وكانت أصداء الميلاد تصله وهو بعيد، أما الآن فإن رئيفة ليس لها إلا أمها، وأمها لم تعد كما عرفها الجميع قبل عقد أو عقدين أو ثلاثة، إنها الآن امرأة عجوز، تمضغ أحزانها، وتستنشقها مع السعوط.

استيقظت الدار كلها، وانتشرت فى الأجواء روائح السمن البلدى الذى تقلى فيه قطع من عجوة البلح الأبيض، وروائح المغات والحلبة المغلية، تقوم على إعداد كل ذلك بنات الجدة مريم اللائى قدمن فى أعقاب الداية، إحداهن تقلى عجوة البلح لتقدمها للوالدة، والثانية تعد المغات والحلبة، فيما تنشغل الثالثة بجمع لفائف الميلاد وتنظيف فرشة الوالدة، وحملت كل ذلك مع بقايا الخلاص والمشيمة واتجهت إلى الخارج لتتخلص منها، وقبعت إحسان إلى جوار الجدة مريم، كأنها تحتمى بها، فهى لا تريد أن تترك حجرة الوالدة حتى يطلب منها ذلك، وزوجها يقدر وجودها هناك، ويطمئن إلى أن داره بعد مولد طفل رئيفة ستنعم بسلام تمناه كثيرا، لكن التعبيرات التى ارتسمت على وجه ابنه الأكبر لم تترك له فرصة للمضى بعيدا، فعلى وجه الفتى البالغ ارتسمت علامات لا يحب أن يقرأها، أو هو فى الغالب يؤجل قراءتها إلى حين.

الآن يستطيع الشيخ عمر أن يطلق على ابنه الاسم الذى فكر فيه كثيرا، ياسين، فهو منذ رأى فى المنام ذات مرة أنه ينادى على ولد كأنه ابنه بهذا الاسم عزم على أن يطلقه على أول ولد يولد له، وها هو الولد يولد، ومن رئيفة، التى تأبى حتى ذلك الصباح إلا أن تناديه بخالى عمر، تماما كما كانت تفعل قبل أن تتزوجه، وكانت الكلمة تخرج من فمها معطرة بآيات

الاحترام والحكمة، الآن هو فى أمس الحاجة لأن تناديه باسمه المجرد، فمنها رزق بالمولود الذى تمناه، وقبل أن تمارس الجدة مريم هوايتها وتعلن أن المولود أنثى حتى لا تصيبه عين الحسود اقتحم الشيخ عمر عليهن حجرة الميلاد وأعلن مبتهجا أن مولوده من رئيفة هو ياسين، وظل يردد الاسم كأنه يستشعر حلاوته فى فمه، حتى أن الجدة مريم تبسمت وهى تقول:

– ألا تتريث قليلا يا ابن عمى؟!.

لكنه كان منتشيا، فأجابها وهو يتهيأ للخروج:

– ليس فى العمر أكثر مما مضى يا ابنة عمى.

وكأنما ذكرته الكلمات بشىء فقصد إلى رئيفة فى فرشتها، ووضع على وجهها الأسمر قبلة ستظل تذكرها عقودا وعقودا.

لم تترك الجدة مريم صبيا أو طفلا من أطفال الدار إلا وأعطته قطعة من العجوة المقلية فى السمن، وصبت لكل منهم شيئا من المغات أو الحلبة، وأرسلت إحداهن إلى الدار لتطمئن على الولدين قطب وسليمان، ولتحضر شيئا من الملبن الذى تحتفظ به هناك لتعطيه للأولاد حلاوة مقدم ياسين، وتبسمت وهى تقول:

– ياخى جتك إيه يا عمر يا ابن عمى... قال ياسين قال!.

وبعد برهة من التمعن أردفت:

– لا أعرف من أين يأتون بهذه الأسماء!.

وقبل أن تفرغ من تعجبها تساءلت مستنكرة:

– وماله اسم يونس، أليس اسم نبى من أنبياء الله؟!.

وجاءها صوت الشيخ عمر من الخارج، إذ كان واقفا أمام باب الحجرة:

– ألا يكفيك يونس واحد يا بنة عمى؟!.

ملمحا لمولود ابنتها الكبرى، والذى لم يكمل الحول بعد.

لكن الصباح جاء بأمور مزعجة، إذ أمسكت الحمى بجسد رئيفة مع شعور شديد بالبرد، انهالوا عليها بالأغطية، لكنها كانت تنتفض بلا توقف، وخشوا أن تقتلها الحمى فأرسلوا فى طلب "أبو" منصور، وجاءهم الرجل مع العصر بعد أن غرقت الأغطية بعرق رئيفة، التى انقطعت عن الطعام والشراب فهزلت، وضرب رأسها من جراء اصطكاك أسنانها ألم غريب، وكانت مع الظهر قد بدأت فى الهذيان، كأنها تخاطب أرواح تسكنها.

على طريقتها أيام الحروب الكبيرة ربطت الجدة مريم طرحتها فوق رأسها، وعقدتها فوق جبهتها فصارت كأنها فى مأتم، ولما اقترب أبو منصور من رئيفة استعاذ بالله من الشيطان، وأخرج من كيس قماشى جلبه معه هريس نباتات خلطه بالماء ووضعه كعجينة فوق رأسها، وفتح فمها وصب فيه سائلا غريبا فابتلعته بصعوبة، ويبدو أنه كان مريرا إذ أنها وهى الهاذية قطبت جبينها وتقلصت ملامحها لما أجبروها على تناوله، وأمر الرجل بحسر ملابسها عنها فجردوها منها، وبان الجسد الأسمر شاحبا يتأهب للموت، فدهنوه بشىء من الخل الممزوج بسوائل أخرى غريبة، وألقوا فوقها الأغطية وتركوها لتنام، تماما كما أمرهم.

تقول الحكايات إنهم تركوا المولود فترة تقدر بالساعات لانشغالهم بأمر الأم، فمع بداية الحمى جمعت إحسان أبناءها وأمرتهم بالابتعاد عن الدار، فهى على يقين من أن حدوث شيء لضرتها سيترجم على أنه حسد منها أو من أحد أبنائها، ولن تسلم من لسان الجدة مريم وبناتها، بطريقتهن المعروفة فى كيل الاتهامات بهدوء وتصميم قاتلين، وبيقين لا يتطرق إليه فى زعمهن أدنى شك، وهى لا تريد إذا ما حدث شيء، كأن تموت الوالدة أو المولود أو هما معا أن يكون أحد منهم هى وأبنائها تحت نظر أى من الملتاعين، أما الجدة مريم وبناتها فإنهن تحلقن حول رئيفة فى محاولة لبث الحياة فى جسدها، وتعلقت أبصارهن بشفتيها البيضاوين اللتين تنبسان بكلمات مضغومة وأحرف مهشمة، يحاولن التقاط أية كلمة يفهم منها حقيقة ما يجرى هناك، فى داخلها التى استغلق دونهن.

أما الشيخ عمر فإنه خرج صحبة الطبيب إلى المسجد، وأدى صلاة العصر وأتبعها بركعات طلب فى سجداتها من الله أن يمن على زوجته بالشفاء، فرحيل رئيفة سيحرمه من كل الأمور الطيبة التى لم يصادفها إلا معها، فهو لم يشعر بالسكينة إلا معها، ولم يشعر بأنه - وهو الرقيق الحال - ذو قدرة على استضافة من يقصده إلا مع زواجه منها، فقد لبت نداء كرمه، ومكنته من استضافة كل الجائلين من الغرابلية والإسكافية والنحاسين والنحالين وبائعى أحمال الصوف والقماشين، وغيرهم من الأغراب الجائلين الذين يهبط عليهم الليل فلا يعرفون إلى أين يقصدون، بفضل رئيفة صارت دار الشيخ عمر كما تمنى يوما، مقصدا لكل هؤلاء،

حتى أن الناس فى العزبة كانوا إذا جن الليل يقودون الأغراب من تلقاء أنفسهم إلى دار الشيخ عمر، كأنها خان الغرباء.

عادو من صلاة المغرب وأُخْبِرُوا بأن المريضة استيقظت من نومها وطلبت شيئا من الماء، ولم يعطوها منه شيئا حتى يأذن الطبيب، وجس الرجل جسدها فتهلل وجهه، وصلى على النبى وهو يأمر بإعطائها قدرا من الماء، وشيئا من المرق، فقط حتى ظهر اليوم التالى، وقبل أن ينصرف عائدا إلى قريته طلب أن يرسلوا إليه مطية فى عصر الغد لتحضره. تقول الحكايات إن إحداهن تنبهت إلى المولود الذى تركوه مهملا عندما تلبست رئيفة حمى النفاس، فأخذته وهى يدس يده كلها فى فمه ليمتصها من شدة الجوع وصنعت من أجله بعضا من مشروب الكراوية وأمدته به، وكان المولود قد بح صوته من البكاء فلم يعد يصدر عنه إلا فحيح متقطع، ولما أعطته السائل الممزوج بشىء من السكر أقبل عليه بنهم شديد، وإن هى إلا ساعة حتى عادت إليه قواه، وخرج صوته الحبيس فانطلق يذكر الدار الحزينة بأنها استقبلت مولودا جديدا.

سعد سعد.. يحيا سعد



جاءتهم من "مصر" أنباء سيئة، قبض الانجليز على سعد باشا وبعض من رفاقه، رفض بلفور وزير خارجية انجلترا بغلظة سفر وفد مصرى برئاسة سعد باشا إلى مؤتمر باريس، وبازدراء أيضا رفض أن يكون الوفد المسافر برئاسة رشدى باشا رئيس الوزراء، فنظم سعد باشا ورفاقه حملة احتجاج عمت أرجاء مصر، وتخلى بلفور عن عناده فوجه الدعوة لرشدى باشا للقدوم إلى لندن، لكن رشدى أصر على اصطحاب سعد باشا، وهو الأمر الذى رفضه بلفور بشدة فقدم رشدى للسلطان فؤاد فى أول مارس من العام 1919 استقالة حكومته.

اندفع سعد باشا يثير القلاقل فى وجه الانجليز ويحرك الاحتجاجات فأصدر السير وينجت المندوب السامى البريطانى أوامره بالقبض عليه هو ورفاقه، وقبل أن يتمكن أحد من فعل أى شىء وضعوهم فى القطار المتجه إلى بور سعيد، ومن هناك نقلوهم إلى مدمرة انجليزية تنقلهم إلى جزيرة مالطة، وانفجر بركان الغضب فى طول البلاد وعرضها، وتمدد فى داخل الثائرين الإحساس بالانتماء للبلد الذى يمتد من البحر الأبيض وحتى

السودان، ومن حدود برقة إلى رفح، وانبثق فى نفوسهم إحساس بالذات جعلهم فى حالة نشوة عارمة، وثورة دائمة، وغضب مقيم، ترجموا كل ذلك فى صورة حب للرجل الذى قادهم إلى كل ذلك، غير متحسب للأهوال التى سيلاقيها، وما إذا كان سنه سيساعده على عبور المحنة، وما أخذه سعد زغلول نفسه من قبل على أحمد عرابى، ها هو يعيده بحذافيره، كأنه يترسم خطاه، وبرغم كل شىء فهو لم يكن يصدق أن الشعب قد نضج إلى هذه الدرجة، وأن الثورة ستندلع بهذا العنفوان.

لجأ الانجليز إلى الإجراءات العسكرية الصارمة، ونقلوا جنودهم إلى المناطق الريفية الثائرة أو المتوقع حدوث قلاقل فيها، وألقوا القنابل على التجمعات والتجمهرات بغير تمييز، وكانوا قد أحلوا الجنرال اللنبى محل السير وينجت فى منصب المندوب السامى فى مصر، ومثلما حدث فى الكثير من الجهات فى بر مصر اجتمع السراسوة فى دار سليمان السرسى، قادهم للاجتماع أخواله وأقاربه، وظهر لأول مرة فى اجتماع السراسوة رجال كانوا قد جاءوا بأسرهم إلى عزبة أحمد السرسى واستوطنوا فيها، اتسع لهم المقام بين السراسوة، وانتظم الجميع فى لهفة ليخرج عليهم سليمان ويشرح لهم ما وراء الأنباء التى جاءت من "مصر"، وتوافد على العزبة رجال من القرى المحيطة، وقبل أن ترتفع الشمس كانت باحة الدار الكبيرة محتشدة بالناس الذين يأكلهم القلق والغضب والرغبة فى فعل أى شىء.

فى داخل الدار الكبيرة كان سليمان وخاله الشيخ زكريا ونفر من السراسوة يتباحثون حول ما يجب عليهم فعله مع هؤلاء الذين يحتشدون

فى الباحة، والذين يتوقعون أن يسمعوا أخبارا تروى غليلهم، أو تدلهم على ما يجب أن يفعلوه إسهاما فى ثورة الغضب التى خلفها إلقاء القبض على سعد باشا ورفاقه، وشاعت بين الحضور أنباء عن قرب وصول قوات إنجليزية محمولة عبر السكة الحديد من التل الكبير إلى مركز السنبلاوين، وانبرى أحدهم:

– نقطع السكة الحديد.

لم تخطر الفكرة على بال أحد من قبل، فالسكة الحديد القادمة من الزقازيق حتى المنصورة، أو خط الشرق كما يسمونه يمر بقرى "أبو" الشقوق وكفر غنام وبرقين وطرانيس العرب، ويبعد فى أقرب نقاطه عن العزبة بمسير نصف ساعة على القدمين، وهذا يعنى أنه ما لم يتم التنسيق مع أهالى تلك القرى فإن الفكرة مآلها الفشل، فلقد اعتاد الانجليز معاقبة القرى التى تحدث فى زمامها أعمال تخريب السكة الحديد، ولو اعترضهم أهالى برقين، وهى النقطة الأقرب إليهم لن يتمكنوا من فعل شىء، وربما نشب شجار لا يقدر على توقع آثاره أحد.

فى ذلك الصباح انتشى سليمان السرسى كما لم يفعل من قبل، فها هم أخواله من حوله، الشيخ زكريا الذى يقبض بيد من حديد على وسية مكرم بشاى، والمتصرف الأوحد فيها، والشيخ عمر الأمين على كل أسرار أقربائه والأقرب إليهم فى كل الملمات، الذى تحولت داره إلى مضيفة كبيرة لاستضافة الغرباء، والشيخ عبد الرحمن الحاد المزاج الذى يتحاشاه الناس حتى لا يثور ويحدث ما لا يحمد عقباه، ومن حوله أيضا أبناء خالتيه وعلى رأسهم الشاب الفتى مختار الضبع، فضلا عن العملاق شاهين ابن

محمد الطحان، وهم على استعداد للموت من أجله، وإلى جانب هؤلاء أبناء جده إبراهيم السرسى، فضلا عن أبناء جده السيد السيد السرسى، ينضم إليهم حسانين الضبع وأبناء جده أحمد الضبع، وكذلك أبناء جده محمد الطوخى، كل هؤلاء وغيرهم كانوا يحيطون به، وعلى استعداد لفعل أى شىء.

اقتراح قطع السكة الحديد ظل معلقا فى الفراغ، وطلب الشيخ عمر من الجميع التريث، فمثل هذه الأمور لا تقال هكذا فى العلن، وطلب من سليمان أن يخرج إلى الناس ويتحدث إليهم، فهم فى حالة غضب ينذر بأوخم العواقب، وما لم تتم السيطرة عليهم وتوجيههم الوجهة المطلوبة فإن الأسوأ سيقابلهم فى منتصف الطريق، وهكذا خرج سليمان إلى المحتشدين فى الجرن الكبير وبرفقته خاله الشيخ زكريا، وصاحب خروجه هياج كبير، واختلط الحابل بالنابل، كأن سليمان قادم لتوه من لدن سعد باشا، أو كأنه كان محبوسا معه فى ثكنات الاحتلال، أو مرافقا له فى القطار المتجه إلى بور سعيد، أو مبحرا معه فى مركب السفر إلى المنافى البعيدة، كل هذا ألقى رعبا غير مسبوق فى نفس سليمان، فهو فى حياته كلها لم يواجه عواطف هادرة بمثل ما يواجه اليوم، وهؤلاء الذين يجأرون بحناجرهم الغاضبة يتعلقون به كأنه أملهم فى الخروج من الظلام.

كما توقع الشيخ عمر كان ابن أخته عند حسن الظن، فلقد تولى بالشرح كيف أن مصر قدمت لقوات الحلفاء أكبر المساعدات فى الحرب الكبرى مع ألمانيا وتركيا، وكانت أراضيها مسرحا للكثير من الأحداث، وعساكرها وعمالها فى الجبهات البعيدة وعلى خطوط النار، ومقدراتها وخيراتها

تكفل للقوات المحاربة القوت والمدد والعون الأكيد، ولما أشرفت الحرب على الانتهاء وانهزمت ألمانيا وتركيا التى تتبعها مصر رسميا نكثت انجلترا عن كل وعودها، وظل يشرح لهم ما جرى حتى واقعة إلقاء القبض على سعد باشا ورفاقه ونفيهم إلى مالطة، و لم يكد يصل إلى هذه النقطة حتى انبرى أحدهم هاتفا:

– سعد سعد يحيا سعد.

لم يطلب أحد من المحتشدين ترديد الهتاف، لكنهم انفجروا يرددونه كأنه يخرج من قلوبهم، وتزلزلت الأرض مع إيقاع الكلمات، وترجعت فى جنبات العزبة الصغيرة أصداء الهتاف الجميل، فردده الأطفال فى الشوارع الضيقة، والنساء فى خدورهن، وأُعْلِن للجميع أن سليمان سيجتمع بالكبار من أهل المنطقة لتقرير ما يجب عمله، وسيبلغهم عن طريق أخواله وأعمامه بما سيكون.

لم يكتمل انصراف الناس إلا مع اقتراب العصر، و لم يدر أحد كيف ومتى قامت نساء السراسوة – وهو الاسم الذى صار يطلق على كل ساكنى العزبة، سواء من نسل أحمد السرسى أو من الغرباء الذين استوطنوها – بإعداد الطعام لتلك الجموع التى اجتمعت فى الباحة الكبرى، فعند انصراف الناس تحلق السراسوة حول الجمع وقادوا الناس إلى الدور ليتناولوا شيئا من الطعام، فى البداية قاوم الناس، لكنهم مع الإلحاح استجابوا للأمر، وهكذا امتلأت دور السراسوة فى ذلك اليوم البعيد بالضيوف، وتناولوا معهم الطعام، وتبادلوا الأحاديث والآراء حول ما يجرى، و لم يعدم الأمر اتفاق هنا أو هناك على فعل أشياء بعيدا عن التنظيم الذى اقترحه سليمان،

وكانت كل الآراء تتجه إلى قطع خط السكة الحديد، وعرف أهل العزبة من الغرباء القادمين من القرى المحيطة أن أضعف نقاط السكة الحديد تقع فى المسافة الكبيرة بين قريتى برقين و"أبو" الشقوق، فبرغم أن كفر غنام تقع فى وسط هذه المسافة إلا أنها تبعد عن مسار الخط بأكثر من مسير ربع الساعة، وهذا يعطى الراغبين فى قطع الخط الفرصة للضرب فى أى مكان منها.

لم يعد الشيخ عمر إلى الدار، وخرجت رئيفة لترى إن كان تناول شيئا من الطعام، كانت تحمل ياسين على كتفها، ورأت أن تذهب به إلى دار أمها وتتركه لديها ريثما تعثر على زوجها، لكنها وهى تعبر الباحة الفاصلة بين دار أمها والدار الكبيرة رأته يقف فى شرفة الدار الكبيرة مختليا بسليمان، يمنعها أدبها من أن تناديه فاتجهت من فورها إلى دار أمها، وكان الليل قد تقدم بما يكفى لأن تكون العزبة غارقة فى النوم، لكنها ليلة استثنائية، بل وتنذر بالمزيد، ولما ولجت إلى الدار ألفت أمها جالسة على الأريكة أسفل النافذة المطلة على الدار الكبيرة، وتطل على ما يستجد هناك، قطب كان مستيقظا، وكذلك سليمان ابن تاج، ومدت الجدة مريم يديها لتتلقف ياسين فسلمته لها، وقبل أن تجلس طلبت رئيفة من قطب أن يذهب إلى زوج خالته الشيخ عمر ويطلب منه أن يوافيها فى دار أمها.

فى ذلك اليوم أعدت رئيفة طعاما فى دار الشيخ عمر كما فعلت كل دور السراسوة، وتناول الأغراب لديها ذلك الطعام كما فعلوا فى كل الدور، لكن الشيخ عمر لم يكن موجودا، وعوض غيابه طلبها من مختار الضبع ابن أخته أن يرافق الضيوف وهم يتناولون الطعام، كانت وهى تفعل

تعوضه عن بخل زوجته الأولى إحسان التى أوصلته إلى درجة كان بسببها يخشى جلب الضيوف إلى داره، وكان كثيرا ما يخرج تحت جنح الليل حاملا الخبز والجبن وغيره من الطعام ليوزعه على المحتاجين هنا أو هناك، وكانت إحسان تستيقظ مع الصبح فتدرك ما فعل، وتظل طوال اليوم تلطم خدها وتتهمه بالتبذير والسفه، حتى أنه عزم أكثر من مرة على تطليقها، لكنه ولذكرى طيبة مع أبيها وصلات أخوية مع أخوتها وأقاربها، وأيضا لوجود أبنائه منها كان يحجم فى اللحظة الأخيرة.

أخرجت رئيفة من صدرها رغيف خبز يحتوى على نصف دجاجة مطهية وناولته للشيخ عمر، ولم يكن تناول أى طعام طوال اليوم، ولا حتى فطوره، إذ داهمته الأخبار فى الصباح قبل تناوله، وقال وهو يدعو لها إنه كان فى أمس الحاجة إلى شىء من الطعام، وراح يتناوله بنهم فيما يده تمتد بقطع منه للولدين قطب وسليمان، ولما حاولت الجدة مريم أن تنهرهما، إذ هما لا يكفان عن تناول الطعام طوال اليوم اعترضت رئيفة، فخير ربها كثير كما قالت، ولديها فى الدار المزيد، وخطفت رجليها إلى هناك ثم عادت بالمزيد من الطعام قبل أن يفرغ من أمام زوجها والولدين النهمين، لكنها هذه المرة أعطت لكل من الولدين نصيبه، وتركت الباقى أمام زوجها.

مصمصت الجدة مريم بشفتيها وغمغمت بكلمات فهمتها رئيفة، فهى تتعجب كيف أن سليمان ابن أخيها لم يقدر أن أخواله وأعمامه وأبناء خالاته وأعمامه سيكونون فى حاجة إلى الطعام وهم الذين يتحلقون من حوله ليرفعوا شأنه بين الناس، ولم تكتف بالغمغمة، فسرعان ما قالت:

- هذه هى بنت سرحان عقيل، التى لا تعرف إلا حف الحواجب والغسيل بالشبة.

وتبسم الشيخ عمر ضاحكا، وأخفت رئيفة ضحكتها فى كمها، وقامت لتطمئن على ياسين فيما أمها تواصل:

- لا أظن أن رجلا تبلغ به الغفلة ما بلغت بابن أخى.

وألقت بنظرة إلى ما يدور هناك فى الدار الكبيرة وأردفت:

- فعلت نساء العزبة ما عجز ابن الكرام عن فعله.

وأرادت أن تسترسل فى الحديث فقاطعها الشيخ عمر، بطلب بعضا من القهوة، يريد بينه وبين نفسه أن تعينه على السهر، فأمامه مهمة لم يسبق إليها طوال حياته، وقالت الجدة مريم إن لديها قهوة طازجة، طحنتها بنفسها بالأمس.

قامت رئيفة لتعد القهوة، فيما انتهزت الجدة مريم الفرصة وسألت الشيخ عمر عما ينتوى أن يفعل، فهى على يقين من أن لقاءه المنفرد مع سليمان وراوه ما وراوه، فهى صاحبة المواقف الخارقة، ولا تستبعد أن تكون الليلة مسرحا للكثير من الأمور، لقد سمعت من لغط المتحدثين شيئا عن قطع السكة الحديد، لكنها لم تتوقع أن يكون الشيخ عمر على رأس من سيقومون بهذا العمل الخطير، فالأنباء تتوالى عن قيام قوات الاحتلال بحراسة خطوط السكة الحديد حتى تحتفظ بطريق آمنة لقواتها وبضائعها من الإسكندرية وحتى القاهرة والسويس، وخط الشرق بالذات يربط الاسكندرية والقاهرة بأكبر قواعدهم فى التل الكبير والإسماعيلية، لذا

فمن المتوقع أن يكون الانجليز منتشرين على طول الخط، وإذا ما تنبهوا إلى أى تخريب سيطلقون النار على القائمين به، بل وسيعاقبون قرى بأكملها، مثلما حدث مع كثير من قرى المديرية، و لم تشأ أن تناقش الأمر مع الشيخ عمر فى وجود رئيفة، لذا فإنها ما أن قامت ابنتها لتعد له القهوة حتى بادرته بالسؤال عما إذا كان سيرافق الذاهبين إلى تلك المهمة، لم يخف عنها شيئا، فخروج مختار الضبع وشاهين الطحان وطه إبراهيم مع الذاهبين لتلك المأمورية يزعج الجميع، خاصة الشيخ زكريا وسليمان اللذين طلبا أن يكون على رأس المهاجمين رجلا عاقلا ينضوى الجميع تحت لوائه، ويأتمرون بأمره، و لم يتقدم أحد للقيام بتلك المهمة إلا هو، و لم يخف أحد ارتياحه لتطوعه للمهمة، فلقد كانوا جميعا يتمنون أن يكون هو قائد المجموعة.

ستحكى رئيفة لأحفادها فى قابل الأيام كيف أنها فى تلك الليلة عرفت بحدسها ما سيقوم به زوجها، فلقد تناهى إلى سمعها خبر العزم على مهاجمة خط السكة الحديد، وكيف أنها قدرت أن سُلَيْمَة لن تقدم لأحد الطعام، فهى لا تجيد إلا الاستئثار بدارها وخيرات دارها لنفسها ولأبنائها، وكيف أن سليمان سيكون غارقا حتى ذقنه فى الأمور ولن يتنبه إلى أن أهله المحيطين به سيكونون فى حاجة إلى الطعام حتى لا ينفضوا من حوله بحثا عن الطعام فى دورهم، فيما الجرن الكبير محتشد بالناس، لذا فإنها أعدت له الطعام ليقدر على القيام بالمهمة وليجلب من يشاء من الأغراب، وكيف أن نساء السراسوة كلهن فكرن كما فكرت، وستحكى أيضا كيف أنها ظلت ساهرة طوال الليل تضع يديها على قلبها، وتمسح

براحتها على رأس ياسين تستمد منه اليقين بأن أباه عائد إليهما سالما، وكيف أنها عندما سمعت طقطقات البنادق قرب الفجر آتية من بعيد كاد قلبها يتوقف، و لم يذهب عنها الجزع سوى يقين غامض بأن الشيخ عمر فى طريقه الآن إلى العزبة، عائد بعد إتمام المهمة المطلوبة.

وكان الشيخ عمر قد رفض الخروج على رأس المغيرين على خط السكة الحديد ما لم يقسموا بألا يراجعوه فى قرار يتخذه، وعلى مضض أقسموا، كانوا جماعة من خيرة شباب العزبة ورجالها، ومن عمال الوسية، ومع انتصاف الليل انطلقوا يشقون الغيطان فى طريقهم إلى المنطقة الواقعة بين برقين و"أبو" الشقوق، حيث لا يتعرضون للاصطدام برجال برقين أو رجال كفر غنام، أو حتى الاصطدام بعساكر الاحتلال الذين ينبثون على طول الخط لحراسته ومنع الثائرين من تخريبه، وكانوا قد وضعوا خطة تتطلب أن يضعوا نقاط مراقبة فى طرفى المكان الذى سيهاجمون فيه، واتفقوا على إشارة معروفة يصدرها المراقبون إذا ما رأوا أحدا أو وضعا يبعث عن القلق، أيا كان مصدره.

نصف ساعة كانت كافية لأن يصلوا إلى المكان المتفق عليه، نقطة تبعد عن برقين وعن كفر غنام، وعلى بعد مئات الخطوات من الجانبين كمن المراقبون، الشيخ عمر على رأس أحد الكمينين، والشيخ كامل السيد على رأس الكمين الآخر، فيما تقدم طه إبراهيم ومختار الضبع وشاهين الطحان بأدواتهم ومعهم بعض من نجارى السواقى العاملين فى وسية بشاى، اختارهم الشيخ زكريا لمعرفتهم بكيفية فك الفلنكات ورفع القضبان وغيرها من الأمور الشاقة التى يحتاج التعامل معها إلى خبرة من هذا

النوع، ومن موقعه فى الكمين جاءته أصوات طقطقات الفلنكات التى تخرج من أماكنها ودحرجة القضبان لتسقط فى المنخفض الموازى للخط، وكانوا قد اتفقوا على أن يزيلوا خمسة أقصاب على الأقل من الخط حتى يصعب على قوات الاحتلال إصلاحه فى زمن بسيط، وإذ وجد الشيخ عمر أن المغيرين قد أنجزوا المهمة فى زمن قياسى وأن بشائر الصبح لم تطلع بعد رأى هو والشيخ كامل السيد أن يهاجموا فى مكان آخر، وعلى الفور انتقلوا بضع مئات من الأقصاب فى اتجاه الشرق، وصنعوا نقطتى مراقبة كما فعلوا من قبل، وباشروا فك الفلنكات وسحب القضبان من مكانها.

وفيما هم منهمكون فى عملهم رأى الشيخ كامل أن يحمل بعضهم الفلنكات لإخفائها بعيدا، فخطتهم لا تكتمل إلا بإخفاء الفلنكات والقضبان المستعرضة التى تحمل القضيبين الكبيرين فوقها، ولم يكن معهم جمال أو ركائب تحمل عنهم تلك الأشياء لإلقائها بعيدا، ولم يجد الشيخ عمر بدا من تعديل الخطة، فطلب من الثائرين الابتعاد عن الخط المقطوع والكمون فى قلب الغيطان ريثما يذهب هو والشيخ كامل إلى كفر غنام القريبة، ففيها أخوال الشيخ كامل، ويمكنهم إذا نجحوا جلب الإبل والمطايا والمزيد من الرجال للمساعدة فى نقل الفلنكات والقضبان إلى مكان بعيد، وأوصاهم إن رأوا ما يريب الانصراف من المكان والعودة إلى العزبة عبر الغيطان، وبرغم أن طه إبراهيم رأى أن يواصلوا قطع المزيد من الخط حتى يعودا من كفر غنام إلا أنه اضطر إلى تنفيذ الأمر انصياعا للقسم الذى أقسمه فى جوف الليل فى مندرة سليمان فى الدار الكبيرة.

فى كفر غنام استيقظ الرجال، وفى زمن قياسى صاروا على أهبة

الاستعداد، وتجمع العشرات يقودون إبلا كثيرة ومطايا، وانطلقوا صوب المكان، لم يكن الصبح قد انبلج بعد، وكان طه إبراهيم ورفاقه قد اهتدوا إلى طريقة يعرفون بها ما إذا كان أحد قادما من بعيد أم لا، يضعون آذانهم على القضبان ومن خلال الطنين يعرفون هل يجيئ أحد أم لا، وفى إحدى مرات التسمع رفع مختار الضبع رأسه وأقسم بأنه يسمع طنينا قادما من بعيد، ورجح أن يكون قادما من جهة الشرق، وصدر الأمر بالابتعاد عن الخط والدخول فى الغيطان، لكنهم وجدوا صعوبة فى إخفاء الإبل والمطايا، وبالكاد استطاعوا أن يدفعوا بها إلى الغيطان بعد أن تكاثروا عليها ودفعوها من الخلف دفعا لتنصاع لهم، وإن هى إلا دقائق حتى سمعوا نداءات الجنود على بعضهم البعض.

لا يعرفون اللغة التى يتحدثون بها، لكنهم خمنوا أن أحدهم يبلغ الآخرين بأن تخريبا وقع فى الخط فى هذه المنطقة، وسمعوا أصواتا قادمة من بعيد، وخشخشات بنادق يعدونها للإطلاق، فلقد توهموا أن الثائرين يكمنون هنا أو هناك فأطلقوا أعيرة نارية فى كافة الاتجاهات، مرت بعضها فوق رؤوس المختبئين، وكان مرافقوا الإبل والمطايا قد ابتعدوا بها فى قلب الغيطان و لم يتوقفوا، أما الرجال فكمنوا بين زراعات الذرة التى أحكمت إخفاءهم، ومن مواقعهم رأوا أشباح الجنود يجرون هنا وهناك، وبعضهم يأتى من بعيد من جهة الغرب، يعلن عن تخريب آخر للخط، كانوا فى عجلة من أمرهم، وهمس مختار الضبع فى أذن خاله الشيخ عمر يجزم بأن قطارا قادما من بعيد، فلقد سمع بأذنيه وهو يتسمع هزهزات مضطردة وطنين متواصل، أثقل كثيرا من مجرد أقدام تدوس هنا أو هناك، وإن هى إلا

دقائق حتى أخرج الجنود مصابيح ضخمة رفعوها إلى أعلى فى اتجاه القادم من الشرق، ومن بعيد أطلق القطار صرخة طويلة جعلت الرجال يلتصقون بالأرض ويتساءلون إن كان الوقت مناسبا للانسحاب.

انسحبوا عبر الغيطان فى اتجاه العزبة، والتفتوا فرأوا على ضوء مقدمة القطار العساكر ينتشرون فوق الشريط، وكانوا يطلقون النار من قبيل الاحتياط، وهبطت من القطار أعداد غفيرة من الجنود راحوا يصوبون بنادقهم صوب المجهول ويطلقون فى كل اتجاه.

وكانت الإبل المحملة بالفلنكات قد أوغلت فى البعد فلم يلفت الهرج الذى وقع بسبب خوفها من أصوات البنادق النظر إليها، وبرغم أنها نعرت بأصوات مرعوبة إلا أن نعيرها ذهب أدراج الرياح، وابتلعه الليل فى جوفه، وتفرق الرجال طبقا للأمر الصادر لهم من الشيخ عمر، ليلتمس كل منهم طريقه للعودة إلى داره، لكنه هو والشيخ كامل السيد رافقا أصحاب الإبل والمطايا المحملة بالفلنكات لإخفائها بعيدا، ولم يجدوا أفضل من ترعة بعيدة عن المكان لإلقاء حمولتها فيها، وأكمل الجميع طريقهم صوب العزبة والصبح يطرق الأبواب.

لم يعرف أحد من السراسوة ما حدث لمختار الضبع إلا عندما طرقت العمة أم الخير باب رئيفة لتسألها عن بعض من السمن البلدى لتسيله وتسقيه لابنها، وعندما سألت رئيفة عما به أخبرتها بأنه عاد محمولا على أكتاف الرجال، وأخبروا أنه سقط فى إحدى القنوات عندما ضرب الجنود عليهم بالنار فداسته الإبل المحملة بفلنكات السكة الحديد، وأحضروا "أبو" منصور فأمر بأن يشرب كثيرا من السمن البلدى، وأن يتلع على

الريق عشر بيضات نيئة، و لم تكن رئيفة لتدعها دون أن ترافقها إلى دارها لترى ما حدث لمختار، فهو ابن أخت زوجها وحبيب أخواله، وَهى لم تر الشيخ عمر منذ عودته إلا لبضع دقائق، تركها بعدها وانطلق يرافق رجال كفر غنام الذين نزلوا ضيوفا علي الشيخ كامل، فالأخبار تترى أن عسكر الانجليز يقطعون الطريق على المارين.بموازاة خط السكة الحديد، ويفتشون الجميع، وأنهم كبسوا برقين وكفر غنام وطرانيس العرب وعزبة الشترى و"أبو" الشقوق و"أبو" قراميط بحثا عن دليل يعرف بالضالعين.

أيام عديدة مرت ومختار الضبع لا يتقدم خطوة واحدة، وساء الحال فأنزل مع البول دما متجلطا، فى البدء ظنوه دودة كبيرة أو ثعبانا دمويا تربى فى مثانته وأنزلته الإصابة مع بوله، لكن "أبو" منصور طمأنهم، فالنزف القليل الذى حدث عندما داسته الإبل هو ما فعل ذلك، وبعد يوم أو يومين سيتعافى، لكنه أبلغهم بقلقه من إصابات صدره، فهو يرجح أن ضلعا على الأقل أو ضلعين قد حطما، وطلب أن يراقبوا تنفسه فى الأيام القليلة القادمة، وألا يتراخوا فى إعطائه أكواب السمن البلدى السائلة فى موعد كل وجبة، وامتلأت العزبة بحكايات قطع السكة الحديد، وبطولات مختار الضبع وطه إبراهيم ومؤمن إبراهيم وشاهين الطحان، وبخاصة مختار وشاهين اللذين كانا يحملان القضيب المستعرض كل.بمفرده ويلقيه بعيدا كأنه ريشة، وتكالب الجميع على دار أم الخير التى ترملت على ابنها ليعودوا بطلهم الجديد، عدا سليمان، وتساءل الجميع:

– أليس ابن خالته؟!.

لكن حرفا واحدا من التساؤلات التى لا تنقطع لم يصل إلى سليمان، فلقد كان منشغلا بالذهاب كل يوم إلى السنبلاوين لمقابلة هاشم حفظى، ولا يعود إلا بعد أن يتوغل الليل، يرافقه مؤمن إبراهيم كالعادة، وينتظره عند وكالة المطايا قرب محطة القطار، يأخذ معه جوالا من الخيش يفرشه بعد انصراف سليمان إلى غايته ويضطجع فوقه، وعندما يقرصه الجوع يمد يده فى الصرة التى أعدتها له زوجته، ويخرج الخبز والجبن ومخلل اللفت والكرنب والفلفل، حتى إذا ما امتلأت بطنه قام إلى زير قريب من مدخل الوكالة ليعب من الماء قدر استطاعته، ثم يعود إلى النوم فلا يستيقظ إلا إذا قرصه الجوع من جديد.

مؤمن أقرب الأبناء شبها بأبيه إبراهيم السرسى، أعطاه الله بسطة فى الجسم وقوة لا يدرك هو نفسه مداها، وعلى الجانب الآخر منحه عقلا طيبا بسيطا يجعله يتفانى فى خدمة أقربائه، لا يفكر كثيرا فيما وراء الأشياء أو الكلمات أو التصرفات، مهما كانت مغرضة أو متهكمة، أو حتى معادية، لكنه إذا أدرك العداء من وراء أى مسلك يثور ثورة تطيح بمن أمامه، أللهم إلا إذا كان ذلك المسلك من يوسف سيد احمد أو من سليمان، فهو يحبهما على نحو خاص، ولا ينفك يؤكد لكل من يتحدث إليه أنه تربى فى دار عمه سيد احمد، وأن لحم أكتافه من خير تلك الدار، وكان أبناء أعمامه يشاكسونه كثيرا عندما يقول ذلك، ويتحدثون عن النفايات التى تلقيها إليه سُلَيْمَة، وعما إذا كانت تكفى لتربية أى لحم، ناهيه عن أن يكون ذلك اللحم لحم أكتافه هو، وما أكثره!!، فيذكرهم بما كانت تفعله الجدة مريم، ابنة عمه التى لم تحرمه من شىء فى الدار الكبيرة، فكانوا من

باب السخرية يترحمون على الأيام التى ولت، وعن دولة سُلَيْمَة وشكران التى أخرجت الدار الكبيرة من عداد دور السراسوة، فحتى أطفالها لا يختلطون بأطفالهم، ولا يعرفون عن العمل فى الغيطان أو الحظائر شيئا، وإذ خرج يوسف إلى قرية أخواله وأصهاره فإن سليمان وزوجته وأبناءه يواصلون الانعزال عن العزبة والابتعاد عن الأهل، حتى عن عمته التى تولت تربيته، وأخواله الذين كفلوه ورفعوه فوق الرؤوس.

وطال المرض بمختار الضبع فحمله أخواله ذات صباح وذهبوا به إلى الطبيب، وهناك صنع له الطبيب قميصا من الجبس، إذ تبين أن هناك ثلاثة أضلع محطمة، وأن أحدها أحدث تمزقا فى الحشايا ونزيفا استمر فترة طويلة، لكن النزيف توقف فى النهاية، ولما عادوا به مع الليل خرجت العزبة عن بكرة أبيها لتكون فى استقباله، ولما رآهم مختار طفرت الدموع من عينيه وتمنى لو أنه واجه جيش الانجليز بأكمله، من أجل هذه اللحظة التى لا تتكرر، وحملته الأيدى بحنو لتدخله إلى الدار، فيما أم الخير تدعو لأختها بالبركة وطول البقاء، ولم تكن لتنبس ببنت شفة عن تقصير سليمان ابن أختها.

سيظل مختار الضبع حبيس قميص الجبس عدة أشهر، وكلما يبلى القميص يأخذه أحد أخواله إلى السنبلاوين ليصنع له الطبيب قميصا جديدا، وستكون داره مزارا لأهل العزبة والناس من القرى المجاورة، يعودون بطلهم الذى أصيب فى معركة مشهودة مع الانجليز، وستعاون رئيفة طوال الوقت فى شئون دار مختار بعد أن تقوم على شئون ابنها وبيتها، فتقوم مع الفجر لترتب دارها وتطهو الطعام وتملأ الزير والقلل

وتضعها فوق قاعدة النافذة، ثم تنطلق إلى دار خالتها أم الخير لترتب لها الدار وتنظف أى شيء يكون فى حاجة إلى نظافة، ثم تطهو لها ولمختار الطعام الذى يريدون، وفى الكثير من المرات تأخذ طفلها لتضعه إلى جوار الخالة أم الخير لتهدهده ريثما تنتهى من ترتيب الدار وطهى الطعام، وإعداد المندرة الصغيرة التى ستغص بالزائرين طوال اليوم.

وأخيرا ذهب سليمان ليعود ابن خالته، كان مختار متأثرا بشدة من إهمال سليمان له، فهو لم يزره مع الزائرين، ولم يرسل ليسأل عنه وهو الذى يبيت كل ليلة فى العزبة، ولم يكن لديه أى عذر فى التأخر عن زيارته، وعندما جاء لزيارته تظاهر مختار بالنوم، وأبى سليمان إلا أن يوقظه، وعلى جبينه الشاحب وضع قبلة مترددة، فهو على يقين من أنه قد تأخر كثيرا عن أداء الواجب نحوه، لكنه على كل حال هنا، فى دار خالته أم الخير، وبعد دقائق قليلة لن يكون بمقدور أحد أن يتهمه بالتقصير، وعن له أن يداعب مختار فسأله إن كان القيام بأعمال بطولية له شأن مختلف، وبالكاد أجابه مختار:

– ليت كل الأعمال من هذا النوع

ولم يتمالك سليمان فقال:

– إذن لتغيرت الدنيا

ولم يفهم مختار معنى محددا من حديث ابن خالته، فإذا كان هو الذى ولد وفى فمه ملعقة من الذهب يرى الدنيا بهذه العين الغاضبة فكيف لها أن تكون فى عينيه هو؟!، وإن كان ولد يتيما فهو أيضا يتيم، وهو

لا يدرك من ذكرى والده إلا صورا باهتة، كلما أمعن النظر فيها ضاعت ملامحها، أولى به هو أن يقول ذلك، وهو الذى نشأ يتيما ومعدما، ولولا جيرة خاله الشيخ عمر ورعاية خاله الشيخ زكريا، ومنحه أرضا فى وسية بشاى ليزرعها لعمل فى غيطان الناس بالأجر.

وحان وقت الانصراف فعن لسليمان أن يشكره على ما فعله، كأنه فعل ما فعل من أجله هو. ود مختار لو يخبره بأن ما فعله لم يكن لأجله أبدا، وإنما من أجل نفسه وأمه وأخواله وأعمامه والسراسوة، لا بل من أجل كل الناس الذين كانوا هناك فى جرن الدار الكبيرة عشية الأحداث، وهؤلاء الذين استقبلوه وهو عائد من لدن الطبيب فى السنبلاوين كأنه سعد باشا عائد من منفاه، لكنه لم يشأ أن يفسد السلام الذى يحط على داره، والسكينة التى شعرت بها أمه بعد طول انتظار، والحب الذى يغمر داره المعمورة بأنفاس أخواله وزوجاتهم وأبنائهم، وكأنما رأى خاله الشيخ زكريا كل ما يريد أن يقوله فى عينيه، أو فى فراغ الحجرة المفعم بالحرارة، فقال عقب انصراف سليمان:

– إنها مريم

وأردف بعد قليل من الصمت مع ابتسامة ممزوجة بشىء من الأسف:

– ربته على أن كل شىء مسخر لأجله، وكل الناس أتباع لإرادته

ولما رأى الحذر على وجه الشيخ عمر، وأدرك أن رئيفة قريبة وربما سمعت ما قال أردف بصوت خفيض:

– لعلها تعض الآن أصابع الندم

فى تلك الليلة فوجئ الجالسون فى مندرة مختار بالطفل قطب يدخل مسرعا ليختفى بين أرجل المتواجدين، لم تكن الجدة مريم لتهاب الرجال وتمتنع عن الدخول للقبض عليه، فكل الموجودين ليسوا إلا أبناء أعمامها وأبناءهم، ولقد كانت حتى يوم قريب أختا كبرى لهم وأما لأبنائهم، وكانوا جميعا يأكلون من يديها أطايب الطعام، يوم أن أقسمت لتكون لأبيها الابن الذى غيبه الموت، ولتجعلن دار سيد احمد السرسى أعز دار، وكان الطفل قد اختار عمه الشيخ زكريا ليحتمى به، ولما اقتحمت الجدة مريم الحجرة لتقبض عليه مد الشيخ زكريا ذراعيه، ولما رآها مصرة قال مستنكرا:

– كفى يا مريم

لكنها تجاهلت ما قال وقبضت على ذراع الولد وخرجت به من الدار.

وكان الولد قد جاءها فى تلك الليلة باكيا، ولما سألته عن سبب بكائه أخبرها بأن سُلَيْمَة زوجة خاله سليمان ضربته وطردته من الدار الكبيرة، وعبثا حاولت أن تعرف السبب، لكنه لم يقدم تفسيرا، لم يكن أمامها إلا أن تتجه إلى الدار الكبيرة لتعنف سُلَيْمَة على ما فعلت، لكنها تريثت حتى تعرف السبب، وانتظرت حتى هدأ الولد وقامت لتغير ملابسه تمهيدا للنوم، وفيما هى تلبسه جلباب النوم أعادت عليه السؤال ولكن بشكل مختلف، فهى هذه المرة تحتضنه وتضع القبلات فوق وجهه الأسمر الطويل، وترى من خلال عينيه السمراوين استجابة أمينة لسؤالها، ورأى

الولد أن يجيبها فأخبرها بأن حمدان ابن سليمة الأكبر اتهمه بسرقة قلم من الأقلام الكثيرة التى تذخر بها كيسته، ولما أوقفته سُلَيْمَة فى ركن الحجرة وفتشته أخرجت من ملابسه القلم المفقود، وباشرت بضربه بقنو بلح (*) قديم، وكشفت الجدة مريم عن ظهره وجنبيه وفخذيه فرأت آثار الضرب مطبوعة هناك.

الغضب الذى يتملكها لم يمنعها من السؤال عن السبب الذى من أجله وجدت سُلَيْمَة القلم فى ملابسه، وأدرك الطفل أنه استدرج، ولم يعد من سبيل للفرار من عقاب جديد، هو هذه المرة عقاب جدته، فهى ستعاقبه مرتين، مرة لأنه سرق قلم حمدان وهى دائما تعاقبه كلما فعل شيئا مشابها، ومرة لأنها لا تستطيع أن تأخذ له حقه من سُلَيْمَة، فهى إذا توجهت إلى هناك لتعنفها ستواجهها باتهامات له تجعلها تنكفئ عائدة إلى دارها والخزى يجللها، وقبل أن تتمكن منه لمعاقبته قفز من بين يديها وانطلق يسابق الريح.

فى الخارج كان الظلام قد طم، واستغلقت الدور على أصحابها، ولم يكن هنالك من مكان يذهب إليه، فأعمامه اعتادوا على أنه مسئولية جدته، وليس فى دار أحدهم متسع له، وأمه فى دار عمه، وهو لا يرى فى عينى عمه ترحيبا به، وهو يفضل الظلام والوحدة على تلك النظرة الكارهة.

فى تلك الليلة تعلم قطب الصغير البكاء الشافى من كل العلل، ذلك

(*) يستخدمه الفلاحون كمقشة، وله أطراف متعددة طويلة وثقيلة وبها مرونة، تشبه الكرباج المتعدد الأطراف.

البكاء الذى يشحن الصدر بالرضا، ويعمر القلب الخاوى بأحاسيس مختلفة عن تلك التى يعرفها كل البشر، تأخذه إلى عوالم مختلفة، وتضع فى قبالته أبا غائم الملامح مجهول القسمات، ويدور حوار يكون فيه هو السائل، ولا يعنيه كثيرا إن كان الوجه الغائم ذو الملامح المجهولة يجيب بأى شىء، وتضع فى قبالته أيضا أما خائفة، ترتعد فرائصها، حتى أنها لا تقدر أن تجيب على تساؤلاته، لماذا تركته لهذه الحياة المريرة، حيث لا يعرف الجميع إلا طريقا واحدا للتعامل معه، العقاب!؟، وتجعله تلك الأحاسيس يستشعر طعم الدموع المالح، تلك التى تتسرب إليه من زاويتى فمه المرتعش، وتعلم أيضا كيف يبكى بصوت غير مسموع، صوت يسمعه هو، ويسمعه قلبه الصغير المتلذذ بالألم، وعقله الباحث عن إجابات فى العوالم الرحبة التى يأبى خياله إلا أن يسافر فيها.

فى ركن الجامع أخذته العوالم المسحورة إلى رحاب النوم، فتكور حول نفسه واستغرق فيه، فى هذه المرة كان الرجل ذى الملامح الغامضة يعطيه ظهره ويمضى، لا يسمع من نداءاته حرفا، وأمه تقف مشلولة لا تقدر على أن تمد يدها إليه، وجدته تمسك بعصاتها وتلاحقه، وأهل العزبة يطاردونه، فيما هو قابض بيدين مرتعشتين على القلم الرصاص، ولما أدرك أنهم سيلحقون به قذفه إليهم، لكنهم ظلوا يطاردونه، كأنهم لا يفعلون من أجل القلم الذى ظن أنهم يريدونه، ولما أوشكوا على اللحاق به قفز من مكانه فألفى نفسه لما يزل قابعا فى ركن الجامع، ومن حوله تتنادى جنادب الليل، وتثغى قطعان بعيدة، تجتر مع الطعام ذكريات يوم آخر طويل، وعرف فى تلك اللحظة كيف يمعن النظر فى الأشياء المجردة،

وكيف يستشعر للألم مذاقات لا يستطيع أن يعبر عنها بالكلمات.

وفيما هو قابع فى ركنه البعيد شعر بأقدام تقترب، وعصا تدب فى الأرجاء باحثة عنه، إذن جدته لم تتركه لحاله، وتمنى لو كانت قد فعلت، وتركته يقضى ليلته فى تلك البراحات الشاسعة التى تمكنه من التعبير عن غضبه وألمه دون أن يضطر إلى الانفجار، وتمنى لو أنها تركته لخيالاته وآلامه التى تطهره وتصهره وتصلب عوده، وتجعله يرى الدنيا أكثر رحابة مما كان يظن، فلأول مرة يدرك هذا الصغير اليتيم أن فى البراحات متسع للجميع، وأن فى الوحدة ملاذات لا يستطيع أحد أن يدرك كم هى شاسعة، إلا هؤلاء الذين ينعمون بها بالفعل، الذين ينعزلون عن الناس لينعموا بالسكينة، وبتلك الآلام الصغيرة التى تدمى القلب، وتجعله ثقيلا إلى درجة غير منكورة، ما أعذب الظلم إذا أثقل القلب بتلك الآلام الغريبة!، نعم، فلقد أعطاه حمدان القلم بمحض إرادته، وعندما اختلفا بسبب لعبة صغيرة أنكر حمدان كل شيء، وادعى أن قلمه قد سرق.

لا يجديه أن يقسم بأغلظ الأيمان أن حمدان أعطاه القلم الرصاص، ولا يجديه أن يقف هناك مصمما على أن يقسم حمدان هو الآخر بأنه لم يفعل، فهو على يقين – وهذا أحد أهم دروس اليتم – أن كلماته لن تسمع، وسوف تصم الآذان من دونها، فلقد جرب مرة أن يطلب أن يقف هو وحمدان فى موقف متساو، واكتشف أن ذلك محض خيال، فحمدان يقف منتصرا قبل أن تبدأ المحاكمة، فلديه أبوه الذى يأتمر بأمره الناس، وتضعه الأسرة فوق رأسها كأنه تاج، ولديه أمه التى تستطيع أن تفعل أى شيء ولا يتجرأ يتيم حقير مثله أن يكذب ابنها، ولديه داره التى لا يمكنه

دخولها إلا بالسماح له بذلك، أما هو فليس لديه إلا جدته، التى تركوها فى دارها وانطلقوا يصنعون حياتهم ورئاساتهم من دونها، وفى لحظة واحدة وقد أدرك الولد أن جدته ميزته فى الظلام وأنها تتجه إليه هب من رقاده وانطلق ينشد الشارع من جديد، ووجد باب دار مختار الضبع مفتوحا فدخل ليحتمى بالجالسين هناك.

لما خرجت به جدته من دار مختار كان توسله يقطع نياط قلبها، لكنها وهى تمضى به أرادت أن تظهر للجميع أنها لا تزال كما كانت، مريم، العصية على الهزيمة، وبرغم ذلك فإنهم جميعا مصمصوا الشفاة وهى تمضى بيتيمها، وفى عقبيها انصرف الشيخ عمر ليلحق بها قبل أن توقع بالطفل العقاب، وهناك فى الدار أفاق على مشهد لم يتكرر فى حياته كثيرا، فلقد وجدها تنكفئ على حفيدها وتأخذه فى حضنها وتبكى، وفيما هى كذلك كان الطفل يربت بيديه الصغيرتين على كتفها، كأنما يهون عليها الأمر، وكل ما كان يقوله إنه بخير، يعرف أنها تبكى من أجله، ولكنه لا يعرف أنها إلى جوار هذا تبكى انقطاع أهلها عنها، فهذا سليمان أسقطها تماما من حسابه، كأنها لم تربه أو تقاتل يوما من أجله، وذاك يوسف حمل زوجته وأمه وطفله ولاذ بحمى أخواله وأصهاره، وأختاها الست ومهدية كفتا عن القدوم إلى العزبة، بعد أن رأتا من أفعال سُلَيْمَة وشكران ما يجعل زيارة العزبة مسألة ثقيلة على النفس ومحفوفة بقلة القيمة، وإذْ وجدها الشيخ عمر على تلك الحال استدار عائدا دون أن تلحظ وجوده.



ضريبة الوجود



منَع تخريب خط السكة الحديد تقدم القوات الانجليزية التى كانت فى طريقها من التل الكبير إلى المنصورة لإخماد الثورة التى اندلعت فى المدينة والقرى القريبة منها، وكذلك فى المدن المنتشرة حولها كحبات العقد، المنزلة والمطرية ودكرنس وفارسكور والزرقا وكفر سعد وشربين وبلقاس وبيلا وطلخا وسمنود وأجا وميت غمر والسنبلاوين، وتحت تأثير اتساع نطاق الثورة وتسارع إيقاعها وخطورة أحداثها أفرج الانجليز عن سعد باشا ورفاقه، ولعب الجنرال اللنبى دورا كبيرا فى إرغام لويد جورج رئيس وزراء انجلترا على الموافقة على إطلاق سراحهم، ولكن سعد باشا فى غير توبة أو ندم استأنف المطالبة بإنهاء الحماية الانجليزية على مصر، وتجددت الثورة وعمت الاضطرابات والمظاهرات والإضرابات عموم البلاد من جديد، وواجهت قوات الاحتلال الثوار بعنف شديد فسالت الكثير من الدماء، وأرسلت انجلترا لجنة برئاسة وزير المستعمرات اللورد ميلنر لدراسة أسباب الثورة، وإصدار توصيات بشأن ما يمكن عمله حتى يمكن إخمادها، ومن ثم تستمر السيادة الانجليزية على مصر.

أصدر سعد باشا أوامره بمقاطعة لجنة ميلنر، ومواجهتها بالمظاهرات والحشود التى تطالب بالاستقلال التام، وانتهت اللجنة إلى أن مصر التى لم تكن يوما جزءا من الامبراطورية يتعذر اعتبارها كذلك، أو ضمها للامبراطورية بعد الحرب، وبالتالى فإنه بدلا من أسلوب فرض الحماية ينبغى الاعتراف بها كدولة ملكية دستورية، حتى يمكن الحفاظ على الحقوق والمصالح البريطانية فيها من خلال معاهدة أنجلو مصرية، ووقع عدلى يكن باشا رئيس الوزراء فى مأزق كبير، فهو لا يمكنه المضى فى مباحثات حول هذه الأمور دون إشراك سعد باشا، وهكذا ترأس سعد البعثة الحكومية المصرية إلى لندن للتفاوض، وامتدت المباحثات أسابيع قدم فيها كل من الطرفين تنازلات، ثم انتهوا إلى وضع الأساس الذى سترتكز عليه المعاهدة، ففى مقابل الاعتراف بمصر كدولة مستقلة تحتفظ انجلترا بقوات كبيرة للدفاع عنها فى حال نشوب حرب، وأيضا لحماية مواصلاتها الإمبراطورية.

أصر سعد على رئاسة الوفد المسافر إلى لندن للتوقيع على نصوص المعاهدة التى تم الاتفاق على معظم بنودها فاصطدم برفض عدلى يكن، الذى سافر بمفرده ومعه الوفد المرافق له، وهناك ثاب لرشده وخشى أن يوقع على المعاهدة دون أن يوقع عليها سعد، الذى يستطيع أن يثير ضده الناس فيتهموه بالخيانة، وفى النهاية عاد دون أن يوقع، وضاعف سعد ورفاقه من احتجاجاتهم، وحرضوا الجماهير على التظاهر والإضراب من جديد فألقى اللنبى القبض عليه للمرة الثانية، ونفاه هذه المرة إلى جزيرة سيشيل، ولجأت انجلترا إلى إعلان اعترافها باستقلال مصر من

طرف واحد، فى بيان صدر فى 28 فبراير سنة 1922، مع تحفظات أربعة سلبت الاعتراف مضمونه، إذ أصر الانجليز على بقاء قواتهم فى مصر لضمان أمن مواصلات الامبراطورية، وللدفاع عن مصر ضد العدوان الأجنبى أو التدخل المباشر أو غير المباشر فى شئونها!، ولحماية المصالح الأجنبية والأقليات، وكذا مسألة السودان التى رأت فيها شأنا انجليزيا ينبغى الحفاظ عليه.

حظى السلطان فؤاد بلقب الملك وأطلق عليه اسم فؤاد الأول، وقامت لجنة بوضع دستور ارتكز على النموذج البلجيكى، نص فيه على تشكيل البرلمان من مجلسين، واحد للشيوخ وآخر للنواب، وأُفْرِج عن سعد باشا فعاد إلى مصر ليشارك فى الانتخابات التى ستجرى وفقا للدستور، وظلت مسألة السودان عائقا كبيرا أمام إبرام المعاهدة بين مصر وانجلترا.

انشغلت عزبة أحمد السرسى بأول انتخابات تتم بعد إصدار دستور 1923، فهاشم بك حفظى الحاصل على البكوية حديثا ابن حفظى أفندى باشكاتب المديرية السابق تقدم للانتخاب باسم حزب الوفد الذى شكله سعد زغلول باشا ممن قاموا معه قومة 1919، وانشق عن الوفد أناس رأوا فى سعد قائدا لمجموعة من الناس لا يعرفون الصالح الحقيقى للبلاد، واتهموه بالغوغائية والتضليل، وشكلوا مجموعة من الأحزاب، أهمها الحزب الوطنى وحزب الأحرار الدستوريين، وأعلن سليمان فى دار حفظى بك فى القاهرة أن السراسوة وفديون من قمم الرؤوس وحتى خُمُصِ الأقدام، وهكذا انطلقت الانتخابات فى أجواءَ عدائية لم يسبق لها مثيل.

تبعت عزبة أحمد السرسى دائرة كفر غنام، وهى الدائرة التى يتبعها موطنى قطبين كبيرين من أقطاب حزب الأحرار الدستوريين هما أحمد لطفى السيد بك ومحمد حسين هيكل بك، وكان ترشح هاشم حفظى بك يعنى أن السراسوة دخلوا فى عداء مع قريتى برقين بلد أحمد لطفى السيد بك وكفر غنام بلد محمد حسين هيكل بك، وما يتبعهما من قرى تقع فيها أراضى عائلتيهما، ولأن أم هاشم بك حفظى شقيقة عمدة المقاطعة، فإن قرى المقاطعة و"أبو" داوود السباخ والسمارة وصدقا وبيضاء السوق وحتى تمى الأمديد كانت موالية له، بسبب توغل الوفد فيها أيام جمع التوكيلات، وأيضا بسبب ارتباط سليمان السرسى بالكثير من الأسر فيها، تلك التى أمدته بالعون فى عضويته فى لجنة الوفد فى الدقهلية.

أبت الحكومة الموالية للقصر والمرضى عنها من قبل الانجليز إلا أن تنغص على الناس فتلاعبت فى تحديد الدوائر ومقرات التصويت، وفوجئ السراسوة بأن مقر تصويتهم سيكون فى برقين، عرين خصمهم أحمد لطفى السيد بك، نجم الأحرار الدستوريين، وكان المفروض أن يكون فى المقاطعة، إذ هى القرية التى تتبعها العزبة إداريا، لكن الإدارة المغرضة ألحقت عزبة أحمد السرسى فى مسألة التصويت ببرقين، وهذا لا يعنى إلا شيئا واحدا، وهو أن السراسوة إذا قرروا أن يذهبوا إلى هناك للإدلاء بأصواتهم فإنهم ولا محالة داخلون فى حرب لا يعرف إلا الله مداها.

ستبدأ من تلك اللحظة الأحداث التى عاينها بنفسه ياسين ابن الشيخ عمر السرسى، أولها الانتخابات التى أمكنه أن يتسلل برفقة ابنى خالتيه قطب وسليمان ويذهب معهما إلى برقين، ليعاينوا تلك الواقعة المشهودة

فى تاريخهم وتاريخ السراسوة جميعا، قبلها بشهور تشكلت لجنة فى العزبة لتسجيل أصوات الناخبين، وتمكن سليمان السرسى من تسجيل كل من تتوافر فيه الشروط، وعندما تقرر أن يكون مقر إدلائهم بأصواتهم فى برقين وقع اضطراب كبير، استلزم أن يسارع سليمان بالاتصال بهاشم بك حفظى للبحث عن حل لإنهاء هذا الاضطراب، وكان سليمان منذ وقعت أحداث قطع خط السكة الحديد وإصابة مختار ابن خالته قد انخرط فى شئون الوفد وغرق فيها حتى أذنيه، ولم يعد يمارس تلك الحياة التى كان يحياها قبل اندلاع الثورة، والتى مكنته من الاحتفاظ بقدر ما من التواصل مع أخواله وأقربائه، لكنه وقد انشغل بأموره فى الوفد فقد قدرا كبيرا من قدرته على التواصل معهم، أللهم إلا فيما يتعلق بعضويتهم فى الوفد ومناصرتهم له، وستتطاير بعد أشهر قليلة الأخبار مرجحة عزمه الزواج من ابنة أحد الزملاء فى لجنة الوفد بمديرية الدقهلية.

كل ما أعرفه عنها استقيته من أحاديث أبى، قال إن اسمها أمينة، وهى ابنة عائلة تنتمى إلى رجل كان يعمل خبيرا فى مكتب الخبراء التابع للمحكمة المختلطة فى المنصورة، رآها سليمان فى إحدى زياراته لأبيها، وأدرك صديقه محمد أبو العينين وزميله فى لجنة الوفد فى المديرية اضطرابه لمرآها فزين له طلبها من أبيها، لكن سليمان خشى أن يواجه طلبه بالرفض، فهو متزوج، وله من زوجته أبناء ذكور وبنت واحدة.

إن أحدثكم عن تلك الليلة الرهيبة التى عرفت فيها الجدة مريم أنه رزق ببنت وأنه أطلق عليها اسم زينب لن أقدر على تصوير مدى صدمتها، فلقد أدركت فى تلك الليلة البعيدة أنها خرجت من حياة ابن أخيها إلى

الأبد، وأخذت قرارها النهائى بطلب أرضها التى منحته إياها أيام كان طفلا، والقتال من أجل استردادها مهما يكون الثمن. ظلت أياما تمعن النظر فى قرارها، وتبحث عن طريق للمضى فيه إلى غايتها، و لم تجد أقرب من الطريق المستقيمة فأخذتها قدماها إلى دار ابن عمها الشيخ زكريا، وهناك بكت بين يديه وأبلغته بقرارها.

اجتمعت على سليمان أحداث أبعدته عن أخواله وأقاربه، ليس أولها خبر اعتزامه الزواج من ابنة أحد رفاقه فى الوفد، فهذه الزيجة إن صح الخبر ستكون سببا فى ابتهاج معظم السراسوة، كرها فى سُلَيْمَة وتشفيا فيها، وكان بعضهم وعلى الرأس منهم الجدة مريم يعتبر أن زواج سليمان من امرأة ثانية هو انتقام إلهى من امرأة فرضت على داره طوقا منع أهله عنها، وكانت حادثة مختار الضبع قد جابت أركان المنطقة كلها، وعرف الناس أنه لما طلب أبو منصور أن يشرب مختار كوب سمن بلدى سائل فى موعد الطعام و لم تكن داره لتقدر على الوفاء بهذا الطلب لجأت أم الخير إلى سُلَيْمَة لتمدها بالسمن المطلوب، وتعللت سُلَيْمَة بعدم وجود سمن فى دارها!، هى التى تحتفظ فى الكرار بزرويّات عديدة مترعة بالسمن البلدى حتى فوهاتها!.

لكن مجرد الشماتة فى سُلَيْمَة ليس بكاف لاعتبار زواج سليمان من امرأة ثانية مأثرة من المآثر، إذ هو لا يتزوج من أجل شفاء صدور الشامتين، وإنما من أجل نفسه، ثم إن الجدة مريم وقد أيقنت بأنها خرجت من حياته للأبد لم تترك دارا من دور العزبة إلا وزارتها، وهناك رددت حديثها حول مطالبتها بأرضها التى يحتفظ بها ابن أخيها رغم حصوله على أكثر

من حقه، وتسببه فى خروج عمه يوسف إلى الربع، ووصل حديثها إلى سليمان، من مصادر عدة، من منصور الطوخى وحسانين الضبع ومؤمن إبراهيم، وغيرهم من السراسوة الذين يترددون عليه بمناسبة انخراطهم فى مسألة الوفد، وأدرك الكثيرون أنه فى خلافه مع عمته وقع فى خطأ كبير، وكذلك عندما أطلق لزوجته العنان فأهالت التراب على تاريخ عمته الناصع، الذى يعرفونه حق المعرفة.

وجاءته الضربة الكبرى لما ابتعد أخواله عنه، فلقد أدرك الشيخ زكريا أن ابن أخته منذ هدأت الثورة ماض فى طريق لا عودة منه، يبرطع على غير هدى، مثل الإبل عندما يصفر الريح فى آذانها، وكان ابتعاد الشيخ زكريا عنه السبب الأكبر فى انحسار صلاته بالسراسوة، أللهم إلا من خلال بعض من أبناء العم يواصلون التودد إليه.

وبسبب غضب الجدة مريم انقطع خاله الشيخ عمر عن الاهتمام به، فالجدة مريم لم تعد مجرد ابنة عم، وما بينهما ليس مجرد تاريخ وكفاح قديم، هو الآن زوج صغرى بناتها، وله من ابنتها ولدين، فلقد رزقت رئيفة بابن ثان أسماه رضوان، وهذين الولدين يجعلانه منحازا إلى جانبها دون تردد، حتى ولو كان التحيز ضد ابن أخته الذى شارك يوما فى الحرب من أجله، وجاءت القاضية عندما تذمر طه إبراهيم وأعلن على الملأ أن هؤلاء الأكابر الذين يروحون ويجيئون، والذين لا تخلو منهم مندرة الدار الكبيرة، لا قيمة لهم إلا لأنه هو وأبناء أعمامه ثاروا على الانجليز وقطعوا شريط السكة الحديد، ومثلهم الثوار فى كل الربوع، ولولا بطولاتهم وجساراتهم لما كان لسليمان ذكر، سليمان الذى يستقبل ضيوفه من

البكوات والأكابر والأعيان ولم يعن مرة واحدة بتقديم أقاربه إليهم، بل هو فى الحقيقة حريص على النأى بنفسه وبضيوفه عن أهله، وسرى قول طه فى دور السراسوة فراحوا يرددونه، وأدرك سليمان أن دونه وأخذ أهله إلى برقين للإدلاء بأصواتهم صعابا يراها رأى العين، ولا يعرف كيف يتصرف حيالها.

يدرك أنه أهمل عمته كثيرا، وأنه إذا أراد أن يحشد السراسوة وأتباعهم ويأخذهم للانتخاب فى برقين عليه أن يتجنب ما يأخذونه عليه، وينطلق ليلحق بما فاته، يزور عمه يوسف فى الربع، ويضرب بالزيارة عصفورين، يستقدمه إلى العزبة ليظهر إلى جواره فيخرس الألسنة التى تتخذ من خروجه الغاضب من عزبة أبيه وجده سببا للنيل منه، ويتخذه وسيلة لاسترضاء عمته، وإزالة الجدار الضخم الذى يفصل بينه وبين أخواله، وبخاصة خاله الشيخ عمر، الذى يتوغل بهدوء فى قلوب السراسوة، ويعرف كل دقائقهم، ولا يشرع أحدهم فى شىء إلا بعد مشورته، أما خاله الشيخ زكريا فإنه على يقين من أن زيارة واحدة له وحديثا من القلب يتكفلان بإعادته إلى موقف النصير، وكان وهو فى الطريق إلى الربع يقلب الفكر فى موقف أصهاره فى عزبة سرحان، فهم غاضبون بشدة بسبب الأخبار التى تصلهم عن عزمه الزواج من امرأة ثانية، وهذا يعنى أنه مطالب بتهدئة الأمور معهم أيضا، ولكن كيف السبيل؟!.

أصهار عمه يوسف وأخواله فى الربع استقبلوه بالترحاب، فهم يفرضون السيطرة على الكثيرين من أهلها، ويمالئهم العمدة الذى يمت إليهم بقرابة من جهة أمه، وتبسم سليمان فى نفسه من أفعال القدر، فكلما

أحاطت به الصعاب يفتح الفرج له الأبواب، فها هم أهل الربع يقابلونه بترحاب لم يكن يتوقعه، فليفاتحهم إذن فى أمر انتخاب هاشم بك حفظى، على الرغم من ارتباطهم بعلاقات مصاهرة مع بعض من عائلات برقين، بلد أحمد لطفى السيد بك، أحد قادة حزب الأحرار الدستوريين الذى يتبعه المنافس عبد الجليل أبو سمرة، ومع مرور الوقت تكالب على دار يوسف السرسى فى الربع رجال من كل مكان، فما أن علموا بوجود سليمان السرسى فى دار عمه حتى توافدوا، يريدون أن يقفوا على آخر أخبار الوفد وسعد باشا، وأيضا تقديره للانتخابات التى تحدث لأول مرة فى تاريخهم، وكيف ستكون، ولم تعق الأصول التركية أصهار يوسف السرسى وأخواله من إعلان تبعيتهم للوفد، حتى ولو ترتب على قرارهم غضب أصهارهم فى برقين.

لم يعد من الربع إلا بعد أن تناول الغذاء، وصحبه فى العودة إلى العزبة عمه يوسف، مصطحبا ابنه الأكبر يحيى، الذى يضع جهازا غريبا فى قدمه المعطوبة، ليتمكن من الدوس عليها وإن بصعوبة بالغة، وكان منظره وهو يسير بمعاونة ذلك الجهاز المعدنى ممسكا بعصا تساعده على التوازن يصيب النفس بالحزن، لكن يوسف كان يصطحبه فى كل مكان يذهب إليه، وسيعتاد كلما جاء إلى العزبة لزيارة أقربائه أن يصحبه معه، ومع الأيام وتوالى الزيارات ستتكون بينه وبين أترابه من أبناء العائلة علاقات ستصاحبه حتى قبره، فالسراسوة لا ينسون قراباتهم، ويحيى الصغير برغم بشرته البيضاء وعينيه الزرقاوين يحمل فى داخله روحا سرساوية، ومن خلف خجله الذى تفرضه عليه عاهته تقبع نفس هادئة متأملة، وقدرة على

التمعن فى دقائق الأمور، قبس من قدرة جده سيد احمد السرسى.

الجدة مريم لم تصدق نفسها وهى تتأمل يحيى الصغير داخلا عليها يحجل بقدمه وعصاه المعاونة، لها أكثر من عام لم تره، انتفضت واقفة لتتلقفه فى حضنها، لا تدرى كيف وجدت فى حضنه الصغير رائحة أبيها، وكيف وهى تحتضنه سمعت دقات قلب محب، من خلف الطفل وقف يوسف متأهبا لاحتضان أخته الكبرى، التى رحل عن العزبة غاضبا من تصرفها، لكنه لم يقاطعها أبدا، ولم ينس حتى فى أحلك الظروف أنها هى التى ربته كما يجب، وحافظت عليه كما يجب، وأرسلته ليتعلم فى الجامع الأحمدى فى طنطا كما فعلت مع سليمان، ولما أتم دراسته هناك أعادته إلى عزبة أبيه وجده، حتى لا تتحقق فيه نبوءات الأقدمين من السراسوة، الذين أصابتهم لعنة الإيغال فى التعليم فى الأزهر الشريف، وإذ طالت ضمة الجدة مريم ليحيى الصغير نزلت دمعتان من عينى يوسف، وتجاوز أخته وجلس إلى أريكة مجاورة.

فى ركن الحجرة انزوى قطب كعادته، يرقب جدته وهى تحتضن يحيى بشدة، ويتعجب من فعلها، وعن السؤال المكبوت أجابته نفسه بأنها تفعل معه أكثر من هذا الذى يراه، فهى من تقوم على نظافته وإطعامه والدفاع عنه أمام كل الناس، وعلى الأخص أمام سُلَيْمَة وابنها حمدان الذى صار فى كل موقف يناصبه العداء، بسبب ومن غير سبب، وهى إذا كانت لا تأخذه فى حضنها كثيرا إلا أنها فى بعض الأحيان تفعل، وتكون يدها التى تمسح على رأسه الصغيرة بلسما يشفى جراحه التى لا يعرفها إلا هو، لكنه وهو فى انزوائه المتعجب فى ركن الحجرة لمح الدمعتين اللتين انحدرتا من

عيني خاله يوسف، وتساءل: هل يبكى هؤلاء مثلنا؟!، وراح يتابع خاله وهو يخرج من ملابسه الفخيمة منديلا من القماش الأبيض ويمسح به عينيه، وتمنى أن يكون له يوما مثل هذا المنديل.

امتلأت دار الجدة مريم ببناتها، فلقد أصرت على أن تعد طعام العشاء لأخيها، ولن يبرح حتى يتناوله، وعبثا حاول يوسف أن يعتذر، أو يطلب إمهاله إلى يوم آخر، لكن أخته أصرت على قولها، و لم يعد فى إمكانه أن يكسر كلمتها، وفى فناء الدار الصغيرة نشطت بناتها فى ذبح الطيور وإشعال النار فى الكوانين، وتضوعت رائحة الزفر فى سماء المكان كالعطر، معلنة عن عودة النشاط إلى الدار التى طال إهمالها، والتى يزورها الضيف القادم من الربع، ومع مرور الوقت زال الجليد بين يحيى الصغير وقطب، وكذلك بينه وبين ياسين وسليمان، وأبناء فطوم الذين جاءوا من "أبو" داوود السباخ، ونصبوا فى الجرن الكبير ملعبا مارسوا فيه ألعابهم الصغيرة، وكانوا يترفقون بيحيى ويعهدون إليه بما يناسبه من أدوار، واكتشفوا أنه شديد المهارة فى لعبة الطاقية فى العب، إذ كان يخفى الطاقية فى عب واحد من فريقه بطريقة يعجز أكثر اللاعبين مهارة عن اكتشافها.

كذبت الجدة مريم إحساسها، كانت طوال الوقت تسأل عن السر من وراء زيارة أخيها لها، وأرسلت فى طلب ابنى عمها عمر وزكريا ليتناولا الطعام مع أخيها، وكذلك حضر سليمان، ولكن بدون دعوة، وتصدر المائدة كعادته، وناب عنها فى إكرام وفادة الجميع، ومن موقعها فى قلب الدار راحت تنظر إلى ابن أخيها، لا تصدق أنه لم يعد يحرك فى قلبها

الأحاسيس التى كان يحدثها من قبل، ومن بين الأطفال كلهم لم يجلس إلى الطعام مع الكبار إلا يحيى الصغير وحمدان ابن سليمان الأكبر، الذى ظهر فجأة عندما اكتمل وضع الطعام، وتعجب قطب من حضور حمدان المفاجئ، فهو لم يشاركهم ألعابهم التى كانوا يلعبونها لساعات، وكان يرقبهم من وراء النافذة، ربما كان إحجامه عن المشاركة بسبب منع أمه له، لكنه ظهر عند اكتمال إعداد الطعام، وجلس إلى جوار أبيه يتناوله كأنه فى داره.

امتلأ الفناء بأحفاد الجدة مريم، تؤلم معداتهم الصغيرة روائح الطعام الشهى، وحتى لا يثيروا الهرج أو يتسللوا إلى المائدة قدمت لهم أمهاتهم أرجل الطيور والقوانص والرؤوس والأجنحة فتخاطفوها، وحدث من الهرج أكثر مما لو كانوا لم يُعْطَوْها، وحتى يهدأوا منتهم أمهاتهم بوليمة فاخرة، بعد انتهاء الضيوف من تناول الطعام، وإن هى إلا دقائق حتى هجم الأطفال على الأطباق العائدة من الوليمة، فاضطرت الأمهات إلى وضعها على الأرض فى الفناء، وتكالبوا عليها حتى أن أمهاتهم اضطررن إلى وضع المزيد من الأطباق العائدة هنا وهناك، وتحلق من حولها الأطفال يتناولون ما تبقى فيها ويطلبون المزيد، بأصوات صارخة ومحتجة، ولم يعدم الأمر بكاء طفل هنا أو آخر هناك، حتى أن شام الصغيرة أخت قطب من أمه انخرطت فى بكاء غريب لما أدركت بعد فوات الوقت أن الأولاد لم يمكنوها من أكل أى شىء يذكر، فاضطرت أمها إلى جذبها بعيدا واختصتها بطبق وضعت لها فيه ما يكفيها وزيادة.

ستظل ذكرى تلك الليلة البعيدة حية فى ذاكرة ياسين، وستظل الأفعال

التى أتاها الأطفال من أبناء وبنات خالاته متوهجة فى ذاكرته، حتى أنه وقبل وفاته بأيام قليلة وكان فى العقد التاسع من العمر عاد ليتذكر كل التفصيلات، وذلك لما أراد أحدهم أن يستوضح سبب العداء الذى ظل قطب ابن خالته يحمله لأبناء الشيخ سليمان من سُلَيْمَة، سيبتسم الحاج ياسين بوهن المشرف على الموت وهو يتأمل ملمحا لم يسبق أن ذكره من قبل، فهو يتذكر الآن، هكذا سيقول، أن واحدا من أبناء مؤمن إبراهيم كان واقفا هناك فى الفناء، وكان يتوق بشدة للطعام مثلهم، لكنه لم يستطع أن يزاحمهم كما كانوا يفعلون، فكأنها الدنيا يا فلان – هكذا سيقول الحاج ياسين وهو على فراش الموت مخاطبا السائل – فيها يجلس يحيى وحمدان إلى المائدة، وفيها يتقاتل أحفاد الجدة مريم فوق أرض الفناء على ما تبقى من الطعام، وما تقدمه لهم أمهاتهم من دعم، وفيها يقف ابن مؤمن على مسافة لا تسمح بالمزاحمة، ويُحْرَم الطعام، إلا عندما تتنبه رئيفة، فتبحث له فى الأوانى الفارغة عما يمكن أن يسد رمقه!!.

وحل وقت الحديث الذى تساءلت الجدة مريم كثيرا عن موعده، يوسف هو الذى فتحه، تساءل عما إذا كان اللائق بعد تلك الوليمة المشهودة فتح الصدور على اتساعها لإخراج ما فيها من أحزان وغضب، وذلك ليعود للسراسوة حضورهم ومجدهم، هكذا قال، وليقفوا فى وجه أعدائهم صفا واحدا كما كانوا طوال حياتهم، وعابثه الشيخ عمر قائلا:

– لسنا كل السراسوة يا ابن عمى

وأراد أن يستوثق من أثر اعتراضه على حديث يوسف فى كل الوجوه فجال فيها ببصره وهو يردف:

– نحن داران فقط، دار موسى ودار سيد احمد، فأين بقية الدور؟!

وأراد سليمان أن يعلق لكنه آثر الانتظار حتى ينتهى السجال بين عمه وخاله، وخاصة بعد أن قال يوسف:

– لا نريد أن نعقد الأمور يا ابن عمى

وخفض من صوته وهو يردف:

– تعرف أننا إذا اتفقنا سار السراسوة كلهم وراءنا

وكما فعل سليمان آثر الشيخ زكريا أن ينتظر نتيجة الحوار، ويرى إلى أين يفضى، وأطرق الشيخ عمر إلى الأرض قليلا ثم قال:

– قد تكون على حق، لكن هذا ليس لأننا نملك من الحقوق ما لا يملكون، فهم أيضا لهم أمورهم وحكاياتهم واعتراضاتهم ونظراتهم لما يجرى

ولم يستطع يوسف أن يجاريه فى السجال فنظر حائرا فى وجه الشيخ زكريا الذى استمر على صمته، وجاءه صوت الشيخ عمر مكملا:

– إلا إذا كنت ترى أنه ليس أمام سليمان من عقبة إلا أخواله وعمته

ضغط الشيخ عمر على الجرح بأقسى مما يجب، وانتفض سليمان فى مكانه، وتراوح بين التدخل فى الحديث وبين الاستمرار فى الصمت، فخاله عمر ذكر اسمه صراحة هذه المرة، بما يعنى أنهم يدركون بأنه من وراء كل ما يجرى فى هذا الأصيل، وأن حديث عمه يوسف ليس بالأصالة عن نفسه ولكن بالوكالة عنه، وطالما انكشف التدبير فعليه أن

يسارع بالتدخل وإلا ساءت العاقبة، وسعل تمهيدا للحديث ثم قال موجها الحديث لخاله عمر:

– ما العيب فى أن يتدارك ابن أختك ما فاته يا خال؟!

فى داخله قال الشيخ زكريا إن استهلال سليمان يكشف عن مدى براعته، فهو فى كلمة واحدة يقر بخطئه ويعتذر عنه ويبحث عن طريق لتداركه، وتلك هى أفضليته على السراسوة، إذ فيه من أبيه وجديه، سيد احمد وموسى، وفيه أيضا من ذاته التى تربت على التمعن فى الكلمة قبل إخراجها، و لم يجد الشيخ عمر إزاء إقرار سليمان بخطئه أو بتقصيره على أقل تقدير إلا أن يقول:

– إذن فلنبحث عما يغضب كل منا من الآخر، ونعمل على إنهاء كل الأمور

لم يدرك سليمان الفخ الذى نصب له إلا عندما أشار خاله عمر إلى عمته وهو يقول:

– لا أغضب منك مهما فعلت، وحتى عندما تبتعد عنى فأنا أقدر انشغالك بالكثير من الأمور

وجال ببصره فى الحاضرين:

– ويوسف لم يغضبنى يوما أو أغضبه، و لم تكن بينى وبينه علاقة وثيقة، أللهم إلا علاقة ابنى العم مع مراعاة فارق العمر، فهو فى عمر أبنائى

واستثقل الشيخ زكريا أن يسير الحديث فى هذا المجرى الذى لن يخرج عنه فتساءل:

- لماذا لا يتحدث كل منا فيما يأخذه على الآخر فنعرف سر الخلاف من أصحابه؟!

وأجابه يوسف:

- أيعنى هذا أنه ليس فى نفسك شىء من ابن أختك يا ابن عمى؟!

فأسند الشيخ زكريا ظهره إلى الحائط وتنهد قبل أن يقول:

- لا يا ابن عمى، ليس فى نفسى أى شىء من ابن أختى، فما يقصر هو فيه أتولاه أنا عنه، أو يتولاه خاله عمر، وكنا نفعل دائما

ولكن الجدة مريم لم يعجبها سير الحديث، فها هما ابنا عمها زكريا وعمر يتبرآن من كل المآخذ التى يأخذونها على ابن أختهم، ووجدت نفسها تعلن أنها تحمل فى نفسها أشياء من ابن أخيها، وأنها لا تدرى إن كان الحديث فى تلك الأشياء مناسبا لظروف الحال، تقصد أن أخاها يوسف حاضر، وهى إذا تحدثت فى أمر أرضها فستثير أمر الخلاف الذى وقع بينهما، والتى خرجت منه خاسرة الرجلين اللذين ينتميان إلى أبيها، الذى رحل ذات يوم وتركهما لها يتيمين.

لم يستطع الشيخ عمر أن يتقدم بأكثر مما قال، وكذلك فعل الشيخ زكريا، الذى خشى إن هو تدخل فى الحديث أن يفسر الأمر على أنه مجرد تنسيق بينه وبين شقيقه، لكن الجدة مريم لم تكن لتضيع الفرصة التى جاءتها حتى دارها، مهما كانت التحفظات التى يضعها الشيخان زكريا وعمر على تدخلهما فى الحديث، وأيا كان الضرر الذى سيلحق بجو الاحتفال الذى تعيشه دارها بوجود يوسف وولده، وكعادتها قامت من مكانها

وتوجهت بالحديث إلى الجميع:

– لى عند ابن أخى ستة عشر فدانا، أعطيتها له أيام كنا نبحث عن حق له فى أرض جده

وابتلعت ريقها:

– أما وقد حصل على نصيب يعادل نصيب عمه فعليه أن يرد إلى أرضى

لا يدرك أحد إلا هى حجم الغضب الذى يثور فى نفس ابن أخيها، فالتقلصات الصغيرة التى تتراقص فى صدغيه تنبئ عن حجم الثورة التى يختزنها فى جوفه، فهى تعرفه منذ كان طفلا، وتعرف أنه عندما يشعر بالغضب يعض على أضراسه حتى لكأنه يحطمها، والآن هى تراه يفعل، وترى تراقص صدغيه بالتوتر الدفين، واضطراره للابتسام وهو مطرق إلى الأرض.

لم يعقب أحد على قول الجدة مريم، فلا يوسف يقدر على التعليق، ولا يعرف كيف يعلق إذا أراد، وكذلك فعل الشيخان زكريا وعمر، ولما طال الصمت رأى الشيخ زكريا أن يضع حدا له فتوجه بالحديث إلى ابن أخته:

– الآن أنت سمعت ما قالت عمتك، فما ردك على ما طلبت؟!

رفع سليمان رأسه ببطء وآثار الابتسام الآسف لما تزل فى وجهه، وقال بصوت خفيض:

– عمتى تضع العقدة أمام المنشار، وأنا على يقين من أنكم جميعا برآء من تدبير ذلك

وأردف وهو واقف كأنما يتأهب للانصراف:

– كل ما لدى فى هذه الحياة هو ملك عمتى، ولها ما تريد وأكثر

وأوحت إليه تعبيرات الوجوه التى عمتها الراحة بالتراجع عن قراره بالانصراف فعاد إلى الجلوس فى مكانه.

الكلمات ليست قاطعة كما يتمنى الشيخان زكريا وعمر، ودا لو أنهما سارعا بأخذ تعهده فى أوراق مكتوبة، لكنهما التزما الصمت، و لم يكن بوسع يوسف أن ينبس فى هذا الأمر ببنت شفة، فهو على موقفه القديم من الاعتراض على ما فعلته أخته الكبرى، حتى إذا كان غضبه مما جرى قد خفت أو تبدد، والجدة مريم التى أسكرها حديث ابن أخيها اعتبرت أن ما قاله هو اعتراف بحقها فى استرداد أرضها، وهو إقرار أمام شهود لا يملك بعده أن يتنصل منه، وأغلقت باب الحديث.

لم تشأ أن تتحدث عن تجاهله لها، ولا عن تركه سُلَيْمَة تهمش دورها، وتغرى بها كل من تجذبه إلى صفها، ومن خلال عينيها الكليلتين بحلقت فى وجه ابن أخيها، وأحست لوهلة بتلك العاطفة القديمة، التى شعرت بها ذات يوم وهى تأخذه فى حضنها، ثم وهى تقاتل من أجل أن ينال حظا وافرا من الحياة، وأن ينعم بالنصيب الذى كان سيأخذه أبوه فى التركة لو كان حيا، ثم إنها فى ذلك الأصيل أخذت حقها من سُلَيْمَة وزيادة، إذ عندما قررت أن تولم لأخيها وأرسلت فى حضور بناتها صعرت سُلَيْمَة خدها وجاءت إلى دارها لتشارك فيما يجرى، لكنها وأمام بناتها المذهولات لم تتردد فى طردها، وقالت لكل من فى الدار:

– طالما أنا على قيد الحياة، لا تقبل إحداكن مشاركة هذه المرأة فى شأن من شئوننا

واجتهدت بكل ما أوتيت من قوة لتمكن عينيها الكليلتين من أن ترى آثار حديثها منطبعا فى ظهر المرأة التى انكفأت عائدة إلى الدار الكبيرة وآثار الانكسار بادية من تهدل كتفيها.

عندما انصرف يوسف صاحبه سليمان والشيخ عمر إلى الخارج، وكان الليل يوشك على الانتصاف، ورأى الشيخ عمر أشباح أناس يستترون بالظلام، فما جرى فى الاجتماع كان مثار تطفل الآخرين، الذين اجتهدوا قدر إمكانهم ليقفوا على سر الاجتماع وما دار فيه، وحده الشيخ زكريا هو الذى تباطأ ريثما تفرغ الدار من الجميع، وأمسك بيد ابنة عمه وقال:

– ألم يكن من المناسب أن تطلبى إثبات هذا التعهد فى أوراق يوقعها؟!

فبحلقت فيه بعينيها المنطفئتين، وبالكاد رأت ملامحه وعرفت من عينيه مدى صدقه، وتساءلت:

– أو يقدر على إنكار ما قال وقد تعهد أمامكم؟!

ووجد الشيخ زكريا نفسه يقول:

– لم أعد أعرف شيئا عن النفوس يا بنة عمى، ففى داخل كل منا شياطينه وملائكته

وانصرف ليلحق بالمنصرفين.

فى صبيحة يوم الانتخاب خرج السراسوة عن بكرة أبيهم، لم يتخلف

أحد، يتقدمهم الشيخان زكريا وعمر، ومعهما الشيخ كامل السيد، وعلى مشارف برقين قابلهم يوسف سيد احمد وبعض من أصهاره وأخواله.

فى الليلة السابقة كونوا فريقا جمع عصيا كثيرة وخبأها تحت جنح الليل فى أحد الأماكن عند مشارف برقين، تحسبا لوقوع عراك، ووصلوا إلى مقر الانتخاب فى أحد ملحقات دوار عمدة برقين الأسبق، ووجدوا العساكر منتشرين فى كل مكان، بأغطية رؤوسهم المميزة وسراويلهم القصيرة، وفى أياديهم شماريخ غليظة، فيما البنادق معلقة بإحكام إلى أكتافهم، ومن حول الملحق الذى سيجرى فيه الانتخاب يقف أهالى برقين متحفزين، ولما شعروا بقدوم السراسوة انتظموا بطريقة تثير الانتباه.

لم يصل سليمان السرسى بعد، وكان مقررا أن يصل فى نفس الوقت الذى يصلون فيه، و لم تمر دقائق حتى أعلن هرج كبير عن حضوره، ونظروا فإذا بصحبته هاشم بك حفظى، وانحاز إليهما السراسوة، وجرت تحركات من الجانبين أظهرت مدى الاستعداد لدى كل فريق، لكن السراسوة كانوا فى ذلك الصباح أقلية لا تقاس أبدا بأهل برقين الذى يتحركون فوق أرض هى أرضهم، وبين دور هى دورهم المغلقة على أسرارهم، لا يدرى أحد إن كانوا يخبئون فيها بنادق أو غيرها من الأدوات، وتقدم مختار الضبع ليكون أول من يصوت لدى لجنة الانتخاب، وكان سليمان السرسى بمعاونة منصور الطوخى قد اجتهد طوال الأيام السابقة ليعلم السراسوة كيف يصوتون.

جلس سليمان مندوبا عن عزبة أحمد السرسى ليتعرف على الناخبين، وأعلن أمام اللجنة أن المتقدم للتصويت هو مختار عامر أحمد الضبع،

وأعطاه مندوب اللجنة ورقة الانتخاب التى تشبه ما تمرن عليها طوال أيام، وعلى الفور أمسك مختار بالقلم ووضع علامة على رمز المركب وهو رمز هاشم بك حفظى، وبعد أن طواها ووضعها فى الصندوق المعد لذلك استدار خارجا، وواحد من الخفراء الواقفين عند باب اللجنة وضع على ظهرة علامة بعصا مغموس طرفها فى صبغة سوداء، وكانت علامة للجنود ليعرفوا من صوت للوفد ومن صوت للأحرار الدستوريين، وقبل أن تكتمل فرحة مختار بالخروج فوجئ بعشرات الضربات تنهال على رأسه وأكتافه من قبل الجنود المصطفين على الجانبين، ولما رفع يديه ليقى رأسه انهالت العصى على أضلاعه فسقط لتدوسه أقدام كثيرة، وأدرك أحدهم أن الفتى يموت فأتى بإشارة كف الجنود بموجبها عن مواصلة الاعتداء، وظل مختار طريحا حتى تقدم السراسوة فى حذر وحملوه وخرجوا به من المكان.

جراح مختار الضبع كانت بالغة، وأقبل عليه خاله عمر وكبس الجروح بالبن الذى حملوه معهم لمثل هذا الظرف، وتأكد بنفسه من أن عظام رأسه سليمة، وأنه يتنفس، وحاول أن يجس أضلاعه التى سبق أن كسرت فى تلك الليلة التى قطعوا فيه خط السكة الحديد لكن الفتى تألم كثيرا، وتدارسوا فيما بينهم مناسبة الاستمرار فى التصويت أو العودة إلى العزبة، ورأى الشيخ عمر أن يتريثوا فلا يدفعون بأحد إلى التصويت إلا إذا مر بعض الوقت، ومن ثم يعرفون إن كانوا هم المقصودين بالاعتداء دون غيرهم، لكن طه إبراهيم أبى إلا أن يتقدم للتصويت ضاربا عرض الحائط بكل التحذيرات، ومن خلال الفرجة التى صنعها صفا العساكر كطريق إلى

مقر اللجنة خطا بقدميه متجها إلى هناك، وقبل أن يلج من الباب رأى أن يلتفت ليرى مكانه بالنسبة للباقين، ورأى أعناق السراسوة تشرئب تحافظ للأعين على رؤية واضحة لما سيكون، وحزم أمره واجتاز الباب داخلا.

ابتسامة سليمان لم تبدد غضب طه الممتزج بالخوف، لكنه اعتاد ذلك الإحساس الغريب، الغضب الممزوج بالخوف، وكان وهو يضع العلامة على رمز المركب يدرك أنه يأتى بالخطوة الأخيرة فى مسيرة التأهب للاعتداء عليه، وهو ما جعل غضبه الممزوج بالخوف يزداد إلى أقصى حد، ولما استدار خارجا ورأى يد الخفير تمتد بالعصا لتضع على ظهره العلامة المتفق عليها أمسك بها، وكاد يشتبك مع الخفير الذى وقع فى ارتباك لم يعرف كيف يخرج منه، وهكذا تمكن من الخروج قبل أن يلحظ أحد، وكان العساكر على الجانبين يحلقون فى ظهره ليروا إن كانت ثمة علامة أم لا، ولما لم يجدوا شيئا تركوه يمضى حتى وصل إلى مكان تجمع السراسوة سالما، وهكذا انعقد اجتماع صغير اقترح فيه الشيخ عمر أن يتقدموا للتصويت اثنين اثنين، أحدهما يدخل إلى اللجنة فيما يقف الآخر عند الباب ليمنع الخفراء من وضع العلامة على ظهره وهو خارج.

استمر هذا الوضع لفترة حتى فطن الخصوم إلى ما يجرى فتغيرت الخطة، وفوجئ السراسوة بهجوم كاسح من أهالى برقين، وكان السراسوة قد تمكنوا من إخراج عصيهم من مخابئها فى الوقت المناسب، ودارت معركة كبيرة، أصيب فيها الشيخ عمر والشيخ زكريا وطه إبراهيم وأخوه ومؤمن، ومنصور الطوخى وحسانين الضبع، ونوح زكريا، الذى ظهر فى العراك ممسكا بعصا يقاتل إلى جوار أبيه، كما أصيب نفر من الغرباء الذين

يسكنون عزبة أحمد السرسى، وشارك قطب فى القتال، إذ كان يقذف رجال برقين بالطوب، ولما خشى أن يمتد الأمر إلى أن يقع ياسين ابن خالته فى يد البراقنة انسحب عائدا يجر ياسين جرا، ولم يثنه بكاؤه، فلقد أراد الطفل أن يرى ما الذى صار إليه حال أبيه، خاصة وأن ابنا طه إبراهيم ومؤمن إبراهيم أصيبا من جراء اقترابهم من العراك إصابات كبيرة، وكانا يقلدان قطب فى رجم البراقنة بالطوب.

الناظر إلى هؤلاء النفر من السراسوة العائدين إلى عزبتهم التى تبعد عن برقين مسير نصف ساعة فى ذلك اليوم البعيد لا بد متعجب من ذلك الإصرار الذى يدفعهم إلى تقبل كل تلك النتائج، فليس من أحد منهم إلا وبه من آثار المعركة إصابة أو أكثر، إما فى رأسه أو فى وجهه، أو فى أضلاعه وأطرافه، ولم يكن أى منهم يستشعر الندم من جراء ما فعلوا، فهم يدفعون ضريبة وجودهم فى قلب المكان الذى اختاره من أجل إقامتهم أبوهم أحمد السرسى، وهم يدفعون ضريبة إرادتهم واختيارهم بأن يكونوا من رجال الوفد، وقد صار حزبا ينافس فى الانتخابات، وليس فى إصرارهم على الذهاب إلى برقين لإعطاء أصواتهم للوفد إلا دليلا على تحمل نتيجة ذلك الاختيار، وليخرجوا من الصمت أثناء الإياب تندر أحدهم:

– حطبنا ورجعنا بأعراضنا

يقابل المثل الذى يقول، لا حطبت ولا رجعت بعرضها، وانفجروا فى ضحك ممزوج بالتأوهات، وانبرى آخر يذكر بما فى تاريخهم من أحداث، لا يقاس ما حدث اليوم بعشر معشارها، وتساءل:

– من منكم يعرف ما جرى ليلة الهجوم على مضارب الأعرابى عبد الله الجياصى؟!

وسمعوا ياسين الصغير يقول:

– أنا عالف الحتوتة

وقرصه قطب فى أذنه حتى لا يشارك فى أحاديث الكبار، يعرف أن السراسوة يعودون فى تلك اللحظة إلى حالة التوحد العظيمة التى تنتابهم فى الملمات.

دخلوا العزبة مع آذان العصر، وتوجه كل منهم إلى داره، لم يعد الشيخان زكريا وعمر معهم، آثرا أن يبقيا إلى جوار ابن أختهما حتى يخرج من هناك سالما، ولما عرف سليمان بما حدث خرج من اللجنة حيث تقابل مع خاليه، وصحبهما فى رحلة العودة، ووقف الليل متأهبا للقدوم وهم يدخلون العزبة، و لم يكن فى الشارع الكبير أحد ليدل على ما جرى فى غيابهم، حتى الكلاب هجعت إلى الأفنية، كأنها هى الأخرى ترقب ما جرى للرجال، وعلى طول الطريق إلى الدار الكبيرة رأوا نساء يهرعن خارجات من الدور ليختفين فى دور أخرى، وكما هرعن ذاهبات يعدن مهرعات أيضا، وأطفال يلحقون بأذيال أمهاتهم ولا تكاد أقدامهم تحط على الأرض، وقال الشيخ زكريا كأنما يحدث نفسه:

– هذا يوم تقررت فيه مصائر كثيرة

و لم يدر الشيخ عمر وسليمان ما يقصده، ولعله هو أيضا لم يكن واثقا من قصده، إذ سرعان ما أردف:

– من يدرى ما الذى يعنيه كل هذا؟!

ووجد الشيخ عمر نفسه يقول:

– نعم... من يدرى

عندما نادى المنادى بعد يومين معلنا نجاح عبد الجليل أبو سمرة مرشح الأحرار الدستوريين وسقوط هاشم بك حفظى مرشح الوفد انكفأت الدور المنغلقة على جرحاها وأحزانها، وبعد فترة خرج الرجال ينظرون فى وجوه بعضهم البعض،لا يطيقون البقاء فى الدور، وأخيرا علموا أنه برغم سقوط مرشحهم إلا أن الوفد نجح على مستوى البلاد كلها، وطافت روح أحمد السرسى بالمكان، فكأنها تبارك الأبناء الذين دفعوا من دمائهم ضريبة الوجود، وتمسح على رؤوسهم بالعزاء.



صندوق الجدة



ليلة قدوم أمينة الجمل زوجة سليمان السرسى الجديدة إلى العزبة كانت مشهودة، فلقد أخذ العقايلة ابنتهم سُلَيْمَة لتمكث لديهم أيام العرس، ثم تعود بعد السبوع، وقالت رئيفة لابنها ياسين لما سألها عن سبب ذلك إن المرأة التى يتزوج عليها زوجها تسكنها أرواح شريرة، فإذا ظلت فى الدار وشهدت عرس زوجها أحكمت الأرواح الشريرة قبضتها عليها وأصابتها بأمراض وعلل لا تمحى، أما إذا ابتعدت حتى تنقضى أيام العرس فإنها بقليل من الأوراد التى تقرؤها هى أو يقرؤها عليها غيرها تتخلص من تلك الأرواح، سألها الطفل فى براءة:

– هل تزوجكما أبى أنت والخالة إحسان فى ليلة واحدة؟!

وضحكت رئيفة ملء فمها:

– يجيئ لك إيه يا ياسين يا بنى!!، وهل يتزوج رجل بامرأتين فى ليلة واحدة؟!

فأجابها بحماس حبس الأحرف للحظة فى فمه:

– جدى أحمد السلسى.

ضحكت ملء فمها وسألته:

- من قال لك هذا؟!

أجاب بطلاقة هذه المرة:

- جدتى مَلْيَم

وبعد قليل عاد ليسأل:

- من منكما تزوجها أبى أولا؟

فرمقته بعينين لائمتين وأجابت فى اقتضاب:

- طين البِرَك

يعرف أنها تعنى الخالة إحسان، ويعرف أيضا أنها غاضبة منها إلى أقصى حد، فلقد وقع بينهما بالأمس شجار اجتهدت أمه ليظل فى حدود الدار، ولكن الخالة إحسان كانت تريد أن تجعله شجارا على الملأ، اشترك فى الشجار إلى جوار أمهما أخواه فتح الله وزكريا، فيما كانت الصغيرتان عز وحورية تنظران إلى إمهما فى دهشة، وأراد ياسين أن يقف إلى جوار أمه لكن أخاه فتح الله ركله فى بطنه فسقط على الأرض يتلوى من شدة الألم، وانتهى الشجار عند هذا الحد. انكبت رئيفة على ابنها وحملته إلى صدرها وهو يتلوى وأسرعت إلى حجرتها، ثمة هاجس يهاجمها طول الوقت، وهو أن فتح الله وزكريا ابنى زوجها سيقتلان ولديها، ياسين ورضوان، وما فعله فتح الله ينبئ عن صدق حدسها، لذا آثرت أن تفر من الشجار ليقف عند هذا الحد، وتترك لإحسان وابنيها أمر الصياح والكلمات النابية، وفى غفلة من أمها تسللت عز الصغيرة إلى الحجرة،

ولما وجدت ياسين مطروحا على الفراش اقتربت منه ووضعت يدها الصغيرة على بطنه، تريد أن تطمئن عليه، وتحجرت فى عينيها دمعتين فمسحت رئيفة براحتها فوق رأسها، وأراد ياسين أن يطمئنها فقال:

– أنا بِخَيْلٍ يا أختى

وكأنما أزالت كلماته حاجز البكاء فانطلقت الطفلة تبكى بصوت سمعته أمها، وانفجر رضوان الصغير يبكى هو أيضا، وسمع فتح الله بكاء أخته فدخل ليخرجها، ولما تمنعت أسقطها على الأرض وجرها إلى الخارج، وبكت حورية الصغيرة بحرقة، وأدركتها رئيفة قبل أن يدوسها فتح الله بقدميه.

لم تعرف الجدة مريم بأمر ذلك الشجار حتى انصرف الثلث الأول من الليل، كانت غارقة حتى أذنيها فى أحداث الدار الكبيرة، فأهل أمينة زوجة سليمان الجديدة ملأوا الدار برجالهم ونسائهم وأطفالهم، وكان سليمان قد استقدم من المنصورة طباخا تفنن فى إعداد ألوان من الطعام لم تعرفها عزبة أحمد السرسى من قبل، و لم يحظ بهذا الطعام إلا ضيوف سليمان وأصهاره الجدد، فلقد امتنع السراسوة عن حضور العرس، إذ فى عرفهم ما كان يجب أن يقام عرس على هذا النحو لرجل متزوج ولديه امرأة جميلة له منها أبناء يملأون الدار صخبا، لكن سليمان الذى يتزوج من أمينة الفتاة البكر لم يرد أن يحرمها من حفل عرس، وأقامه، وكان عرسا مشهودا.

لما علمت الجدة مريم بأمر ما حدث لياسين جاءت لتطمئن عليه، فلقد رفضت أمه أن يخرج من الحجرة فى ليلته إلى أن تتضح آثار الركلة التى

ركلها له أخوه، والتى تركت آثارها فى بطنه، وصاحب الاحمرار ورم سرعان ما أخذ مع تقدم الليل يكتسب شيئا من الازرقاق.

قطب كان بصحبة جدته، وكان فى تلك الليلة يرتدى جلبابا جديدا، ألبسته جدته إياه حتى يكون على ما يرام إذا ما اختلط بأطفال الأصهار الجدد، لكن أولئك الأطفال قدموا يرتدون ملابس مختلفة تمام الاختلاف، سترات غامقة قصيرة، وسراويل تصل إلى الركبة، وجوارب وأحذية لامعة، وقمصان ناصعة البياض أسفل السترات القصيرة، تزينها وردات سوداء عند التقاء الصدر بالعنق، والبنات كن يرتدين فساتين قصيرة لعند الركبة، بيضاء بها فراشات تكاد تطير وهن يخطرن هنا وهناك، وكلها لا تناسب جلباب قطب، لذا فإنه وبعد محاولات للتواصل مع الأطفال الضيوف وجد أنهم لا يفهون حديثه ولا يجيدون الألعاب التى يعرفها، وكانوا طوال الوقت ينظرون إليه بدهشة، أما البنات فى مثل عمره فكن يخشين الاقتراب منه، كأنه سيفترسهن، كل ذلك حكاه قطب لياسين المستلقى على فراشه يتحسس فى كل لحظة آثار الركلة الرهيبة، وعن لياسين أن يسأل "قطب" بصوت اجتهد ليجعله محصورا بينهما:

– أصحيح أنهم أخذوا سُلَيْمَة لأن فى داخلها عفاليت؟!

وامتقع لون قطب فسأل:

– من قال ذلك؟!

فألقى ياسين نظرة تجاه أمه ليرى إن كانت تتابعهما، ولما اطمأن إلى أنها مستغرقة فى الحديث مع أمها قال:

– أمى

تحركت رأس قطب فى اتجاهات كثيرة قبل أن يقول:

– هى ليست فى الدار

ثم رمق جدته بنظرة مستطلعة، ولما وجدها منشغلة عنهما أردف:

– وأولادها أيضا

والشيخ عمر الذى كان معروفا بالحلم لما عرف بأمر الشجار الذى وقع بين زوجتيه ثارت ثائرته، ولما رأى بعينيه آثار الاعتداء فى بطن ياسين خرج ليبحث عن فتح الله، لكن فتح الله كان قد فر فى اتجاه الغيطان فلم يعثر عليه، وكان الشيخ عمر منذ انتصف النهار قد توجه إلى دار أخيه الأكبر الشيخ زكريا، كأنما ليعلن هو وأخوه أنهما بريئان من فعلة ابن أختهما بزواجه من فتاة المنصورة، وبرغم أن الزواج من امرأة ثانية وثالثة لم يكن مستغربا أو مستهجنا إلا أنهما أرادا بابتعادهما عن أحداث العرس ووقائعه أن يبرئا نفسيهما من تهمة الكيد لسُلَيْمَة لقاء ما فعلته مع ابنة عمهما الجدة مريم، فهى منذ تزوج الشيخ عمر من رئيفة صغرى بناتها لم تعد مجرد ابنة عم، وكل شىء حول إذكاء الصراع فى دار سليمان لا بد وسينسب إليهما إن هما لم يتحسبا ويبعدا عن نفسيهما كل الظنون، لذا فإن الشيخ عمر وفور أن بدأت فرقة الهباب فى دق الدفوف فى الباحة الخارجية لدار سليمان إعلانا عن العرس سارع بالخروج من داره وتوجه إلى دار أخيه.

لا يعرف أحد أين ذهبت إحسان وأبناؤها، فبرغم أن رئيفة تستيقظ قبل الفجر بساعة على الأقل، وتأخذ فى تلاوة أوراد ما قبل الفجر،

إلا أنها لم تلحظ خروج إحسان وأبنائها، واتهمت نفسها بالتقصير، فهى لم تحسن التوقع، ولا يرضيها أن يؤدى الشجار إلى خروج ضرتها من الدار، إن غاضبة أو مطرودة، فذلك لن يؤدى إلا إلى مزيد من التوتر فى العلاقة بينهما، وستكون علاقتها بأهل ضرتها متوترة أيضا، وبخاصة زوج أختها الشيخ الأحمدى، الرجل الصالح ابن عائلة الشعابنة، وراجعت رئيفة نفسها فوجدت أنها بعد أن صلت الفجر، نامت قليلا، لا بد أن إحسان صحبت أولادها وخرجت إلى المقاطعة فى ذلك الوقت، ولما كانت الليلة بالنسبة للشيخ عمر هى ليلة إحسان فقد غم على رئيفة معرفة سبب الخروج، هل لأن إحسان هى التى أرادت، أم لأن الشيخ عمر طلب منها ذلك.

دار الشيخ زكريا هى الملاذ الحقيقى للسراسوة، فإذا كانوا قد أوكلوا إلى سليمان أمر تمثيلهم أمام السلطات، وتقرير الأمور المتعلقة بالانتخابات وغيرها، إلا أن دار الشيخ زكريا هى الدار الكبيرة الحقيقية، لذا فهى تحتشد ليلا أو نهارا بالعمال والخدم الذين لا يفرغون من الخبيز والطهى وتقديم الطعام للرائح والغا. وهنومة زوجته لا تعرف طريقها إلى النوم إلا إذا اطمأنت إلى أن الدار مليئة بطعام اليوم التالى، فمنذ يعود الشيخ زكريا من صلاة الفجر تبدأ الوفود بالقدوم، من السراسوة وعمال الوسية والرجال الذين يقومون بأعمال من.أجلها كضرب الطوب وبيطرة الثيران والأبقار وإعداد الأخشاب اللازمة لعرش الحظائر والمخازن ونجارة السواقى وإصلاح الطنابير والمحاريث ودق حدايد الزمام، وغيرها من الأعمال التى لا تنتهى.

لم يكن قلب هنومة ليكذبها وهى ترى انخراط زوجها فى علاقات فوق المعتاد مع غالب شاهين كبير عائلة الشهاينة فى المقاطعة، خاصة إذا كانت تعرف أن عبادية شقيقة العمدة محمد العبادى الشابة مات عنها زوجها، وغالب شاهين هو الصديق الأقرب للعمدة، لذا فهى تتوقع أن تنتهى علاقة زوجها القوية به بزواجه من عبادية، ترى ما تظنه فى عينى غالب شاهين المراوغتين، وفى جزء من جبهة زوجها الذى يضطرب كلما حاول أن يخفى شيئا، وتساءلت ذات مرة وهى تجلس أمام الفرن:

– ما جنس هؤلاء السراسوة!!؟

ولما اطمأنت إلى أنها تمضغ الكلمات كما يجب ولا يتنبه إلى ما تقول أحد أردفت:

– إنهم لا يشبعون من النساء!!

وصدق توقعها، فلقد وجد غالب شاهين أن الخلاف القديم الذى تلطخ ذات يوم بالدم بين السراسوة وعائلة العبادى وإن خبت جذوته إلا أنه ماثل للأذهان، ولا يدرى أحد متى تتأجج ناره، ورأى أن نسبا يقوم بين الطرفين سيكون فيه القضاء عليه للأبد.

لا يخفى على غالب شاهين أنه برغم تنظر الشيخ زكريا على أراضى وسية بشاى إلا أنه لا يحب أن يجوس خلال أراضيها، ففيها – كما يحكى فى ساعات الصفاء – رائحة عرق أبيه موسى السرسى، ويحلو له إذا ما احتدم الحديث أن يقسم بأنه وهو يجوس خلال الغيطان يسمع أنفاس جده أحمد السرسى ووقع حوافر مهرته، وليس لذلك إلا معنى

واحدا، هو أن الشيخ زكريا الذى يتذكر كل ذلك لن ينسى أبدا أن فعلة العبادى والد العمدة محمد العبادى هى التى حرمتهم استرداد الأرض، لما رفض أن يبيعهم إياها وباعها بليل لبنك الأراضى، الذى باعها بدوره لمكرم بشاى.

ما دفع غالب شاهين إلى المسارعة فى إبرام صفقة المصاهرة بين الشيخ زكريا والعمدة محمد العبادى هو ما جرى فى الانتخابات، فبرغم وقوف السراسوة إلى جوار هاشم حفظى مرشح الوفد، الذى هو ابن أخت العمدة، إلا أن السراسوة وعلى الرأس منهم الشيخ زكريا رفضوا أن يتعاونوا مع المقاطعاوية، وذهبوا فى تأييد هاشم حفظى كل مذهب إلا أن يكون ذلك بالتعاون مع العمدة، بل إنهم وبرغم تبعيتهم لعموديته لم يعترفوا أبدا بسلطته عليهم، ويتعمدون كلما سنحت الفرصة معارضة سلطته، بل ويتحدونه فى العلن، كأنما يبحثون عن عراك معه أو صراع جديد، ولا يقودهم إلى هذا الموقف إلا تلك الخرافات – هكذا يرى غالب شاهين – التى لا ينفك يرددها الشيخ زكريا، من مثل رائحة عرق أبيه وصوت أنفاس جده ووقع حوافر مهرته التى يستشعرها كما يقول كلما جاس خلال أرض الوسية، لذا يلزم أن يضرب فى أعقد نقطة لدى السراسوة، وأعقد النقاط تتمثل فى كبيرهم الذى لا ينازعه فى موقعه أحد، الشيخ زكريا.

لم تكد تمر أشهر على زواج سليمان من فتاة المنصورة حتى تزوج الشيخ زكريا من عبادية أخت العمدة محمد العبادى، وبمجرد أن انعقدت المصاهرة صار السراسوة درة تاج العمودية، وصار العمدة كلما حن إلى عقل رشيد يحاوره يصحب غالب شاهين ويأتى إلى مندرة صهره الجديد

الشيخ زكريا، حيث يجد فى حديثه معه آفاقا رحبة لم يكن يجدها من قبل.

لم تذهب هنومة إلى أهلها لتحبط الأرواح الشريرة التى تملؤها كما قالت رئيفة لابنها ياسين فى يوم غير بعيد، فقط انزوت فى حجرتها وضمت إلى صدرها أولادها، وكانوا يبكون كما تبكى أمهم، لكن "نوح" ابنها الأكبر الذى كان منشغلا بنفسه رأى فيما فعل أبوه حقا لا ينازعه فيه أحد، حتى لو كانت أمه، وقال لأقرانه:

– ستمضى الأيام ويندمل الجرح، ولا يبقى فى دار الشيخ زكريا إلا زوجتان تتنافسان على إرضائه

كل تلك الأحداث تسببت فى تأخير حسم ما طلبته الجدة مريم ليلة الاجتماع الذى حضره أخوها يوسف وابنا عمها زكريا وعمر، عشية الذهاب إلى برقين للاشتراك فى الانتخابات، والذى تعهد فيه سليمان أن يرد إليها أرضها التى يضع يده عليها، فمرة ينشغل بالانتخابات، ومرة ينشغل بزواجه الجديد، وها هو الشيخ زكريا ينشغل هو الآخر بزوجته الجديدة، ولا تعرف هى كيف تحرك الأمور إلى الأمام، فالأيام لا ترأف بها، وضوء عينيها ينسحب بصورة مضطردة، ولم تعد تقدر على تبين طريقها إلا بصعوبة بالغة، وقد ترى الظل فتظنه رجلا، أو المقشة فتظنها كلبا، وهكذا اختلطت عليها الرؤى، ولم تقدر على مصارحة نفسها بأنها أمست تقريبا عمياء. بودها أن تشرك الشيخ عمر فى همومها، لكنه حساس إلى أقصى حد، لا يريد أن يفسر تدخله بالرغبة فى الحصول على مزيد من الأرض لزوجته.

لم تجد إلا ابنتها رئيفة لتفضى إليها بهمومها، ورئيفة على يقين من أن أمها لن تمكث طويلا، فصحتها تتناقص يوما بعد يوم، ونور عينيها يواصل الانسحاب بطريقة محيرة، هى لا تشكو من شيء، ولم يسبق أن أصابها مرض فى عينيها، وهكذا أفضت رئيفة إلى زوجها بهواجسها، وطلبت أن يساعدها فى أخذ أمها إلى الطبيب فى المنصورة، فكل شيء يمكن تحمله إلا مصيبة العمى.

لما تقرر السفر إلى المنصورة لعرض الأمر على الطبيب أخذت الجدة مريم تبحث عن أشيائها لتعهد بها إلى رئيفة، ريثما تذهب إلى الطبيب وتعود، كل شيء كان قابعا هناك فى قعر صندوقها الخشبى القديم، الذى تحتفظ بمفتاح قفله معلقا فى رقبتها، تنحيه لدقائق عندما تغير ملابسها أو تستحم، ثم تضعه من جديد، ومع الأيام تعلمت كيف تنحنى لتفتح القفل دون أن تنزع المفتاح من رقبتها، وكما اعتادت أن تفعل فتحت القفل ومدت يدها لتخرج أوراقها وخاتمها المعدنى الذى حفرت اسمها عليه لدى أحد صناع الأختام فى إحدى زياراتها للمنصورة، وكان ذلك عقب الحكم ببراءتها من قتل المحضر والخفراء فى الواقعة الشهيرة.

عثرت على الأوراق فأخرجتها ووضعتها إلى جوارها، لكن بحث اليد عن الخاتم طال بلا نهاية، فهى لا تجد الخاتم فى كل أركان الصندوق، كاد صوتها يصرخ طالبا النجدة، لكنها رأت أن تبحث من جديد، وحاولت أن تنهض لتنحنى فوق الصندوق لا أن تجلس إلى جواره كما كانت تفعل، لكن قواها خارت وخذلتها قدماها، ومن جديد عادت اليد لتبحث، وحاولت أن تنظر لكن عينيها عجزتا عن رؤية أى شيء، وأجهشت

بالبكاء، لم يكن فى الدار من أحد، فقطب خرج فى الفجر ليساعد أبناء عمه منصور فى بعض أعمال الزراعة، ورئيفة فى دارها تقوم على شئونها وشئون إبنيها، فطفلها الجديد رضوان لا يكاد يخرج من وعكة إلا ويقع فى أخرى، أما تاج فإن سوء معاملة زوجها لها وتكرار اعتدائه عليها بسبب ومن غير سبب يجعل استعانتها بها تتم فى أضيق الحدود، فلم تكن تتردد على دار أمها إلا نادرا، وكذلك سكينة، فزوجها مريض وهى لا تكاد تفرغ من خدمته إلا سويعات تقوم فيها على شئون دارها وإبنتها، أما أمينة فقد رحلت إلى شبراهور رفقة زوجها ليعيشا هناك.

هى إذن بمفردها، فى الدار التى امتلأت بالبكاء الغريب الذى يصدر عنها لأول مرة، بهذا القدر وبتلك اللوعة، هى التى اعتادت أن تدارى دمعها تجهش الآن بالبكاء، وتستمرئ النشيج الخشن الذى يصدر عنها، ورأت أن تستنشق شيئا من السعوط فبحثت عن الحق فى جيبها، وإذ عثرت عليه حملت قدرا هائلا بين إصبعيها، وعند طاقتى أنفها سحبت نفسا عميقا، ملأ رئتيها بالمسحوق الذى يبث الخدر فى كل أوصالها. لم تكن قد قررت بعد كيف تسلك، وما إذا كان ذلك القدر من البكاء يكفيها، وأمام حاجتها الأكيدة إلى المزيد أطلقت عقيرتها من جديد، ببكاء منغم هذه المرة، كالعديد.

هى الآن فى حضرة كل من ماتوا، جدتها مريم تمد يدين مرتعشتين تكفكف دمعها، وجدتها سرية تنظر إليها بصلابة لتقويها، وأبيها سيد احمد يتبسم فى وجهها معزيا، وأمها تبكى وتدارى وجهها حتى لا تفت فى عضدها، وأخوها يحيى يشيح بوجهه الجميل وجلا، ومن خلف كل

هؤلاء يبرز وجه أسمر رائع، تختلج قسماته بالأسى والنبل، وجه زوجها يونس الراوى، الذى يكفيها الآن وزيادة.

لم تشعر بأنها نامت إلا عندما استيقظت على برد يخشب أعضاءها، يديها ورجليها وعنقها العارى، سقطت طرحتها من فوق رأسها لما استغرقت فى النوم، وأدركت أنها لا تزال إلى جوار الصندوق القديم، وخواؤه لما تزل تستشعره فى أناملها التى أطالت البحث فيه عن خاتمها، وانبثقت فى عقلها صورة سليمان، لا تدرى لماذا انبثقت فى الظلام صورته هو بالذات، وعبثا حاولت أن تتمعن فى وجهه لكنها لم تجد إلا خيالات غريبة، ولم تدرك أنها عادت إلى النوم، ورأت وجهه القمحى يبتسم مازحا، وجاءها صوته الواثق:

– علام تبحثين يا مريم؟!

أجابت فى لهفة:

– خاتمى

كان يواصل ابتسامته المازحة، وجاءها صوته يسألأ:

– وهل وجدته؟!

أجابت:

– لا

فتأهب للانصراف، ومدت يديها لتمنعه لكنه استدار خارجا، وفيما هو خارج سمعته يغمغم بكلمات لم تستطع أن تتبينها، واستيقظت لتجد نفسها إلى جوار الصندوق.

لم يعد لديها شك فى أن خاتمها فى حوزة ابن أخيها، ولكن كيف؟!، ومتى؟!، ولماذا يأخذ منها خاتمها دون غيره من الأشياء التى يذخر به صندوقها؟!، فهناك فى الصندوق أوراق أبيها، عقود أرضه ودوره العديدة، وأوراق تجارته فى القطن مع بنايوتى، وكل ما يريده ليثبت حقوقه على الأرض التى يضع اليد عليها، ما حاجته إذن لخاتمها، صدرها يعاف فرضية أنه سرق الخاتم من صندوقها، لكن عقلها يصر، وكانت فى ظلام الحجرة ترى كل شىء بوضوح، وجهه العابث وابتسامته الساخرة وإصراره العجيب على أن يحيط بكل شىء، ولما تمعنت فى وجهه أدركت أنها تغلق عينيها، وتراه بعينى خيالها، وفتحت عينيها فغرقت فى ظلام لا يرحم، وبالكاد مدت يدها وأعادت غطاء الصندوق إلى موضعه، وتحاملت على نفسها ووقفت، ثم أغلقت القفل وأخفت الأوراق فى طرحتها وخرجت تلتمس الطريق إلى دار رئيفة.

عشرات من الخطوات تفصلها عن دار رئيفة، لكنها وهى تتوكأ على عصا التوت التى صنعها من أجلها حفيدها قطب استرجعت قصتها مع ابن أخيها، ورأته بجسده الضئيل وجبته الجديدة وقفطانه المقصب وطربوشه الصغير الذى يميل قليلا فوق رأسه، جالسا فوق رجليها فى المندرة الكبيرة، التى تغص بالعمد والمشايخ والأعيان، وأبوها يجلس هناك فى الركن يتفرس فى الصغير الذى ألبسته عدته لتهزمه به، ورأته وهو يجلس ردف زوجها فوق المطية العفية التى خصصوها لنقله إلى كتاب أم جمعة فى "أبو" الشقوق والعودة به كل يوم، ورأته وهم يذهبون به إلى طنطا لينهل من العلم فى الجامع الأحمدى، ثم وهم يصحبونه إلى دمياط

ليلحقوه بفرع الأزهر هناك، ورأت كل صباحاته وهى تعد له مشروب ما قبل الإفطار، كوب كبير من اللبن المغلى تضيف إليه وهو ملتهب ملعقة كبيرة من السمن البلدى وقبل أن تفارقه حرارته اللاهبة تفقش فيها بيضتين طازجتين، وتضيف ملعقتين كبيرتين من عسل النحل، وتمزج كل ذلك ببراعة ثم تقدمه إليه ليشربه عن آخره.

كانت تسابق الأيام لتراه رجلا يعوض رحيل أبيه، ولما مات أبوها وترك لها يتيمه الآخر يوسف انكفأت فوقهما لتحسن تربيتهما، لكنها لم تشعر بخطئها إلا عندما أدركت أنها فى النهاية لم تفعل سوى أن عزلتهما عن الأهل، ودفعتهما ليتعاليا على أقاربهما، كأنهما قدما عن طريق آخر غير الطريق الذى قدم منه الناس، وعندما جاء الوقت الذى يفترض أن يردا فيه شيئا مما قدمته لهما اختلفا وتشاجرا، وخرج يوسف إلى أخواله وأصهاره فى الربع، فيما سليمان يصعر الخد ويصر على مناداتها باسمها المجرد، ليس كما كان يفعل وهو طفل، أو حتى وهو صبى، ولكن بإصرار الرجل الذى لا يعترف بأن هناك من هو أعلى منه شأنا، حتى ولو كانت عمته التى فضلته على بناتها ونفسها، وكما كانت تضطرب من الفرحة وهو يناديها باسمها المجرد وهو طفل صارت تضطرب من الغضب وهو يصر على مناداتها به، بغير توقير.

لم تدرك أنها صارت فى قلب دار رئيفة إلا عندما هزتها ابنتها قائلة:

– سلامتك يا أمى

فتنبهت، وابتسمت رئيفة كى لا تزعجها، فيما كان الألم يعتصرها،

فهى منذ فترة تشعر بأن أمها تندفع بخطى متسارعة فوق طريق منحدر، ورأت أن تسألها:

– خير يا أمى؟!

وأردفت:

– الليل دخل فلماذا لم ترسلى فى طلبى؟!

وأخذت بيديها وأجلستها فوق الأريكة، و لم تشأ الجدة مريم أن تجيب إلا بعد أن جالت ببصرها العليل فى الصالة الواسعة، ولما اطمأنت إلى خلو الدار سألت:

– أو لم تعد إحسان بعد؟!

وقبل أن تجيبها رئيفة أردفت:

– قولى لعمر لا داعى للذهاب إلى المنصورة

ثم أضافت بعد أن أمسكت بالأوراق التى كانت تخفيها بين طيات ملابسها وقدمتها لها:

– احفظى هذه الأوراق عندك

وأكدت:

– إخفيها حتى عن نفسك، وحاذرى أن يقع عليها أى واحد من أهل الدار

وفهمت رئيفة أنها تخشى أن تمتد يد فتح الله ابن إحسان إلى أوراقها فيبددها، إن جهلا أو كيدا فطمأنتها:

– لا تخشى يا أمى، سأحفظها بين قبتى وحزامى

وأبدت انزعاجها لقيام أمها بإلغاء مشوار الذهاب إلى الطبيب فى المنصورة، وحاولت أن تقف على سبب ذلك، لكن أمها لم تبلل ريقها بكلمة، فقط وقفت عند حدود ما قالت دون تبرير.

والشيخ عمر كان غارقا حتى أذنيه فى مشاكل داره، فاعتداء فتح الله على ياسين ينبهه إلى أنه لا بد وأن يلتزم الدار أكثر من ذى قبل، ليرى بعينيه كيف ومن أين تنبت الكراهية فى الدار الصغيرة، هو يصر على أن تعود إحسان من نفسها كما غادرت برأيها، فهو لم يدفعها للمغادرة، وبرغم تدخلها فى موضوع هو من صميم مسئوليته ألا وهو تأديب ابنه الأكبر فتح الله إلا أنه لم يشأ أن يعنفها أمام ضرتها، ولكنها تحينت فرصة خروجه ليصلى الفجر وغادرت، وبرغم إلحاح الشيخ زكريا عليه فإنه رفض أن يذهب لإحضارها.

شكت لها رئيفة سهر زوجها حتى منتصف الليل، فهو لم يعد يجيئ من مندرة خالها الشيخ زكريا إلا مع وجه الفجر، وتعجبت الجدة مريم برغم ما بها من هموم، فالشيخ عمر الحليم الملتزم ليس إلا رجلا آخر مثل كل الرجال، لكنها محملة بأثقال لا يقدر الجمل على حملها، فضياع خاتمها لا يعنى لديها إلا شيئا واحدا، وهو أنها شاخت إلى درجة تنذر بالخطر، فإذا كانت هى الشيخوخة والخرف فإن الإسراع باسترداد الأرض من ابن أخيها أمر لا يجب التراخى فيه، ولو لساعات.

لم تشأ أن تنصرف حتى تلتقى الشيخ عمر، وطال انتظارها حتى أشرف

الليل على الانتصاف، وعندما همت بالانصراف سمعت سعاله خارج الدار، وحتى تخرجه من الدهشة قامت لتنصرف طالبة أن يوافيها فى الصباح، ظن أنهما سيتوجهان إلى المنصورة لتعرض نفسها على الطبيب فأخبرته بأنها صرفت النظر عن الأمر لأيام قليلة، ونظر فى وجه رئيفة يحاول أن يقرأ تفسيرا لما غمض عليه، لكن رئيفة كانت قابضة على ذراع أمها عازمة على مرافقتها حتى دارها القريبة، وعند الباب بالضبط كادتا أن تصطدما بقطب، الذى كان مندفعا بشدة ليلحق بجدته، يريد أن يلعب مع ياسين قليلا قبل أن يتوجه مع جدته للنوم، لكن ياسين كان قد ذهب إلى النوم مبكرا، فلقد وعده أبوه بأن يصحبه إلى المنصورة فى الصباح، وذهب الطفل إلى النوم وهو يحتشد يحمل بأحلام دارت عجلاتها المبهجة وهى تأخذه إلى النوم.

معظم السراسوة كانوا شامتين فى الجدة مريم، تظاهروا بأنهم لا يعبأون بالأمر، إلا أنهم فى الحقيقة كانوا يتسقطون الأخبار من هنا ومن هناك، وكانوا طوال الوقت يحاولون الوقوف على حقيقة ما يدور، ممن هم على صلة بالدار الكبيرة، من مؤمن إبراهيم، وحسانين الضبع الذى لم يكن أحد ليستدرجه إلى قول شىء إلا إذا أراد هو أن يصرح به، ومن العمال والخدم، أو أحفادها إذا أمكن، فقطب فى رأيهم لم يعد يقف على الشىء الكثير مما يحدث، وما يستنبطونه من حديثه لا يشفى غليلهم، لكنهم فى الحقيقة كانوا واهمين، فالصبى يعرف كل صغيرة وكبيرة فى موضوع الخلاف بين جدته وخاله سليمان، ويستطيع أن يعرف ما الذى يفكر فيه خاله، وكان وهو يصحب جدته إلى دارها بعد أن انتهت من زيارة خالته

رئيفة يعرف أنها أخذت أوراقها لتحفظها لديها، ويعرف أيضا أن خاله لن يفرط بسهولة فى الأرض التى يضع اليد عليها.

الجدة مريم تعرف أن رجال العزبة لن يتدخلوا إلى جانبها إكراما لخاطر ابن أخيها، وبرغم أنها طوال عمرها كانت تخطط لينال ابن أخيها تلك الحظوة لدى أهله إلا أنها لم تتصور أبدا أن يكون ذلك على حسابها، هى وبناتها، حتى أن الشيخ زكريا رفض أن يتدخل فى الأمر، وهو الوحيد الذى يستطيع أن يواجهه، بل وأن يوقفه عند حده إذا لزم الأمر، فهو خاله الذى حارب إلى جوارها ليحصل له على نصيبه، وهو الذى شاركها فى تربيته، وأنزله مبكرا منازل الرجولة، وفوق كل شىء هو الوحيد من السراسوة الذى يجمع أهله من حوله، وتتوقف حياة معظمهم على كلمة منه، فهو مطلق اليد فى التصرف فى أرض الوسية، و لم يعد مكرم بشاى يتردد على العزبة كثيرا، وفى نهاية كل زرعة يتوجه الشيخ زكريا إلى "مصر" لإجراء المحاسبة معه، والنظر فيما سيكون من أمر المحاصيل التى تذخر بها المخازن التى تنمو باضطراد ملحوظ.

حجته أنه لا يريد أن يتدخل فى أمر سيخرج منه فى النهاية خاسرا، ولن يكون هنالك خاسر غيره، فما بين ابنة عمه وابن أخيها لا يعرفه أحد، حتى أقرب الناس إليهما، وفيما بينه وبين نفسه نحى باللائمة عليها، فلقد دللت ابن أخيها وربته على أنه أفضل من كل الآخرين، فشب مشبعا بذلك الإحساس، وكان وهو يتعامل مع الآخرين يشعر بالفضل لأنه يتبسط معهم، وشيئا فشيئا صار يمارس نفس الأمر معها، وبرغم أنها شجعته فى البداية إلا أنها سرعان ما شعرت بالخطر فراحت تغذى لديه الإحساس

بالانتماء إلى الأسرة الكبيرة، ولكن هيهات، فلقد انطلق الجواد وجمح، ولا يقدر على إيقافه، وها هى فى النهاية تواجهه بمفردها، ولا يريد أحد- إن ممالأة له أو شماتة فيها أو حتى كراهية فى دار سيد احمد السرسى كلها- أن يمد يده ليساعد فى إيجاد حل.

لكنها وهى تجس فرشتها لتعرف إن كان قطب قد نام أم لا أخذت نفسا عميقا وأخرجته ببطء، ومع خروجه استردت شيئا من عافيتها القديمة، وتصميما وإرادة ظن الجميع أنها فقدتهما، وتعجلت الصبح لترى ما سيكون من أمرها مع ابن أخيها، الذى يصعر خده ولا يأبه بها، والذى يظن أنها عاجزة عن فعل أى شىء، و لم يغمض لها جفن حتى جاءها صوت بعيد، فلقد صعد أحدهم إلى سطح المسجد الكبير فى المقاطعة ينادى بتواشيح الفجر، وفى هدوء غريب جلست فى فرشتها، مدت يدها فى الظلام وتناولت مصليتها المصنوعة من الحصير، وتمكنت من فرشها على الجانب الخارجى للسرير ثم باشرت الوضوء من الإبريق النحاسى الذى وضعته إلى جوارها قبل أن تتوجه للنوم، فى الطست النحاسى الصغير الذى اشترته لها رئيفة من سوق الأحد فى "أبو" الشقوق، وكانت وهى تصب الماء لتتوضأ تقرأ أدعية الوضوء، وبعد أن فرغت انطلقت تدعو لكل فرد فى السراسوة، وهى عادة أخذتها عن جدتها مريم الأولى، التى لم تكن تبدأ الصبح كما يبدأه الناس، إذ كانت تقوم قبله بأكثر من ساعة، تقضيها فى الدعاء لكل السراسوة، وكل من تعرف من غيرهم.

تعرف أن معركتها مع سليمان ستكون الأخيرة، وفى نفسها سخرت منه، فهل تعجز عن مواجهته وهى التى واجهت أباها نفسه؟!، تعرف أنها

لا بد أن تحسن اختيار الرجال الذين سيحكمون بينها وبينه، لكنها لا يجب أن تكتفى بذلك، فعليها أن تدعو للجلسة كل من يكره سليمان أن يكون على اطلاع بما يدور فى بيته، واتجه عقلها إلى أصهاره الجدد فى المنصورة، لكنها شككت فى قدرتهم على فهم كثير من أمور الأسر التى تعيش فى الريف، إذ هم أناس يعيشون فى المدينة ولا تحكمهم الاعتبارات التى تحكم الأمور هنا، واتجه نظرها إلى هاشم بك حفظى، صديقه المقرب، لكنها سرعان ما أخرجته من حساباتها، فهو يعيش فى "مصر"، وقد لا تسمح ظروفه بالقدوم، وإذا انتظرت مجيئة سيتبدد الوقت بلا فائدة، وأخيرا استقرت على أن تستقدم العمدة محمد العبادى، واندلعت نار فى صدرها وهى تهتدى إلى هذا الحل، لكنها فى النهاية تمكنت من إطفائها.

هل تدعو أخاها يوسف لحضور الجلسة؟، سؤال ظل يتردد فى داخلها طوال الوقت، وفى كل مرة كانت تحجم عن الإقدام على ذلك، فاقتسام أرض أبيها بينه وبين سليمان كان السبب الرئيس فى خروجه من عزبة أبيه وجده، وهى إذا دعته ليحضر قد يثير الموضوع من جديد، وتتفجر الجلسة دون أن تنال غرضها، وفى النهاية استكثرت أن تدبر جلسة حاشدة مثل ما تأمل دون أن يكون أخوها حاضرا، إذ سيعتبر الناس أنها وابن أخيها أخرجاه من عداد الأسرة، وظلماه ثم اختلفا أثناء القسمة كما يفعل اللصوص، وعندما وصلت إلى ذلك الحد حزمت أمرها على أن تذهب بنفسها إليه.

فى الطريق إلى الربع لم تكن الشمس قد طلعت بعد، الغيطان على

امتداد البصر تحتشد بالذرة، بعضها مزروع بالأرز التى صنعوا له خنادق ملأوها بالماء ليتمكنوا من ريها كلما احتاج الزرع للماء، وسألها ياسين الذى كان يجلس ردفها فوق الدابة:

– هل الخندق الذى حفله جدى موسى كان مثل هذه الخنادق يا جدتى؟

ابتسمت وهى تجيبه:

– شتان يا صغيرى، خندقنا كان كبيرا إلى حد لا يصدق

وبعد قليل من الصمت عن لها أن تسأله:

– من قال إن جدك موسى هو من حفره؟!

أجاب فى شرود:

– أبى

ورافقهما الصمت وهما يسيران بين الغيطان، ولم يمكنا المطية من التلكؤ حتى ينجزا مشوارهما سريعا، ورأت فى النهاية أن تقول:

– أنظر يا ياسين

ولما تأكدت من جذب انتباه الطفل أردفت:

– خندقنا القديم يا صغيرى حفره جدك الأكبر الشيخ أحمد السرسى، وأعمامك الكبار جميعا، سيد احمد وإبراهيم والسيد وسليمان ومحمد الطوخى وإسماعيل

وأصابت الطفل غصة، ونظر لجدته فى حسرة، وبالكاد سألها:

– كلهم عدا جدى موسى؟!

لكنها كانت تواصل الحديث:

– بل إن نساء العائلة اشتركن أيضا فى حفره

لكن الطفل الذى لم يستسلم قال:

– جدى موسى قام على حلاسته، وكاد يقتل وهو يدافع عنه، هكذا قال أبى

فأجابته بلطف:

– هذا صحيح، ولكن السراسوة جميعا فى تلك الأيام كادوا يقتلون، وليس جدك موسى وحده

ولم تشأ أن تمضى فى الحديث إلى أبعد من ذلك، وعزمت فى نفسها على أن تجمع إليها أبناء بناتها لتحكى لهم حكايات السراسوة كما تعرفها هى، وليس كما يحكيها آباؤهم، فلقد أزعجها ألا يرد ذكر أبيها على لسان حفيدها، وهو جده أيضا، وتمنت لو أنها سألت الولد عما يعرفه عن أبيها، جده سيد احمد، فربما أثار له والده أمر علاقته بمساعد السمدانى، وأمر خروج جده موسى بسبب ذلك، لكنها أحجمت فى اللحظة الأخيرة، فلقد بدت الربع غير بعيد، وبشائر الشمس كانت تنبت من خلفهما، وامتد ظلاهما فوق الأرض إلى ما لا نهاية، وعندما يمران بغيطان الذرة كان الظلان ينتصبان بحجميهما الحقيقين، وهى مسألة شغلت ذهن ياسين كثيرا فأراد أن يسأل جدته عنها، لكنه فضل ألا يفعل، وانشغل بمتابعة ثعلب صغير، خرج من بين عيدان الذرة يستطلع أمرا، ثم لما سمع وقع حوافر المطية اختفى كأنه سراب.

لا تصدق الجدة أن قلبها سيدق خائفا، فلأول مرة ستواجه مليكة في دارها، والمرأة الشرسة شكران، وهى لن تقدر على أن تتغافل عن فعلة أى منهما إن هما فعلتا شيئا سيئا معها، وربما لهذا السبب لم تستقدم "قطب" معها، ففضلا عن رغبتها فى أن تتكلل زيارتها لأخيها بالسرية فإنها خشيت أن تزداد أزمة حفيدها اليتيم من جراء تصرف أبناء يوسف حياله، مثلما يفعل معه أبناء سليمان، وكادت وهى تتذكر ذلك أن تعض على أصابعها، فهى التى ربت أخاها وابن أخيها على ذلك، وكذلك نَشأ أبناؤهما، و لم تكن تعرف أين توجد دار أخيها، فقالت لحفيدها:

– لنسأل أحدا عن الدار

وانتقى الطفل رجلا كان يصحب بقرة ضامرة وسأله، وأشار الرجل إلى دار بيضاء غير بعيدة تكاد تختفى بين الأشجار.



قضاة العرف



كأنها على موعد مع وجه جديد للحزن إذ فاجأتها أوضاع غريبة فى دار أخيها، فما أن استقرت الجدة مريم فى دار يوسف بعد ترحيب مليكة بها حتى عرفت أن شكران فى دار أبيها منذ أكثر من أسبوع، فلقد طلقها يوسف للمرة الثالثة، وعلى مدار الأيام السابقة استعانوا بكل الشيوخ الذين يعرفون، وانتهى بحثهم إلى أن الطلقة الأخيرة هى الثالثة، ويلزم لتعود لعصمته أن تتزوج من آخر، وهى محرمة عليه إلى أن تفعل.

جلست مع مليكة، وأقبل الأبناء ليسلموا عليها، جاء يحيى يجر قدمه المعطوبة، قبل يديها وقبلت رأسه ثم اختفى، وكذلك جاء عبد الماجد ورفقى ومليكة الصغيرة ونعم والطفلة الصغيرة نوران، ولم يكن يوسف موجودا، خرج إلى الغيطان مع الفجر كعادته، وقالت مليكة إنه لا يعود إلا بعد دخول الليل.

سيحكى ياسين بعد عقود كثيرة عن الرحلة التى اصطحبته فيها جدته إلى قرية الربع، مهد أخوال وأصهار خاله يوسف، وعن أول لقاء حقيقى له مع يحيى، كما سيحكى عن ذلك اللقاء العاصف الذى جمع

جدته بأخيها، وكيف تدخلت مليكة لتناصر ابنها، وكيف أصرت على أن يعرض على أعضاء المجلس العرفى مظلمته هو أيضا، بحيث ينال ما نقص من ميراثه فى أبيه، وكانت الجدة مريم على يقين من أن يوسف تحصل على نصيبه كاملا، ومن أن القول بأن حقه قد غمط هو مجرد ادعاء، ونار تزكيها مليكة كلما خبت، و لم يمنعها وجودها فى دار يوسف من أن تقول لمليكة ذلك.

فسليمان يستحق نصيب أبيه فيما لو كان حيا، بشرط ألا يزيد عن ثلث التركة، بالوصية الواجبة، التى يحصل بمقتضاها أبناء الابن المتوفى على نصيب أبيهم، ولأن نصيب يحيى لو كان حيا لا يزيد عن الثلث بل هو أدنى منه فإن ابنه سليمان يستحق نصيبه من التركة، وهو يساوى بالضبط ما حصل عليه يوسف، لا يميز عنه يوسف إلا بمقدار الثمن الذى ترثه مليكة، و لم يعد من أحد تضرر من توزيع التركة إلا الجدة مريم، إذ لم يرد إليها سليمان ما سبق وأعطته إياه لتكمل نصيبه قبل أن يحصل عليه كاملا، وفى النهاية حصل على نصيب أبيه فى التركة مضافا إليه الستة عشر فدانا التى أعطته إياها فيما مضى، و لم يقف عند هذا الحد، فلقد استغل عجزها ووحدتها ووضع اليد على نصيبها فى سكن العزبة والأجران والدوار، و لم تعد تحتكم إلا على الدار الصغيرة التى تؤيها هى وحفيدها اليتيم "قطب".

عادت من الربع بخفى حنين، فكلما لان أخوها واقترب من التعهد بالحضور تهب مليكة فى وجهه وتجادله لتثنيه عن قراره، وفى طريق العودة وضعت الجدة حفيدها أمامها وأمسكته حبل الدابة والعصا التى

تقاد بها، فلقد كانت ذاهلة عن كل شيء، حتى عن تفصيلات الطريق التى تكاد تختفى من أمامها، لضعف عينيها اللتين فقدتا الكثير من نورهما، وكأن حفيدها يعلم ما يدور فى رأسها انشغل بقود المطية والنظر فى قلب الغيطان ومحاولة إحصاء كيزان الذرة التى ترسل شراريبها على الأجناب كشعر البنات، وفيما هو منشغل بذلك سمع جدته تقول:

– ولكن هل تعرف يا ولد؟!

فأجابها متعجبا:

– ماذا يا جدتى؟!

– الولد يوسف أخى ابن سيد احمد السرسى بصحيح

و لم تنتظر حديثه وأردفت:

– أول ابن أسماه باسم أخيه، يحيى، وأول بنت أسماها باسم أمه، مليكة

وشاركها حفيدها الدهشة، ولكن بغير إدراك، وسمعها من ورائه تقول:

– سبحان الله، وابن أخى لم يعجبه اسم أبيه أو جده، أو أمه أو اسمى، أو حتى اسم أى واحد من أخواله

وسمعها تتمتم أيضا:

– يسمى حمدان، على اسم ابن مساعد السمدانى

وأكملت ذاهلة:

– قطيعة تقطع الاسم وأصحابه

صعق سليمان عندما عرف بتحركات عمته، وعبثا حاول وأد الأمر فى مهده لكنها كانت قد أتمت جولتها، فذهبت إلى عمدة المقاطعة وعمدة "أبو" داوود السباخ، كما ذهبت إلى عمدة غزالة، ورجته ألا يرد طلبها، فهى على يقين من أن حضوره سيشكل عقبة كبيرة فى وجه سليمان، إذ هو من الأحرار الدستوريين خصوم الوفد، وفى حضوره فضيحة لابن أخيها إن هو رفض أن يرد إليها أرضها، ونصحها عمدة غزالة بدعوة عمدة سنجها، وهو من عائلة واكد، ولما أخبرته بأنها لا تقدر على الذهاب طمأنها بأنه سيدعوه بنفسه، وفى طريق العودة من مشوار عمدة غزالة أدركت أنها لم تعد ترى بالكلية، فحتى زوالات الطريق التى كانت تمر كالسراب أمام عينيها انقطعت، و لم تعد ترى شيئا، أللهم إلا سديما أبيض يصير أسود فى الظلام.

فى داخل الدار كان سليمان هائجا من فرط الغضب، وكانت سُلَيْمَة تعتكف فى حجرتها شامتة فيه، فبدلا من أن ينشغل بتدبير مصالحه راح يبحث عن النساء، وأخيرا جاء بتلك الفتاة العجفاء من المنصورة، وأهملها، هى ابنة الحسب والنسب وفخر العقايلة كلهم، من أول صحراء بلبيس وحتى بطن الأرض المباركة، سيناء، وبينما هو يروح ويجيئ فى الصالة الفسيحة يضرب كفا بكف كانت سُلَيْمَة تعود بذاكرتها إلى تلك الأيام السعيدة التى أعقبت زواجها منه، والليالى الهانئة التى شعرت فيها بقربه منها، وامتلاء عينيه من جمالها وفتنتها، وتوجيهاته العجيبة التى صنعت منها امرأة مختلفة فى فراشه، تسلك كما يهوى، ولكن بحب، وتتحدث

بالكلمات التى يطربه سماعها، وتساءلت وهو يدور حول نفسه فى الصالة: ما الذى يعجبه فى تلك العجفاء التى تشبه سنافور المحطة؟!، تقصد زوجته الجديدة أمينة الجمل.

سيظل ذكر الجلسة العرفية التى سعت إليها الجدة مريم لاسترداد أرضها من سليمان حديثا مخفيا لعقود كثيرة، سينساها السراسوة على مدى جيلين على الأقل، لكن حمى الأسئلة التى انتابت بعض أحفادها عندما سقط الشيخ ياسين فى مرضه الأخير أخرجت الواقعة إلى النور، ولكن بميلاد عسير وصعب، فلقد اعتاد منذ كان طفلا أن يمجد خاله سليمان، ولا يذكر ما يقبحه، وأظن أن السائلين استثاروه حتى يحكى عن الواقعة، وعن رحلته مع جدته إلى الربع فى ذلك الصباح البعيد، وكانت أمه نفسها قد أحجمت عن ذكر أى شىء فى ذلك الخصوص، فقط تقول إن أمها أعطت لسليمان ستة عشر فدانا من أرضها لتساوى بينه وبين عمه يوسف، وفى الحقيقة فإن أحفاد الجدة مريم كانوا وهم أطفال ينظرون إلى أبناء سليمان على أنهم لصوص، سرقوا أرضهم وأموالهم، أو فى أحسن الظروف غنموا أرضا وبراحا ليس لهم، ولم يتعلموا أبدا كيف يردون الأمر إلى أصوله الصحيحة، فتقبيح الشيخ سليمان كما اعتادوا ان ينادوه كان من المحرمات، التى درج عليها رهط الجدة مريم السرسى، بناتها وأحفادها، وحتى أزواج بناتها.

فى ذلك اليوم البعيد امتنع السراسوة عن الاقتراب من الدار الكبيرة، ولا حتى من الدوار، فقط حضر حسانين الضبع ومؤمن إبراهيم، وامتنع طه إبراهيم عن الحضور. وكان سليمان قد توهم أن تستعين عمته ببناتها

وأزواجهن لفعل شيء دون حساب العواقب، ورأى أن يستعين بطه إبراهيم ليتفادى هذا الأمر حال حدوثه، لكن طه حمل الدعوة بين جنبيه وتوجه إلى الشيخ زكريا ليستشيره، وأشار عليه الشيخ زكريا بعدم الحضور، فدار سيد احمد السرسى – كما قال الشيخ زكريا – اعتادت أن تخفى تحركاتها عن السراسوة، وهم لا يلجأون إلى أقاربهم إلا عندما يعجزون عن مواصلة التخفى، وعليهم أن يتحملوا العواقب فى العلن كما اعتادوا أن يصنعوها فى السر، وهكذا خرج طه من العزبة متعللا بزيارة أقرباء لهم فى طمبول القريبة من السنبلاوين، وحرص على أن تراه العزبة كلها وهو فى الطريق إلى برقين ليأخذ القطار من هناك.

لم تستسلم الجدة مريم، أصرت على أن تولم لضيوفها فى دارها، وكان إصرارها ضمن خطة تقصد إلى ضرب عصافير عدة بحجر واحد، ليعلم ابن أخيها أنها لا تزال مريم القديمة التى صنعت مجد دار سيد احمد السرسى، والتى حفظت ذكرى أبيها من كل سوء، حتى المضمر منه فى النفوس، والتى ربته على خير ما تكون التربية، هو وعمه الأصغر يوسف الذى خرج غاضبا إلى الربع، وليعلم أيضا أنها لا تزال رغم عجزها قادرة على أن تولم للأكابر كما اعتادت أن تفعل، وإذا كان السراسوة يحجمون عن التحلق حولها كما اعتادوا طويلا فإنه ستثبت أنها ليست فى حاجة إليهم، فهى غنية عن مساهمتهم لها فى نكبتها ببناتها، نعم نكبتها، فهى منذ واجهها سليمان وتبجح فى وجهها لم تعد تطلق على خلافها معه إلا وصف النكبة، وأرسلت فى طلب بناتها، فطوم وأمينة وتاج وسكينة ورئيفة، وانطلقت النار فى الكوانين والأفران، وكانت وهى جالسة فى

حجرتها تسلم أذنيها للأصوات القادمة عبر النافذة، وبين الحين والحين ترى فى السديم قسمات أبيها.

لم يستطع سليمان أن يأخذ الضيوف ليتناولوا طعامهم لديه، فلقد رفعت عمته صوتها أمام الجميع، هى الداعية لهم، وهى ابنة سيد احمد السرسى، ولم يجد الرجال بدا من الانصياع إلى رغبتها، وابتدع بناتها طريقة لصنع مائدة ضمت الجميع مرة واحدة، حتى الحرافيش الذين نعموا بركن من الأركان، تناولوا فيه ما طاب لهم، وكانت قد نبهت على حفيدها قطب ألا يفارقها، وألا ينشغل عنها بأفعال الصغار الذين يجدون إثارة تلهيهم فى مثل تلك التجمعات، وفى نهاية الوليمة نادت على رئيفة وأمرتها أن تترك شيئا من الطعام لعشاء قطب وتوزع ما تبقى على دور السراسوة، بما فيها دورهن، وانقضى الطعام، وصب الأحفاد الماء على الضيوف ليغسلوا أياديهم قبل أن يتوجهوا إلى مندرة سليمان ليبدأ التحقيق.

لم يقدم لها أحد من السراسوة معونة تذكر، وكان لزاما عليها أن تستعين بعقلها هى، وخبراتها هى، وهى من قبل مارست هذا الفعل مرات ومرات، وهكذا هداها تفكيرها إلى أن تستغل الفرصة وتبدأ هى بالحديث، حتى تقطع على ابن أخيها الطريق وتسقطه فى بئر الإحباط فلا يجد بدا من التسليم بطلباتها، لكن سليمان كان تلميذها النجيب، وكانت خطته قائمة على أن يدعها تقول ما تشاء، فقط عليه أن يحسن معاملتها أمام الضيوف، وإذا احتاجت إلى أى شىء يسارع بتلبيته لها، كأن يقدم لها الماء إذا طلبته أو يضع لها حشية لتتكئ عليها، وبين الحين والحين يبتسم فى وجه الضيوف متعجبا مما تقول، أيا كان الذى ستقوله.

بدأ التحقيق العرفى بأن عين الرجال أمينا للجلسة، واختاروا للأمر العمدة محمد العبادى، وعندما بدأوا بقراءة الفاتحة انطلقوا يقرأونها بورع، الظالم منهم والمظلوم.

لسنا فى حاجة لأن يذكر الرواة أن سليمان كان هو الرابح فى النهاية، فكل الشواهد حتى من قبل أن يحكى أحد تؤكد أن الجدة مريم خرجت من الجلسة صفرة اليدين، فلقد فاجأها ابن أخيها بعقود وقعت عليها بخاتمها، تبيعه فيها ستة عشر فدانا من الأرض الزراعية، لقاء ثمن قبضته فى مجالس تلك العقود، وعقد آخر تبيعه فيها نصيبها فى أرض العزبة، وهو أكثر من فدانين ونصف الفدان، وكان الجميع على يقين من أن شيئا من ذلك لم يحدث، وأن ضياع خاتم الجدة مريم يفسر وجود تلك العقود فى يد ابن أخيها، لكنهم وقفوا عند حدود التعجب و لم يتقدموا خطوة واحدة، وعبثا حاولت الجدة مريم أن تطلب منهم توجيه اليمين له ليقسم بأنه اشترى منها أرضها ونصيبها فى العزبة، وإذا امتنع تقسم هى بأنه لم يفعل، لكن عمدة شنوان، حمدان السمدانى، صديق سليمان المقرب- وكان من بين أعضاء اللجنة - اعترض على طلبها، معللا اعتراضه بأن العقود موجودة بين أيديهم بالفعل، ورأت الجدة مريم أن تسأل عن المتحدث فأخبروها أنه حمدان السمدانى، وانطلقت فى ضحك مرير كأنه النواح، ثم قالت:

- تستنصر ابن السمدانى لتهزم عمتك يا سليمان؟!

وأردفت وسط دهشة الجميع:

- تستنصر ابن المجرم لتفلت بفعلتك؟!

و لم تعطهم الفرصة حتى ليتنفسوا إذ قالت:

- أخاف عليك من مصير السمدانى يا ابن أخى

وفيما هى تتأهب للانصراف استدارت لتواجه الرجال جميعهم:

- لن أدعو عليك يا سليمان، ولن أدعو لك ما حييت، وسأتركك لربك يقول فيك كلمته

ورفعت سبابتها فى اتجاههم:

- أنت وابن السمدانى هذا

فوجئ السراسوة فى اليوم التالى بقياس غريب يقيس سبعة قراريط ونصف القيراط من سكن العزبة، وأرسل سليمان إلى عمته من يخبرها بأن نصيبها فى أرض العزبة هناك، فلتذهب لاستلامه إذا أرادت، وقال للسراسوة الذين اجتمعوا لديه:

- عجبا لأمر مريم، تريد أن تسلبنى أرض أبى وجدى، إنها أرض سيد احمد السرسى وليست أرض يونس الراوى، والأحق بها ابن سيد احمد السرسى وليس بنات الراوى وأزواجهن.

ولما وصل القول إلى الجدة مريم شعرت بانغراس سكين فى قلبها، فهى وحتى تلك اللحظة كانت لما تزال تحفظ لابن أخيها مكانا فى قلبها، أما وقد سخر من زوجها الراحل برغم كل ما فعله من أجله فإن قلبها فرغ منه إلى الأبد.

بتلك الحادثة نزلت الجدة مريم من عليائها، تجردت من عنفوان القوة ولزمت الضعف الذى لطالما كانت تخشاه، ولم يعد يرد لهفتها إلا الزيارات اليومية التى تقوم بها رئيفة إلى دارها، حيث تقوم على خدمتها وإعداد الطعام لها، وكنس الدار وترتيب الفراش، وفى نهاية الزيارة تأخذ الثياب المتسخة وتعود بها إلى دارها لتغسلها مع ثياب أسرتها، أيام وأيام مرت كأنها تنصرم بغير حساب، وأصبح رضوان الابن الثانى لرئيفة طفلا ناهضا يسبق سنه، أما ياسين فإنه كبر على غير أوان، وكانت إحسان قد عادت إلى الدار، وبعودتها عاد فتح الله ليمارس قهره لولدى رئيفة، ولما عرف الشيخ زكريا بما يفعله ابن أخيه نصح أخاه بأن يزوجه، وهكذا انطلقا معا فى اتجاه بقطارس، وخطبا له واحدة من قريباتهم، ولم يمر كثير وقت حتى دبر الشيخ زكريا دارا صغيرة من دور الوسية ليدخل فيها فتح الله على عروسه، وإن هى إلا سنوات قليلة حتى لحق به زكريا الصغير، إذ زوجه أبوه إحدى بنات أخيه عبد الرحمن.

سيحكى ياسين بعد ذلك أنه برحيل فتح الله وزكريا صارت دارهم الصغيرة جنة حقيقية، إذ سرعان ما تزوجت عز من أحد أحفاد الضبع ولم يعد بالدار إلا حورية وأمها، وقبل أن تمر أشهر جاء عريس لها من عزبة الحماير المجاورة، ولما كان يمتلك بضعة أفدنة ودارا زوجوها له، وصارت إحسان وكأنها رهينة لدى رئيفة وأبنائها، لكن انشغال رئيفة بأمها ومن تأثير الخير الذى تحمله بداخلها كإبنة شبيهة بأبيها المرحوم يونس الراوى تركت لإحسان الحبل على الغارب، بل وإكراما لخاطر الشيخ الأحمدى أستاذها الذى تأخذ عنه الأوراد والمسائل، صارت تعاملها كأنها أمها،

بل وتدفع فى اتجاه أن يعاملها الشيخ عمر معاملة حسنة، وفى الكثير من الأوقات قابلت ضرتها الإحسان بالإساءة، لكنها مع الوقت انساقت وراء نصائح زوج أختها الشيخ الأحمدى، وأيضا وراء إحساسها بالجميل فتعاملت مع الجميع فى الدار كأنها واحدة منهم، لا يعرف الرائى أنها ضرة أم هذين الإبنين اللذين يجريان فى الدار، ياسين ورضوان.

جرت الأيام بأكثر مما يصدق الجميع، ولم تعد الجدة مريم تخرج من دارها إلا لماما، فقط لتجلس عند العتبات وتعرض نفسها على الشمس، ونمت لديها حاسة السمع كتعويض عن انطفاء عينيها، فصارت تعرف الأشخاص من أصواتهم، بل ومن أنفاسهم وروائحهم إن كانوا قريبين منها، وكانت تنادى على الواحد من السراسوة وهو مار فى الشارع فيقسم لأقرانه أنها ترى، لكنها لم تشأ ان تستمر فى العناد وتخاصم سليمان للأبد، فهو ابن أخيها على أية حال، وهى وبناتها وأبناؤهم يعيشون فى كنفه، وليس لهم من أحد سواه، وفى الحقيقة كان بزوغ نجمه وذيوع صيته سببا فى تهدئة الأمور معه، فحفيدها قطب الذى صار الآن صبيا يافعا يقلقها غيابه طوال الليل، وعندما تضيق الخناق عليه يغيب عن الدار بالليلة والليلتين، ورأت فى النهاية أنها لا تقدر على تربيته وحدها، إذ يحتاج إلى رجل يقوم منه مقام الأب، وهكذا فوجئ سليمان ذات صباح برضوان ابن رئيفة يدق بابه ليبلغه بأن جدته تريده أن يوافيها فى دارها.

حدث ما توقعته، اكتشف سليمان أن "قطب" يسهر كل ليلة فى دار منصور أبو دومة، الرجل الذى جاء إلى العزبة من قرية صدقا القريبة، والذى ينحدر فى الأصل من جهة دسوق، حط برحاله فى العزبة وقدم

نفسه للشيخ زكريا على أنه من أبناء الليل، ويستطيع أن يحافظ على أجران الوسية ومخازنها من سطو المنسر، واستعمله الشيخ زكريا شهورا، ثم اكتشف أن الرجل لا يعنيه أمر الوسية فى شيء، فهو لا يسهر حول الأجران والمخازن كما تعهد، وفى كل مرة يتفقده يكتشف أنه ليس فى مكان حراسته، وهكذا أعفاه من مهمة حراسة مخازن وأجران الوسية، وعهد بها إلى مختار الضبع، ابن أخته أم الخير، وشاهين الطحان ابن عمته، فهما قويان إلى درجة تخيف أى واحد يفكر مجرد التفكير فى الاقتراب.

عاش قطب فى كنف جدته أربعة عشر عاما، قضاها فى التسكع هنا وهناك، فلم تكن تحب أن يظهر كخادم فى دار سليمان أو فى دار يوسف، ولما حاولت أن تستخدمه فى أرضها أحدث المشكلات مع الفلاحين، ولما تركته لحاله سقط فى براثن "أبو" دومة، الذى يتحدث الناس عنه كواحد من المنسر الذين يجوبون البلاد طولا وعرضا، والذى كان من الذكاء بحيث امتنع عن سرقة أى شيء من العزبة، فيكفيه أن يجد فيها ملاذا آمنا، ويكفيه أيضا أن يتمكن من تجنيد البعض من أبناء الأسرة التى يعيش فى كنفها، بحيث إذا وقع المحظور وجد فى كنف السراسوة سندا يقيه شر القبض عليه أو الاعتقال.

وبرغم أنه لم يعد من عمال الوسية إلا أنه لم يمتنع عن مندرة الشيخ زكريا، وبمرور الوقت اقترب من نوح ابن الشيخ زكريا الأكبر، الذى كان ميالا لرجال الليل، وتواقا إلى التعرف على حيواتهم المثيرة، وهكذا وفى ضربة واحدة ضم إلى مجموعته اثنين من أبناء السراسوة، ومن أعز أبنائهم، "قطب" حفيد مريم سيدة الأسرة، و"نوح" ابن الشيخ زكريا،

كبيرها القابض على أرزاقها، وهذان بدورهما اجتذبا إليه واحد من أحفاد إبراهيم السرسى، وصار الثلاثة يتحينون الفرصة للخروج من دورهم فى جوف الليل ليلحقوا بالرجل فى المكان الذى يحدده لهم، ومن ثم ينطلقون إلى الغيطان التى سيقتلعون زرعها، أو السواقى التى سيكسرون تروسها ويخربونها، أو إلى الزرائب التى سينقبون جدرها ويخرجون بالماشية المسروقة من خلالها.

لا يصدق سليمان أن "قطب" يتيم الأمس صار رجلا يخرج فى جوف الليل ليسرق أو يخرب السواقى أو يقتلع الزراعات، وأضناه البحث عن سبيل لرد الولد عن غيه، و لم يجد بدا من أن يضربه علقة ترده عن هذا الطريق، وكأنما أدرك قطب ما يفكر فيه خاله فانسل هاربا، وفيما يقلب سليمان الأمر فى رأسه بحثوا عن قطب فى كل مكان فلم يجدوه، وجاءت أمه من دار زوجها شعبان الطوخى، الذى كان فى المراحل الأخيرة من مرضه، وأطلقت صرخة شقت سماء العزبة، متهمة أمها بالتسبب فى ضياع إبنها، وصارت تلطم صدرها وتندب حظ يتيمها الذى لم يجد من أهله إلا إلصاق النقائص والجرائم به، و لم تتمالك الجدة مريم فانخرطت فى بكاء سرى غريب.

لا يعلم أحد أن الجدة مريم لها سنوات كلما ضاق بها الحال تنخرط فى ذلك النوع الغريب من البكاء، الذى ابتدعته ابتداعا، بكاء لا ترتجف فيه خلجاتها، ولا تدمع فيه عيناها، ولا يصدر عنها بادرة تدل عليه، فقط تنكفئ على نفسها وتنتحب، بصوت لا يسمعه إلا هى، وقد تنطلق فى الندب والعويل الداخلى فيأخذ الفراغ ألوانا قاتمة، وعندما تفرغ من

بكائها السرى تأخذ شهيقا عميقا أو اثنين، ثم تستلقى على أحد جانبيها وتروح فى نوع غريب من النوم، نوم هو الآخر سرى وصامت، لا يعرف من يراها إن كانت فى الحقيقة نائمة أم غائبة عن الوعى، أو أنها عازفة عن الإنتباه إلى من يخالطونها أو يجالسونها، وعندما تشعر بأنها استعادت قدرتها وإرادتها تقوم من تلقائها وهى تحمد وتستغفر.

إن اتهام ابنتها لها بالتسبب فى ضياع إبنها اليتيم سيظل يتردد فى أسماعها ما عاشت، لكنها لن تظهر ذلك لواحدة من بناتها، وعلى الرغم من أن إبنتها الصغرى رئيفة كانت الأقرب إلى قلبها إلا أنها لم تطلعها على سرها، ظلت تحتفظ بالجرح مفتوحا، تضغط عليه ليدمى متى شاءت، وتكتفى فتكتمه بإرادتها، وتشفى منه إلى حين.

عرفوا أن الفتى مختف فى دار منصور "أبو" دومة، وعرف أبو دومة أن الأمر انكشف، وخشى من كبسة على الدار تخرج الولد من عنده فأمره بالخروج فى جوف الليل، والتماس طريق العودة إلى جدته بالطريقة التى يراها، وأخذ عليه موثقا، بألا يعترف أبدا بأنه كان يخفيه لديه، مهما مورس عليه من ضغوط، وهكذا فوجئت الجدة مريم ذات ليلة بقطب يطرق عليها الباب، وكان ياسين ابن رئيفة وسليمان ابن تاج يبيتان معها منذ فر، وعندما سمعت طرق الباب هبت جالسة فى فرشتها، وقالت كأنها ترى الطارق:

- قطب!

وظن الولدان أن جدتهما تخرف، لكن عودة الطرق على الباب

جعلهما يعتقدان فى صحة حدسها، فلقد كان الطرق فى جوف الليل، ولما قام سليمان ابن تاج وكان الأكبر ليرى من الطارق سمع "قطب" وهو يهمس باسمه، فلقد كان حريصا على ألا يوقظ صوته خاله سليمان، ورأى سليمان الصغير أن يستعين بياسين ليشاركه الرأى فيما إذا كان من يهمس فى الخارج هو قطب بالفعل، أم أنه عفريت يقلد صوته، ولما طلبا من الطارق أن يظهر صوته اضطر لأن يتحدث إليهما بوضوح، ولكن بصوت خفيض حتى لا ينفضح أمر عودته.

لم يعرف النوم طريقه إلى أعين الأولاد الثلاثة، فوجئوا بطلوع الصبح فخرجوا ليقابلوه عند المسجد، وهناك رأى كل من صلى الفجر "قطب" فى معية ابنى خالتيه سليمان وياسين، وكلما سأله أحدهم عن مكان اختفائه اكتفى بالنظر إلى الأرض، تماما كما اتفقوا ثلاثتهم فى الليل، لكن عمهم الشيخ كامل السيد السرسى اقترب من الصبى وأمسكه من أذنه، وسأله:

- أين كنت يا ولد؟

ولما لم يجبه قطب اشتدت يده على أذنه - وكان جسيما - فآلمه كثيرا، لكنه لم يجب واكتفى بالنظر فى الأرض، ولما كان الشيخ كامل لم ينجب من زوجته فإن شيئا شق صدره فكأن "قطب" ابنه، وتراخت قبضته حتى أنه فى النهاية ربت على كتفه قائلا:

- كدت تتسبب فى موت جدتك وأمك، فلا تفعلها ثانية

يتم قطب كان متحققا بصورة غريبة، فملامحه مجللة بألوان اليتم الباهتة،

لا تخطئها عين، وعيناه اللامعتان توحيان طوال الوقت بأنهما على وشك البكاء، حتى لكأن الناظر إليهما يرى الدموع وهى تترقرق فيهما، وحول الفم تنحدر زوايتان عجيبتان، كأنهما تهيئة دائمة للانخراط فى البكاء، بكاء صامت يصل أحيانا إلى شيء من الفحيح غير مصحوب بكلمات، وهذا بالضبط ما انطبع فى ذهن الشيخ كامل وهو يقرص شحمة أذنه، وجعله يأخذه إلى جواره فى صلاة الفجر، بينه وبين الشيخ عمر زوج خالته، وهكذا قضيت الصلاة فانتشر الناس، لكن الأولاد الثلاثة عادوا إلى الدار، ويا لدهشتهم عندما وجدوا جدتهم قد أعدت لهم فطورا شهيا، برغم عجزها، وتعابثوا وهم يتناولون الإفطار، وعلت أصوات عبثهم، وكانت الحياة قد بدأت تدب فى أرجاء العزبة، ولم يعد ثمة حذر من تعابثهم.

فى ذلك الصباح البعيد حدث شيء لم يكن ليخطر لقطب على بال، فلقد أرسل خاله سليمان ابنه "مختار" فى طلبه، لم يرسل واحدة من الخادمات اللائى تمتلئ بهن الدار، ولا واحدا من العمال الذين يعملون فى الحظائر والأجران والمخازن، فكأنه يرسل بإشارة إلى عمته، وهى أن "قطب" واحد من أهل داره، وأنه إذا كان قد انتوى معاقبته فإنما لخشيته عليه، وهكذا وبعد تمنع وخوف نصحته جدته بالذهاب، واضطر الفتى لأن يذكرها:

– إنه من سرق خاتمك وأرضك

فكتمت آلاما رهيبة مزقت صدرها وأجابته:

- ذلك أمر مضى وهو خالك وفى مقام أبيك

وانطلق فى صحبة مختار وهو غير مقتنع تماما بما قالت.

لم يكن قد زار الدار الكبيرة منذ فترة، وعندما دخل شعر بمتغيرات كثيرة، فالمائدة العامرة بكل الخيرات يتكالب عليها الجميع عدا أمينة الجمل الزوجة المنصورية، وتعجب إن كانت موجودة بالفعل أو أنها لدى أهلها فى المنصورة، فهو لا يراها هى وطفلها الذى رآه مرات بصحبة أخوته من أبيه، وبمجرد دخوله أفسح له سليمان مكانا على المائدة، ودعاه للجلوس لتناول الفطور، لكنه اعتذر فى خجل، فلقد أعدت له جدته الطعام، وعبثا حاول أن يثنيه عن اعتذاره لكنه تمسك، وبين الحين والحين كان كل منهما يرمق الآخر بنظرة عجولة، قطب يستوثق مما إذا كان العزم على إنزال العقاب به لا يزال قائما، وسليمان يستبين ما إذا كان الفتى نادما على هربه من جدته أم أنه منغمس فى عصابة "أبو" دومة وغارق فيها حتى أذنيه.

انفض الطعام فسقط قلب قطب فى كعبيه، تمنى لو أن ابنى خالتيه ياسين وسليمان كانا بصحبته الآن، إذن لطمأناه إلى ما سيكون بعد أن يكون الجوار مباشرا بينه وبين خاله، ولما غسل سليمان يديه وجلس على الأريكة فى انتظار قدومه ليسلم عليه تقدم الفتى باضطراب، أراد أن يكون متماسكا، فحمدان ومختار ابنا خاله لا يكفان عن معايرته والتقليل من شأنه، لذا فهو لا يتورع عن ضربهما كلما سنحت الفرصة، وعندما مد يده ليسلم على خاله وقبضت اليد العفية على كفه اندق مسمار فى ظهره، وبالكاد تمكن من أن يرفع اليد ليقبلها، لكن اليد ذهبت معه إلى حيث يريد ولم تتركه، ظلت قابضة عليه، وجذبته ليجلس إلى جواره فوق الأريكة.

كل الخيالات المؤلمة تدور فى رأس الفتى، واليد القابضة لا تتركه ينعم بنفس واحد، وجاءه الصوت الصارم:

– أين كنت طوال الأيام التى غبتها عن الدار؟

ولم يحر الفتى جوابا، وأعاد عليه سليمان السؤال، ولما لم يتنازل عن صمته لطمته اليد الأخرى على صدغه، دون مقدمات، وتمالك الفتى قليلا، ثم حاول أن يتملص من اليد الجبارة، لكنه عجز، إذ كانت اليد تقبض بإحكام، وجاءته الكلمات صارمة وقاطعة:

– لن أتركك إلا إذا قلت أين كنت، وما الذى فعلته مع شيخ المنسر الذى تسهر بصحبته حتى مطلع الصبح

ولم يكن الفتى ليتكلم وقد قطع على نفسه عهدا بعد الحديث.

بدا أن الجميع يعرفون ما سيحدث، إذ سرعان ما اختفوا، ولم يعد فى الصالة من أحد سواهما، ومن خلف مسند الأريكة سحبت اليد الحرة عصا خزيران ونزلت على الجسد النحيل تكوى كماء النار، وحاول قطب أن يجرى خارجا لكن سليمان حاصره فاضطره إلى الدخول إلى الفناء الداخلى، وهناك احتجزه داخل حجرة من حجرات الفناء المفتوحة وظل يضربه حتى أصابه التعب، وكان وهو يضربه يؤكد مع كل عصا أنه لن يتركه ليصير لصا أو قاتلا، يتحاشاه الناس كأنه جرب، وأن موته أهون لديه من صيرورته مجرما، وأن كونه يتيما لا يعنى لديه أى شىء، إذ أولى به أن يكون أفضل مما هو وليس فاشلا ولصا، وكلمات أخرى كثيرة ستظل تتردد فى أذنيه عقودا كثيرة، وربما ترافقه إلى قبره.

لم تظهر سُلَيْمَة إلا عندما شعرت بأن الأمر لا نهاية قريبة له، فالضرب يتوالى وقطب يرفض الحديث، وزوجها لا يكف عن الضرب، مؤكدا أنه سيظل يضربه حتى الموت، وإذ تمكنت من الدخول بينهما احتضنت الفتى لتبعده عن زوجها، لكن الخيزرانة أخطأته وسقطت على جسدها فصرخت، ولما رأى سليمان أن زوجته تصرخ اضطر إلى التوقف، وكانت زوجته لا تزال تحتضن الصبى الذى يوشك على الانهيار، وحتى لا يضطر إلى مواصلة إنزال العقاب به صعد إلى الدار وتركهما فى الفناء، سُلَيْمَة و"قطب"، وكلماته الغاضبة تأتيهما من هناك، سافرة ومتوعدة، ومؤكدة أنه إذا فكر فى الهرب ثانية فسيقتله، ولا يدرى قطب كيف شعر فى تلك اللحظة بأن خاله يقصد كل حرف يقوله، وسقط من بين يدى سُلَيْمَة مغشيا عليه.

أفاق بعد برهة على يدها تدلك صدره العارى، وأحس دون أن يدرى بدفء يدها وطراوة جسدها فالتصق بها كأنما يختفى فيها، وظلت يدها تدلك صدره المضطرب وأكتافه المتألمة، وبين الحين والحين تمسح على شعره الفاحم كأنه الليل.



ضَمَّة



دار منصور أبو دومة ليست دارا بالمعنى المعروف، إنها مجرد فناء يحيط به جدار يرتفع كثيرا بحيث يصعب تسلقه، تفتح على هذا الفناء حجرتان، فى الأولى يجلس ضيوف الرجل فى الشتاء، وهى مفروشة فقط بالحصير، وفيها "منقد"(*) كبير من النحاس لا تخبو ناره، و"جوزة(**)" كبيرة بفتحة ضيقة فى قمة قاعدتها، عليها رَفَّاس يفتح عند النفخ فى الغابة التى يمص منها المتعاطى دخان المعسل المحترق، وفى الحجرة الثانية فرشة بالية ينام عليها الرجل، تاركا الحجرة الأولى لضيوفه ينامون كيفما اتفق، وفى الصيف تنتقل القعدة إلى الفناء، حيث تصب السماء على السمار نسماتها.

لا أحد يعرف لماذا اختار منصور أبو دومة عزبة أحمد السرسى بالذات لينتقل للعيش فيها، فقبل الانتقال إليها لم يكن على صلة بأحد من أبناء

(*) وعاء من الفخار أو النحاس تشتعل فيه النار وتصفى لتصير جمرا، وهو تعديل شعبى ريفى لكلمة موقد.

(**) هى أرجيلة صغيرة، وتسمى هكذا لأن قارورتها كانت تصنع من فارغ ثمرة جوز الهند، وهى الآن تصنع من النحاس أو المعدن.

السراسوة، سوى صدفة جمعته بالعملاق شاهين الطحان فى سوق الماشية بدكرنس، عندما نشب شجار بين تجار الماشية، وتدخل فى الشجار أنصار الأطراف المتعاركة فصاروا يضربون كل من يتصادف وجوده بينهم، شاهين كان هناك ليبيع بعض الماشية التى أحسن تربيتها، لم يتحصل على ثمن مجز فى سوق الأحد بـ"أبو" الشقوق فخرج مع انتصاف الليل متوجها بها إلى سوق دكرنس.

طالته ضربة من أحد المتعاركين فالتفت يتحقق من الشخص الذى ضربه، ولما تيقن منه انتزع عرق خشب من دعامات خيمة قائمة وانطلق فى أعقاب الرجل، وهو فى طريقه إلى غايته طالته ضربات أخرى فصار يضرب بعرق الخشب يمينا ويسارا، وأوقع الكثير من الضحايا، ولما لم يكن قد بلغ مراده فإنه ظل يقاتل وهو يشق طريقه فى اتجاه غريمه حتى وجده شاخصا أمامه، وبضربة واحدة هدم كيانه، انهار الرجل مبتلعا صرخة ضارعة كانت بسبيلها للخروج، ورأى أبو دومة هو وبعض الرفاق من رجال المنسر ذلك المشهد العجيب فاصطحب شاهين إلى ركن بعيد، وقدم له بعض الماء ليزيل عن وجهه غبار المعركة، وهناك، عند أطراف السوق تعرف إليه وعرف من هو ومن أين قدم.

هل كانت تلك الحادثة هى السبب من وراء انتقال "أبو" دومة إلى عزبة أحمد السرسى؟، أم أن ذلك حدث لأسباب أخرى؟، لا أستطيع أن أشق طريقى فى هذا الأمر، بيد أن تلك العلاقة الناشئة بين الرجلين، ومعرفة "أبو" دومة بأنه ابن عمة كبار السراسوة، وأنه بطلهم فى المعارك والمهام الكبرى، ربما يكون السبب من وراء ذلك الانتقال، خاصة وأنه لم تكد

تمضى سنة على انتقاله إلى العزبة حتى كان قد تزوج من الباتعة ابنة شاهين الطحان الكبرى.

قبل زواجه من الباتعة فوجئ السراسوة بامرأة سوداء تظهر فى دار "أبو" دومة، سألوا عنها فعرفوا أنها الجارية، وحتى لا يتقول عليه أحد اتجه إلى الشيخ زكريا، استأذنه فى إيواء المرأة فى داره ريثما يبنى لها دارا، واستأذنه فى أن ينتقل للعيش مؤقتا فى إحدى دور الوسية، وسمح له الشيخ زكريا، فنقل أبو دومة حصيرته وفرشته البالية إلى دار الوسية، وترك داره للمرأة الغريبة، التى كان السراسوة يتلصصون عليها ليروا عريها الغريب، وسوادها الذى لم يمر بهم فى حيواتهم كلها، وانعقدت الجلسات التى تحكى عن ثدييها اللذين يشبهان ضرع بقرة، وعن ردفيها الكبيرين المرتفعين، اللذين تستطيع أن تحمل فوقهما راكبا بالغا، وعبثا حاولوا معرفة علاقتها بـ"أبو" دومة، لكن الحيل أعيتهم فاكتفوا بمصمصة الشفاة.

كأنما انتظر أبو دومة موافقة الشيخ زكريا فجاء إلى العزبة رجال غرباء، ذوو شوارب مشرعة وعمامات غريبة، وسرعان ما اختلطوا بالسراسوة فصاروا يدخلون الدور المختلفة ويصادقون الأبناء من الشبان والفتية اليافعين، ولم يطل الأمر حتى أيقن السراسوة أن المرأة الغريبة ليست إلا زعيمة منسر، وأن "منصور" "أبو" دومة ذراعها الأيمن، وتذكر السراسوة ربما بعد طول نسيان حكاية موسى القديمة مع المنسر، وتلك المرأة السوداء القديمة التى كان رجال المنسر يختلفون إليها فى صدقا، وخمنوا أن تكون المرأة الغريبة التى هبطت على عزبتهم ابنة المرأة القديمة، وهكذا انجذب الفتية اليافعون إلى دار الجارية، وكان هذا اسمها، إن فى الحقيقة أو كصفة

تطلق عليها، وصار نوح زكريا وقطب وأبناء السراسوة يقصدور إلى دارها، يجلسون فى معية المنسر ويستمعون إلى حكاياتهم، ويستمتعون بنوادرهم وأخبار كبساتهم، بل إن الأصغر من أبناء السراسوة كياسين وغيره كانوا يرافقون أبناء عمومتهم وخالاتهم اليافعين، ليشاهدوا المرأة العجيبة ورجالها الذين يبدون كأنهم قادمون من بطون الحكايات.

يعرف أبو دومة أن سليمان السرسى يعمل على إخراجه هو والمنسر من العزبة، وأن رضاء الشيخ زكريا هو الفرصة الوحيدة لإفساد هذا الأمر، فالشيخ هو الأكبر، وهو المسموع الكلمة فى أوساط بسطاء السراسوة، الذين ينظرون إلى ما يعود عليهم من نفحات الوسية، ومن ثم فإن التودد إليه يظل هو الهدف الذى لا يجب أن يحيد عنه، وعثر أبو دومة على الوسيلة التى تمكنه من إرضاء الشيخ، وكانت باكورة أعماله أن أوقف بشكل حاسم كل السرقات التى كانت تجرى هنا وهناك، فى المخازن التى تضخمت حتى صارت تستعصى على الحراسة، والزرائب التى تحوى الثيران والأبقار والخيول التى تستخدم فى الحرث والتلويط وتشغيل السواقى، وكذلك أوقف سرقة الأخشاب والحبوب التى كانت تجرى على الدوام دون أن تلحظ، ولم يعد الشيخ زكريا يشعر بذلك الشعور الذى يلهب صدره كلما اكتشف أن شيئا من أشياء الوسية قد سرق، وكان لحلمه تجاه أهله من السراسوة يرفض أن يحقق فى الأمر حتى لا يكتشف أن أبناء عمومته وأبناءهم هم من قاموا بذلك.

فى مقايضة تمت بمباركة الشيخ زكريا انتقلت الجارية إلى دار الوسية، فيما عاد أبو دومة إلى داره، وراح يجددها ليتمم زواجه من الباتعة ابنة

شاهين الطحان، وشاع فى العزبة خبر اللقاء بين سليمان السرسى وشاهين الطحان ابن عمة أبيه، وطلب سليمان عدم اتمام الزواج، ورفض شاهين، وطلبه تحكيم الشيخين زكريا وعمر، وهكذا سابق أبو دومة الأيام وأتم الزواج، وحضر العرس رجال المنسر من كافة أنحاء المديرية، وحضره الشيخ زكريا ورهط كبير من السراسوة، لكنهم رصدوا غياب الشيخ عمر والشيخ كامل السيد ويوسف وسليمان، ورقص رجال المنسر على صوت مزمار الفرقة التى جاءت من المنصورة رأسا، ولعبوا ألعابا خلبت الألباب، وتباروا فى التحطيب حتى مطلع الصبح، وأطلقوا البواريد فى الهواء فخرج على فرقعاتها أهل البلاد المجاورة.

لا يعرف قطب ما الذى جعله لا يفر من العزبة بعد العلقة التى نالها على يد خاله سليمان، فلقد كان اختفاؤه واختباؤه لدى "أبو" دومة قبيل زواجه من الباتعة بأيام، وراح يقول لنفسه إن الرغبة فى حضور حفل العرس ورؤية رجال المنسر من كافة أرجاء المديرية هى السبب من وراء بقائه فى العزبة، وربما أيضا بكاء جدته، فلقد رأى وهو مطروح فى دارها أنها كانت تغيب عن الوجود مستغرقة بكليتها فى ذلك البكاء الصامت الغريب، ولا يستطيع أحد إلا هو إدراك أنها تبكى، وعندما تأتى أمه لتعوده كانت جدته تتعمد الخروج من الدار، وتذهب إلى دار خالته رئيفة ريثما تنتهى الزيارة، فلقد عزمت على مقاطعة ابنتها التى اتهمتها بإضاعة إبنها اليتيم ومساعدة الآخرين على توجيه التهم إليه بغير أساس.

فى داخله يرفض قطب أن ينساق إلى التفكير فى تلك الضمة التى ضمتها له سُلَيْمَة زوجة خاله، يرفض أن يعترف بأنها السبب الذى منعه

من الهرب، ثمة شيء لا يفتأ يدب في كيانه كلما تذكرها، فهو منذ ذلك الوقت لم يهنأ بالنوم كما كان معتادا، وبرغم أن سُلَيْمَة بعد أن ضمته في ذلك اليوم تركته مكوما في الفناء وصعدت إلى حيث يجلس زوجها فوق أريكة في الشرفة البعيدة، إلا أنه التقط بأذنيه الكبيرتين حوارها معه، كانت تعاتبه على إفراطه في عقابه، فهو يتيم قبل أي شيء، وصغير لا خبرة له بالحياة، وكان يجب أن يُفَهَّم بالكلمات وليس بالعصا، لكن ذلك الحديث لم يكن ليصرفه عن الإحساس الذي غمره وهي تضمه إلى صدرها، وعن الطراوة التي أحس بوجودها في حضنها، واللمسة العفوية التي طالت عضوه فانتعظ على غير إرادة منه، ووهمه أن اللمسة التي كانت عفوية أرادت أن تستوثق إن كان ما شعرت به حقيقيا فعادت إلى المرور من جديد، ولكن بغير عفوية هذه المرة.

رغبة حارقة في البوح تنتاب "قطب"، يخشى أن يبوح بسره لسليمان ابن خالته تاج، فربما كشف سره لأحد، ومن ثم يكون قتله محققا، وياسين ابن خالته رئيفة صغير لا يفهم مما سيقول شيئا، والرجل الذي يرتاح إليه منصور أبو دومة غارق حتى أذنيه في ترتيبات زواجه من الباتعة، ثم في أيام زواجه الأولى منها، ولا يوجد في كل عزبة أحمد السرسي من يستطيع أن يبوح له بسره، فنوح زكريا يعامله بنفور ولا يرتاح إليه، بل ويتعمد كلما وجده عند "أبو" دومة أن يطلب منه الانصراف ريثما ينهي حديثه، وهو يخشى مناوأة نوح حتى لا يطاله ما يكره، فنوح لا يتورع عن أن يغري به بعضا من رفاقه الذين يحيطون به، سواء من السراسوة أو من عمال الوسية الذين ينتشرون في العزبة طولا وعرضا.

يتمنى لو تضمه سُلَيْمَة مرة أخرى فيشعر فى حضنها بمثل ما شعر به من قبل، ويشم رائحة ثدييها المترعين، اللذين هيئ له أنه يسمع سريان الحليب فيهما، يتمنى لو يغمض عينيه ويفتحهما فإذا بها واقفة هناك عند النافذة، ترمقه بنظراتها السندسية، فى كل حياته لم ير بياضا رائقا مشربا بالحمرة مثلما رآه فى وجهها، وفى رجليها اللتين تشمرهما وهى تخطر فى وسط الدار، وفى ذراعيها البضين اللذين يخطفان البصر، ويسرح بخياله فى مفرق ثدييها فينتعظ بشدة، ويجذب الحمل الصوفى الذى يتغطى به ليخفى حاله، فأبناء خالاته جالسون من حوله يشاركونه المكوث فى دار جدته.

واستيقظوا ذات صباح على خبر اصطحاب الشيخ سليمان لزوجته أمينة الجمل إلى المنصورة، هى وابنها، قالوا إنها مريضة، ويلزم أن تكون إلى جوار الأطباء، وكانت لا تنفك تتضاءل وتفقد وزنها حتى صارت جلدا على عظم، دون أسباب معروفة، ولما بدأت فى السعال أدرك الجميع أن بها علة دفينة يلزم تحديدها، وهكذا خلت الدار الكبيرة من الشيخ سليمان وزوجته المنصورية، وأصبح قطب يتجاسر على الوقوف أمام النافذة ممسكا بأسياخ الحديد الطولية التى تملأ فراغها ناظرا فى اتجاه الدار الكبيرة، ليرى طيف سُلَيْمَة وهى تروح وتجيئ، أو وهى تصعد سلمات الفناء إلى داخل الصالة الفسيحة، أو وهى تجلس إلى الأريكة التى تنزوى فى ركن الفراندة النصف دائرية، التى تجلل هامة الدار كأثر تاريخى بعيد للدار الكبيرة القديمة التى يسمعون عنها فى الحواديت.

حمدان وأخوته وقفوا عند الباب يسألون عن قطب وياسين وسليمان،

فخرج رضوان الصغير ليصحبهم إلى الداخل، وفوجئ الجميع بسُلَيْمَة واقفة عند النافذة، تنظر بعين الرضا لانخراط أبنائها مع أقاربهم فى ألعاب الصغار، كانت فى الحقيقة غير سعيدة بابتعاد أبنائها عن أقاربهم، ولطالما ناقشت زوجها فى أمر الطوق الذى يفرضه عليهم ومنعهم من مخالطة الأقارب، قالت إنهم فى النهاية سيكرهونهم ولن يقوموا لنصرتهم إذا احتاجوا إلى ذلك يوما، لكنه أصم أذنيه، واتهمها بالخرف، فها هو زكريا- هكذا قال دون أن ينعته بأنه خاله – يمضى قدما فى اتجاه تمييز أبنائه دون أن يفقد اتصاله بالسراسوة على اختلاف مشاربهم، وها هى مندرته تغص بالسراسوة والأغراب تحت ضغط الحاجة إليه، ولكنها لم تعدم الرد، إذ فاجأته بقولها:

– وأين مندرتك من مندرته؟!

ولما لم يجبها عادت لتقول:

– لا يختلف إلينا إلا الخدم والعمال وحسانين الضبع.

لم يستطع قطب مواجهتها فنظر فى اتجاه الأرض، كانت تنصح أبناءها بعدم إثارة المشكلات مع أبناء عمومتهم، ولما انتهت من حديثها لم يستطع أن يظل على حاله من الإطراق فرفع رأسه ونظر إليها، صدر جلبابها مفتوح، ومفرق الثديين يظهر جليا كأنه الصبح، وامتقع لونه، فعيناه تعلقتا بعينيها، لكنها استدارت عائدة إلى الدار، دون أن يصدر عنها ما يشجعه أو يردعه.

الجدة مريم لم تكن فى الدار، اصطحبتها رئيفة فى الصباح الباكر إلى

دارها، لتنعم بشيء من الحرية والحركة، بعيدا عن الأحفاد وصخبهم، ولتخرجها من حالة الحزن والغضب التى تسيطر عليها منذ اتهام سكينة لها بإضاعة ابنها، لم يتخلص قطب بعد من حالة الامتقاع التى ألمت بوجهه الأسمر الطويل، ولما كان الأطفال يصخبون من حوله ويمنعونه من الاسترسال فى خيالاته رأى أن يخرج من الدار لينعم بشيء من الهدوء، كل شيء فى الخارج هادئ، الشمس فى طريقها إلى دخول منطقة الضحى، وحرارتها تصهد فى الجرن الكبير وفوق الأسطح، وبرغم أنه لم يقصد الخروج ليرى إن كانت سُلَيْمَة هناك إلا أنه رآها جالسة فى الفراندة، وتمد قدميها على مقعد أمامها، استدار يريد العودة إلى داخل الدار فسألته بصوت جاهدت ليصله ولا يصل إلى غيره:

– وهل أنا من ضربتك يا خلبوص حتى تقاطعنى!!؟

تسمر فى موضعه، واستدار ليواجهها فصعقته جسارته، لا يفهم كيف واتته الجرأة ليرفع عينيه فى وجهها:

– أبدا والله يا مرات خال

فنادته:

– تعالى هنا يا ولد

وقادته قدماه إلى هناك.

المسافة بين باب دار جدته وبين السلمات التى تصعد إلى الفراندة لا تزيد عن عشرين أو ثلاثين خطوة، قطعها قطب فى دهر، عوده الفارع ينثنى، ورجلاه لا تكادان تحملانه، خشى إن هو ارتبك أن يسقط أمامها،

لكنه وصل إلى هناك بالكاد، ومد يده يستند إلى أعمدة الفراندة الخشبية، ولما لم يتقدم أو يضع قدمه على أول سلمة سألته:

– رفضت أن تصرح لخالك بمكان اختبائك، فهل تقول لى إذا سألتك!!؟

هز رأسه رافضا، فلاحقته:

– إذن فهو كما قال خالك، كنت عند "أبو" دومة، والجارية

وهز رأسه نافيا فسألته منزعجة:

– أتريد أن تكون من أبناء الليل يا قطب!!؟

وقبل أن يجيب أردفت:

– من المنسر!!؟

لكنه اكتفى بهز رأسه نافيا، ولما رأته متسمرا فى موضعه أمام السلمات الصاعدة للفراندة مالت برأسها نحوه، كأنها تسر إليه بحديث:

– أنظر

والتفتت يمينا ويسارا، ومدت رأسها لترى إن كان أحد فى صالة الدار أو عند باب الوسط، وسألته بصوت خفيض:

– هل ترافقنى بعد العصر إلى عزبة سرحان أزور أمى وأعود؟

ودب قلبه فى عنف وهو يومئ موافقا، لكنها واصلت حديثها:

– لا تخبر جدتك، لا أريده أن يعرف خالك أننى ذهبت إلى هناك بدون إذنه

قال متلعثما:

– أنا لا أتحدث إلى جدتى فى شىء

وبعد أن أعادت النظر فى اتجاه صالة الدار قالت:

– عندما ترانى متأهبة للخروج من الدار اسبقنى إلى مشارف العزبة، وانتظرنى هناك

أدرك أن هذا هو نهاية الحديث فأومأ برأسه موافقا، ثم استدار عائدا إلى دار جدته.

علاقة الزوجين سليمان وسُلَيْمَة أصابها عطب لم تستطع الأيام أن تزيله، فابنة الشيخ سرحان شيخ العقايلة أكبر أفخاذ الفوايد لم تكن لتقبل أن يأتى لها زوجها بضرة، كائنة من كانت، ومن وقت أن بنى زوجها بأمينة ووقف أبوها وأعمامها إلى جواره و لم يردوه أدركت أن الرجال كلهم يتشابهون، أبوها وزوجها وكل الرجال، ووضعت كل همها فى إنجاب الأطفال، وكانت وقت قدوم ضرتها قد رزقت بحمدان وزينب، وبعد أن أنجبت ضرتها للشيخ طفلها يوسف أنجبت هى مختار وسليم وعبد العزيز، وصارت تباهى ضرتها بأبنائها الذين يشبهون طلعة الصبح فى جمالهم، وبرغم أن ضرتها لم تتمكن من إنجاب طفل آخر إلا أنها كانت تدرك طوال الوقت أن زوجها لم يعد يحبها بالقدر الذى كان، انكسر فى علاقتهما شىء ما، ولما لم تجد لدى أبيها وأمها بل وأخوتها آذانا تصغى لشكاياتها صارت تشكو لنفسها، حتى أنها كانت تجلس فى الفناء وتتحدث إلى نفسها، حديثا يطول إلى حد أنها كانت تبدو للخادمات ونساء الفناء ذاهلة عما حولها.

تمنت مؤخرا لو أن علاقتها بالجدة مريم كانت على ما يرام، إذن لاختصتها بشكاياتها التى تسئمها وتمنع عنها النوم، لكن الجدة مريم أغلقت من زمن باب الاهتمام بابن أخيها وأسرته، زوجاته وأبنائه وأملاكه وضيوفه، وكل ما يخصه، فقط حافظت على علاقة تسمح بأن يكون لقطب يتيم ابنتها الأب الذى غاب، و لم يكن يغيب عن الجدة وهى التى ترى بقلبها لا بعينيها أن سُلَيْمَة تتقرب إليها، ولكن هيهات، فلقد أغلق القلب من دونهم إلى الأبد، وبرغم ذلك كانت تتعجب من تقرب زوجة ابن أخيها منها، وتتساءل عن الأسباب، و لم تبحر بقاربها إلى أبعد من شاطئ السؤال، فالقلب أضيق من أن يتسع للآلام الفارغة، من مثل ما تعانيه سُلَيْمَة، بفعل غيرة الضرائر، فأين تلك الآلام من آلام يتيمها الذى يضيع من بين يديها ولا تعرف كيف ترده إلى حظيرة الامتثال؟!، وأين هى من معاناة ابنتها الكبرى تاج مع سيد احمد ابن اسماعيل الطوخى، الذى يصبحها بعلقة ويمسيها بمثلها، حتى أنه ركلها ذات مرة وهى حامل على يومها وليلتها وكانت جالسة أمام الفرن فلفظت حملها فى التو؟!، وأين هى من معاناة رئيفة مع ضرتها إحسان وكراهية أبنائها للصغيرين ياسين ورضوان؟!، بل أين تلك الآلام الفارغة من آلام ابنتها أمينة التى تعجز عن إنجاب أطفال لزوجها عبد المطلب؟!، فبعد أن ولدت له فطوم الصغيرة أصابها عقم غريب، ذهب بكل قدرتها على إنجاب طفل آخر، ناهيها عن آلام سكينة التى فقدت زوجها قبل أن يرى طفله، وها هى فى انتظار أن تفقد الثانى.

جربت سُلَيْمَة التقرب إلى أقرباء زوجها، لكنها ووجهت بالصدود فى كل مكان، فلقد نجح الشيخ سليمان فى وضع أسوار عالية بين داره ودور أقاربه، أخواله وأعمامه وأبناء أعمامه وأخواله وخالاته، و لم يعد بد من اصطفاء إحداهن لتسر إليها بشكاياتها، ووجدت ضالتها فى صالحة، المرأة التى أسكنها سليمان فى حجرة فى فناء داره، فتح لها بابا خلفيا يفتح على الغيطان لتبدو كدار مستقلة، لا يحتاج الدخول إليها أو الخروج منها إلى اقتحام فناء الدار الكبيرة، وهى متزوجة من رجل يدعى نافع النجدى، الذى منذ عرفته العزبة وهو يحترف مهنة التلويط وشق القنوات والمصارف، ولأنه لا غنى عنه للشيخ سليمان ولوسية بشاى معا قسم عمله بين الجهتين، وتحت أمرته يعمل رجال وصبية ينقل إليهم خبراته فى تسوية الأرض وجعلها كالكف المنبسطة ليسهل ريها وصرفها، وكذلك فى الخَطِّ على القنوات والمصارف المقترحة لتصير عند شقها مستقيمة.

مع صالحة انفتح قلب سُلَيْمَة على المصراعين، ووجدت لديها ما يعينها على احتمال الأيام التى كان زوجها يهجرها فيها، وشيئا فشيئا انفسح المجال للحديث عن أخص الخصوصيات، تحكى صالحة عن أزواجها الثلاثة الذين سبقوا زواجها من نافع، وكيف كانت تشعر مع كل منهم، وعلى الأخص زوجها الثالث الذى لم تهنأ به إلا عامين، خرج لسوق الأحد بعدهما و لم يعد أبدا، وتميل سُلَيْمَة إلى حديثها عندما تتطرق دون حرج إلى تفاصيل الجماع، وتأخذ فى الحديث عنه كأنه واقع أمامها، إلى أن كان اليوم الذى لم تتحرج فيه صالحة وسألت سُلَيْمَة عن علاقتها

بزوجها. فى البداية تحرجت سُلَيْمَة، ومع الوقت صارت تحكى، وهكذا أمست صالحة مطلعة على ما يدور بين سُلَيْمَة وزوجها، الذى هو رب نعمتها ونعمة زوجها.

عن طريق صالحة عرفت سُلَيْمَة سكك المشايخ، كانت قد أنهت إليها ذات مرة خبر شيخ يسكن حجرة صغيرة عند مشارف جبانة سنجها، وفى رحلة لم يعرف أحد إلا قطب شيئا عنها حملت سُلَيْمَة أزواج الديكة والزغاليل وأجولة القمح والأرز، حملها قطب على المطايا فى جوف الليل، وخرج بها إلى إحدى صديقات صالحة فى عزبة نور الشرقية، الواقعة فى طريقهم إلى سنجها، ومن هناك حملت المطايا المرأتين والهدايا إلى حيث الشيخ، يغطى وجهيهما برقعان، وقبل العصر عادت بهما إلى العزبة، وتحصلت سُلَيْمَة على قارورة بها ماء قرأ عليه الشيخ تعاويذه.

وهى تدعو الشيخ سليمان لتناول الطعام تحاشت النظر فى وجهه، ما دفعه لأن يسأل:

– مالك يا سُلَيْمَة!؟

فأجابته وهو تنشغل بإجلاس أبنائها إلى المنضدة:

– أبدا يا سيدى

وكانت تناديه منذ تزوجته بهذا اللقب، فجلس إلى المائدة وراح يمضغ الطعام فى بطء، كأنه يستشعر فى فمه طعما غريبا، وكانت قد سألت الشيخ لما طلب أن تضع محتويات القارورة فى طعام زوجها عما إذا كان من الخطأ أن يأكل من الطعام أحد غيره، تقصد هى أو أحد من أبنائها،

وطمأنها الشيخ، فمفعول الماء لا يؤثر إلا على زوجها، فالتعاويذ مقرونة باسمه واسم أمه، وهو بالنسبة للآخرين ماء عادى، أما بالنسبة لزوجها فهو جندى مجند لاستعادته لها.

ومرت الأيام دون أن يحدث تغيير فى سلوك الشيخ تجاهها، ظل على حاله، فى أسبوع ضرتها يقضى الليل كله هناك، حتى إذا حل أسبوعها يسهر مع أصدقائه حتى الفجر، ولا يدخل سريره إلا بعد أن يصلى الفجر، ويستيقظ مع الظهر ليصلى ويتناول فطوره مع أصدقائه الذين يبكرون بالحضور، كأنهم لم يكونوا معه حتى مطلع الشمس، وقد يمر اليوم واليومان ولا يتبادل معها كلمة واحدة، وهكذا عادت المطايا لتدب فى اتجاه سنجها، ثم فى اتجاه قرى تتبع مراكز بعيدة، وفى كل مرة تجلب سوائل وأوراق تنقعها فى ماء وتتركه ليتحمم فى ندى أصباح كثيرة، قبل أن تضيفه إلى الطعام أو إلى ماء الاستحمام، ولم يفلح مع الشيخ شيئا مما فعلت، حتى كان ذات صباح عندما خلع ملابسه ليستحم، وفيما هى تملأ سطلا بالماء لتصبه على جسده أمسك بيدها، قال:

– هذه آخر مرة تفعلين فيها ما تعرفين

وإذ همت بالاستفسار عن مقصده رفع سبابته فى وجهها:

– لو عدت للذهاب إلى هؤلاء المشعوذين سأطلقك بالثلاثة

ومضى يطلب أن تصب الماء على أماكن من جسده ليتأكد من إزالة الصابون عنها.

سقط قلب صالحة فى كعبيها عندما حكت لها سُلَيْمَة، خشيت إن

عرف الشيخ بأمر مشاركتها لزوجته فى التدبير أن يطردها هى وزوجها من الحجرة التى أسكنهما فيها، لكن المشاوير سرعان ما استؤنفت، ولكن من صالحة بمفردها، تحمل أثر الشيخ، قطعة من قفطانه، أو منديلا من مناديله الحريرية، أو قصقوصة من سرواله، وفى كل مرة كانت سُلَيْمَة ترتعد وهى تعد الأشياء ليستخدمها زوجها، ثم استقر بها الحال إلى طلب ماء ترشه على الأعتاب التى يعبرها، وهكذا صار الشيخ لا يعبر عتبة إلا وكانت سُلَيْمَة قد وضعت له عندها شيئا.

يعرف قطب أن زوجة خاله ربما لا تكون ذاهبة لزيارة أمها كما تدعى، وهو لا يعرف ما الذى دفع جدته لأن تحذره عندما عادت من لدن خالته رئيفة، فلقد كان يأخذ بيدها ليجلسها على الأريكة أسفل النافذة المطلة على الدار الكبيرة فإذا بها تسأله:

– هل عاد خالك من المنصورة؟

هى إذن تعرف أن ابن أخيها أخذ زوجته الجديدة وذهب إلى المنصورة، ولكن كيف وقد خرج الرجل مع الفجر و لم يعرف أحد بوجهته!!؟، وآثر الفتى أن يجيب:

– أهو فى المنصورة؟

فابتسمت وهى تقول:

– تعلمت المكر يا ابن بنتى.

وإذ هم بالاعتراض جذبته من طوقه مقربة وجهه من فمها الذى لم يفقد سنا واحدة، ووجهت إليه التحذير:

– إياك أن تفعل شيئا تطلبه منك سُلَيْمَة

وتعجب الفتى، وفكر فى أن يسأل جدته عن ماهية الشىء الذى تقصد، لكنه آثر السكوت، وأردفت الجدة:

– كأن تحملك شيئا لتذهب به إلى شيخ هنا أو هناك

ولاكت بقايا شىء فى فمها وأكملت:

– إنك إن تفعل تجلب عليك سخط ربك، وسخط خالك، ولا ينالك منه إلا ما سبق ونلته

انبعثت فى ظهر الفتى ذكرى ألم، تذكر لسعات الخيزرانة المسقية بالزيت، وكره خاله كما لم يكره أحدا من قبل، وتمنى لو رأى حمدان أو مختار ليضربهما ضربا مبرحا كما فعل به أبوهما، لكنه فضل الصمت، و لم يعجب ذلك جدته فنهرته:

– لماذا لا ترد!؟

فأجابها:

– أنا لا أذهب إلى الدار الكبيرة أصلا

تساءل، ترى إلى أين إذن ستأخذه سُلَيْمَة فى هذا الأصيل، وفيما هو جالس يباشر الدار الكبيرة من النافذة رآها تقف عند سلمات الفراندة تحكم الحبرة فوق وجهها.

قال لجدته:

– سأذهب لأصلى العصر فى الجامع

لم تجبه جدته بشىء فظن للحظة أنها ترى، فلقد تغير وجهها وهو يخبرها بخروجه للصلاة، و لم يأبه كثيرا لتغير وجهها وانطلق عابرا المسافة بين الباب وبوابة الدار الكبيرة فى بضع خطوات.

أعواد الذرة على جانبى الطريق إلى عزبة سرحان تجعل الطريق كأنه نفق طويل، وهو يسير إلى جوار سُلَيْمَة بأسرع مما تقدر، فتمسك بيده ليبطئ من سيره، تكرر الأمر مرات، وفى كل مرة تغمر جسده الفارع قشعريرة، ثم تتجمع عند خصيتيه، فى صورة سخونة غريبة، لا يجهل الفتى أن سُلَيْمَة تعرف كل ما يدور، فبرغم حداثة سنه كان على يقين من أنها تلاعبه، وأن لمساتها له والإمساك بيده كلها أمور مقصودة، وأنها تستمتع باضطرابه، وتحس بالقشعريرة التى تجتاح كيانه النحيل، وفى إحدى المرات وكانت خطواته قد بدأت فى أخذه بعيدا عنها قبضت على كفه لتبطئ خطوه، و لم تفلتها، ظلت قابضة عليها، هيئ له أنها تفرك كفه بأصابعها البيضاء الناعمة، وصار الأمر محرجا، فلقد انتعظ بشدة، وبان حاله فى الجلباب الذى ارتفع، وحانت منها التفاتة فرأته، واحمر وجهها، وابتسمت فى غموض، لكنها أفلحت فى أن تدارى ابتسامتها.

فى رحلة العودة رنت كلماتها فى أذنيه الكبيرتين، سيعود ليصحبها من لدن أهلها بعد صلاة العشاء، وسيسير معها نفس المشوار، وعندما تخيلها تقبض على كفه وتفركه لم يستطع أن يواصل السير، فى لحظات اختفى داخل الغيط، لم يعد أحد من المارة يراه، عثر على بعض أوراق الملوخية، وكان قد رفع جلبابه وربطه عند وسطه، وأنزل سرواله حتى الأرض، ولما صار خليط أوراق الملوخية سائلا لزجا بصقه فى يده وراح يدلك به نفسه،

يعرف أنه يرتكب إثما كبيرا، بحجم كل الغيطان المحيطة، ويعرف أنه إذا تمادى ربما يقتله خاله، أو أحد الأشقياء الذين يراهم جالسين معه يشاركونه الاستمتاع بالكسل والثروة ولين العيش، لكن ثورته التي تلهب دمه تدفعه لأن يواصل تدليك نفسه حتى وصل إلى النهاية، وانثنت ركبتاه رغما عنه وكاد يسقط على الأرض.



عسيلتها



في جوف الليل يخوض ركب صغير غمار العزبة النائمة، رجل غريب وامرأة تلتف بشال كبير يقصدان دار حسانين الضبع، الرجل واحد من عمال الحاج محمد شوكت صهر يوسف السرسى، والمرأة هى شكران شوكت، طليقة يوسف، يصحبها الرجل لتبيت ليلة فى دار زوجها الجديد حسانين الضبع، تنفيذا لفتوى شيخ المسجد الأحمدى الكبير فى طنطا، فلكى تحل ليوسف يجب أن تنكح زوجا غيره، ولا يكون زواجها صحيحا إلا إذا اختلى بها زوجها الجديد، قبل أن يطلقها، وها هو الرجل الذى يصطحبها ينقر بظهر إصبعه فوق نافذة حسانين، وقبل أن تكتمل النقرات ينشق باب الدار المتواضعة، وتدلف المرأة إلى الداخل.

مشوار طويل قطعه حسانين الضبع حتى اللحظة التى دخلت فيها شكران داره، مشوار بدأ بخبر عن سقوط يوسف السرسى مريضا، ولما ذهب حسانين لعيادته فاجأه خبر طلاق زوجته للمرة الثالثة، وأخبره يوسف بأنه لا يقدر على مفاتحة أحد فى أمر الزواج بامرأته، وأن القدر هو الذى ساقه إليه، وتحرج حسانين، وأمام إصرار ابن عمه رضخ، لكن تنفيذ

التدبير مر بعقبات كبيرة، فزوجة حسانين رفضت أن تسلم باضطراره إلى الضلوع فى التدبير المقصود، إذ هى أدرى الناس به، فهو إذا أراد أن يرفض شيئا لا يقدر أحد على إقناعه بقبوله، و لم تتركه إلا بعد أن هددها بالطلاق إن هى فتحت فمها بكلمة أخرى زائدة، وفى المقابل أقسم برأس أبيه ألا يقرب شكران حتى ولو تعرت أمامه كيوم ولدتها أمها، نفس القسم الذى أقسمه ليوسف.

الضوء فى الصالة الفقيرة شحيح، والدار خالية إلا منهما، والحرج الذى يطبق عليهما يسمرهما فى المكان الذى وقفا فيه، فلقد أغلقا الباب، وسمعا صوت خطوات الرجل الذى جاء بها تبتعد، ورأيا باب الحجرة التى ينام فيها حسانين ينشق عن ضوء شحيح آخر، ربما تكون المرة الأولى التى تنام فيها شكران فوق مرتبة بغير سرير، فقط مرتبة مطروحة فوق حصيرة كبيرة مفروشة على الأرض، عند ركن الحجرة بالضبط، وفوق الوسادة لحاف مطوى بعناية، تظهر منه واجهته القديمة، التى تنبئ عن لمعة زائلة، وفوق المرتبة ملاءة قديمة حائلة اللون، ولكن نظيفة.

ليس فى الدار كلها مقعد واحد، لكن الحجرة بها كنبة بلدية، فوقها حشية ضامرة، تم تنظيف فرشها بقدر المستطاع، ومد حسانين يده يشير إلى الكنبة فجلست شكران، ولما جستها بيديها ارتاح شىء فى داخلها، فهنا يمكن أن تنام حتى يصبح الصبح، لا تعرف شكران أن حسانين أرسل زوجته لزيارة أهلها، وأرسل معها أبناءه، ولا تعرف أنه برغم فقره جهز لها عشاء استثنائيا، طهته له أخته، فروج صغير مسلوق، مرقه فى إناء عميق من الصاج المطلى بالميناء، وشىء من الأرز الأبيض، كل ذلك فوق صينية

صغيرة من النحاس موضوعة فى الركن المقابل، ظنت أخته التى لا تعرف شيئا عن الأمر أنه يريد أن يحظى بعشاء مفتخر، مستغلا غياب زوجته.

لا يدرى حسانين كيف أو متى زال الحرج فخرج صوته، وكذلك لم تدر شكران، وكانت قد نحت عنها شالها الأسود الكبير فظهرت فى جلباب واسع ذى لون غامق، ولما خرج إلى الصالة لشأن من شئونه عاد ليجدها وقد خلعت ذلك الجلباب وجلست بقميص بيتى واسع، أضاء وجهها المكان فلم يعد يعرف إن كان ما يجرى حقيقيا أم أنه قادم من أحلام بعيدة، وجرى العرق فى قناة ظهره غزيرا باردا، ورأى أن يدعوها لتناول العشاء فرفع الصينية من الركن ووضعها على الكنبة، إلى جوارها، لكنها شكرته، قالت إنها تناولت عشاءها قبل أن تأتى.

لا تنكر شكران أنها بعد أن زال الشىء الكثير من حرجها شعرت بشىء من التطفل، فما سمعته عن حسانين أيام كانت تعيش فى العزبة يجعلها مستثارة، وكلما مر الوقت تزداد إثارتها، لا تتذكر من من نساء الغيطان أخبرتها بأن حسانين الضبع يمتلك شيئا ضخما وغريبا، وكان رائجا فى العزبة أنه لما أراد الدخول بزوجته أحدث بها من فرط ضخامته جرحا بالغا، وأن الطبيب صنع من أجله حلقات من المطاط يضعها عند الذهاب إليها، كل ذلك كانت شكران تسترجعه وهى جالسة على الكنبة البلدية الفقيرة، بحشيتها التى رقت حتى صارت كقطعة قماش قديمة.

أهو الذى أقسم عليها لتتناول معه العشاء!!؟، أم هى التى فعلت!!؟، فى النهاية لم تكد تمر ساعة حتى كانت الصينية بينهما، وهما معا يتناولان العشاء، وكل منهما يختلس النظر إلى الآخر، لم تمتد يد أحدهما للآخر

بقطعة من الفروج المسلوق بعناية، ولكن كل منهما كان يطلب من الآخر أن يكمل عشاءه، وعندما فرغا من تناول الطعام صبت على يديه الماء ليغسل آثار الطعام، ورفضت بشدة أن يفعل مثلها، وصبت الماء على نفسها، شمرت كميها فبانت يداها بضة تنير هى الأخرى، ولما قلبت الصابونة بين كفيها ودلقت شيئا من الماء فوقهما ورفعت وجهها لتواجهه تمناها بشدة.

بهتت كل الصور،إلا صورتها وصورته، وبهتت المحاذير، بنوة العمومة والعهود الصريحة والمضمرة، وحتى البنوة والزوجية التى كانت، ولم يبق إلا هما، فى تلك الحجرة الفقيرة البعيدة عن كل الناس، حسانين الذى يتلمظ، لا من العشاء الذى تناوله ولكن من وجه القمر الذى طلع فى داره على غير موعد، وشكران التى ألهبت دمها أحاديث أبت ذاكرتها إلا أن تستعيدها حرفا حرفا، عن الفحل الذى راهن أترابه على رفع قالب طوب بحيوانه، والآن هذا الفحل فى معيتها، جالس إلى جوارها، ومن طرف ليس خفيا أبدا يكاد يلتهمها بعينيه، ثم إنه فى الحقيقة زوجها، بصرف النظر عن أية تدابير اتخذت، زوجها على كتاب الله وسنة نبيه، ولكنه برغم كل ذلك صامت، وهى لا تستطيع أن تخرجه من صمته ليبدأ هو خطوتهما الأولى.

ظلا جالسين حتى بدا أن الصبح سيطلع، يتحدثان قليلا ويصمتان كثيرا، حتى إذا ما داخلهما الخوف من مداهمة الصبح تحدثا، قال إنها يجب أن تحظى بشيء من النوم، وأشار إلى المرتبة:

- ولو أنها ليست على قدر المقام

وضحكت فبان سنها الناصع، وأشارت إلى الكنبة وقالت:

- سأنام هنا

وبصوت ملوءه الغنج أردفت:

- إفرد أنت ظهرك، تلاقيك واقف على حيلك من طلعة النهار

وهمت بالنوم فوق الكنبة فلحق بها وأمسك بيديها، فى الحقيقة سلمتهما إليه، وجذبها برفق نحو المرتبة فانقادت له، وسقطا معا.

لا تتحدث الحكايات أبدا عن أحد بعينه حكت له شكران عما حدث بينها وبين حسانين، أو ذلك الوحش الآدمى كما ينسبون إليها وصفه بذلك، ولا عن أحد بعينه استودعه حسانين سره فحكى له عن لقائه مع شكران، أو تلك القطة العجيبة كما ينسبون إليه وصفها بذلك، ولا يعرف السراسوة الشيء الكثير عن ذلك الأمر، بل إن الكثيرين منهم لم يسمعوا به أبدا، والذين سمعوا به يتحدثون عن زواج صورى وقع بين حسانين الضبع وشكران شوكت، أعقبه طلاق فعدة، فزواج جديد من يوسف السرسى، ليلتئم شمل الأسرة، لكن أحدا منهم لا يعرف ما جرى بين العروس والعريس فى منزله، ومن يعرف منهم أصل الحكاية يتكتمها.

لكن المخبوء خلف الكلمات سرى فى بطون الحكايات السرية، وحكاية حسانين وشكران واحدة من الحكايات التى يحلو لمن يعرفها من الشبان أن يستعيدها بينه وبين نفسه، أو يحكيها فى جلسات الليل المخفية عن عيون المتطفلين، والعجيب أننى لما تتبعت الرواية عرفت أنها فى حينها

كانت مشهورة جدا، لكن الزمن أخفى معالمها فبهتت، ثم زالت من الذاكرة الجمعية، واستقرت فى بطون الحكايات السرية، التى لا يتناولها إلا المطلعون، فلقد وقع حسانين وشكران فوق المرتبة، بتدبير من أحدهما أو منهما معا، أو بتدبير القدر، وجاءت وقعة حسانين فوقها فتألمت، ولما هم لينهضها وقعت يده على بطنها، أذهلته طراوتها فمسح فوقها، ولفحت وجهه تنهيدة كادت تحرقه، وأنين خفيض سرى فى أذنه القريبة، ولما رفع وجهه ليتحقق من ملامحها وجدها مغمضة العينين، وطرف لسانها يلعق شيئا متوهما، وحرائق لم يخبرها من قبل تَصَّاعَد من وجهها.

تحت اللحاف الذى جذبته لتفرده فوقهما اصطدمت يدها بشىء ضخم، ماتت فى جلدها إثارة وخوفا، إنه إن كان ما اصطدمت به يدها هو حيوانه فروحها لا محالة زاهقة، لا تدرى كيف خلصها من ملابسها، ولا كيف خلصته، كل ما تعرفه أنها انطرحت ذاهلة، فيما حيوانه الضخم يبحث لنفسه عن طريق بمعونة من يده الحرة، وعندما اهتدى إلى طريقه اندفع كالقطار، وندت عنها صرخة زلزلت صمت العزبة النائمة، وسكن حتى تستوعب الصدمة، ولما عادت أنفاسها تتردد سحب نفسه قليلا، ومع كل سحبة كانت تشهق، كأنها تموت، ومع كل عودة تطلق صرختها المستحيلة، يحد منها طرف اللحاف الذى تدسه فى فمها دسا.

قرب الفجر عادا إلى ما بدآه من ساعتين، لم يتبادلا كلمة واحدة، ولا نظر أحدهما فى وجه الآخر، فقط كانت تلتف حوله، وكان يمسح على جسدها، يستكشف ما فاته، كانت تواقة إلى الصدمة التى زلزلت كيانها كله، وذلك الشىء الرهيب الذى انبعث بداخلها و لم تكن تعرف أنه هناك،

فى تلك الأماكن التى لم يصل إليها يوسف أبدا، ساعدته هى هذه المرة، أمسكت بحيوانه ودلته على الطريق، و لم يكن فى حاجة لمعونتها، لكنه استمتع بمحاولتها، وعندما سكن فيها جحظت عيناها، الآن هى مدركة تماما، وهى لم تر هذا الشىء من قبل، بل وربما لم تره امرأة قبلها، وإذ رأته يتعجل الحركة قبضت عليه برجليها، عقدتهما فوق ظهره لِيُبَطِّئَ من حركته، فالليل ستار، وما تشعر به يقترب من لذة الموت.

تقول الحكاية إن شكران رفضت أن يخرج حسانين إلى الترعة ليغطس فيها ويتطهر من الجنابة، قامت بنفسها وجلبت له الماء من الزير القائم فى ركن الصالة الصغيرة، وصبته فوق جسده وهى تمسد كل بوصة فيه، وألبسته ملابسه قطعة قطعة، قميصه الدمور الذى تفوح منه رائحة عرق رجالى آسر، وسرواله الطويل الذى شدت تكته وأحكمت ربطها، وصديريه القصير، وجلبابه الذى بدا فيه كملك منبعث من أول الزمان، كانت بقميصها المنزلى على جسدها العارى فتراقص تحت القميص ثدياها، ولعب ردفاها وتثنت بطنها الطرية، فكاد يفتك بها من جديد، لكنها أجلسته على الكنبة، وجلست القرفصاء وهى تبحلق فيه، تعوزها الكلمات، لكنها لم تكن فى حاجة إلى ما يعرف الناس من أحرف لتبلغه بما تريد، فعيناها تقولان كل شىء.

هل فعلت دموع شكران كل ذلك!!؟، وهل صحيح أنها بعد أن رشقت فى صدر حسانين رمحا من النار أسقطتها الدموع فوق المرتبة محمومة!!؟، المرتبة التى شهدت حربهما المستحيلة!!؟، وهل بقيت حقا فى دار حسانين أياما يختلف الرواة فى عددها بحجة إصابتها بالحمى!!؟، وهل يمكن أن

يصبح المرء فإذا هو محموم، فإذا تركوه إلى الليل ينقلب شيطانا!!؟، تلك هى الحكايات التى يتناقلها البعض من السراسوة فى السر، وعلى إيقاعها يتندر الشبان، وفى حبائلها يتلمسون الغواية، ويحلمون بأشيائهم وهى تتضخم وتتضخم، حتى لتصير مثل ذلك الشيء المستحيل الذى يلمحون إليه، والذى دفع شكران إلى التمارض.

طالت غيبة زوجة حسانين وأبنائها، وتناقل البعض خبر وجود شكران فى داره، وحتى لا ينفضح الأمر قام بزيارة زوجته لدى أهلها، وبطريقته تمكن من تهدئة ثورتها، وكذلك هدأ من ثورة الأبناء الذين أرادوا العودة معه، وعندما عاد إلى العزبة وجد سليمان جالسا عنده، من فتح له الباب!!؟، سأل نفسه والعجب يأكله، ودار بين الرجلين حديث خلدته الحكايات المشحونة بأفاعيل الذكرى:

– جاءت على وعد أن تعود بها فى الصباح، فكيف لم تفعل!!؟

– أصابتها الحمى فخشيت أن أخرج بها

– ومن من أهل البيت هنا يقوم على رعايتها!!؟

– أنا بنفسى

– وأين زوجتك إذن!!؟

– فى دار أبيها وهى وأبنائى

– ولم!!؟

– قدرت أنه من الأفضل ألا يكونوا هنا، ولكن الحمى أفسدت التدبير

– أهى الحمى حقا يا شيخ حسانين!!؟

– وماذا يكون غيرها يا شيخ سليمان!!؟

– إذن سآخذها إلى الربع ثم تلحق بنا هناك

– ولماذا لا آخذها إلى هناك بنفسى!!؟

– خذها بنفسك إذا شئت، ولكن الليلة

– لا أقبل تلميحك يا شيخ سليمان، ولن أذهب بها إلى الربع فى الوقت الذى تفرضه أنت، بل فى الوقت الذى أحدده أنا

– إذن فما يقوله عمى الشيخ يوسف حقيقى

– وماذا يقول عمك!!؟

– يقول إنك تخطط لزواج يدوم إلى نهاية العمر

– أنا لم أضرب يوسف على يده ليختارنى لمهمة الزواج من زوجته، وإذا كنت تلمح إلى شىء ما فهى زوجتى على كتاب الله وسنة نبيه

– ونعم بالله

– إذن ليلزم كل واحد حده

– ....

– ....

عند باب الدار استمر صمتهما، لكن حسانين وقد رأى أنه أغلظ فى القول لسليمان جذبه من يده ودخل به عندها، كانت مطروحة على المرتبة والحمى تقابل الداخل من باب الحجرة، وقبل أن يقترب سليمان منها قال:

– أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

ونظر إلى حسانين:

– لماذا لم ترسل إلى أحد ليراها؟

جئتها بـ"أبو" منصور فنصح باللبخة التى تراها

وكانت رأس شكران محاطة بعصابة من القماش محتوية على لبخة عشبية لامتصاص الحمى، واستدار سليمان خارجا، وعند الباب وقف يقول:

– لم أكن أعرف أن الأمر هكذا

وانبثق ضوء فى دماغ حسانين فرأى أن يسأل:

– ما الذى ظننته!؟

ومضى سليمان دون أن يجيب، ولحقت به كلمات حسانين الغاضبة:

– إنكم يا أبناء سيد احمد السرسى لا تحسبون عواقب كلامكم

وإذ أدرك أن الكلمات اخترقت أذنى سليمان أردف:

– ومن يريد أن يناقش معى هذا الأمر سألتقيه فى أى مكان آخر، وليس فى بيتى

ليس أمام حسانين وشكران إلا طريق واحد، معه يمكنهما أن يحظيا ببعضهما البعض أياما أخرى، افتعال خلاف، مع يوسف وسليمان وكل من يتدخل لإنهاء الوضع المعلق، حتى ولو احتاجا إلى افتعال خلاف مع الشيخ محمد شوكت نفسه، وكانت شكران قد بكت بين يديه ليهبها أياما أخرى، فهى أيام لن تكون أبدا من عمرها، الذى راح والذى سيأتى، وبكى هو

أيضا، فهذا الذى رآه فى حضنها لم يشعر به من قبل، إنها الشياطين تأخذه فى دوامة هائلة، وتظل تؤرجحه بين الأرض والسماء، وعندما يكتمل مداره تقذفه من عنان السماء ليغوص إلى سابع أرض، صاعقة، رحلة رائعة ومرعبة، لا تصرخ فيها شكران وحدها، بل هو أيضا.

سيكون عليهما أن يواجها عقبات كثيرة، أخطرها زوجته التى طال غيابها، وأبناؤه الذين دفع بهم أخوالهم إلى العزبة ليثنوا أباهم عن عزمه الذى لا يخفى على لبيب، وهو إن كان قد تعلل بحمى شكران لإبعاد أبنائه عن الدار فإن الحيلة لم تنطل على أحد، حتى أخته التى اتسعت دارها مؤقتا لأبنائه، وأمام انكشاف أمره أعلن على الملأ أن يوسف وسليمان أخطآ فى حقه، وهو لن يعيد شكران إلا إذا جمعه بهما مجلس عرفى يرد إليه حقه، وأرسل إلى يوسف من يبلغه بقراره، واضطر يوسف إلى الاستفسار من سليمان عما جرى بينهما، ولما أبلغه سليمان بما حدث عرف أن حسانين ربما يكون قد فهم الأمر خطأ، أو أنه يفتعل خلافا ليطيل فترة زواجه من زوجته.

داروا حول أنفسهم، فى الربع وفى عزبة أحمد السرسى، سليمان يرى أن حسانين الضبع ينتحل الأسباب، ويوسف لا يعرف كيف سيتخلص من تبعة ما جنت يداه، فهو من اختار الزوج الجديد بنفسه، وشكران لم تسهم فى الاختيار على أى نحو، ولا أحد من أهلها، لذا فإن ما يطلبه حسانين من عقد لجنة عرفية للتحقيق فيما يدعيه من أخطاء ارتكبت فى حقه ينقل الموضوع برمته إلى سلسلة من التعقيدات لن تنتهى، وبدلا من أن يجيئ يوسف إلى العزبة أرسل فى طلب سليمان، و لم تسفر الزيارة عن جديد،

وأخيرا قرأ كل منهما فى عينى الآخر الحل الذى اجتهدا ليتجنباه.

الوجود فى مندرة الشيخ زكريا لا يمكن إخفاؤه، فأصدقاء نوح زكريا يظهرون قبل أن تأذن الشمس بالمغيب، ولا يتركون المندرة إلا مع مطلع الصبح، بل إن بعضهم يستلقى فيها وينام، فيتركه الرفاق نائما ويغلقون عليه الباب، ويوسف وسليمان يعرفان أنهما إذا قصدا إلى مندرة الشيخ زكريا سيكونان محل ملاحظة الجميع، وسيصل خبر قدومهما إلى الناس قبل أن يقوما من مقامهما.

بعد أن رحب بهما نوح صحبهما ليريا أباه فى حجرة داخلية، لم يكن قد أذن لصلاة العشاء بعد، ورأى الشيخ زكريا أن يرسل فى طلب حسانين الضبع، لكن "نوح" خرج من لدن أبيه مصمما على شيء آخر، فما تردد فى العزبة فى الأيام القليلة الفائتة جعل دمه يغلى من الغضب، وقال لبعض أصدقائه إن ما يفعله عمه حسانين الضبع مع زوجة عمه يوسف هو خيانة للعهود وللقرابة، وإساءة بالغة للسراسوة، لذا فإنه لما ترك حجرة أبيه وهو مجتمع بيوسف وسليمان عزم على إنفاذ رأى استقر عليه.

جاء حسانين مهرولا على أطراف أصابعه، فأرض الوسية التى أعطاه إياها الشيخ زكريا ابن عمه ليزرعها، واستعمال أبنائه ضمن أنفار الوسية، وأمور أخرى كثيرة تعود عليه بالنفع، كل ذلك الآن على المحك، وهو على يقين من أن الاستدعاء له صلة بموضوع شكران، وأمام الشيخ زكريا لن يجديه البحث عن خلاف، سيأمره الشيخ زكريا بإعادتها وسيمتثل للأمر، وشعر وهو يهرول بخذلان فى أسفل ظهره، أرجعه إلى الحزن، فهو لم يرتو بعد من نبع الحورية التى أطلعته على شموس يخبئها الليل فى

أكمامه، والتى دقت بكعبيها جنبيه ليفرغ فيها كل مائه، وقبضت عليه كما تقبض الكلبة على ذكرها.

راح وهو فى الطريق يقول إنه إذا استسلم من البداية يكون قد لطخ ثوبه بالخراء، هو على خلاف مع يوسف وسليمان، سيتشبث بهذا، وسيدافع عن رأيه دون أن يغضب الشيخ زكريا، ولكن كيف!!؟. الإجابة قدمها له الشيخ زكريا نفسه، فعندما دخل عليهم فى الحجرة الداخلية دون المرور بالمندرة سلم على الشيخ زكريا و لم يسلم على أحد غيره، إنه بهذا يعلن خلافه مع الرجلين، يوسف وسليمان، وتركه الشيخ زكريا برهة ثم سأله عما يغضبه من ابنى عمه، فانطلق يحكى له ما كان من أمر يوسف معه، وما كان من أمر المرأة التى دخلت داره بعد أن أخلاها من أهله ليضمن للموضوع السرية اللازمة، ولكنها أصيبت بالحمى، وأشهد سليمان على جلبه "أبو" منصور لعيادتها، وعلى معرفته بمرضها مما يستحيل معه نقلها إلى قريتها، ثم عرج على اتهامات يوسف وسليمان له باغتنام الفرصة لإطالة أمد الزواج، كأنه هو الذى خطط للزواج منها، وسعى لذلك!!.

فى داخله كاد الشيخ زكريا يضحك، فهذان هما ابنا عمه سيد احمد، يستخفيان منه فيسيئا التصرف، وعندما تَدْلَهِمُّ الخطوب يلجآن إليه، كأنه ما وجد إلا ليدارى عوراتهما، لا ينكر أن بداخله شيئا يشعره براحة عجيبة، ليست راحة التشفى بالضبط، ولكنها راحة الإدراك، راحة اليقين بأن ما يراه هو الأصح، وأن يوسف ابن عمه، وسليمان ابن أخته يخجلان من اللجوء إليه، وربما يكونا قد أخفيا الأمر عن الدنيا كلها بهدف إخفائه عنه هو بالذات، وها هما ينفضحان أمامه، فلا يستر عورتيهما شيء.

يعرف أن ما يقوله حسانين محض هراء، وهذا ما يجعله يجاهد ليمتنع عن الضحك، ولكنه مطالب بالبحث عن مخرج كريم له، ينقذه من الورطة التى ألمت ببيته دون أن يفضحه.

إنه إذا فرض على يوسف أن يدفع لحسانين شيئا من المال لقاء ما غرمه على شكران من طعام ودواء فسيكون كمن يشترى المرأة منه، وهذا يقبحه، وإذا أجبر حسانين على رد المرأة لأهلها دون تبصر فربما يكون مرتكبا لإثم كبير، فالمرأة زوجته على كتاب الله وسنة نبيه، ولا يملك أحد كائنا من كان أن يجبره على تطليقها، ما لم يسألها بنفسه، ثم إنه لا يجب عليه أن يأمره بردها فى هذه الليلة بالذات، لأنه إذا فعل يكون حسانين قد خرج من الخلاف مهزوما، وهو لا يريد لأحد أن يخرج من هذه الورطة مهزوما، أو منتصرا، فقط يخرجون راضين، حتى ولو ظن كل منهم أن الحق فى جانبه.

تفتق ذهنه عن حل، قال ليوسف وسليمان فى حضور حسانين إنهما إذا أرادا المضى فى البحث عن حل فإن الأمر يحتاج إلى الاسترشاد برأى فقيه، فقيه يختاره هو، وكان يتحدث بصدق عرف سليمان علاماته فى وجهه، وكذلك أدركه يوسف، أما حسانين الضبع فإنه كان ذاهلا، ينظر إلى الشيخ زكريا مفتوح الفم ولا يقدر على الكلام، فابن عمه القابض على مقدرات رزقه يقدم له ما لم يكن يتوقعه فى أسعد أحلامه، وعليه حتى ينفذ الرأى الذى اختاره أن يتكلم ولو بضع كلمات، لكن فمه لا يطاوعه، ولسانه يستعصى على الانصياع.

انفض الاجتماع على ما قال الشيخ زكريا، على وعد بألا يتجاوز المدى أياما قليلة، وانصرف الرجلان، يوسف وسليمان، وهم حسانين بالانصراف فى أعقابهما، لكن الشيخ استبقاه، وأمره بالجلوس ريثما يصلى العشاء، فهو منذ فترة لم يعد يقدر على الخروج إلى الجامع فى صلاتى الفجر والعشاء، ودخلت واحدة من العاملات فى الدار تصب عليه ماء الوضوء، وبعد أن فرغ جفف وجهه وذراعيه فى شاله الكبير، واستقبل القبلة يصلى، وطوال صلاته كان حسانين يخمن سبب استبقائه، يعرف أن الشيخ زكريا لم يرد أن يهزمه أمام ابنى عمه، ويعرف أيضا أن ما قاله فى حضورهما شىء، وما سيقوله بعد انصرافهما شىء آخر، وفرغ من أفكاره فتلبسته الهواجس، ورأى بعينى خياله شكران نائمة فوق مرتبته السعيدة، وفيما هو يستعيد آخر لقاء له معها طرق سمعه استغفار ابن عمه، استغفار ما بعد الصلاة.

هل كان الشيخ زكريا على علم بما سيفعله ابنه!!؟، هل تعمد استبقاء حسانين لديه ليتمكن نوح من إنفاذ رأيه!!؟، البعض ممن يعرفون الحكاية يذهب إلى شىء من ذلك، فيما الآخرون يرفضون أن يصدقوا أن يكون الشيخ زكريا ضالعا فى الأمر، فهو جاد ومباشر بأكثر مما يطيق رجل، وبأكثر مما يتصور أحد، ولكن النتيجة فى الحالين واحدة، إذ بعد أن غادر حسانين دار الشيخ زكريا وعاد إلى داره وجد الدار صفصفا، وبحث عن شكران فى كل مكان فلم يجدها، وكاد يطرق الأبواب الموصدة ليسأل عما قد يعرفونه عنها.

حملها نوح وبعض من أفراد المنسر من دار حسانين عنوة، جمعوا

أغراضها فى ملاءة قديمة وغطوها بشالها الكبير ومضوا بها إلى الربع، وقبل أن يعود يوسف إلى داره كانت شكران فى دار أبيها، فى البدء كانت تتلوى ألما، فلم تكن تطيق البعد عن الدار التى رأت فى لياليها القليلة ما لم تره امرأة، لكنها أمام صرامة الأمر الصادر من نوح لرجاله فضلت التألم فى صمت، ومع مرور الوقت وانقطاع الأمل فى الفرار عادت إلى شيء من الرشد، وها هم أبناؤها ينبتون فى ذاكرتها كأنهم يولدون الآن، وينبت أبوها الذى ينظر إليها دامعا، وأمها التى تشيح عنها بوجهها، ويوسف الذى يرفض أن يظل برهة فى المكان الذى تجلس فيه.

سبقت عودتها إلى دار أبيها أخبار حملها نوح زكريا، فلقد فضل أن يسبق أحد الرجال إلى الربع ليطلع الشيخ محمد شوكت على ما يجرى، حتى لا يفاجأ بعودة ابنته، ووقف الشوكتية خلف الأبواب والنوافذ ينتظرون قدوم شكران، وقبل أن تهل بشائرها سقطت أمها غائبة عن الوعى، فالناس فى الربع تناقلوا على مدى أيام غيابها أخبار تمسكها بزوجها الجديد، وهى لا تعرف كيف وصلت تلك الأخبار إلى هناك، على ما بين الربع وعزبة السرسى من مسافة لا تسمح بانتقال الشائعات فى أيام قليلة، وكالمعتاد دلك الأبناء صدر الأم وصبوا الماء على رأسها، ثم نثروا شيئا من العطر على وجهها وفى طاقتى أنفها فأفاقت.

تلكأ رجال المنسر كأنهم سيأخذون من الشيخ محمد شوكت أجرا لقاء ما فعلوا، لكن نوح زكريا بحلق فى وجوههم فانصاعوا لرغبته، وخرجوا من الدار المتحفظة، وفى طريق العودة اقترب أحدهم من نوح، وسأله: لماذا لم يتركهم يتقاضون أجرا لقاء ما فعلوا!!؟، وأجابهم نوح بأن المرأة

هى زوجة عمه، ولا يليق به أو بهم أن يحصلوا على أجر لقاء ردها لأهلها، وإلا ظن الناس أنه سيشاركهم الأجر الذى يطلبون، وهز المنسر رؤوسهم، كأنهم يتفهمون الأمر، ولكنهم فى الحقيقة كانوا غاضبين، وفى داخل كل منهم بحث عما يجب فعله، فما فعلوه هو عمل يتخذون عليه أجرا، من أهل المرأة أو من نوح، لا يهم.

كل شىء جرى بعد ذلك حكاه نوح لأبنائه بعد عقود، فلقد قرت أعين الشيخين يوسف وسليمان بما حدث، ورأيا أن الشيخ زكريا تصرف بحكمة، إذ استبقى حسانين لديه ريثما يقوم ابنه بنقل شكران إلى الربع، وهو لم يشأ أن يخبرهما حتى لا يفتضح التدبير، وأيضا لم يشأ أن يأمر حسانين بردها حتى لا يعترض فيغضب عليه، ويكون لاعتراضه ما يكون من أثر قد لا يمكن تداركه، ولما كان حسانين غافلا عن حقيقة ما جرى فلقد رأى أن أهل المرأة هم الذين دبروا أمر اختطافها، رافضا الحديث الذى انطلق هنا وهناك عن ضلوع الشيخ زكريا ونوح فى الأمر، أو تلك الترهات التى تقول إن المرأة فرت من داره ونجت بجلدها.

لم يعد بد من أن يطلقها، هذا ما قاله الشيخ زكريا عندما بلغه اختفاء شكران، ثم ظهورها فى نفس الليلة فى دار أبيها، وحتى لا يترك حسانين يدور حول نفسه أرسل فى طلب زوجته لتعود إلى الدار، وانتقل أبناؤه من لدن عمتهم، ودارت عجلة الحياة فى دار حسانين من جديد، لم يتغير شىء، وإذا كان حسانين يرفض التوجه إلى المأذون لإيقاع الطلاق فإن المأذون يمكن أن ينتقل إليه، فى عزبة السرسى، وهكذا سويت الأمور بدقة وعقلانية، و لم يحضر أحد إيقاع الطلاق سوى الشيخ زكريا ومؤمن

إبراهيم اللذين شهدا على إيقاع الطلاق، وشعر حسانين وهو ينطق عبارات الطلاق بأنه يلفظ أنفاسه.

بعد انقضاء آخر أيام العدة عقد المأذون ليوسف على شكران، كانت أثناء العقد الذى باشرته بنفسها صامتة، وتبتسم فى غموض، كأنها تطوف بذكرى مبهجة، ولما طلب منها المأذون أن تردد من خلفه عبارات العقد رددتها من ورائه دون تفكير، كأنها مسحورة، فلا هى معترضة، ولا هى متحمسة، ستقول لنفسها بعد ذلك إن ما رأته من أمرها مع حسانين الضبع لم يكن شيئا دنيويا، ولا حقيقيا، كان حلما، وها هى عادت إلى الواقع، فإذا كانت قد خبرت ما لم تخبره امرأة غيرها ففى هذا الكفاية، فالذى تتذكره من أمور جرت فى مكان غامض فوق مرتبة فقيرة ليس إلا وهما، أو خيالا، والواقع أمامها الآن، زوجها الفتى ذو العود الرمحى الممشوق، وأبناؤها الذين تخجل الشمس من طلعتهم، ودارها التى تتيه على كل الدور.

لن ترى شكران دورتها بعد العقد، سينغلق رحمها على حمل جديد، كأنها أرض متشوقة للزرع، وستخبرها خادمتها هندام بما اشتركت فى تدبيره مع حماتها مليكة، يوم أن قصدت إلى ذلك البلد الواقع على الترعة الكبيرة المسماة بحر طناح، وهناك سلمت رجلا عارفا شيئا من أثرها، فكتب حجة لا يقدر على كسرها أعتى أفراخ الجان، كتبها لتمرض لدى حسانين الضبع، فلا يقربها، وإذا اقترب منها يراها كما يرى الإنسان قردا، وإذا تجاوز عن قبحها تكون كالحائط السد، مستغلقة كما يستغلق الكالون، وستخبرها عن ذلك اليوم الذى حضر فيه إلى الدار الشيخ سليمان، وحكى

عما عاينه بنفسه فى دار حسانين، وكيف أنه عندما دخل عليها الحجرة لم يطق الوجود فيها لحظة، فلقد كانت حرارة الحمى تنبعث من جسدها، ولما اعترض يوسف على ما قال سمع صوت أمه يأتيه من حجرتها:

– امتثل يا يوسف، ما يقوله سليمان هو الحقيقة

وستظل هندام تحكى وتعيد الحكى فى موالها، فيما شكران تسرح بخيالها فى تلك الرؤى البعيدة، عنها وعن رجل يدعى حسانين الضبع، دهمها كما يدهم قطار ضحيته، ووقع عليها فرأت ما لم تره امرأة من قبل، لا تقدر على تذكر ملامحه، لكنها تستشعر حلاوة الذكرى فى كل خلية فى جسدها، وستتمدد على سريرها وتتمغط، كأنما لتمعن فى الذكرى، وستظن هندام أن سيدتها تفعل ما تفعل لأنها تنعم بزوال الغمة.

نوح... وقطب



كانت سنوات الأعرابى مساعد السمدانى الأخيرة قد شهدت تدهورا شديدا فى أحواله، المادية والاجتماعية، وانكفأ الرجل على نفسه فى محاولة للعيش فى حدود ما تسمح به الأوضاع المستجدة، فلقد تقلصت أراضيه بالبيع، وبالتنازل، وبالبوار، وما تبقى لديه من أراض قليلة كان يتشاجر مع أبنائه ليفلحوها بدلا من الانشغال فى توافه الأمور، لكنهم رموه بالخرف، إذ كيف يريد لهم أن يكونوا فلاحين كالذعران الذين ينغرسون فى الطين طوال العام، وتَرَجَّع صدى خلافه مع أبنائه فى القرى المحيطة فكف الناس عن دفع الأتاوات التى يفرضها عليهم، وساعدهم على ذلك أن قوات الاحتلال الانجليزى لم تعط الأعراب ما أعطاهم محمد على باشا وأبناؤه من أهمية مشفوعة بأبعديات وعهد وأراضٍ شاسعة، وتعاملت مع خروجهم على النظم التى وضعوها بقسوة شديدةً، وصلت إلى درجة مهاجمتهم وكبس قراهم ومضاربهم، ومطاردتهم فى الصحارى إذا لزم الأمر.

لم يشفع لهم لدى الانجليز أن كان بعضهم عونا فى الإيقاع بعرابى باشا وصحبه، فلقد أنهت قناة السويس حرفة مهاجمة القوافل المتجهة إلى السويس، وظهر عجز الأعراب جليا عندما اكتشفوا ألاّ طاقة لهم فى مهاجمة السفن العابرة للقناة، ذلك أن مستوى تسليحهم وأعدادهم وطريقتهم فى الهجوم لا تجدى أمام سفن كبيرة مجهزة بحراس لديهم أسلحة متقدمة، وفى مواجهة معسكرات قوات الاحتلال المنتشرة على طول القناة من الجانبين.

لم يمهل القدر الشيخ سيد احمد السرسى ليرى بعينيه مبلغ الانحدار الذى أصاب السمدانى، لكنه شهد البدايات التى عصفت به وجعلته ينشغل بأموره المتردية عن كل من يحيطون بمضاربه، وليس عن السراسوة فقط، وطعن السمدانى فى السن، وعاش أياما شديدة القسوة، ينقله البعض ممن تبقوا معه من هنا إلى هناك حملا على أيديهم وأكتافهم ليحصل على قدر من الشمس، أو لتغيير فرشته أو تهويتها للتخلص من رائحة الصنان، ورحل بعد وفاة الشيخ سيد احمد السرسى بسنوات عديدة، بعد أن شهدت أيامه الأخيرة رحيل أبنائه الكبار، وكان قد فقد ذاكرته فلم يعد يدرك حقيقة ما يدور من حوله، وفى تلك الظروف رحل أبناؤه الواحد بعد الآخر، و لم يبق من الفرسان الإثنى عشر بعد وفاته إلا ثلاثة، مكايد وحمدان والسمدانى، وهم أبناء آخر زوجاته التى بنى بها وهو عجوز.

مكايد ترك عزبة السمدانى التى أنشأها أبوه فى مكان مضاربهم شرق عزبة أحمد السرسى وانتقل للعيش فى قرية شنوان القرِيبة، يزرع بضعة أفدنة بقيت من العهدة الشاسعة التى كانت لأبيه يوما، ويفرض الخوف

على البسطاء فيدفعون صاغرين فِرَداً تمكنه من العيش فوق مستوى جيرانه، يساعده فى ذلك تاريخ أبيه، وكون أخيه حمدان عمدة القرية، بعد أن استلب المنصب من بيت الشنوانى، برغم بقائه فى عزبة أبيه التى تقع على مرمى حجر من السراسوة.

صداقة عجيبة ربطت العمدة حمدان السمدانى بالشيخ سليمان السرسى، دفعته لملازمته طوال الوقت، فلم يكن يترك مجلسه إلا للنوم، يأتى مع مطلع الصبح ليتناول الفطور معه، ويسمع منه ما تقوله الصحف التى تأتيه من السنبلاوين رأسا، ويحين وقت الغذاء فيتناوله معه هو والصديقان اللذان يأتيان أيضا بانتظام، حتى لكأنهما - شأنهما فى ذلك شأن حمدان السمدانى - من سكان الدار الكبيرة، محمد حسنين شيخ عزبة فركوح وإبراهيم شلباية شيخ عزبة شلباية، وكانوا ثلاثتهم يأتون إلى العزبة مع الصبح، ولا يغادرون إلا عند أعتاب الغروب.

أما السمدانى مساعد فكان أقرب الأبناء شبها بأبيه، وبعد أن رحل أبوه ومات أخوته الكبار الواحد بعد الآخر حصل على ميراث معقول، لكنه باعه وبعثر ثمنه على النساء والمخدرات، وعلى أصدقائه من أبناء الليل، ولما نفذ الميراث ضرب فى أماكن عدة بحثا عن المال، فمرة يعود إلى عزبة أبيه متجاهلا أنه باع نصيبه فى سكن العزبة لأخيه حمدان، ومرة يذهب ليعيش فى دار مكايد فى شنوان، يشاركه التنكيل بالبسطاء ويقتسم معه الفرد التى تعينه على مواصلة حياته الماجنة، وعندما تحول اهتمامه إلى أهالى قرى أخرى مجاورة قاومه الناس وكادوا يفتكون به، لولا تدخل أخيه العمدة، وتعهده هو نفسه بعدم العودة إلى ما كان منه، وهكذا عاد

ليعيش فى عزبة أبيه، والتى سعى حمدان لأن تسمى باسمه، عزبة حمدان السمدانى.

فى غمرة الأحداث ربطت صداقة قوية بين السمدانى العربى ونوح زكريا، فمندرة الشيخ زكريا تعج بالناس من كل لون، من السراسوة وغيرهم، الأمر الذى دعا نوح زكريا لأن يهدد ذات يوم:

- سنمنع السراسوة من الذهاب للانتخاب ليعرف باشوات الوفد قيمة ابن قتَّال الجوع.

صرح بهذا ردا على ما وصله عن طريق السمدانى العربى منسوبا للشيخ سليمان، مفاده أن "نوح" يستغل انشغال أبيه فى شئون الوسية ويعيث فسادا فى المنطقة كلها، هو والمنسر الذين جلبهم إلى العزبة، وفى مقدمتهم الجارية السوداء التى لا تشبع من الرجال، وكان قد نقل إليه من قبل قولاً آخر منسوبا لسليمان أيضا، مفاده أن جده سيد احمد قتال الجوع لو كان بينهم لطرد كل هؤلاء اللصوص من العزبة إلى غير رجعة، إذ هو فى الحقيقة أصل عزبة أحمد السرسى، ولولا أنه بقى فيها و لم يخرج مثل غيره لما كانت قائمة الآن، بل إن داره هو وليست أية دار أخرى كانت ولا تزال هى كعبة السراسوة المشرفة.

العزبة كانت على أعتاب انتخابات جديدة، فبعد نجاح الوفد فى الانتخابات الأولى ألف سعد باشا الوزارة فى 28 يناير 1924، وقضى فى الحكم أقل من عشرة أشهر إلى أن قدم استقالته وقبلها الملك فؤاد فى 24 نوفمبر من نفس العام، وقضى أشهر توزره كلها فى محاولة للوصول إلى اتفاق مع انجلترا يضمن استقلال مصر استقلالا فعليا، ويلتف من حول

التحفظات أو الشروط الأربعة التى وردت فى تصريح 28 فبراير، والتى تنسف فكرة استقلال مصر نسفا، فبقاء القوات الانجليزية فى مصر، حتى ولو نص على جعلها فى منطقة قناة السويس، وحق هذه القوات فى التدخل فى الأمور السياسية التى ترى انجلترا أو تدعى أن فيها أثر تدخل خارجى، فضلا عن ربط بقاء القوات بالحفاظ على سلامة المواصلات الإمبراطورية إلى الهند وهو ما يجعل له صفة الدوام، كل ذلك جعل سعد باشا ومن ورائه أساطين الوفد يعملون طوال الوقت على الالتفاف حول هذه الشروط وعدم الاعتراف بها، وكانت بريطانيا على استعداد للتفاوض حول الكثير من هذه الأمور مقابل تخلى مصر عما تسميه حقوقها فى السودان.

تحطمت كل المفاوضات على صخرة مسألة السودان، وعاد سعد باشا من لندن دون أن يبرم الاتفاق المنشود مع الانجليز، وبات واضحا أن انجلترا التى لم تكن تقر الملك فؤاد على رغبته فى التخلص من إرهاصة الحكم الدستورى باتت تفكر بنفس الطريقة التى يفكر بها الملك، التخلص من حكومة الوفد، وبخاصة إذا كان رئيس الوزراء هو سعد باشا، وبات واضحا أيضا أن الدستور الذى قدمه الملك فؤاد للمصريين على أنه منحة منه به من العيوب ما يجعل الملك قوة تفوق السلطات الدستورية المعروفة، وبخاصة حقه غير المشروط فى حل مجلسى البرلمان، النواب والشيوخ، واحتفاظه دون الحكومة بالإشراف على الأزهر والمدارس والمعاهد الدينية، فضلا عن حقه فى تعيين نسبة من النواب والشيوخ يتعذر معها إمكانية قيام الوفد بتعديل الدستور دون موافقته، وكانت النتيجة أن ظلت مصر وستظل

تحكم للثلاثين عاما القادمة من خلال توازن مزعزع وغير فعال بين ثلاث قوى: القصر، حيث أعيدت بموجب الدستور سلطات أسرة محمد على، ولو على نحو جزئى، والبرلمان ورجال السياسة حيث حزب الوفد هو المسيطر عادة وليس دائما، ومقر المندوب السامى البريطانى الذى لم يكن بمثابة سفارة على الرغم من الإعلان عن استقلال البلاد، فلقد ظل كما كان، المندوب السامى، وكان البرلمان ورجال السياسة فى هذا التوازن المزعزع بما فيهم حزب الوفد أضعف القوى.

ووقع تمرد عسكرى بين طلبة الكلية العسكرية السودانية، فلقد أعلن الطلبة تضامنهم مع المصريين فى كفاحهم ضد انجلترا، وألقى الانجليز اللوم على مصر، قالوا إنها السبب فى القلاقل والاضطرابات التى تحدث فى السودان بعامة، وفى تمرد الطلبة العسكريين بخاصة، وفى هذا الجو المحموم تم اغتيال السير لى ستاك سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان، وانفجر اللورد اللنبى المندوب السامى البريطانى غضبا، فذهب محاطا بحرس من سلاح الفرسان ليوجه إنذارا شديد اللهجة لحكومة سعد باشا، يشتمل على حظر كافة أنواع المظاهرات ودفع تعويضات باهظة، والأخطر من ذلك كله سحب جميع القوات المصرية من السودان، ورفض سعد باشا الإنذار البريطانى وقدم استقالته للملك فؤاد، ولم يكن مضى على توليه الوزارة عشرة أشهر كاملة، وهكذا فإنه وبضربة واحدة أجهزت بريطانيا على الوزارة الوطنية الدستورية الأولى، وتخلصت من رئاسة سعد باشا للوزارة، وحملت الخزانة المصرية مبالغ طائلة، وطردت القوات المصرية من السودان، وانفردت بحكم السودان بدلا من صيغة الحكم

الثنائى التى وإن أتاحت لها من قبل الحكم منفردة إلا أن الحكم كان تحت مظلة مصرية، وتحقق لبريطانيا ما عجزت عن الوصول إليه بالتفاوض.

جاء الوقت ليعانى سعد باشا من جنس ما عانى منه عرابى باشا، عندما اتُّهِم بالتهور وجر مصر إلى الحرب والتسبب فى الاحتلال، فها هو يعانى من نفس الاتهام، وينسب إليه بسبب تطرفه – هكذا رأى الإنجليز، ورأى القصر، ورأى رجال الأحرار الدستوريين – التسبب فى إجهاض أول وزارة دستورية قامت على أساس الانتخاب، والتسبب فى طرد القوات المصرية من السودان، وتثبيت وضع المستشارين القضائى والمالى الانجليزيين اللذين يمثلان مراقبة مزدوجة على الحكومة، واستمرار بريطانيا فى الاضطلاع بحماية الأقليات والأجانب، وكانت بريطانيا بسبيلها للتنازل عن كل هذا!!.

بدأ عصر العبث بالدستور، استقدم الملك فؤاد زيور باشا ليتولى رئاسة الوزارة، وكان يُظَنُّ أنه وفدى، لكن الرجل ومعه صدقى باشا انقلبا على الوفد وقبلا الحكم على أنقاض النظام الدستورى، بل إن الأحرار الدستوريين ابتهجوا بشدة لسقوط الوزارة الدستورية بدعوى أنهم قاسوا من حكومة الوفد أشد الظلم والعنت، ومن البرلمان ذى الأغلبية الوفدية الساحقة طغيانا جعل الحياة البرلمانية عبثا فى عبث(*)، وهكذا تحولت المعركة ضد الانجليز إلى معركة ضد الوفد، والشعب الذى يسانده، وانشغل القصر وزعماء المعارضة بإثارة الخصومة الحزبية وتفتيت الموقف الداخلى، مستندين إلى الذهول المفاجئ الذى أحدثه مقتل السردار، والخذلان الذى

(*) الدكتور/ محمد حسين هيكل (مذكرات فى السياسة المصرية) و(شخصيات مصرية وغربية).

أصيب به الشعب نتيجة لنصيحة سعد باشا بمنع المظاهرات، لأنها حسبما قال ليست فى مصلحة البلاد، وهو ما جعل اللورد اللنبى يقول إن نصيحة زغلول هيأت الشعب المصرى لتلقى إجراءات صارمة، ومن ثم وجب على انجلترا اتخاذ تلك الإجراءات، وادعى القصر ومعه خصوم الوفد بأن سياسة الوفد أخفقت فى تحقيق أمانى البلاد.

انبنت خطة القصر لهدم الوفد على وسائل ثلاث، تحميل حكومة الوفد وأغلبيته البرلمانية المسئولية عن النتائج المترتبة على الإنذار البريطانى، ودفع الكثيرين للاستقالة من الهيئة الوفدية، وتأليف حزب من العناصر المستقيلة هو حزب الاتحاد، يكون مواليا للقصر، ودفع انجراف حكومة زيور باشا وراء مطالب الانجليز وقبول الشروط الانجليزية وتعطيل جلسات البرلمان الوفد إلى المطالبة بعقد البرلمان لوقف استسلام الحكومة للانجليز، لكن الملك فؤاد قطع على الوفد الطريق، وأسرع فى 24 ديسمبر 1924 بحل البرلمان، ودعوة المندوبين الناخبين لإجراء انتخابات جديدة للنواب فى 24 فبراير من العام 1925، على أن ينعقد المجلس الجديد فى 6 مارس منه.

بذل حسن نشأت باشا وكيل الديوان الملكى جهودا جبارة لهدم الوفد، وتوالت الاستقالات، وأطلق الانجليز الذين يغذون الحملة يد القصر فى ذلك الهدم، وسعوا لإدانة الوفد فى مقتل السردار فاعتقلوا عمر فهمى ومكرم عبيد عضوى مجلس النواب، رغم الحصانة البرلمانية، وأيضا محمود فهمى النقراشى وكيل وزارة الداخلية، وقام البوليس المصرى تنفيذا للتعليمات الانجليزية بالقبض على شفيق منصور ومصطفى القاياتى وراغب اسكندر

وحسن يس، وكلهم من النواب الوفديين، دون الاكتراث بحصانتهم البرلمانية، كما ألقى القبض على الكثيرين من غير النواب، وهو ما دعا سعد باشا للخروج من عزلته مقررا خوض المعركة الانتخابية الجديدة.

وهكذا خاضت عزبة أحمد السرسى الانتخابات للمرة الثانية، تحت ظلال تلك الحملة الشعواء ضد الوفد، وابتداع وسائل لتزوير إرادة الناس ستكون قاعدة للتزوير فى كل العصور اللاحقة، مثل العبث بكشوف الناخبين وإجراء التعديل فى الدوائر فى آخر لحظة والتضييق على أنصار الوفد ومنعهم من ممارسة حقوقهم الانتخابية، ورأى الوفد أن يلجأ للحيلة فأوعز إلى جماعة من مرشحيه أن يتصلوا بصدقى باشا على أنهم تركوا الوفد، وأنهم يوم وصولهم إلى مقاعد البرلمان سيناصرونه، ونجحوا فى أن يتلافوا ضراوة التزوير فى دوائرهم، ولما فازوا فى الانتخابات أعلنوا التزامهم بالوفد، وهكذا نجح الوفد و لم تفلح محاولات صدقى فى إسقاطه، ونجح سعد زغلول فى معركة رئاسة البرلمان، وفى يوم فوزه أمر الملك بحل المجلس الجديد، وتعطلت الحياة النيابية و لم يكد يمر عام على قيامها.

فكرة اجتماع البرلمان بكل أطيافه كانت الرد المباشر على قرار حل البرلمان، إذ جاء قرار الملك بحل المجلس الجديد مخالفا للدستور الذى ينص على عدم جواز حل البرلمان مرتين متتاليتين لنفس السبب، وفى يوم 21 نوفمبر 1925 انطلقت المظاهرات تموج فى الشوارع، وقابل الضباط والجنود مظاهرة التلميذات بالتصفيق، وكان قد تعذر الاجتماع فى دار البرلمان فتقرر أن يكون الاجتماع فى فندق الكونتننتال، على غرار اجتماع الجمعية الوطنية الفرنسية فى فاتحة الثورة الفرنسية فى ملعب للتنس،

وأصاب الذعر الانجليز والقصر فعملا على تهدئة الأوضاع بإقالة حسن نشأت باشا وكيل الديوان الملكى، وفى نفس الوقت جنح الوفد لتهدئة الأوضاع مع سلطات الاحتلال، وهكذا تقرر إجراء انتخابات جديدة فى 22 مايو 1926، واتفقت الأحزاب على توزيع المقاعد فيما بينها فتركوا للوفد 160 دائرة، مقابل 45 دائرة للأحرار الدستوريين وتسع دوائر للحزب الوطنى، على أن ينافس الوفد فى ثلاث دوائر أخرى، وهكذا صارت عودة الوفد إلى الحكم مؤكدة.

لما بلغ الشيخ سليمان السرسى ما قاله نوح زكريا عن نيته منع السراسوة من الذهاب للانتخاب ضحك ملء فمه، فنوح لا يعرف أن دائرة كفر غنام هى من الدوائر المخصصة لمرشح الأحرار الدستوريين، ومن ثم فإن خروج السراسوة أو عدم خروجهم للانتخاب لا يمثل تحديا له أمام أصدقائه الوفديين، لكن أهل العزبة كانوا فى حاجة لأن يذهبوا للانتخاب من باب الفرجة، وهكذا جاء يوم الانتخاب فإذا بالسراسوة يخرجون عن بكرة أبيهم إلى برقين، وكانوا مرحبا بهم هذه المرة، حتى أن عائلة السيد باشا "أبو" على عمدة برقين السابق أولمت لكل من توجه إلى الانتخاب، وكان يوما طيبا.

لكن نهاية اليوم جاءت سيئة، فلسبب تافه اعتدى نوح زكريا على قطب، وشاركه الاعتداء مجموعة من أصدقائه، منهم السمدانى العربى، فبرغم أنه أكبر فى السن من نوح إلا أنه يأتمر بأمره، يتغيا التمكين له من التواجد فى مندرة الشيخ زكريا، فعن طريق لزومه المندرة يجد الكثير من الأعمال التى يؤديها للوسية، فضلا عن اتخاذ نوح وسيلة للانضمام إلى

جماعة "أبو"دومة، دون أن يثير من حوله الأقاويل، فالمتصدر دائما هو نوح زكريا، ولا أحد من السراسوة يستطيع أن يثير الغبار حول صلته بالرجل الذى صاهر شاهين الطحان وتزوج ابنته الكبرى.

ترك الاعتداء أثرا فى جسد قطب فآثر ألا يعود إلى الدار حتى لا تعرف الجدة مريم بما جرى، وآلمه أن أبناء أعمامه المباشرين لم يذودوا عنه، وتركوه لنوح وصحبه يعتدون عليه كيف يشاءون، و لم تفلح محاولات ابن خالته الطفل الصغير ياسين فى الذود عنه، و لم يكن سليمان ابن خالته تاج حاضرا الواقعة، فلقد انصرف رفقة أبيه مبكرا، لكن "قطب" لم يتركهم يعتدون عليه دون مقاومة، فلقد تمكن من القبض على يد نوح وعقره فيها عقرة جعلته يصرخ صرخة عظيمة، و لم يترك يده إلا والدماء تسيل منها.

فى دار الجارية جلس قطب يضمد الجراح المنتشرة فى وجهه ورجليه ويديه، و لم تجد المرأة السوداء البدينة بدا من أن تأمره بخلع ملابسه لترى إن كان فى جسده إصابات أخرى، ولما علمت بسبب الشجار مع نوح تمعنت قليلا قبل أن تقول:

– لا بد أن هناك سببا آخر

فأثناء عودة السراسوة من الانتخاب فى برقين تحدث البعض عن خروج السراسوة عن بكرة أبيهم للانتخاب، وضحك البعض من قالة نوح السابقة، حول نيته فى منعهم من التوجه للانتخاب، و لم يفعل قطب سوى أن كان واحدا ضمن عشرات ضحكوا لهذا الأمر، وترك نوح كل هؤلاء واشتبك معه.

ربما استحقر نوح شأن قطب، وربما تكون لصلة قطب بالشيخ سليمان السرسى وعيشه فى دار جدته التى هى عمة الشيخ سليمان ومربيته، وربما للحظوة التى يلقاها قطب من منصور "أبو" دومة والجارية، فالولد ينمو يوما بعد يوم حتى لكأنه سيصبح ماردا عما قريب، وهو يستطيع أن يفعل أى شىء يكلف به، فلا أقدر منه على تسلق الدور والسقوط بداخلها وفتح الأبواب للمنسر ليسرقوا ما يريدون، وهو أيضا أسرع من يبتعد بالماشية المسروقة عن طريق الخوض بها فى القنوات والمصافى فيقطع فى ساعة ما يقطعه غيره فى ساعات، ثم إنه يقبل أى شىء يقدمه له أبو دومة، ولا يسأل أن يزيد فى نصيبه، وكان قد تعلم شرب الدخان فصار يلازم المنسر ودار الجارية ليضمن حصوله على مطلوبه بيسر.

سيكون لهذا الاعتداء أثر كبير فى قابل الأيام، فمنذ تلك الليلة وقطب يغوص فى أفكاره بحثا عن أنجح وسيلة ليرد بها اللطمة لنوح، وكلما يمعن التفكير يرى نفسه فى أحلام يقظته وهو يسرق أشياء من أغراض الوسية، وعند هذه النقطة يتوقف ليبعد الوسية عن ذهنه، فلقد استن أبو دومة سنة لا يريد هو أن يخالفها، ألا يسرقوا شيئا من العزبة، وبخاصة من الوسية، حتى لا يغضبوا الشيخ زكريا، ومن ثم يطردهم من العزبة شر طردة، بل ويشهر بهم فى المنطقة كلها، فأن يقوم بسرقة الوسية يعنى أن يفاتح "أبو" دومة فى الأمر، وهو إذا فعل سيحرمه الرجل من الوجود مع المنسر فى داره أو فى دار الجارية، ولما لم يجد مفرا من العودة إلى التفكير، إذ كان أمر الانتقام يلح عليه ولا يترك له فرصة للفرار، لجأ إلى بعض أقرانه يستدرجهم ليشاركونه.

لكن القدر لم يمهله لإتمام انتقامه، فلقد أتت أخبار مقلقة من الربع، فجيران الشيخ يوسف السرسى فى أراضيه الزراعية الذين يشتركون معه فى حق الطريق والمروى إلى أراضيهم الزراعية المجاورة شكوا من قيامه بهدم المروى التى تتخلل أرضه وتنقل المياه لأراضيهم، فضلا عن قيامه بقطع أجزاء من الطريق الذى يتخلل أرضه أيضا مما حرمهم من المرور إلى غيطانهم فى يسر، واشتعل الخلاف فتدخل إلى جانب يوسف السرسى أصهاره وأخواله، لكنهم سرعان ما تراجعوا عن نصرته لما احتشدت ضدهم القرية بقضها وقضيضها، ووجدوا أنه لا مفر من أن يلجأ إلى أهله من السراسوة ليستنقذوه من أذى الجيران الذين ينتوون به شرا.

اصطحب الشيخ سليمان وهو ذاهب إلى الربع نفرا من السراسوة، على رأس هؤلاء شاهين الطحان وأبناؤه، وقطب، سبقهم إلى هناك الشيخان زكريا وعمر، واجتمع إليهما أهل الربع، واصطحبوهما إلى الغيطان ليريا بأعينهما ما الذى فعله يوسف على الطبيعة، وكان الهدوء قد عاد عندما حط ركب الشيخ سليمان فى دار عمه، فلقد تعهد الشيخان زكريا وعمر بإعادة الأمور إلى ما كانت عليه، وحتى لا يتهما بتجاوز الشيخ سليمان أرجآ الاتفاق على ذلك حتى يتم التشاور فيه.

سيعود كل هؤلاء إلى العزبة ويتركون "قطب" فى الربع، وسيتركون معه واحدا من أبناء شاهين الطحان وآخرين، سيلحق بهؤلاء بعد أيام يحيى ابن السيد السرسى، الذى كان فى زيارة للعزبة، ثم لما عرف بأمر بقاء قطب هناك تسلل فى جوف الليل قاصدا الربع، وهناك ظل يضرب على غير هدى إلى أن قاده أحد السهرانين إلى غيط الشيخ يوسف السرسى،

والتأم شمل الحراس الذين كانت مهمتهم كما أمر الشيخ زكريا حراسة زراعة يوسف، فلقد رأى فى عيون خصومه غدرا، و لم يكن فى مقدورهم فعل شيء أيسر من قطع مزروعاته أو وضع النار فيها.

لم يتحمل جيران الشيخ يوسف سواء فى الغيطان أو فى الدار نشاطه الذى لا ينتهى، فالرجل وقبل أن تستيقظ الديكة يخرج من داره إلى أرضه، وقبل أن تشرق الشمس يكون قد مشطها كلها، ورأى أين تنبت الحشائش الضارة، وأى جزء منها أضعف من الآخر، بل إنه – وكما يقسم لأمه وزوجته وأولاده – يسمع بأذنيه ترحيب الزروع به، ويرى بعينيه ابتهاجها، ولما تناقل الناس خبر سروحه المبكر، ومرواحه المتأخر إلى ما بعد غروب الشمس دبت فى نفوسهم الغيرة، وراحوا يكيدون له ولرجاله، إذ كان يزرع أراضيه الواسعة على حسابه، فكانوا إذا ما تيقنوا من عودته إلى داره يقطعون جسور الأرض فيهرقون ماءها فى المصارف، أو يلقون بالحشائش لتنبت فيها، وقد يقطعون ما يلى الحدود من زروع أو يتعمدون الجوس خلالها فيدهسونها، وغير ذلك من الأمور التى أصابته بالكدر، و لم يجد ردا على أفاعيلهم إلا أن يقطع طريقهم المار بأرضه، وردم مرواهم، كل ما يقصده هو أن يجبرهم على الجلوس معه ليتفقوا على حقن الدماء والكف عن تبادل الاعتداء، فمقابل إعادة طريقهم إلى حاله وكذلك مرواهم يكفون عن إتلاف مزروعاته، وتحقق له بالضبط ما أراد.

إحساس الشيخ يوسف بالخطر ليس كإحساس أى أحد آخر، أملاكه

لها الأولوية قبل أى شيء، وأمنها وسلامتها مقدمان على أمنه الشخصى، بل وأمن أبنائه، لذا فإنه لم يتوقع أن يرد جيرانه بقطع الطريق عليه ليحولوا بينه وبين غيطانه، أو أن يطردوا فلاحيه من الغيطان ويهدموا جسورها، ويتوعدونه وأبناءه بالقتل، وعندما تدخل أصهاره وأخواله خرجت عليهم القرية عن بكرة أبيها، فهم فى النهاية ليسوا إلا أتراك رفضوا على مدار السنين الذوبان فى أهل القرية، ومارسوا على الناس كل ألوان الغطرسة، ولما انقطعت صلاتهم بتركيا بعد انتهاء تبعية مصر للدولة العثمانية وتقلصت أملاكهم انعزلوا فى ركن قصى فى القرية، فى دورهم الكبيرة بأسوارها التى تحجب الناس عنهم، وشيئا فشيئا تجرأ الناس على مقاديرهم، وراح المرابعون والكلافون يتحدثون عن نسائهم، ونسبوا إليهم وإلى نسائهم كل النقائص الممكنة.

كل ذلك لم يكن معلوما للسراسوة من طائفة أولئك النفر من الشبان الذين عهد إليهم بالمبيت فى الغيطان ليحرسوها، لا يعرفون هل ينساقون إلى المشاركة فى تلك الولائم الكلامية أم يغضبون لما يقال، فمن يخصهم هو الشيخ يوسف السرسى، وفقط، لا شأن لهم بأصهاره وأخواله، حتى ولو كانت سراويل نسائهم وبناتهم محلولة طوال الوقت، لكن حرص مليكة وزوجة ابنها شكران جعل اولئك الشبان يستحلون الخوض فى أعراضهن، فلم يكد يمر يوم حتى اجتمع إليهم نفر من الشباب من الجيران، وهكذا كانوا يقضون الليل معا، ويسمرون حتى يطلع الصبح، و لم ينس أبناء السراسوة أبدا ليلتهم الأولى التى قضوها فى الغيطان دون لقمة خبز

واحدة، مما اضطرهم إلى البحث عن شيء يأكلونه، فلجأوا إلى نبتات الأرض، كالرجلة وجزوع السمار وأوراق الملوخية وقرون البامية التى لم تشرع أشواكها بعد.

لما علم الشيخ سليمان بفعلة مليكة وشكران أمر بتزويد الحراس بالخبز والجبن والعسل الأسود، وبعض الخضروات المخللة، حملها نافع النجدى زوج صالحة، ورآه قطب فتذكر سُلَيْمَة، وأصابته حالة من الهياج، ولم يهدأ إلا بعد أن مارس عادته.

ولأن الليل يطول بالشبان إلى ما لانهاية فإنهم راحوا يتبادلون الأحاديث حول أسرارهم الصغيرة، وقطب بحكم قربه من سُلَيْمَة زوجة خاله يعرف عن نافع النجدى الشيء الكثير، وبعد طول تدبر قرر أن يحكى لأقرانه حكاية الرجل مع صالحة، فالمرأة المكشوفة الوجه لا تخجل من وصف لقائها بزوجها على الملأ، وبخاصة ذلك الجزء الذى تصف فيه عضوه الغريب، الذى يشبه عضو الحمار، ويؤكد أنه سمعها بنفسه وهى تقسم على ذلك، حتى أنها تصنع من يدها مانعا من إيلاجه كله.

وجود قطب فى غيطان الشيخ يوسف السرسى فى الربع وانقطاعه عن العزبة أياما ليست قليلة أعطاه الفرصة ليقلب أمر انتقامه من نوح زكريا على مختلف جوانبه، وكأنما منحه القدر هذه الفرصة، فلقد كان على شفا مفاتحة منصور "أبو" دومة فى الأمر، ولما أمعن الفكر أدرك كم هوَ غر، إذ كيف يفكر فى البوح لرجل لا يقطن العزبة إلا لأنه قريب من نوح زكريا، فحتى زواجه من الباتعة بنت شاهين الطحان لا يعطيه الحق فى الوجود فى العزبة ما لم يمنحه الشيخ زكريا هذا الحق، ولما انفتحت آبار الأسرار

مع أترابه من السراسوة فى ليل غيطان الربع اقترب بشدة من خميس ابن شاهين الطحان، إذ هو ابن عمته الشقيقة شام، المسماة على اسم جدتها، وهو الأقرب إليه من كل السراسوة الذين يرافقونه السهر.

لم يوافقه خميس على استهداف الوسية، فالحراسة على الحظائر والأجران والمخازن مشددة، وسراية بشاى محصنة الأبواب وحديقتها العامرة بأشجار الجوافة والبرتقال لم تعد خالية من البشر على عادتها فى سنوات طفولتهم، إنها الآن مسكونة بالرجل الغريب هارون شتا، القادم من الفيوم، الذى حمل إلى جراب الحكايات قصصا غريبة عن صداقته للانجليز فى معسكراتهم المنتشرة عند حدود الفيوم، وعن شذوذ جنودهم الذين كانوا يدفعون له المال الكثير ليضاجعهم، ومن يوم أن سكن هذا الهارون حديقة السراية امتنع عليهم سرقة الفاكهة من على الأشجار، وكانوا يسرقونها حتى قبل أن تنضج.

اتفقا على أن يوجها الانتقام إلى شخص نوح زكريا، حتى إذا كشف الأمر يكون التعلل بسابقة اعتدائه على قطب مبررا لعدم تضخيم الأمر، وهكذا راحا فى معزل عن الباقين يتدارسان كل المعلومات المتاحة عنه، فقطب يرى أن "نوح" يضاجع الجارية، وكل المنسر يعرفون هذا، بل إنهم فى الحقيقة يفسحون له ليفعل، حتى يطول مقام المرأة فى العزبة ويتمتعون بالحماية التى يحظون بها لأطول وقت، كما تدارسوا أيضا أمر سهره فى القرى المجاورة، فى المقاطعة و"أبو"داوود السباخ وغزالة، وفى الكثير من الأحيان يتجه إلى صدقا بصحبة المنسر، واستقر الرأى على مهاجمته وهو عائد من غزالة، فهناك يقضى معظم الليل فى تدخين الحشيش، ويعود مع

الفجر وهو لا يعرف رأسه من قدميه، ولا يرافقه فى مشواره هذا بالذات أحد من المنسر، وكانا قد اتفقا على ألا يهاجماه ومعه أحد من المنسر، حتى لا ينكشف أمرهم.

بقى سر قطب مع سُلَيْمَة بمنأى عن الجميع، لم يعرف طريقه إلى لسانه أبدا وهو يتبادل الأسرار مع خميس شاهين، أو مع غيره، دفعه إلى الاحتفاظ به والعض عليه بالنواجز رغبته الحارقة فيها، وخوفه الشديد من خاله وجدته، بل ومن كل السراسوة، الذين سيطردونه من العزبة إن هو تفوه بكلمة واحدة، هذا إذا لم يقتلوه، وهكذا فإنه فى جوف الليل كان يستغرق فى الخيال، ولا يسمع ما يوجه إليه من حديث، وعندما يستبد به الشوق يتعلل بالرغبة فى قضاء الحاجة ويتوغل فى الغيطان، وهناك يعبث فى نفسه حتى يصل إلى الحد الذى لا يكون من بعده إلا الهدوء، والطنين الذى يدب فى كيانه، والخدر الذى يسحب فوق الأجزاء العارية من جسد سُلَيْمَة أردية ثقيلة تسترها إلى حين.

موعد جديد مع الحزن



عزبة أحمد السرسى كانت على موعد جديد مع الحزن، كما مصر كلها، ففى الساعة العاشرة من مساء يوم الثلاثاء 23 أغسطس سنة 1927 فارق سعد باشا الحياة، طار الخبر إلى كل أنحاء مصر، ولم يأت الصبح إلا وكل رجل وكل امرأة، بل وكل طفل فى عزبة أحمد السرسى يعلم بالأمر، أصابت الدهشة كل الناس، حتى المنسر، ومع الصبح تجمعوا فى باحة الشيخ سليمان السرسى، كأنما يستمدون منه اليقين عن صحة الخبر، يتمنون لو ينفيه، وخرج الشيخ سليمان إليهم وعيناه منتفختان، قال وهو مختنق بالبكاء:

- مات مستودع آمال الأمة ومحل رجائها

ولم يكن الناس فى حاجة إلى تأكيد لتنطلق الدموع من عيونهم.

بعد ما يقارب الثلاث سنوات من الصراع رحل سعد باشا، لم تسمح له بريطانيا برئاسة الحكومة مرة أخرى، فبعد تجربته فى الحكم عشرة أشهر إلا أربعة أيام، وصدامه مع الإنجليز فى المفاوضات حول مسألة السودان، ثم تقديمه استقالته بعد اغتيال السير لى ستاك سردار الجيش المصرى والحاكم

العام على السودان، لم يتمكن أبدا من اعتلاء سدة الحكم، فمن وزارة زيور باشا التى انقلبت على الوفد إلى وزارة عدلى يكن باشا الائتلافية، ثم وزارة ثروت باشا، الذى كان يفاوض الانجليز حول استقلال مصر وعودة الحياة النيابية، كل هذا والوفد لا يتمكن رغم فوزه بالأغلبية من تأليف الوزارة برئاسة زعيمه سعد باشا، وذلك لعيب قاتل فى الدستور أعطى الملك كما أسلفنا مكنات تفرغ الديموقراطية من مضمونها، وهكذا فإن عزبة أحمد السرسى لم تنل جراء انتمائها للوفد إلا اضطهادا من رجال الإدارة الذين ينتمون إلى القصر أو الأحرار الدستوريين، أو أذناب الانجليز الذين ينبثون فى كل مكان.

لم يبد الشيخ زكريا التأثر الذى يشعر به فى داخله لوفاة سعد باشا، ففى حين بكى شقيقه الشيخ عمر كيوم بكى أباه اكتفى الشيخ زكريا بالحضور فى باحة ابن أخته ثم انسحب تاركا الجموع لأحزانها، وكذلك فعل كل أنفار الوسية وموظفوها، وبخاصة نسيم أفندى كاتب الوسية الجديد القادم من السنبلاوين، الذى فرضه مكرم بك بنعومة قاتلة على الشيخ زكريا، وشيئا فشيئا تغول الرجل فى أروقة الوسية، حتى وصل إلى أدق أسرارها، وشيئا فشيئا أيضا صار يوجه سهام النقد إلى طريقة أداء الوسية، فالأنفار يزيدون عن طاقة العمل، والمصاريف تزيد كثيرا عما يجب، والفاقد فى المحاصيل يفوق كل تصور، وأسقط فى يد الشيخ زكريا، إذ وجد نفسه محاصرا فى دور المدافع على طول الخط.

كل السراسوة وعلى رأسهم الشيخ سليمان السرسى يعرفون أن مكرم بشاى بك يكره سعد باشا كراهية التحريم، ويتمنى زوال الوفد،

وأنه عندما أسس حسن نشأت باشا حزب الاتحاد الموالى للقصر سارع بالانضمام إليه، معلنا أنه من أتباع القصر، بل إنه ذات يوم سأل الشيخ زكريا عن العلة من وراء تبعية السراسوة للوفد، ولما أجابه الشيخ بما يعتقده من تمثيل الوفد لكل الأمة، وبخاصة فى قضيتى الاحتلال والدستور راح البك يتحدث عن أفضال الاحتلال على المصريين، وعن ضرورة وجود عساكرهم فى مصر ليدافعوا عنها وعن قناة السويس، وتولى بالبيان ما فعله الانجليز فى مسائل الرى وتنظيم دوراته وتطهير الترع ومنع الجلد والسخرة، ولما كانت الحصافة لا تنقص الشيخ زكريا ابتلع كلمات البك واكتفى بهز رأسه بإشارات لا تفيد إن كان يوافق على ما قال أو أنه يرغب فى إنهاء الحديث.

الكثيرون من السراسوة رفضوا الاكتفاء بوداع الشيخ سليمان عند مشارف العزبة، وأصروا على مرافقته إلى برقين، حيث سيأخذ القطار المتجه إلى المنصورة، ومن هناك يسافر مع زملائه فى لجنة الوفد إلى "مصر" للاشتراك فى تشييع جنازة الزعيم، وتبع الأطفال الركب المتجه إلى برقين، يقودهم هذه المرة ياسين ابن الشيخ عمر السرسى، وفى يده شقيقه الأصغر رضوان، فيما انضم قطب إلى ركب الكبار، وأبى إلا أن يجاور بغلة خاله كأنه يحرسه. تلبسته روح كبيرة منذ عُهِد إليه بحراسة سواقى وغيطان خاله الشيخ يوسف السرسى فى الربع، وها هو يقوم مع خاله الشيخ سليمان بنفس الدور.

لم يرافق الشيخ زكريا الوفد المرافق لابن أخته المتجه إلى محطة السكة الحديد فى برقين، ولازمه فى البقاء شقيقه الشيخ عمر، ولكن لأسباب

أخرى، فمنذ انقلب الشيخ سليمان على عمته الجدة مريم وهو يقتصد فى علاقته به، فلم يعد للجدة مريم سوى ابنتها رئيفة، زوجته التى تقسم اليوم بين داره ودار أمها، وكانت الجدة مريم قد فقدت البصر تماما، ومن ثم فإنه لم يرد أن يرافقه فى مشواره حتى لا يعتبرها الشيخ سليمان تنازلا عن تحفظاته عليه، وكأنما أدرك أنفار الوسية أن العزبة انقسمت فتجمعوا فى مندرة الشيخ زكريا ليقدموا له ما يرطب قلبه تجاههم، فهم منذ قدم نسيم أفندى إلى الوسية وأوعز إلى مكرم بشاى بك بالاستغناء عن بعض أنفارها يلتصقون بقريبهم الذى يتولى نظارة الوسية، وبشقيقه الشيخ عمر الذى يعاونه، حتى لا يكون مصيرهم كمصير من تم الاستغناء عنهم.

وكان الشيخ عمر لما فاتحه أخوه فى مسألة الاستغناء عن بعض أنفار الوسية، من الكلافين والمرابعين ونجارى السواقى والطنابير وحفارى القنوات والمصافى قد أشار بأن يكون الاستغناء محصورا فى الغرباء، وليس فى السراسوة، وهكذا جمع السراسوة العاملين فى الوسية بعد استئذان أخيه وحذرهم من الأيام القادمة، فالرجل الذى أظهر فى البداية أنه يترك الوسية بكل مقدراتها فى يد ناظرها عاد ليسيطر عليها بنفسه، وها هو يضع فى ثناياها رجالا ليقلص من سلطات أخيه، ولينقلوا إليه أخبارها أولا بأول، وأدرك نسيم افندى حقيقة ما يفعله السراسوة فقرر اللعب على المكشوف، وبادر بمباشرة كثير من الأمور ما كان ليباشرها لولا انكماش الشيخ زكريا ليتمكن من امتصاص الصدمة.

فى تلك الليلة الطويلة سهرت عزبة أحمد السرسى كما لم تسهر من قبل، فعمال الوسية يسألون عن أمور كثيرة لا يفهمونها، عن سعد باشا

وعن الوفد، وعن بكاء الشيخ سليمان السرسى وهو يغادر إلى محطة السكة الحديد، والشيخ زكريا يشرح لهم الأمر بتبسيط يناسب عقولهم، أما الجدة مريم فقد انتظرت عودة حفيدها قطب من برقين لتسأله عن أحوال أخيها الشيخ يوسف فى الربع، وكذلك فعلت ابنتها سكينة التى رحل زوجها الثانى شعبان الطوخى، تاركا لها يتيمة أخرى هى طفلتها شام، ولما كانت دار شعبان مملوكة لكل ورثته ومنهم أبنائه من زوجته الأولى فإن ضرورة الحفاظ على حقوق طفلتها استلزم بقاءها فى دار زوجها الراحل، و لم يكن شعبان يملك إلا داره، ولأنها تريد أن تطمئن على ابنها سهرت فى دار أمها لتراه قبل أن تعود إلى دارها، وخالته رئيفة كانت فى انتظاره أيضا فى دار أمها، فابنها ياسين ركب دماغه ورافق الركب إلى برقين، وهى على يقين من أنه معه وسيعود به.

فى الدار الكبيرة ذهب الأولاد للنوم، وبقيت سُلَيْمَة ساهرة، فقطب على موعد معها ليحكى عن كل ما حدث فى الربع، تتحرق شوقا لمعرفة أسرار دار الشيخ يوسف السرسى، وحكايات مليكة وشكران، وفضائح عائلتى التونى وشوكت، فهىَ تستطيع استدراج الفتى بيسر، عالمة أنه يحب الجلوس إليها ومرافقتها فى مشاويرها إلى هنا وهناك، حتى أنها جعلت من مرافقته لها فى مشاويرها أمرا ثابتا ومعروفا، بل إن زوجها هو الذى يرسل فى طلبه بنفسه ليطلب منه مرافقتها، وبرفقتها تسهر صالحة زوجة نافع النجدى، وحديثهما المعتاد عن الأفعال التى يأتيها معها الزوج الجالس عند أعتاب شرفة الدار يغط فى النوم، وتفوح منه رائحة السباخ والروث، وكانت سُلَيْمَة قد سألتها ذات مرة:

– هل تطيقين رائحة الزرائب التى تفوح منه؟!

وأجابتها صالحة وهى مغرقة فى الضحك:

– وهل يكون لى أنف فى ذلك الوقت يا ستى؟!!

منذ خلت الدار من أمينة الجمل، التى حملت طفلها وتوجهت إلى المنصورة لتتطبب لدى أهلها وسُلَيْمَة تشعر براحة لا تدانيها راحة، لا ينغص عليها إلا انشغال زوجها عنها، وسهره حتى وجه الصبح مع أصدقائه، ونومه أحيانا فى المندرة بعيدا عنها، وهى التى تتفنن فى استمالته، بأفعال وكلمات وأوضاع وروح جديدة تعلمتها من صالحة، فقد انكشف الغطاء وطار الخجل، وصارتا تتحدثان على المكشوف، وفى تلك الليلة أفرطت صالحة فى الحديث عن رجلها المكوم فى الخارج عند عتبات الشرفة، فهى لا تسمح له بالنوم إلى جوارها قبل أن تجرده من ملابسه وتحممه بيديها، وفيما هى تحممه تعبث فى عضوه الذى ينطلق طالبا السكينة، تأخذه بين يديها لتضعه بنفسها فى مستودعه، إلى الحد الذى تطيق، فهى تخشى إن تركته أن يمزق أحشاءها، وهكذا احترقت أعصاب سُلَيْمَة، وتمنت لو تتمكن من رؤية هذا الجماع المستحيل.

ولكن كيف لها أن تفعل ما لم تصارح صالحة برغبتها، ودونها ومصارحتها ساحة خجل لا تقدر على اجتيازها، وفى لحظة نادرة استغلت كلمات عفوية خرجت من فم صالحة لتفتح معها الحديث، وكانت صالحة وهى منهمكة فى الحكى تقول:

– فلو أنك رأيتنى وأنا أصرخ من تحته لأشفقت على

وسألتها سُلَيْمَة مستنكرة:

– وكيف أراك يا امرأة؟!

ولم تدعها تكمل الحديث قبل أن تردف:

– هل ألبس طاقية الإخفاء وأجلس فى ركن الغرفة لأراكما؟!!

وقهقهت وهى تواصل:

– أم أخرق الجدار وأطل عليكما منه؟!!

وأرادت أن تواصل الاستنكار الماجن، لكن المرأة اللعوب أدركت حقيقة رغبتها، فأغمضت عينيها فى خبث وقالت:

– ولم لا؟!

وكاد قلب سُلَيْمَة يتوقف، لا تصدق أن المرأة أدركت مقصودها، وطرقت صالحة على الحديد الساخن:

– فالطاق القديم بين الفناء وحجرتنا موجود

وعادت لتقهقه من جديد، لكن ضحكتها هذه المرة انتهت بشهقة ممطوطة أعقبتها شخرة صغيرة خرجت رغما عنها، واستدعت المزيد من الضحك.

من مكانها فى صالة الدار الكبيرة سمعت سُلَيْمَة صوت قطب وهو يتحدث إلى جدته، ولما أطلت على الجرن الكبير رأته يصاحب أمه إلى دارها، وقررت أن تحتفظ بصالحة ريثما تتمكن من فتح الطاق القديم، ولن يمكنها من فعل ذلك سوى قطب، يصعد بضع درجات من السلم الخشبى

الموضوع فى الفناء، ويسحب الأشياء القديمة التى تسد الطاق، وعليه أن يفعل قبل عودة صالحة وزوجها إلى حجرتهما، شىء ما بداخلها يقول إن صالحة على علم بما ستفعله، ولكن الرغبة المتأججة بداخلها تشعل النار فى جسدها، ولن تهدأ إلا إذا رأت بنفسها ذلك الرجل المسكين الذى ينطوى على نفسه، والذى لا تصدق أبدا ان يكون هو من تتحدث عنه زوجتهُ.

تركتها جالسة فى الصالة وأشارت للفتى وأدخلته من باب الفناء الجانبى، قدرت أن صالحة لم تره، وفى ظلمة الفناء داست أقدامهما فى الدجاج الذى صاح محتجا، لكنهما وصلا إلى حيث يرتكن السلم إلى جدار داخلى، وحملته معه إلى حيث الجدار الفاصل بين الفناء وحجرة صالحة، وعللت ما تطلب بقولها:

– سأدخل أحد أبنائى فى وقت متأخر إلى هناك لأرى ما تسرقه اللصة من الدار وتخفيه فى حجرتها

ولم تمض دقائق حتى تمكن قطب من فتح الطاق، ومد رأسه فرأى الحجرة الفقيرة على ضوء شحيح منبعث من مصباح كيروسينى مكشوف، حصيرة من السمار فوقها حشية عريضة من القش، وزير للماء فى ركن الغرفة، خلف الباب مباشرة، وفى الركن البعيد أوان للطعام وبلاص للمش، وتتدلى من السقف مشنة فيها أرغفة قليلة من خبز الشعير المخلوط بالحلبة، وعلى أوتاد خشبية مدقوقة فى الجدار الجانبى تتدلى هلاهيل غير مميزة.

قطب يعرف الفقر حق المعرفة، يراه كل يوم فى دار عمه المرحوم شعبان الطوخى، ويراه فى دور أعمامه من أبناء أحمد الضبع، كما يراه فى معظم

الدور فى العزبة، لكنه فى تلك الليله اعترف لنفسه بأن الفقر الذى يسكن حجرة نافع النجدى وصالحة ليس كمثله فقر، كل هذا دار فى نفسه وهو يهبط السلمات الخشبية القليلة ليحط على الأرض، وهم بحمل السلم ليعيده إلى مكانه لكن سُلَيْمَة جذبته من يده قبل أن يفعل، وتعللت برغبتها فى أن تضع له الطعام، فلقد احتفظت له بورك أوزة وبعض الفت المسقى بمرق الأوز، و لم يدع الفتى الفرصة، فبرغم أنه تناول العشاء فى دار جدته، إلا أنه شعر بالجوع لما عرضت عليه سُلَيْمَة الطعام.

لا يعرف الفتى إن كانت سُلَيْمَة تحبه أم تعطف عليه؟!، ففى كل مرة تقربه منها يكتشف أنها فى النهاية لا تعبر الخط الذى يكون من بعده واثقا من حبها، إنها تضاحكه وتصطحبه فى مشاويرها، بل وقد تشكو إليه بعض ما ينغص عليها، وتسأله عن سبب كراهية جدته لها، وقد تترك للسانها العنان فتسأله عن الجارية، وهل صحيح ما يشيعه الناس من أن نوح زكريا ينام معها، وبرغم تأكيده على علاقة نوح بها إلا أنه يسمع منها فى كل مرة كلمات التعجب، عما يعجب نوح ابن الشيخ زكريا السرسى على سن ورمح فى تلك المرأة السوداء البدينة، غليظة الملامح، ثم لا تنفك تعقب على ذلك بقولها:

– ربما لديها ما يغريه؟!، فنساء العبيد يمتلكن قدرات لا يقدر على مقاومتها الرجال

هو لا ينسى أبدا ذلك اليوم الذى رافقها فيه إلى عزبة أبيها، وكيف أنهما كانا يسيران بين غيطان الذرة فصور له خياله أنهما فى رحلة العودة سينعمان بصحبة ترد لهفته، ولكنها وهما عائدان إلى العزبة لاذت بصمت

غريب، فقطعا المسافة بين العزبتين دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وكذلك هى هذه الليلة، إنها ما أن وضعت أمامه الطعام فى غرفة الخزين حتى انسلت خارجة وهى تطلب منه أن يخرج من باب وسط الدار الجانبى ويغلقه من خلفه، ويتأكد من وقوع السقاطة فى ضبة الباب قبل أن يدفع الحبل الصغير الذى يستخدم فى الفتح والغلق ليسقطه فى الداخل، فلا يتمكن أحد من فتح الباب.

لكن الفتى كان فى داخله يخطط لشىء آخر، فخاله فى المنصورة الآن، أو لعله فى طريقه إلى "مصر" للمشاركة فى تشييع جنازة سعد باشا، وستكون الدار الكبيرة بلا رجل حقيقى فى ليالى غيابه، فحمدان الابن الأكبر يتعلل بالرغبة فى الذهاب إلى النوم كلما طُلِب منه القيام بدور كهذا فى غياب أبيه، ويتظاهر بالنوم حتى يوغل الليل ثم يتسلل إلى غرفة الفرن فى وسط الدار ليقع على فكيهة، الخادمة التى لا يعرف أحد من أين أتت، وهو وحده الذى يعرف ما يفعله حمدان بفكيهة، فالمرأة التى صدت حمدان مرات ومرات وجدت أن تستجيب له لما فطن إلى ضرورة أن يدفع فى يدها فى كل مرة بنكلة كاملة، فكانت تدس النكلة فى صدرها قبل أن تمد يديها وترفع ذيل جلبابها القذر، الذى يحمل روائح وسط الدار كلها، فضلات الدواجن وهباب الفرن وبقايا العجين التى تجعل الجلباب وكأنه قطعة سميكة جافة من جلد حيوان، ثم تتركه يحاول ويحاول، فمرة يتمكن منها، ومرة يفرغ من رغبته قبل أن يتمكن منها، فيتهمها بأنها تتعمد الروغان منه حتى يسبقه ماؤه.

لكن ها هى سُلَيْمَة تدلق فوق رأسه دلوا كاملا، لم تسامره وهو يتناول

الطعام كما فعلت فى مرات عديدة، كانت مشغولة البال وفى عجلة من أمرها، ولولا أنها كانت تريده ليفتح الطاق النافذ إلى حجرة صالحة ما كانت قد طلبته أصلا، أو قدمت له الطعام، لذا فإنه وقد فرغ من تناول الطعام مسح يديه فى جوال من الخيش كان يجلس فوقه وعزم على الانطلاق إلى دار الجارية ليلحق بجزء من السهرة فى الدار التى لا تعرف النوم إلا مع طلوع الصبح، ولكنه بعد أن أغلق باب وسط الدار الجانبى وتأكد من تمام إغلاقه قطع خطوات خفيفة كخطوات قط فى اتجاه الشرفة الكبيرة، وهناك رأى نافع النجدى لا يزال مكوما عند العتبات ويغط فى النوم فآثر أن يمضى فى طريقه إلى دار الجارية.

صالحة على يقين من أن سيدتها ستفعل أى شىء لتتلصص عليها هى وزوجها، وحتى لا تدع الأمر يمر دون فائدة تساءلت بصوت مسموع:

– لا أعرف ماذا أقدم للرجل هذه الليلة ليقيم صلبه؟!

وكأنها تعلم الإجابة فما أن قالت سُلَيْمَة: فيه بعض حوائج الظفر فى المطبخ موجودة فوق أرز التحمير وبقايا الفتة، خذيها معك وأنت ذاهبة، حتى انبرت تدعو الله أن يوسع فى رزقها ويهدئ سرها ويرزقها زيارة قبر الحبيب، وقامت من فورها إلى المطبخ وحملت الإناء دون أن تكشف غطاءه، وتبادلت مع سيدتها التحية وانطلقت خارجة، وعندما مرت بنافع رفسته فى قدمه فهب واقفا يتهرش، ثم تبعها.

دار الجارية تقع عند مشارف العزبة، تتوسط مجموعة من الدور الواطئة وتبرز عنها بطوف طينى فوق سطحها، لا ينغلق بابها فى الليل إلا نادرا، فالمنسر يسهرون لديها حتى الصباح، وفى حال سروحهم يسهر لديها

من ينتظرهم، أو ينتظر خبرا عنهم، وفى هذه الليلة بالذات كانوا جميعا يسهرون لدى الجارية، فلقد كانوا على موعد للهجوم على وسية بنايوتى فى زمام "أبو"داوود السباخ، لكن عينهم هناك أخبرهم أن الحراسة مشددة فى هذه الأيام، فأبناء بنايوتى قدموا من فرنسا منذ أيام ويترددون على عزبهم المتناثرة، ويبيتون فى كل سراية من سراياتهم ليلة أو ليلتين، وهم فى هذه الليلة يبيتون فى العزبة التى كان من المقرر مهاجمتها.

غير بعيد من الدار أتاه صخب نوح زكريا، توقفت قدماه وفكر فى العدول عن الذهاب إلى هناك، فهذه أول مرة يرى فيها "نوح" منذ تشاجرا فى مشوار العودة من الانتخابات فى برقين، وهو فى الأيام الماضية كان يبحث بتصميم عن الوسيلة التى تمكنه من رد الصاع لنوح صاعين، واهتدى مع خميس شاهين إلى مهاجمته هو نفسه وهو عائد مع تباشير الفجر من لدن أصدقائه فى غزالة، لكن استمرار أحداث الربع وخاله الشيخ يوسف السرسى وحراسة أرضه وسواقيه وحظائره أجل مشروع الانتقام إلى حين، وها هو يسمع صوت نوح قادما من دار الجارية، فكأن ثعبانا عضه فتسمر فى مكانه.

بإمكانه أن يعود من حيث قدم، فربما وجد سُلَيْمَة مستيقظة تتخفى فى ظلام الشرفة كعادتها، عندما تسهر حتى مطلع الصبح وزوجها غائب، وربما نادته فينعم إلى جوارها بالوقت الذى ضنت به عليه، وربما لا يجدها فيدخل للنوم، وقد تستيقظ جدته فيتبادل معها بعض الأحاديث، لكنه اتهم نفسه بالخوف من مواجهة نوح، فكل المنسر الذين يصخبون فى دار الجارية يقفون فى صف نوح إكراما لخاطر والده، وبرغم قدوم نسيم

افندى إلى الوسية فإن الكلمة لا تزال كلمة الشيخ، وخاصة فيما يتعلق بسكن الوسية وزراعة الأرض والعمل فى الحظائر، وهذا بالضبط ما يريده المنسر، المكان الذى يؤويهم.

يعرف قطب أن المنسر يقدمون للوسية خدمات لا تقدر بمال، يكفى أن وجودهم فى العزبة يقطع الطريق على كل من يفكر فى السطو على حظائرها ومخازنها، فضلا عن غيطانها وزروعها، وهو الأمر الذى أخرس لسان نسيم افندى أمام مكرم بشاى بك، عندما واجه الرجل الشيخ زكريا بواقعة تقديمه دارا من دور الوسية لامرأة يجتمع إليها نفر من المنسر، وكانت تلك هى الفرصة التى يريدها الشيخ زكريا، وجاءت إليه تسعى، سحب نفسا عميقا يتجاوز به غضبه، ثم نظر إلى وجه نسيم افندى المطرق إلى الأرض، وعاد ليواجه مكرم بشاى بك قائلا:

– إن من نقل إليك هذا لا يعرف عن أمور حفظ الوسايا شيئا

وبلع ريقه ثم أردف:

– نعيش يا بك زمنا فيه إن لم تكن لصا يسرقك اللصوص

وأمسك بكتف نسيم افندى وقال:

– هذا الرجل لا يعرف عن أمورنا شيئا، فهؤلاء النفر من المنسر يحرسون وسيتك بالمجان، دون كيلة حب واحدة يأخذونها، ولا حتى ربطة حطب، فقط نستوعبهم فى إحدى الدور

وربت على كتف نسيم وهو يوجه حديثه للبك:

– والدار فى النهاية دارك، فأنا لم أبيعهم إياها

ورأى أن يضحك ليمرر ما قال، ودارت القصة على ألسنة السراسوة جميعا.

كل هذا دار فى عقل قطب وهو يوازن بين الإقدام والإحجام، ولما آلمه أن يكون دافعه للتفكير فى العودة هو الخوف من مواجهة نوح قادته قدماه إلى التقدم إلى دار الجارية، وألفى الباب مفتوحا على مصراعيه، ورائحة الحشيش تهب كأنها سحابة عفية.

ألقى بالسلام فردوا جميعهم، عدا نوح الذى تجاهل النظر إليه، وكان منصور "أبو" دومة يتوسط الجالسين فمد يده يدعوه للجلوس، ومن نظرة قطب وتجاهل نوح له أدرك أن شجارا قد ينشب بينهما فى أية لحظة، لذا فإنه ما أن جلس قطب حتى قدم له غابة الجوزة، فأمسك قطب بها وسحب نفسا شديدا طقطقت له نيران الحجر، ثم لما اكتفى هبت نار من الحجر فضج الجميع بالضحك، وفى تلك اللحظة كان فم قطب وطاقتا أنفه يخرجون خراطيم هائلة من الدخان الأزرق الكثيف.

الجارية تجلس فى ركن الصالة تمشط بمشط خشبى ضخم شعرها الأسود الخشن، لا بد أن أحدهم وطأها، فالمرأة لا تشبع أبدا، وهى تفضل نوح، ولا تتحرج فى أن تعلن هذا للجميع، تقدم له سنة الأفيون ثم تغيب معه داخل الحجرة الوحيدة، وفيما يصخب الصاخبون فى صالة الدار الصغيرة تكون هى منهمكة فى إخراج أصوات مرعبة من فمها وأنفها، تعبر بها عن نشوتها التى تزلزل الأرض، وقطب ينظر إلى نوح فيرى أن فمه مفتوح قليلا، فهو ذاهل عنه من أثر تعاطيه للأفيون، وربط بين المرأة التى تمشط

شعرها المبلل ونوح الذاهل والمسحور بالخدر، وأطرق إلى الأرض يراوح رأسه يمنة ويسرة كأنه يتدبر.

ما الذى يمنعه من فعل ما يريد مع الجارية بدلا من التعلق بأذيال الوهم مع سُلَيْمَة، التى تعرقل خطواته وتدفعه إلى الهلاك؟، وطوح برأسه إلى الوراء متظاهرا بالخروج من الإحساس بالخدر، لكنه وهو يفعل إلقى بنظرة إلى المرأة المستغرقة فى تمشيط شعرها، يا للمرأة الهائلة الحجم!، يا لمؤخرتها التى تفترش مساحة كبيرة تحتها!، ويا لشفتيها المكتنزين الشهوانيتين اللتين تنبئان عن نيران يصعب اتقاؤها، وكأنما ضبطت المرأة نظرته فابتسمت فى خلاعة، ورأت أن تقول موجهة الحديث إلى "أبو" دومة:

– الولد كبر يا سى منصور

والتفت الجميع إليها، وحتى نوح الذاهل فى خدره التفت هو الآخر، فقالت وهى تضحك وتشخر فى نفس واحد:

– فصلنى حتة حتة، من تحت لفوق

واحمرت أذنا قطب، طن فى رأسه خجل مؤلم، وتمنى لو ينسحق فيختفى تحت الأرض، فيما القهقهات الماجنة تنطلق من عقائر الرجال، وأحس أبو دومة بخجل قطب فانطلق يعنفهم، ويردهم إلى ما كانوا يتحدثون فيه.

قبل أن يفيق من خجله فوجئ قطب بنوح زكريا يقف ويتجه نحوه فهب واقفا هو الآخر، لكن نوح الذى فارقه بعض خدره أمسك برأس قطب وقبلها، بين تهليل الرجال وامتداح ما يقوم به، وبين ذهوله وألمه

لم ينتبه قطب إلى الأمر الذى صدر من "أبو" دومة لنوح ليقوم بتقبيل رأسه اعتذارا عما بدر منه يوم الانتخابات الأخيرة.

مندرة الشيخ زكريا خلت من الناس فى تلك الليلة، فالرجل لم يكن كعادته مع ضيوفه، رأوه مكتئبا كسير النفس فانصرفوا عنه مبكرين، و لم يبق هناك سوى الشيخ عمر، شقيقه ووزيره، وكأنما اغتنما فرصة ذهاب الناس فوضع كل منهما رأسه بين ركبتيه وأطلق لدموعه العنان، فاليوم وُورِى سعد باشا التراب، وهما يشعران بأن رحيله كرحيل أبيهما موسى السرسى، فى البدء كان الدمع عسيرا، لكنهما لما استرجعا كسرة أبيهما وغربته انخرطا فى البكاء بصوت مسموع، فكل منهما كان يجاهد ليخفى بكاءه عن الآخر، لكنهما لم يقدرا على كتم النهنهات التى ترج الجسد رجا.

الشيخ زكريا يلوم نفسه على تجاهله للمناسبة مراعاة لخاطر مكرم بشاى بك صاحب الوسية، الذى ذهب فى كراهيته لسعد باشا كل مذهب، والذى لم يخف تشيعه لبقاء الإنجليز فى البلاد، فمنهم – على ما يرى – يتعلم الناس المدنية والتحضر، وهو لا ينقطع عن زيارة أوروبا فى كل سنة مصطحبا زوجته وبناته، يقضى الصيف كله هناك ويعود فى موعد جنى محصول القطن، وهو الآن يقضى مع أسرته الصيف فى فرنسا، لكن عيونه ترمح فى أرجاء الوسية، والشيخ زكريا يضطر لإخفاء لوعته من رحيل سعد حتى لا ينقل الواشون خبره للرجل عند عودته، وهذا يقتله.

والشيخ عمر يعرف لوعة أخيه، ويعرف أنه مقصر هو أيضا، كان واجبا أن يسافر مع الشيخ سليمان ليشيع زعيمه الحبيب، لكن الدار كلها ليس

فيها ما يكفى لسفره حتى المنصورة، ولما شبعا من البكاء مال كل منهما بجسده على الأريكة التى ينام عليها واستغرقا فى النوم.

نامت العزبة كلها، لكن سُلَيْمَة لم تنم، نار غريبة تحرقها وتحرمها النوم، وشيء كأنه الجن يسيطر عليها ويمسك برقبتها، يدفعها لأن تتسلل إلى الفناء وتصعد السلم وتتلصص على صالحة ونافع من الطاق المفتوح. تخشى أن تستيقظ فكيهة فتنفضح أمامها، لكنها تعرف أن فكيهة لا تخرج من باب الفناء أبدا، لها سنوات لم تفعل، وهى لا تجيد نقل الأخبار أو تلقيها عن الغير، هى فقط تسكن الفناء، تستيقظ مع الفجر وتنام قبل أن يؤذن للعشاء، ولكنها لا تحب أن ينكشف تدبيرها، حتى ولو أمام فكيهة، لذا فإنها لجأت إلى تدبير حسمت به ترددها، توجهت إلى الحجرة التى ينام فيها أبناؤها، وأغلقت عليهم الباب من الخارج، بعد أن اطمأنت إلى استغراقهم فى النوم، وبخاصة حمدان.

وتسللت بخطى قطة حذرة إلى وسط الدار حتى وصلت فى الظلام إلى باب حجرة العجين، حيث تنام فكيهة، وفتحت بابها فأحدث صريرا أزعجها، وجعلها تلعن نفسها فى الظلام، لكن فكيهة كانت تغط فى النوم، ويصدر عنها شخير غريب، وبقللات متفرقة هنا وهناك، أعادت الباب إلى وضعه وأغلقته من الخارج بالعصفورة الخشبية، وداست بقدميها الحافيتين فى اتجاه السلم الخشبى الذى يظهر كلما اقتربت كأنه أمنية عسيرة، وعندما وصلته أمسكت بقائميه وصعدت، حملها السلم إلى الطاق الذى ينبعث منه ضوء شحيح، ولما مدت رأسها هاجمتها روائح الغرفة فكادت تتقيأ ما فى معدتها، خليط من روائح الحظائر والمش وخبز الحلبة، لكنها سرعان

ما اعتادت على الرائحة فأحكمت وقوفها فوق درجات السلم، وتمعنت فيما يجرى فى الداخل.

صالحة امرأة غريبة، جاءت إلى العزبة صحبة زوجها لما استعان به الشيخ زكريا فى أعمال التلويط فى أراضى الأرز الذى تتوسع الوسية فى زراعته عاما بعد عام، سكن فى البداية فى إحدى دور الوسية، لكنه تشاجر مع واحد الفلاحين فنقله الشيخ سليمان إلى تلك الحجرة، والتى كانت تفتح بابها على الفناء كحجرة العجين، لكن الشيخ فتح لها بابا فى الجانب الآخر المطل على الغيطان وأغلق الباب الذى يفتح على الفناء، وترك ذلك الطاق الذى تندس رأس سُلَيْمَة فيه.

الضوء شحيح، لكنه سرعان ما صفا فبانت لسُلَيْمَة الحجرة كاملة، البحراية المنخفضة الذى يفتح عليه الفرن، وباقى أرضية الحجرة فى صورة مصطبة ترتفع عن البحراية بقدر قامة طفل، وفى اللحظة التى دست فيها سُلَيْمَة رأسها فى الطاق كان نافع يجلس فى طشت كبير عاريا، فيما صالحة تصب الماء على جسده المنحنى فوق عريه، لو رفعت عينيها فى اتجاه الطاق لرأت سُلَيْمَة مدهوشة ومستثارة، وفاغرة الفم، لكنها كانت تتصرف بعفوية، كأنها لا تعرف بأن سيدتها واقفة هناك، تتلصص على أحداث حجرتها، وعندما انتهت من صب الماء فوق جسد نافع جففته بجلباب كالح قبل أن تأمره بالصعود إلى المصطبة.

أرادت سُلَيْمَة أن تعود برأسها للوراء ونافع يخطو فى اتجاه المصطبة فانزلقت قدمها وسقطت من فوق السلم، لم تصدر عن سقوطها جلبة كبيرة، فالأرض من تحتها مليئة بالحطب والقش وأعواد الذرة الجافة،

تركت نفسها قليلا ثم حاولت أن تقوم، رجلها اليمنى فيها شيء من الخدر، لكنها عندما حاولت النهوض انبعثت منها آلام هائلة، مدت يدها فى الظلام تتحسسها فلم تطق مجرد مسها بيدها، وشعرت بأن قدمها تأخذ شكلا غريبا فأدركت أن رجلها مكسورة، الجزع يصيبها برعدة تأخذ بجماعها، كل جزء فى جسدها يرتعد، وأسنانها تصطك كأنما تشعر بالبرد، وعرق بارد يسرى فى ظهرها وينزلق بين ردفيها.

ظلت فى مكانها دقيقة، حتى اطمأنت إلى أن أحدا لم يدرك ما حدث، ففكيهة تصدر بقللاتها وشخيرها، يصلها حتى مكان وقوعها، وباب الفناء الذى تصعد منه إلى الدار مغلق على نحو ما فعلت به وهى فى طريقها إلى مغامرتها الليلية، وربما تكون صالحة قد سمعت جلبة سقوطها، أو حتى صرختها المكتومة وهى تجس رجلها، لكن أين هى من صالحة الآن!!؟، إنها فى واد وصالحة فى واد، وعليها أن تزحف برجلها المكسورة حتى تصل إلى باب الوسط، فهى إذا نجحت فى الوصول إليه تستطيع أن تتسلق السلمات القليلة التى ترفعها إلى الدار، ثم تزحف فى الصالة حتى تصل إلى حجرتها، ومن هناك تنادى على أبنائها ليسعفوها، ولتكن حكايتها أنها تعثرت بشيء فى الصالة فسقطت على الأرضية الصلبة وانكسرت رجلها.



صاغ سليم

دار الشيخ سليمان السرسى تعيش ظروفا قاسية، فسُلَيْمَة تضع قدمها فى الجبس، حملها الشيخ إلى الطبيب لما تورمت رجلها من أثر الكسر وعدم جدوى الطابات الخشبية التى ربطها بها المجبراتى القادم من دقادوس، وحتى عندما جلب لها المجبراتى السيد الهبل من "أبو" الشقوق قال إن ما فعله مجبراتى دقادوس فيه الكفاية، وأن الورم سيأخذ أياما ثم ينصرف، ولما بقى الورم على حاله حملها إلى الطبيب فى المنصورة، وهناك أزالوا الطابات الخشبية ووضعوا رجلها فى جبس أبيض حتى قرب ركبتها، وما أن استقر المقام بالشيخ سليمان إلى جوار زوجته حتى طلبه نفر من أصدقائه فسافر إلى "مصر".

الرجل ما أن يستقر فى العزبة أياما حتى تنتزعه منها أمور تتطلب غيابه عنها لأيام تطول إلى حد يثير التعجب، وفى غيابه تتحول الدار إلى مرتع، فأولاده فى غيابه ينغمسون فى حياة العزبة، كأنه هو من يمنعهم، فهذا حمدان يتجول فى أركان العزبة ويدخل دور أقربائه من آل الضبع وآل الطوخى، و لم يكن فى حياته كلها قد دخل دار أحد منهم، ومختار ابنه

الثانى تستهويه رفقة أترابه فيشاركهم أعمالهم فى الغيطان، وهكذا فإن الأولاد يجتمعون أول ما يجتمعون فى دار الجدة مريم، ومنها ينطلقون إلى دروب العزبة أو إلى الغيطان، وإلى القرى المحيطة أيضا.

وعاد الشيخ سليمان من "مصر"، وقبل أن يطيب له شىء من الاستقرار جاءت الأخبار مؤكدة أن أمينة تعيش أصعب أوقاتها، وهو ما يعنى أنها ربما تكون مشرفة على الموت، فالمرض اللعين تمكن منها، وجعلها أطلال إنسان، لكن أحدا من السراسوة لم يعرف أبدا ماهية مرضها، حتى سُلَيْمَة نفسها، وشأنها شأن كل السراسوة لم تذهب لعيادتها، فهى تقيم لدى أهلها فى المنصورة ومعها طفلها، حتى أن أخوته من أبيه لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة، والشيخ زكريا لما وصلته الأخبار باشتداد المرض عليها سأل أخاه عمر إن كان من المناسب أن يذهبا لعيادتها لدى أهلها، فهى زوجة ابن أختهم، ولا يصح أن تكون مريضة ولا يخفون لعيادتها، ولما كان الشيخ عمر على علم بطبيعة ابن أخته فقد طلب من أخيه أن يبلغ سليمان أولا بما ينتويه، وهكذا وئد الأمر فى مهده، إذ أغمض الشيخ سليمان عينيه، ثم نظر فى وجه خاله وقال:

– الظروف لا تسمح بالزيارة يا خال

وهكذا أدرك الشيخان أن ابن اختهما ربما يريد تحجيم علاقتهما بخصوصياته، و لم يكن ليحزنه كثيرا ذلك التعبير الذى سطرته المرارة فوق وجهى خاليه، على فرض أنه أدرك ذلك.

من غياب لغياب سافر الشيخ سليمان إلى المنصورة، حملته المطايا إلى محطة السكة الحديد ليأخذ القطار إلى المنصورة، سيغيب أياما لدى

أصهاره، وفهمت سُلَيْمَة أنه يريد أن يبقى إلى جوار أمينة حتى يأذن الله، وعبثا حاولت أن تجد فى صدرها شيئا يدل على شعور بالحزن على ضرتها، لكنها لم تجد غير الأسف، فأمينة لم تعمر كثيرا فى الدار الكبيرة، وقضت معظم أيام زواجها لدى أهلها، فى البدء بحجة أنها تزورهم، ولما انكشف أمر مرضها الغامض صارت الأيام القليلة التى تقضيها فى العزبة تتناقص، حتى صارت تقضى الأشهر لدى أهلها، وها هو الشيخ سليمان يسافر ليلحق بها ويكون إلى جوارها قبل أن تغيب غيبتها الأخيرة.

أيام قليلة وجاءتهم الأخبار بوفاتها، وانفجرت الحيرة فى كل ركن فى العزبة، فالشيخ سليمان هناك فى المنصورة، والكل هنا يتقدمهم الشيخان زكريا وعمر لا يعرفون إن كان سيحيى ليلة المأتم فى المنصورة أم فى العزبة، ومن ثم فهل عليهم أن يذهبوا إلى المنصورة لتقديم واجب العزاء والوقوف إلى جواره!؟، أم عليهم الانتظار إلى حين قدومه لإحياء المأتم فى العزبة!؟، واحتدمت المداولات، وانفجرت الانتقادات عالية وصريحة، فالرجل الذى سافر ليلحق باللحظات الأخيرة لزوجته لم يرسل فى طلبهم ليعزوا فى المنصورة أو يبلغهم بعزمه على إحياء مأتم فى العزبة، وجاءت الكلمة الفصل من الشيخ زكريا:

– إبن أختى لا يفوته الواجب، لا بد أنه سيحيى مأتم زوجته هنا.

وهكذا أمر بفرش البراح الفاصل بين دار الجدة مريم والدار الكبيرة بالقش وجلب حصر الجامع وفرشها فوقه ليستقبل أهل العزبة الذين بدأوا يتوافدون، وأرسل إلى تمى الأمديد يطلب من حانوت الفراشة سرادقا كبيرا، كما أرسل فى طلب مقرئ شهير من إحدى القرى القريبة من

المنزلة، ثم وقف هو وأخواه عمر وعبد الرحمن، ومعهم الشيخ كامل السيد وحسانين الضبع وشاهين الطحان ومنصور الطوخى يشرفون على إعداد العدة للمأتم الكبير.

وصدق توقعه، ففى الصباح عاد الشيخ سليمان من المنصورة، ودمعت عيناه عندما وجد أخواله وقد رتبوا للمأتم الذى سيحييه فى العزبة، وجاء أبناء "أبو"سنة من السنبلاوين ليعدوا الطعام للضيوف ويقدموا القهوة، تم تنظيف الفناء كمكان لمد السماط، وكان رجال الفراشة قد أقاموا سرادقا ضخما فرشوه بالسجاد والكراسى المذهبة، وانتشرت فى سقف السرادق كلوبات الكيروسين المجهزة للإضاءة، التى ستجعل من ليل العزبة ظهرا، ومع العصر وصل المقرئ الكبير، وكان النجابون قد جابوا أرجاء المنطقة من دكرنس وحتى ميت غمر للإعلان عن المأتم، وجاءت الوفود من كل بلد، وفديون وغير وفديين، ورأى أصهار الشيخ جحافل الناس تقدم العزاء فدمعت أعينهم، وهم الذين تمنوا الراحة لإبنتهم التى أنهكها المرض.

كل الذين انشغلوا فى المأتم، وأولئك الذين تنقلوا بحرية وبهجة بين أروقة السرادق والسماط الممتد إلى قرب الفجر لم يلحظوا ذلك الطفل الكسير الذى يرتدى بدلة سوداء ويقف غير بعيد عن صفوف مستقبلى المعزين، فلقد رفض سليمان أن يترك محسن إبنه من أمينة لدن أخواله، وأصر على اصطحابه ليقف فى عزاء أمه فى عزبة أبيه وأجداده، ولكن الليل امتد والوفود لم تنقطع، وغلب النوم الطفل فافترش الأرض إلى جوار السرادق، ورآه قطب فاصطحبه إلى منزل جدته مريم، وهكذا نام اليتيم محسن إلى جوار اليتيمة شام، وجاء قطب بعد انفضاض المأتم لتكتمل ثلاثية اليتم فى

الدار الصغيرة، وإذ أدرك قطب هذه الحقيقة لم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء، بكاء صامت، لعل روحه تشفى هذه المرة.

برحيل أمينة دخلت الدار الكبيرة فى تجربة غريبة، فسُلَيْمَة التى أزاح القدر ضرتها من طريقها استغلت ضعفها الناتج عن كسر رجلها وكثفت محاولاتها لاسترداد زوجها، ونجحت مرة وأخفقت مرات، لكنها لم تفقد الأمل فى استرداده كاملا غير منقوص، حتى ولو كان موت أمينة قد ترك فى روحه ندوبا يصعب محوها، فطالما لا تشاركها فيه زوجة أخرى هى راضية به، بسخطه ورضاه، تجهمه وتبسطه، انقطاعه وتواصله، لذا فإنها إلى جانب دأبها فى استرداده راحت تفرض نفسها فرضا على دار الجدة مريم، فتستند إلى عصاتها وتحجل بقدمها السليمة وتتجه إلى هناك، لا تأبه للتجهم الذى يقابلونها به، الجدة وبناتها وأزواجهن وأبناؤهن، فلقد أدركت أن علاقتها بعمة زوجها تضمن لها ظهرا يمكن الارتكان إليه وقت الحاجة، و لم يكن ينقصها الذكاء.

تلك كانت الأيام التى أعطت فيها لقطب ظهرها، فالفتى الذى يدخل شرخ الشباب واثقا لم يعد له فى نظرها الأهمية التى ألجأتها إليه، وقت أن كانت تفتقر إلى أحد تحدثه عن همومها، الآن لديها زوجها تبثه شواغلها وقت الصفاء، وعندما ينشغل عنها تلجأ إلى الجدة مريم فتبثها همومها، هى أو أى واحدة من بناتها، وبخاصة رئيفة وأمينة، وشيئا فشيئا صرن يجاوبنها، ويظهرن الاهتمام بهمومها، بل ويلتمسن لها الأعذار فيما يجد من خلاف بينها وبين زوجها، بل إن رئيفة وأمينة من كثرة ما بذلت من جهد لكسبهما لصفها رأتا أن أمهما ربما تكون قد بالغت فى الابتعاد عن

سُلَيْمَة، إذ هى ليست بالسوء الذى يظنه الناس، وها هما بعد أن تعاملتا معها مباشرة ودون وسيط تتبينان أنها على العكس مما يظنون.

انكسر شىء فى قلب قطب، فسُلَيْمَة وهى تقترب من جدته وأمه وخالاته كانت كأنها تضع علاقتها به فى أوهن إطار، فهو فى النهاية فى عمر أبنائها، وكانت على يقين من أنه يتجاوز فى أمنياته ما يمكن أن يكون بينهما، وهى وإن كانت قد حافظت على أن توقفه عند حدود الأمنيات، لا يتقدم ولا يتأخر، وظلت هى أيضا واقفة عن حدود مراقبة لهفته، لا مسرورة ولا غاضبة، إلا أنها فطنت إلى خطئها قبل فوات الوقت، واكتشفت أن ما ألجأها إلى مثل ما فعلت هو الحزن، فكيف يهملها زوجها إلى حد يدفعها للتسرية عن نفسها بالحديث إلى ولد فى عمر ابنها، فلو أنه احترم أنوثتها وهام بها كما هامت به لملأ عليها حياتها، ولا ترى فى الدنيا غيره، لكنه أهملها، وتركها للوحدة والتفكير الذى لا يجلب إلا الأسف.

والشيخ يوسف السرسى الذى عاد إلى الربع بعد ثلاثة أيام لزم فيها مندرة ابن أخيه أرسل فى طلب قطب، لكن الفتى رفض أن يذهب، وكانت أمه سكينة قد تزوجت من الشيخ كامل السيد، الذى أمضى أعواما طويلة مع ابنة عمه إبراهيم دون أن ينجب منها، ولما نصحه الشيخ عمر بالزواج من سكينة تردد، قال إنها امرأة مواتة، فلقد تزوجت موسى الطوخى فمات دون أن يرى ابنه الذى كان فى بطنها حملا، وتزوجت أخاه شعبان فلم تكد تلد له إبنة حتى مات هو الآخر، وضحك الشيخ عمر مما قال، ولكنه لم يدعه إلا بعد أن وافق على الزواج منها، وتلى ذلك نوع من القطيعة بين

قطب وأمه، فلقد سمع تهكم الناس منها بأذنيه، فهى على حد قولهم لا تريد أن تظل شهرا بدون زوج.

الأخبار القادمة من الربع لا تشجع على الذهاب، فعبد الماجد ابن الشيخ يوسف السرسى متهم بالاعتداء على فتاة تستعين بها شكران فى أعمال الدار، وصلت الأخبار إلى العزبة مضطربة وغائمة، تتراوح بين القول بأن ما جرى ليس أكثر من تحرش واجهته الفتاة بحزم، وبين الادعاء بأن الفتى نال منها وطره، وأن الفتاة حملت فاضطرت شكران إلى أخذها لداية فى بلدة قريبة لتسقط حملها، وكادت الفتاة تهلك ولكن الله لطف بالجميع، واخفتها شكران عن أهلها أياما حتى تعافت، وكادت تحدث مصيبة لولا أن الفتاة ظهرت فى الوقت المناسب، وادعى الجميع أنها كانت برفقة مليكة ابنة شكران الكبرى فى مشوار زيارتها لخالها إسماعيل شوكت فى "مصر".

لكن هذا الحديث وإن كان يعطى أهل الفتاة حجة يردون بها على تساؤلات الناس إلا أن ليس كافيا لأن يجعلهم يكفون على الخبر ماجورا، فالفتاة التى عادت لم تكن هى التى غابت، عادت شاحبة كأنها عائدة من الموت، و لم يستطع أحد أن يسيطر على الأقاويل التى انطلقت هنا وهناك، والتى اتهمت عبد الماجد يوسف بالاعتداء على الفتاة وفض بكارتها، بل وتطرقت إلى حمل الفتاة واسم الداية التى أجهضتها، وهكذا أقسم بعض أقارب الفتاة ليقتلون عبد الماجد، حتى ولو عاد إلى بطن أمه، واستيقظت الربع ذات صباح فإذا عبد الماجد ليس موجودا، وأدرك الجميع أن الفتى غادر إلى جهة غير معلومة، قالوا إن أباه ارسله إلى أقاربهم فى المنوفية،

أو إلى "مصر"، فنازك ابنة الست سيد احمد شقيقة الشيخ يوسف الكبرى المتزوجة من محمود فتح الله وتقيم معه فى سرسنا منوفية تزوجت من توفيق نور الدين ابن القرية نفسها، وهو يعمل مدرسا فى "مصر" ويتنقل بينها وبين قريته، وعبد الماجد مخفى لديهم.

لم يضع غياب الفتى نهاية للغط، و لم ينه الثورة التى اجتاحت الصدور، وشيئا فشيئا لم تعد المشكلة تخص دار الرجل الذى سمح لابنته بأن تخدم فى بيوت الآخرين، إذ سرعان ما انضم لصفوف الثورة أفراد عائلة الرجل فأقسموا ليقتلون واحدا من أبناء الشيخ يوسف ما لم يتزوج ابنه الفتاة، و لم يعد ممكنا اصطناع عدم العلم بالمشكلة، فإسماعيل بك شوكت شقيق شكران عاد إلى الربع بناء على استدعاء له من شقيقته ليساعد فى حل المشكلة، كما وتدخل أخوال الشيخ يوسف من جماعة التونى، وأخيرا تم الاتفاق على أن يقوم أحد بعرض الفتاة على أحد الثقاة ليقرر ما إذا كانت بكرا أم وقع اعتداء عليها، وبعد طول جدال اتفقوا على أن تكون تقوم بالأمر تومرجية عيادة الدكتور عبد الحميد حفظى فى السنبلاوين، شقيق هاشم بك حفظى النائب الوفدى، وهى سيدة أرمنية الأصل.

فى الفترة ما بين الاتفاق على عرض الفتاة على التومرجية الأرمنية الأصل وبين عرضها بالفعل أرسل الشيخ يوسف السرسى فى طلب قطب، وطلب معه خميس ابن شاهين الطحان، وتلقى موافقة ابن عمته شاهين الطحان على إرسال ابنه، لكن "قطب" ظل رافضا الذهاب إلى هناك، فازورار سُلَيْمَة عنه يربكه، وهو لا يعرف كيف ينصرف عن التفكير فى أمرها، وفى نفس الوقت فإن الجارية اللعينة تتمنع عليه وترفض أن

تعطيه نفسها، هى التى تفتح رجليها لطوب الأرض، و لم يفهم أبدا سبب رفضها، وأمه انتقلت للعيش فى دار الشيخ كامل السيد، وهو لا يقدر على الاستئناس برأيها فى مسألة الذهاب إلى الربع، أو حتى برأى زوجها الجديد.

أرسل الشيخ سليمان فى طلب قطب فذهب للقائه كارها، يعرف أنه سيكلفه بالذهاب إلى الربع، فكأنه فى كل مرة يقع خاله يوسف فى مشكلة لا تكون تبعتها إلا على رأسه هو، ولا أحد غيره، وفى هذه المرة فإن المسأله ليست مجرد قطع جزء من طريق أو ردم جزء من مروى، إنها مسألة عرض لا يغسله إلا الدم، فما الحاجة إليه إذن؟!، وتساءل ساخرا إن كانوا ينتوون العقد للفتاة عليه بدلا من عبد الماجد الهارب لدن عمته فى المنوفية!، ولكنه فى النهاية لا يملك إلا أن يذهب إلى خاله سليمان، ليرى ما سيكون، وقرر أن يرد بلسان فصيح هذه المرة، فهو هذه المرة ذاهب إلى مهمة لا تعنى إلا شيئا واحدا، وهو أنه سيقدم نفسه فداء لأحد أبناء خاله يوسف، وهم لا يطلبون منه ذلك إلا لأنه يتيم الأب، إذ لو كان أبوه حيا لما جرؤ أحد على طلب ذلك منه.

لكن الشيخ سليمان لم يلزم الفتى بالذهاب، فبعد أن سلم عليه قطب وقبل يده أجلسه الشيخ إلى جواره، وفى شىء من المودة سأله إن كان يقبل الذهاب إلى خاله الشيخ يوسف فى الربع، هو وخميس شاهين الطحان، وفى سريرته تساءل قطب، لماذا لا يرسل ابنه حمدان ليقوم بالمهمة المطلوبة؟!، لكن صيغة الطلب لم تترك للفتى فرصة ليتساءل فى سريرته عن أشياء أخرى، فالرجل يسأله مجرد سؤال، ومن صيغة السؤال ولهجة

السائل يعرف الفتى أن خاله سليمان لن يغضب إذا ما رفض، وبدلا من أن يكون رفضه مبتورا وبلا أسباب حكى لخاله ما كان من أمر مليكة وشكران معهم وهم يحرسون سواقيهم وطنابيرهم وزروعهم وغيطانهم، وكيف أنهم تركوهم بلا طعام فأكلوا من خشاش الأرض، وضنوا عليهم باستقبالهم فى دارهم، بمن فيهم خاله الشيخ يوسف السرسى نفسه.

والشيخ سليمان الذى كان عالما بما جرى فى المرة السابقة رفض التعليق، فحديثه أمام الفتى لن يكون إلا تعييبا فى عمه وأسرته، فيكفيهم فضيحة زواج شكران من حسانين الضبع، وما يحكيه الناس عما فعلته، ثم إنه وبرغم أى شىء لا يقبل أن يُعَيِّبَ ابن سيد احمد السرسى فى حضور أحد، حتى ولو كان "قطب"، حفيد عمته مريم، وظله فى داره عند غيابه، وبدلا من مجادلة الفتى فى قراره اعتدل فى جلسته وسأل:

– ماذا لو أعطيناك أجرا على ذلك؟

وقبل أن يجيب قطب أردف:

– هو عمل مقابل أجر، تعمله أنت أو يعمله غيرك، فلا تتعجل الرفض

ولما لم يحر الفتى جوابا عاد الشيخ سليمان يسأل:

– لم لا تسألنى عن الأجر؟!

فنظر إليه قطب متعجبا، فآخر شىء توقعه هو أن يأخذ الحديث مع خاله هذا المنحى، وأدرك أنه كبر بما فيه الكفاية، و لم تعد علاقته بأقاربه علاقة العم أو الخال بصبى فاسد أو منحرف، وإنما علاقة رجل برجل،

حتى ولو كان أحدهما مؤجرا والثانى أجيرا، وأفاق الفتى على ملامح خاله لا تزال متسائلة، فسأل بعد تردد:

- كم الأجر؟

فقال الشيخ سليمان وعلى وجهه ابتسامة غامضة:

- نصف جنيه عن اليوم

وبذكائه الوقاد فهم قول خاله، سيعطونه نصف جنيه فى اليوم، فخاله فى النهاية يتصرف على أنه ابن سيد احمد السرسى، مثله مثل الشيخ يوسف، أما هو فإنه اليتيم الأجير ابن موسى الطوخى، حفيد محمد الطوخى الذى شهد ذات يوم ضد أبيهم فى المحكمة مقابل حصوله على دار من العبادى صقر، كما يدعون، وهى الرواية التى يحكيها الجميع، حتى جدته مريم وأمه سكينة ابنة يونس الراوى، وعندما وصل بفكره إلى هذا الحد انتابته شجاعة غريبة، لم يسبق أن شعر بها إلا فى معية المنسر، وتعجب من تقلب الأمور، فقال لخاله فى تمنع:

- أتقبل أن يذهب حمدان إلى هناك بهذا الأجر؟!

وابتسم الشيخ سليمان فى غموض، قال:

- سبق وذهبت إلى هناك بغير أجر

فبادله قطب الابتسام، وقال فى حسم:

- كانت مرة، ولن تعود

ابتسامة الشيخ سليمان لا تفارقه، وسأل بصوت خفيض محافظا على هدوئه:

– لنقل إنه جنيه كامل عن كل يوم

ورأى الفتى ألا يستمر فى الحوار مع خاله على النحو الذى يجرى، حتى لا ينقلب الأمر فلا يخرج من الجلسة إلا بغضبه عليه، لذا قال والرغبة فى إنهاء الحديث تملأ كيانه:

– آخذ ثلاثين جنيها فى المأمورية كلها، وحَدُّنا معه انتهاء مشكلته مع أهل الفتاة إياها

قطب يعرف أنهم هناك فى الربع اتفقوا على عرض الفتاة على التومرجية الأرمنية لتقرر ما إذا كانت عذراء أم لا، ويعرف أن المسألة لن تأخذ إلا أياما قليلة، تقل عن عدد أصابع اليد الواحدة، لذا فإنه ومن باب الشرح قال لخاله:

– لا ينفع الاستعانة بخميس شاهين

ولما رفع الشيخ سليمان حاجبيه ليفهم منطقه أردف قطب:

– يلزم الاستعانة بمن يعرف كيف يستعمل السلاح، لذا سأستعين برجال أعرفهم

صارت ابتسامة الشيخ سليمان مريرة، فالفتى الذى كان طفلا بالأمس يصرح فى حضوره وبلا مواربة بعلاقته برجال المنسر، ومد يده فى جيبه وأخرج محفظته الجلدية، وسحب منها ورقتين كل واحدة بخمسة جنيهات، حادة كأنها شفرة، قدمهما للفتى وهو يقول:

– هذه عشرة جنيهات

ولما امتدت يد قطب مرتعشة وأمسكت بالورقتين الساحرتين أكمل الشيخ:

– ولك مثلها عند انتهاء المأمورية

وكانت صدمة الحصول على الجنيهات العشرة قد خفت فقال قطب:

– لن أبقى هناك ساعة واحدة بعد انتهاء المشكلة

فأطرق الشيخ سليمان متعجبا، ومصدقا على ما قال الفتى.

لا يصدق الشيخ سليمان أن الأمور جرت إلى بعيد إلى هذا الحد، من ذا يصدق أن الطفل اليتيم هو هذا الفتى التى يحاوره ليحصل على أجر أعلى مما يعرضه عليه؟!، ومن ذا يصدق أن الفتى الذى ضربه حتى كاد يزهق روحه ذات يوم لأنه فر من دار جدته يومين أو ثلاثة هو نفسه الذى يجلس فى معيته ويصرح بأن خميس ابن شاهين الطحان اللذى يعرش على زريبة لا يجدى الاستعانة به، وأن المناسب هو الاستعانة بأصدقائه المنسر، وقبل أن يتخلص من أفكاره ودهشته أتاه سؤال قطب مستفسرا:

– يريدوننا فى الغيط أم فى الدار؟

وبالكاد أجابه الشيخ:

– بعد ساعتين من الآن فى دار الشيخ يوسف

وحتى لا يترك شيئا للمصادفة أردف:

– وهناك سيطلب منكم ما يريد

لم تمر كلمات الشيخ سليمان مرور الكرام، فالفتى الذى أنضجه اليتم

لا يجهل دلالة ذكر اسم الشيخ يوسف، وليس خاله يوسف كما اعتادوا أن يقولوا حتى قبل هذه اللحظة، فهو ليس إلا ابن موسى الطوخى، فتوة السراسوة الذى ذهب إلى السماء وطفله لما يزل فى بطن أمه، أما هم فأبناء سيد احمد السرسى، المالك والتاجر، الذى اشترى أراضى أخوته بتراب الفلوس كما يقول أعمامه فى كل مرة يزورهم فيها، وكذلك كما يقول أبناء عمومة أبيه من أحفاد أحمد الضبع الكبير.

لم يكن للحديث السابق أى أثر فى الاستقبال الذى لقيه قطب ورفاقه لدن الشيخ يوسف السرسى، فعندما ظهرت العصبة عند أول الشارع الذى تقع فيه الدار خرج أهل الربع ليروا من هؤلاء الذين يتيهون بعصبتهم وبواريدهم المعلقة فى أكتافهم، جهارا نهارا بغير خوف أو تردد؟!، وهذا بالضبط ما كان الشيخ يوسف السرسى يقصده، أن يفهم أهل الربع أنه لا يرتكن على أخواله وأصهاره، وإنما على أهله فى عزبة أبيه وجده، وها هم أهله يهلون ليحرسوا داره من أى غرير قد تحدثه نفسه بالتعرض لها بالشر، وفكر منصور أبو دومة فى إطلاق بارودته ليزيد من الأثر المطلوب، لكن "قطب" اجتهد ليمنعه، وبالكاد أقنعه بتأجيل الإطلاق إلى حين.

بدا أن الشيخ سليمان تحدث كثيرا مع عمه فيما حدث فى المرة السابقة، إذ ما أن استقر المنسر المرافقون لقطب فى الدار حتى قدموا لهم الطعام، قدمه طباخ يدعى حراز، يرتدى لباسا غريبا، ويضع فوق رأسه طاقية بيضاء عالية، وكان الطعام مكونا من لحوم وطيور فأكلوا حتى أتخموا، ورأى قطب بنات خاله وهن يعبرن الصالة إلى الطرقات الداخلية، وعرف منهن مليكة ونعم ونوران الصغيرة، وبعد أن فرغوا من تناول الطعام دعى قطب

للقاء خاله فى حجرة داخلية، وهناك رأى الفتى رجلا ترتعد فرائصه، فلقد أنهى إليه أقاربه ان عائلة الفتاة ينتوون قتل واحد من أبنائه، أيا كانت نتيجة الفحص الذى ستجرية التومارجية الأرمنية.

استمر الحديث ساعة وبعض الساعة، ورأى قطب أن يحضر منصور أبو دومة ليشارك فى الحديث، وهكذا دعى أبو دومة، وانتهى الحوار إلى ضرورة أن ينقسموا إلى فريقين، فريق فى الغيطان عند السواقى والزروع، وفريق فوق سطح الدار وما حولها، واختلفوا حول الجهر بالحراسة أو إخفائها، وأخيرا انتصر رأى "أبو" دومة، فما لم يعرف أهل الفتاة أن المنسر هنا يحرسون الدار وأهلها فإنهم لن يرتدعوا، وبعد إقرار العلنية خرج المنسر وكانوا حوالى عشرة رجال، ساروا فى الشارع ببنادقهم المعلقة إلى اكتافهم، والناس الذين كانوا منذ قليل يحلقون فيهم عند قدومهم اختبأوا خلف النوافد والأبواب المغلقة، فظنهم أن حربا سرعان ما ستدور، ويلزم أن يبتعدوا عن شررها قدر المستطاع.

أحدث ظهور قطب فى دار الشيخ يوسف السرسى فى الربع قدرا من الإثارة وحب الاستطلاع لم يسبق للدار أن خبرتها، فمليكة التى خبرت الفتى طفلا كانت مستثارة إلى أقصى حد، فحتى وإن كان أحد أحفادها من ابنها الوحيد معرضا للأذى بشدة، أو بالأحرى معرضا للقتل، فإنها كانت راغبة بحرقة فى استدراج قطب ليحدثها عن دار الشيخ سليمان السرسى، وعن سُلَيْمَة والراحلة أمينة الجمل، وكذلك كانت شكران، الشرسة التى اقتلعت هى وحماتها خاله من عزبة أبيه وجده، وما لبثت أن مرغت رأسه فى التراب، لما لبدت فى حضن حسانين الضبع وتصنعت

المرض حتى تقضى معه مزيدا من الأيام قبل تطليقها، وها هى اليوم تواجه مع أبنائها حربا تهدد حيواتهم، وكما فعلت القرية من قبل، لما اختلف زوجها مع جيرانه فى الغيط، ها هى بسبيلها لأن تفعل مرة ثانية، ولكن لسبب يعد بكل المقاييس فضيحة كبرى.

لم يرطب الفتى حلوقهم بشىء ذى بال، فقط طوف بهم هنا وهناك، وساقهم إلى البحر حتى رأوا الماء رقراقا ثم عاد بهم عطاشى، لكنه على الأقل تمعن فى وجوه بنات شكران، فيهم جميعا شىء لا يقدر على استساغته، فخلف البياض والحمرة والصدور الفتية والأرداف الناهضة يوجد شىء منفر، وهذا الشىء لا يوجد فى وجه خاله الشيخ يوسف، برغم بياضه وحمرته وعوده المفرود، وبرغم عينيه الزرقاوين كسماء صافية، إذن فهذا الشىء الذى ينفره من بنات شكران ليس راجعا إلى مليكة، وإلا لكان ظاهرا فى وجه خاله، إنه شىء يرجع إلى شكران نفسها، ثقل ظل يصد الناظر صدا، وحدها نوران، صغرى البنات، هى من أخذت من أبيها بياضه وحمرته وظله المقبول، وزادتها عيناها الرماديتان حلاوة وخفة، لكنها بالنسبة لأخوتها كانت طفلة، بالكاد ارتفع صدرها منبئا عن تطورات سريعة قادمة.

رمح تجاهل سُلَيْمَة له لا يزال مغروسا فى قلبه، والدم يسيل دون هوادة، وهو بعد حواره مع خاله الشيخ سليمان لا يصدق أنه هو الذى كان جالسا فى مواجهة الرجل، يسمع منه ويحدثه، ويقارعه الحجة بالحجة، ولما أتاه اليقين بأنه كان طوال الوقت حالما، وأنه ليس من دار سيد احمد السرسى مهما كانت قرابتهم لأمه، إنه من دار موسى الطوخى، شاء أم أبى، لذا فهو

فى هذا اليوم كان يعيد التفكير فى كل شىء، وبعقله الحائر أدرك انكماش نعم ابنة شكران الثانية، ولحظ بطرف خفى حوارا بالأعين والخلجات بينها وبين حراز طباخهم الماهر، الذى قدم للمنسر طعاما لم يتناولوا مثله من قبل.

تعجب قطب، ألم تر شكران تلك النظرات التى توليها ابنتها لطباخهم؟!، وتساءل إن كانت الغفلة هى التى تعمى أعين الجميع أم أنه نوع آخر من الحياة لا يعرفه؟!، ونازعته نفسه لأن يوقع الرعب فى قلب الطباخ، ويدفعه بعيدا عن الفتاة، لكنه ضحك من نفسه، فحتى ساعة حواره مع خاله الشيخ سليمان كان ذلك ممكنا، أما اليوم فهو مجرد واحد من المنسر، يستأجر للحراسة وتخويف الآخرين، فى الأوقات التى لا يكون فيها مشغولا بسرقة دوار ما، أو حظيرة ما، أو إتلاف مزروعات هنا أو هناك، وحتى لا تدفعه نفسه للعودة إلى سيرته الأولى فإنه تمعن فى جسد مليكة الابنة الكبرى، ووجد أنه لو أتيحت له الفرصة لوقع عليها دون تردد، وعند هذه النقطة قهقهت شياطين كثيرة داخل نفسه الباكية، فإذا لم تكن سُلَيْمَة هى بغيته ومراده، فلتكن مليكة ابنة شكران والشيخ يوسف السرسى، أو نعم الوالهة بطباخهم الشاب، أو أى واحدة من دار سيد احمد السرسى، الذين يتعاملون مع الآخرين من علٍ، لأنهم من جنس مختلف.

لكن تصرف خاله الشيخ يوسف معه أوقعه فى حيرة شديدة، فالرجل لا يدخل من الخارج إلا ويسأل عنه، ويتأكد إن كان قد تناول الطعام أم لا، وما هو الطعام الذى قدموه له بالتحديد، الأمر الذى دفع الفتى لأن يسأل

إن كانت الحاجة إليه هى التى تدفعه للسؤال؟!، أم هى القرابة اللعينة التى تحاول جرجرته إلى سابق عهده؟!، يوم أن كان منخرطا فى معركة كبرى بينه وبين نفسه، وبينه وبين الآخرين، دفاعا عن دار سيد احمد السرسى، التى كان حتى الأمس يظن أنه واحد منها، وشيئا فشيئا اجتذبه الحوار مع خاله الشيخ يوسف إلى منطقة هادئة فى نفسه، فهنا على الأقل، وفى هذه الدار الغريبة، الواقعة فى بلد آخر غير عزبة أحمد السرسى يوجد أناس يقتربون منه بثقة، وليس بشىء من الحذر كما يفعلون فى دار خاله الشيخ سليمان.

اقترب أكثر من يحيى، الابن الأكبر لخاله الشيخ يوسف، وراعه أن تكون نفس الفتى مشحونة بغضب كبير من جدته وأمه، بل ومن أبيه الذى حملهم بناء على مشورتهما إلى الربع، القرية التى ينظر فيها الجميع إليهم بكره، وفى النهاية فإنهم لم يستطيعوا أن يعثروا على صديق واحد هنا، وها هو يعيش كل أيامه بلا صديق، تمنعه عاهته من الخروج، ولا ترحب أمه أو جدته بأى واحد من أترابه يزوره، لذا فإنه ما أن جاء قطب ليؤدى دوره الموقوت فى حراستهم حتى انعقدت صداقة غريبة بين الشابين، قطب ويحيى، الأول بفتوته وفوران رجولته، والثانى بانكساره ونفسه الشاعرة التى تميل إلى الصمت والتدبر.

أسرار كثيرة وقع عليها قطب فى تلك الأيام القليلة التى قضاها فى دار خاله الشيخ يوسف، ليس آخرها ما ظنه الفتى علاقة باردة بين خاله وزوجته شكران، فالمرأة التى عادت إلى شراستها لا تتودد إلى أحد فى الدار، حتى زوجها وحماتها التى ظهرت طاعنة فى السن، بأكثر من

عمرها، وقد يمر اليوم واليومان دون أن تتبادل مع أحدهما كلمة واحدة، واكتشف قطب مع مرور الوقت أن الشاب حراز طباخ الأسرة يلعب فى حياة السراسوة فى الربع دورا أكبر مما كان يظن، فهو تقريبا الذى يقوم بعمل كل شىء، ابتداء من التسوق للدار الكبيرة، وحتى مصاحبة الأبناء فى مشاويرهم إلى المنصورة أو السنبلاوين لشراء أغراضهم الخاصة، وحتى فى مصاحبة رفقى الابن الثالث إلى محطة السكة الحديد الفرنساوى فى تمى الأمديد، ليستقل القطار الفرنساوى من هناك إلى مدرسته فى المنصورة، فضلا عن مرافقة مليكة وشكران فى مشاويرهن السرية إلى السحرة الذين تعج بهم البلاد.

برغم المعركة الدائرة فى نفس قطب لم يشأ أن يضع منصور "أبو" دومة فى فريق حراسة الدار، أبعده إلى الغيطان ليكون على رأس فريق الحراسة هناك، حرصا منه على ألا يطلع على أسرار دار خاله، فينقلها إلى الآخرين، وكان تصرفه صائبا، فالرجل الذى يقود المنسر منذ سنوات يحرص طوال الوقت على الوقوع على أسرار الأسر الكبيرة، حتى يستفيد بها عند الحاجة، و لم يكن راضيا تماما عندما أسر إليه قطب بضرورة أن يكون على رأس فريق حراسة الغيطان، فلقد كان تواقا إلى معرفة المزيد من أسرار دار الشيخ يوسف السرسى، لكن تصرف قطب حرمه من ذلك.

يعرف أبو دومة أن قطب لم يعد الصبى الغر الذى كانه يوم أن استقبله فى داره وأفسح له، اليوم هو واحد من الأشقياء الكبار، ليس بخبراته فى السرقة وقطع الطريق، أو فى السطو على السواقى والزروع والحظائر، أو حتى فى الكيد والاعتداء وحياة أبناء الليل، وإنما فى ظهره المحمى بأقاربه

النافذين، إن كان الشيخ سليمان السرسى فى عزبة جدهم أحمد السرسى، أو فى الشيخ زكريا السرسى خال أمه، أو فى هذا الرجل الأبيض الأحمر الشيخ يوسف السرسى، الذى يصاهر مجموعة من البكوات لهم فى كل حكومة ذراع، لذا فإن أياما كثيرة قادمة عليه أن يستثمر فيها وضع الفتى، حتى ولو تنازل عن جزء من أستاذيته.

لا يجد أبو دومة تعليلا لجسارة قطب إلا فى الثقة بأن ظهره محمى بقوة، لذا فإنه هو بالذات الذى يقوم بالقفز فوق الأسطح والسقوط خلف الأبواب لفتحها، وهو من يقرر متى يطلقون البواريد إن كان لذلك بد، بل هو من يمضى بالمسروقات ويمر بها بين الناس فى جرأة يحسده عليها أمهر اللصوص، ولما أدرك الرجل أن الجارية تمتنع عنه، وأنه مبتئس من ذلك، طلب منها أن تتيح له فرصة لينقى دمه، من أدران الفتوة وفوران الشباب، وهكذا فإن الفتى وقبل أن يأتوا إلى الربع نال وطره من المرأة الجسيمة، لكن المرأة الفاجرة لم تتورع عن أن تصفه بأنه مجرد صبى لا يقدر على متطلباتها.

لم تفت الكلمة فى عضده، فهو على الأقل كان مسيطرا على نفسه وهو يضاجعها، ورأى بأم عينيه كيف أنها كانت تحاول ألا تتجاوب مع رغباته، فهى لا تنسى أن ما تفعله كان بطلب من "أبو" دومة، وليس برغبة منها، وقطب من الذكاء بحيث يدرك تلك الحقائق، ثم إنه فى الحقيقة لم يكن يضاجعها هى، بل كان يضاجع سُلَيْمَة، وحتى لا يختلط عليه الأمر أو يخرج من خيالاته الساحرة القاتلة معا أغمض عينيه ومضى فيما يفعل دون أن ينبس ببنت شفة، فضراعته كانت لسُلَيْمَة، والسخونة التى كانت

تنبعث من جسدها كانت فى الحقيقة تنبعث من سُلَيْمَة، بل إن الأنفاس العفوية التى خرجت منها كانت طوال الوقت لها سحر وطغيان الأنفاس التى تطلقها فى صحراء رغبته سُلَيْمَة.

طوال الوقت كان يقارن بين سُلَيْمَة وشكران وبنات خاله الشيخ يوسف السرسى، ويرى أن سُلَيْمَة لها السبق عليهن جميعا، لكنه وقد تمكن من هزيمتها بعد صراع طويل مع نفسه، بمضاجعته للجارية قائدة المنسر، فإنه يستطيع أن يفعل ذلك مرات ومرات، لكن شكران متسلطة، وبرود رغبة زوجها فى النساء أصابها بشىء لا يفهمه، فأهملت نفسها وصار صوتها رجاليا، هى التى صرخت تحت صلب حسانين الضبع فى ليل العزبة فجلبت العار لزوجها وأهلها وأبنائها، لكن الطفلة نوران تنبئ عن حياة رائعة قادمة، لولا أنها لا تزال طفلة، وبالكاد داخله شعور بالندم وهو يفكر على هذا النحو، فالسراسوة من أبناء سيد احمد – وهو ليس من بينهم حتى ولو كانت أمه منهم – قطعوا شوطا كبيرا فى البعد عن أقاربهم، و لم يعد التفكير فيهم على هذا النحو داعيا للشعور بالوقوع فى جرم شديد.

وسرعان ما اتضحت الأمور، فبعد مرور أيام ثلاثة صحب عمدة الربع الفتاة إلى السنبلاوين، وقرب عيادة الطبيب عبد الحميد حفظى اضطربت الفتاة وتوقفت، لا تريد أن تمضى فى الشوط حتى نهايته، فلقد آذوها كثيرا فى الأيام الماضية، وتعرضت للاعتداء من والديها وأخوتها، ومن أعمامها وأخوالها، و لم تسلم من الاعتداء إلا عندما نقلوها إلى دار العمدة لما اتفقوا على عرضها على التومرجية الأرمنية، وها هى النهاية تقترب، وكل شىء

ينبئ عن أنها ستكون دامية، وفكرت فى الفرار لكن العمدة أمسك بيدها وسحبها إلى داخل العيادة، كأنها شاة يقودها للذبح.

لم يشأ العمدة أن يصطحب أب الفتاة وأمها، فهو فى حال القطع بالاعتداء على الفتاة لا يضمن تصرفهما، ومن ثم فإنه فضل أن يذهب بالفتاة بنفسه، وحدهما ودون شريك، وهو أيضا لم يشأ أن يسأل الفتاة عن حقيقة علاقتها بعبد الماجد ابن الشيخ يوسف السرسى، فقط عرف من والدى الفتاة أنها أقرت بعد ضربها باعتداء الفتى عليها، وبحملها منه، وبأن شكران اصطحبتها إلى مكان بعيد لا تعرفه، حيث أسقطوا حملها، وأودعوها لدى أناس يعرفونهم حتى تعافت، ثم عادوا بها إلى القرية، وهى الأمور التى أنكرتها شكران، وأنكرها الفتى عبد الماجد، واحتجوا عليها بطلب فحص الفتاة لتتضح الحقيقة.

الممرضة الأرمنية امرأة طويلة ممتلئة، على وجهها تظهر علامات تنبئ عن خبرات طويلة بالمرضى والموجوعين، وما أن رأت الفتاة وهى تساق إليها سوقا حتى اقتربت منها وربتت على كتفيها، وبعربية جاهدت لتكون مستقيمة طمأنتها إلى أن الأمر لن يتعدى بضع دقائق تخرج بعدها دون ألم، وطلبت من العمدة أن يستريح فى استراحة الزوار فى العيادة، لكن الرجل المسئول خشى أن تهرب الفتاة من الممرضة فطلب أن يظل واقفا عند باب الحجرة التى ستوقع فيها الكشف على الفتاة، وفهمت الممرضة مقصده فدفعت بابا قريبا وسحبت الفتاة إلى الداخل، وعند هذا الباب بالضبط وقف العمدة ينتظر النتيجة.

لم يطل بالرجل الانتظار، فقبل أن يتململ فى وقفته انشق باب الغرفة عن الممرضة الأرمنية وهى متهللة الوجه، وقالت للرجل المشدوه:

– مبروك هضرة الأومدة، البنت ساغ سليم

فى البداية لم يفهم الرجل مما قالت شيئا، لكنه وبعد أن انداحت الدهشة فهم ما تقوله، ورأى أن يسألها صراحة:

– بنت بنوت يا ست؟

فأجابته وهى على حالها من التهلل:

– نأم هبيبى نأم، بنت بنوت ساغ سليم

وطوال طريق العودة كان الرجل الذى خبر أحوال الناس طوال عموديته ينظر إلى الفتاة بارتياب، فهو وإن كان قريب شكران زوجة الشيخ يوسف السرسى وأم الفتى المتهم، وأيضا قريب مليكة أمه، إلا أنه فى النهاية عمدة القرية التى يعيش فيها أهل الفتاة، وهم من أنصار عموديته وعمودية أبيه وجده منذ وجدت العمودية فى بر مصر، لذا فإنه دون غيره من اؤتمن على اصطحاب الفتاة لفحصها، وكلمته ستكون هى خاتمة الحديث فى المشكلة برمتها، ولم ير الرجل أن يسأل الفتاة كيف وهى بنت البنوت قالت كل ما قالت لأبيها وأمها؟!، وكيف واتتها الجرأة لتتهم الفتى بمثل ذلك الاتهام؟!، وتمعن فى تلك الأيمان المغلظة التى أقسمها فى حضوره وآخرين الشيخ يوسف السرسى، والتى يرجع فيها الاتهام إلى رغبة أهل الفتاة فى تزويجها لابنه بعد أن لاكت سمعتها الألسن نتيجة خدمتها فى داره.

لم تنم الربع فى تلك الليلة البعيدة، انطلقت بواريد البراءة تطقطق فوق الدور معلنة براءة الفتاة من التهمة التى لاكتها الألسن طويلا، وبراءة الفتى عبد الماجد من التهمة أيضا، وكانت الفتاة قد عادت لدار أبيها رأسا، وعند باب الدار وقف العمدة موجها الحديث إلى والد الفتاة وأهلها، وعلى مسمع من الجيران والناس الذين تجمهروا هناك، قال:

– هاكم ابنتكم يا أهل الخير، بنت بنوت صاغ سليم، بختم بلادها

ورأى أن يتوجه للمتجمهرين بكلمة، فقال وهو يهم بالانصراف إلى داره:

– إتقوا الله فى أنفسكم وفى أعراضكم

وفى داخله سبهم بأمهاتهم وآبائهم، و لم يتوقف عن سبهم حتى هدأت نفسه وابتعد عن لغطهم وأفراحهم وزغاريدهم الشيطانية، فهؤلاء الفرحين بسلامة عرض الفتاة هم أنفسهم من لاكوا سمعتها لأيام خلت، ودفعوا أباها لأن يحاول قتلها، وقتل الفتى المتهم، لولا لطف الله.

حاجئى على طيرك



لم يعرف أحد أبدا أن مداولات كثيرة جرت فى تلك الأيام القليلة التى قضاها قطب مع رجال المنسر فى حراسة أبناء خاله الشيخ يوسف وزراعاته فى الربع، وأن تلك المداولات أسفرت عن قيام الشيخ سليمان السرسى ومعه عمه الشيخ يوسف بالذهاب تحت جنح الليل إلى دار الممرضة الأرمنية، وعرضا عليها المال لتبرئة ساحة ابنهما، وأمام إصرار المرأة استعانا بالطبيب عبد الحميد حفظى صاحب العيادة التى تعمل بها، وكلفهما الأمر ثلاثين جنيها دفعها الشيخ سليمان على الفور، لكن عمه الشيخ يوسف أصر على ردها له، وهكذا فإنه بتلك الجنيهات عم السلام القرية، وانسحب المنسر عائدين إلى مستقرهم فى دار الجارية فى عزبة السرسى بعد أن قبض قطب العشرة جنيهات الثانية من أجر المأمورية.

لم تكد العزبة تنسى موضوع عبد الماجد ابن الشيخ يوسف السرسى مع الفتاة التى اتهم بالاعتداء عليها حتى تجدد الحديث من أوسع الأبواب، فعلى حين غرة استيقظ الحديث عن الأمر، والفتاة التى كانت مجهولة بالنسبة للسراسوة جاءت إليهم ساعية، ليشبعوا أنظارهم بمرآها، وليروا

ما الذى أغرى ابن الشيخ يوسف السرسى فيها، فبعد مرور شهر من انتهاء المشكلة ذهب الشيخ سليمان إلى الربع ومعه رزق الحبال أحد عماله ليخطب له الفتاة، وهكذا لم يمض شهر آخر حتى ظهرت الفتاة فى هودج جميل يحمله جمل مخصوص لفرقة الهباب القادمة من قرية الحصاينة القريبة، وهكذا عرف الجميع من هى الفتاة، وتفرسوا فى ملامحها الحلوة، وفى عودها الممتلئ الذى يغرى بالاقتراب منه، وأُغْلِقَ باب آخر لإحدى الحجرات المفتوحة على فناء الدار الكبيرة وفُتِحَ آخرَ على الغيطان، على غرار ما فعلوا فى حجرة صالحة ونافع النجدى، وصارت الحجرة الجديدة دار ريحانة ورزق الحبال، ولكن هذه المرة بلا طاق يطل على فناء الدار الكبيرة.

رزق الحبال شاب فى عشرينات العمر جاء إلى العزبة ضمن عمال تراحيل قدموا من كفر عبد الأمين القريب من السنبلاوين، جاء فى موسم جنى القطن فى وسية مكرم بشاى بك فى العام الماضى، وتلكأ فى العودة إلى قريته، لكنه غادر فى النهاية، ثم ظهر فى العزبة بمفرده هذه المرة، وانضم لعمال الوسية محترفا أعمال تمليس قنوات الأرض المعدة لزراعة القطن، وأعمال الحرث وغيرها من الأعمال التى تتطلب خبرات خاصة، وكان الفتى يعمل فى وسايا عدة، مثل وسية فودة فى طمبول القريبة من قريته ومن السنبلاوين، ووسية الإتربى فى أخطاب القريبة من أجا، وغيرهما من الوسايا المنتشرة هنا وهناك، ووجد فيه نافع النجدى زوج صالحة عونا له، فطلب من الشيخ زكريا استخدامه على نحو مستديم، ودون أن يأبه الرجل باعتراضات نسيم أفندى كاتب الوسية وضع الشيخ زكريا الفتى

فى حجرة من حجرات الوسية الملاصقة للمخازن، وألحقه بالعمل فى الحظائر والمعاونة فى أعمال الحرث والملس والتلويط، وصناعة الأحبال التى هى صنعته الأصلية.

كيف تفتق ذهن الشيخ سليمان عن حل لمشكلة ريحانة على نحو ما جرى، ذلك ما تفسره تلك العلاقة الشائكة والغريبة بين الشيخ سليمان وصالحة زوجة نافع النجدى، فهى قبل أى شىء تدين له بالولاء، لأسباب لا يعرفها الكثيرون، فهى أول أنثى يطلع على خبايا المرأة لديها، وعندما كف عن معاشرتها لما تزوجت نافع النجدى لم تخذله مرة واحدة، ظلت تحافظ عليه وعلى مصالحة، وتدين له بالولاء، وهو على علم بأنها ترافق سُلَيْمَة إلى الدجالين لتكسبه لصفها، ولكنه بسبب وجودها فى الموضوع لا يخشى من أفعال سُلَيْمَة، فطالما توجد صالحة فكل الأفعال تحت السيطرة، ولم يكن للشيخ من بد فى أن يلجأ إليها يسألها العون، فعرض الفتاة فى رقبته، وسترها واجب عليه.

رزق الحبال كان لا يزال حديث عهد بالعزبة، وبالكاد قضى أشهر قليلة فى حجرته الملحقة بمخازن الوسية، وكأنما أضاءت الحقائق طريق صالحة عندما سألها الشيخ سليمان البحث عن زوج للفتاة ريحانة، خشية أن يخطبها أحدهم فى الربع ويكتشف الأمر عند الدخلة، وهكذا استدرجت صالحة الشاب رزق، ومنته بدار فى دوار سيد احمد السرسى، وشاركها نافع نصح الفتى فانساق لرغبتهما، وذهب الشيخ سليمان إلى أهل الفتاة وخطبها، وتكفل سرا بكل مصاريف الزواج، فلقد ذهبت صالحة إلى سوق الأحد واشترت ما تحتاجه دار الفتى من حاجيات لازمة

للعرس، حصيرة جديدة من السمار، وحمل صوفى، ومخدة طويلة من قطن مندوف، وبضع أوان وطست كبير، وأمام باب الحجرة بنت كانونا صغيرا، وعزمت على أن تشاركها العروس الجديدة الفرن الذى سبق وأقامته لنفسها قريبا من المكان، وليس أوسع من الغيطان التى تفتح عليها الحجرتان لتكون مسرحا لقضاء الحاجات.

بقيت مشكلة، وصالحة هى أقدر الناس على تجاوزها، فعند دخول رزق على عروسه لا بد سيعرف أنها ليست عذراء، وتعهدت صالحة للشيخ سليمان بأن تأخذ وجه الفتاة بنفسها، على عادة ما يفعلون فى العزبة، وفى كل القرى فى ربوع البلاد، فهى بالنسبة لأهل العزبة الماشطة التى تساعد العريس فى أخذ وجه عروسه، وتنقلها من البكارة إلى الزوجية بأقل مجهود، ولكن ما الحال إذا رفض رزق هذه الخطة، عليها إذن أن تعده لتقبل الأمر دون أن يشعر بأنه مدفوع إلى ذلك، وتكفل بالأمر زوجها، الذى صحب الفتى إلى الغيطان ذات أصيل، وسأله إن كانت له خبرة بالنساء، ولما أنكر الفتى علمه بتلك الأمور نصحه نافع بترك ذلك الأمر الشاق لصالحة.

وجاءت الليلة المشهودة، فبعد أن حمل الهودج الفتاة إلى حجرتها، فيما فرقة الهباب تدق الطبول وتنفخ فى المزامير، وعلى جانب الطريق المؤدى لحجرة العرس نصب الشيخ سليمان سماطا متواضعا، نال فيها أهل الفتاة حظهم من الطعام، وفيما هم يتناولون الطعام أدخلت صالحة الفتاة إلى حجرتها، كانت كالفرخة المذبوحة تترنح من فرط الخوف، ولا تكاد تعرف ما يجرى، وقبل أن يدخل رزق إلى الحجرة أمسكت صالحة

بصرصور أذنها، وصبت فى أذنيها نصائحها:

– عندما أدخل إصبعى فيك أطلقى صرخة ينخلع لها قلب أبيك فتسقط اللقمة من فمه

وفركت شحمة أذنها وهى تسأل:

– مفهوم؟

وأجابت الفتاة متألمة:

– مفهوم

وهجع طائر الخوف فى نفسها، فلقد أعدوا كل شىء ليمر الأمر بسلام.

وكانت عندما أدخلت العروس إلى غرفتها قد تركتها وتوجهت إلى غرفتها المجاورة، وأمسكت بسكين وجرت به على رقبة دجاجة، واجتهدت لمنع صراخها، ومن دم الدجاجة ملأت قارورة صغيرة بحثت عنها كثيرا فى الأيام الفائتة حتى عثرت عليها، وسدت فوهتها بسدادة من خرقة بالية، ثم دستها فى صدرها ليحتفظ الدم بحرارة جسدها فلا يتخثر، وقبل أن تمر دقيقة عادت لحجرة العروس مصطحبة العريس الذى كان مرابطا عند باب الحجرة، وتنادى الجميع ليحضروا أخذ عرض العروس فاجتمع الشبان والفتيات أمام الباب، وتناهى إلى أسماعهم صوت صالحة وهى تسب العريس وتأمره بالتنحى لتقوم مقامه بما هو مطلوب، لقد اطمأنت صالحة من زوجها إلى أن الفتى لا يعرف من أمور النساء شيئا، ولما وضعته فى مواجهة عروسه ونحت عنها سروالها وأمرته بالتقدم ليفلحها

جفل، وكانت عورة الفتاة ظاهرة كدجاجة مقلية، إذ كانوا قد أزالوا شعر عانتها بتراب الفرن الذى ألهب بشرتها، وأمام العورة المكشوفة تراجع الفتى إلى الوراء، وكانت الفتاة المستسلمة تشعر كأنها مقدمة على الموت، ولما زعقت فيه صالحة وأمرته بالتنحى لتنهى المأمورية أفسح لها، وبسرعة البرق أخرجت القارورة من صدرها، وسكبتها على قطعة دبلان بيضاء أعدتها خصيصا للشهادة على العرض، وواكب ذلك إدخال إصبعها فى فرج الفتاة، التى أطلقت صرخة ارتجت لها أركان العزبة، وانطلقت زغرودة طويلة من فم صالحة، ورفعت قطعة الدبلان البيضاء مجللة بالدم الأحمر الغزير فى وجه العريس، ثم تركت الفتاة المرتجفة لعريها وخرجت للمتحلقين من حول الباب.

النساء المتحلقات عند الباب جاوبنها بالزغاريد، والرجال هم أيضا جاوبوا بالصياح، أما الفتيان فقد جاوبوا بالصافرات التى تصم الآذان، وانطلق الغناء:

شوفوا دم البنت الفلاحة

أحمر زى التفاحة

شوفوا دم البنت الفلاحة

وتخطفوا قطعة القماش المجللة بالدم حتى وصلت إلى أم الفتاة فقبضت عليها ولم تفلتها، ستأخذها إلى قريتها لتريها لكل من تجرأ يوما وتناول ابنتها بسوء، وكانت صالحة قد عادت إلى حجرة العروس فوجدتها منكمشة فى الركن كدجاجة مذبوحة، وفى الركن المقابل يجلس رزق

الحبال ذاهلا ومستثارا، فعروسه برغم خوفها وشحوبها أجمل مما تمنى فى كل أيام عمره، وجسدها الذى انكشف أمامه ينبئ عن حياة جميلة قادمة، يتمنى أن تطول إلى الأبد.

الآن يستطيع الشيخ سليمان أن ينام قرير العين، ففى النهاية رست حكاية عبد الماجد يوسف إلى شاطئ، بفضل تدخله لدى الممرضة الأرمنية، وبفضل صالحة التى إذا أراد أن يكافئها عن جميلها فى حق دار سيد احمد السرسى لن يقدر، وجاءه من بعيد صوت سُلَيْمَة، يسأل عن سر اهتمامه بالعرس، وأبدت اعتراضا على احتفاله بعرس الفتاة التى حاولت أن تدخل الفضيحة إلى دار الكرام، لكن صوتها القادم من بعيد رغم نومها إلى جواره لم يكن يغرى بالرد، فهو أدرى الناس بزوجته، وهى فى النهاية لا تعنى إلا أنها لا تصدق حكاية الكشف على بكارة الفتاة ونتيجته، فكل حرف من أحرف كلماتها الآتية من بعيد يفضح مكنونها ومقصدها، ويفضح أيضا رغبتها فى أن يفهم قصدها على حقيقته، تبلغه أنه ليس أكثر ذكاء منها، وأن دار سيد احمد السرسى لم تستقدم امرأة فى حسبها ونسبها، وجمالها، ولكن الشيخ سليمان دخل فى النوم دون أن يبادلها كلمة واحدة.

لقد أخذ المواثيق على صالحة كيلا لا تخبر سُلَيْمَة بسرهم، وهو على يقين من أنها ستفى بوعدها، كما وأبعد قطب عن الدار ليلة العرس، بإرساله محملا بهدايا كثيرة إلى عمته الست فى سرسنا فى مديرية المنوفية، ويسلمها صافى ريع أرضها التى يشرف على زراعتها، وهكذا اطمأن إلى أن كل شىء يدور فى طريقه المرسوم، وكادت شكران أن تفسد كل شىء

عندما أرسلت فى طلب الإذن بتقديم الهدايا للعروس، و لم تكن الشىء الهين، فلقد أعدت من أجلها برميلا مملوءا لحافته بالدقيق، وجوال أرز أبيض كاملا، وقفة مليئة حتى حافتها بالكعك والبسكويت والحلوى، وزراوية سمن بلدى كاملة، وبلاص جبن قديم وتربية بط توشك على أن تكون صالحة للذبح، وغيرها من الأمور التى تفصح عن امتلاك الفرحة كيانها كله، فلم تعد تحرص على شىء، فهى لا تصدق أن الغمة قد انزاحت عن دارها، لكنه لم يأذن لها بإرسال كل تلك الأشياء، وأمر بأن ترسلها تحت جنح الليل إلى داره ليتولى هو أمر توصيلها للعروس فى حجرتها، فلقد خشى إن طلب إرجاء الأمر إلى حين أن تبرد همتها وترتد إلى طبيعتها فتمتنع فى النهاية عن إرسال الهدايا، وقبل أن يؤذن للفجر أدخلت صالحة كل الهدايا إلى حجرة العروسين ومثلها إلى حجرتها، فلقد أمر الشيخ على أن تجهز شكران هدايا مماثلة لدار نافع النجدى وصالحة.

لم ينم رزق الحبال فى تلك الليلة، وعندما طرقت عليهم صالحة الباب أسرع بفتحه وطلب عونها، فزوجته التى نزفت كثيرا صارت شاحبة، وهو يخشى عليها، لكن صالحة طمأنته، والتفتت إلى الفتاة التى تتكوم فى ركن الحجرة، كانت شاحبة بالفعل كأنها تعانى النزيف، وضحكت فى سرها وهى تطلب من رزق المعاونة فى إدخال الهدايا الدار، قالت إنها هديتهما من الشيخ سليمان، و لم يشأ أن تكون ظاهرة على رؤوس الأشهاد، ودب الحماس فى جسد رزق فأسرع إلى الأشياء يحملها إلى داخل الحجرة، وأطلق البط فى بحراية الحجرة، لكنه سرعان ما اقترب من بعضه البعض وانزوى فى أحد الأركان، وبعد أن اطمأن إلى دخول كل شىء جلس ينظر

إليها بانبهار، فداره التى لم تكد تبدأ مشوارها عامرة بأشياء لم يكن ليحلم مجرد الحلم أن تجتمع لديه ذات يوم.

لم تسلمه ريحانة نفسها إلا فى الليلة التالية، تماما كما نصحتها صالحة، توجعت وجفلت مرات كما أفهمتها، واسترحمته ليتركها حتى يندمل جرحها، وهو ما دفع رزق إلى معالجة الأمر بحنو شديد، متعلقا بوجهها وعينيها ليرى إن كان يؤلمها، وإذ هو يفعل دخل فى قلبها و لم يخرج، فلقد نظرت فى عينيه وهو مقبل عليها، ورأت فرحته بها تطغى على كل شىء آخر، وعندما جفلت تحته وتألمت انسحب إلى الوراء، ممزقا بين رغبته فيها وخوفه عليها، لكنها لم تشأ أن تفسد ليلته بأكثر مما فعلت فاستسلمت له، وبطريقة خفية مكنته منها فانطلق يجأر بالفرحة فى سماء الدهشة التى غمرت أعضاءه بالنشوة.

وعادت عزبة السرسى إلى سيرتها الأولى، والأحاديث التى دارت فى مختلف الدور سرعان ما بهتت و لم تعد تجذب الناس للخوض فيها، فإذا كانوا يظنون أن تدبير الشيخ سليمان السرسى كان من وراء تزويج ريحانة من رزق الحبال للتغطية على فعلة عبد الماجد فإن ريحانة أصبحت زوجة رزق بالفعل، ولا جدوى من الحديث فى الأمر بعد أن شاهد الناس كلهم منديل عرضها وهو ملطخ بدم بكارتها، ولا مجال للتشكيك فى ذلك الأمر، فرزق فتى طيب، يعمل بهمة فيما يوكل إليه من عمل، فى الوسية وفى دوار الشيخ سليمان السرسى، وهو يحب ريحانة وهى تحبه، وعلى مدى أسابيع هى عمر زواجها منه لم يأخذوا عليها تصرفا واحدا، أو حتى كلمة.

سُلَيْمَة لم تكن لتترك الأمر يمر مر الكرام، فحاولت أن تستدرج صالحة للحديث، لكن صالحة رفضت الخوض فى عرض الفتاة التى تأكدت من بياضه ونصاعته بنفسها، وبرت بوعدها للشيخ سليمان، و لم يكن قطب فى العزبة حتى تستدرجه للحديث عما تريد أن تعرف، فهو لدن أقاربهم فى سرسنا فى المنوفية، ويبدو أنه لن يعود قريبا، وكان الطبيب قد أزال الجبس عن رجلها فقادتها قدماها إلى دار الجدة مريم، علها تنعم بخبر فاتها، أو كلمة تزيح الستار عن حقيقة غائبة، أو حتى سؤال يدلها على أنها وحدها ليست المتشككة فى الأمر، و لم تكن الجدة مريم وحدها، فرئيفة تقوم على ترتيب الدار، فيما طفلها الصغير يلعب إلى جوار جدته، و لم تجد ما تأخذه على استقبال الجدة لها فجلست إلى جوارها، ومدت يديها بتلقائية لتدلك لها قدميها، كما تحب.

الجميع كانوا يتحدثون عن رغبة هاشم حفظى باشا الحاصل لتوه على لقب الباشوية فى تزويج الشيخ سليمان من إحدى بناتهم، وتناقلوا الأخبار عن أن الفتاة المقترحة تدعى فوزية، وهى ابنة محمد حفظى بك، شقيق الباشا، وهى تصغره كثيرا، لكن سُلَيْمَة لم تكن قد سمعت شيئا من ذلك، فالجميع يتحاشون الحديث فى حضورها، وصالحة نافذتها على ما يدور هنا أو هناك كانت مشغولة حتى أذنيها فى تدبير زواج رزق وريحانة، أما قطب فإنه منذ رحلت أمينة الجمل وانقطعت هى عن الاستعانة به فى قضاء حاجاتها لم يعد يحفل بنقل الأخبار إليها، بل إنه لم يعد يعاملها كما كان يفعل، و لم تعد ترى فى عينيه تلك الرغبة الحارقة فى البقاء معها.

لذا فإنها لما مالت الجدة مريم على أذنها وقالت: "حاجى على طيرك

يا سُلَيْمَة، فالباشا يريد أن يزوجه ابنة أخيه" اندق مسمار فى ظهرها فلم تقو على الوقوف، وضربت بيديها فوق صدرها وشهقت، لم ترها الجدة مريم بالطبع، لكن الشهقة التى جلبت رئيفة من صحن الدار أنبأت بحجم الصاعقة التى نزلت على رأسها.

نقلوها إلى الدار الكبيرة وهى بين الغياب والإدراك، استعانت رئيفة بشقيقتيها سكينة وأمينة، ونادت على ريحانة وصالحة التى هبطت من السطح وعبرت الفناء إلى دار الجدة فى لمح البصر، كانت سُلَيْمَة ملقاة على الأرض فوق الحصيرة المفروشة، ولا ينبئ عن صلتها بالحياة إلا نفس واهن يخرج ويدخل من فمها المفتوح وأنفها الأحمر الدقيق الذى يشبه ثمرة فراولة ناضجة، و لم يكن الشيخ سليمان موجودا حتى يعرفوا كيف يعالجون الأمر، فإذا كان ما أصابها هو الفالج فإن الإسراع بعرضها على الطبيب يكون واجبا، وأخذوا بعض الوقت فى البحث عن أبنائها.

لم يستطع أى من الأبناء أن يخمن ما حدث، فأمهم شاخصة إلى السقف ذاهلة عما حولها، والدمع يتحجر فى عينيها، وإلى جوارها تمسك ابنتها زينب بيدها وتبكى، ريحانة تمد يدها لتدلك صدرها، وصالحة تربت على كتفها، فهى تخمن ما حدث، وبدلا من أن تفعل كما تفعل الأخريات اقتربت من أذنيها وأسرت لها بكلمات تعرف أنها فى أمس الحاجة إليها، لكن الزوجة المكلومة كانت على يقين من أن ما قالته الجدة مريم هو الحقيقة، فحدسها حذرها من مثل ما سمعت، لكنها ضربت بحدسها عرض الحائط، وصمت أذنيها عن ندائه، كل ذلك كان يدور هناك فى رأسها المترع بالهم وهى شاخصة لسقف حجرتها، لكنها

عندما قدم أخاها هبت جالسة فى سريرها، وبكلمات مهشمة الأحرف طلبت أن يأخذها إلى دار أبيها.

عبثا حاولوا إثناءها عن رغبتها فى الذهاب إلى دار أبيها، لكنها بكت بين أيديهم وأخبرتهم أنها لا تتحمل أن يكسر زوجها قلبها مرتين، ولأن أخاها كان على علم بما تلوكه الألسن من أخبار فلقد التزم الصمت ريثما تنتهى ثورتها وتعود إلى هدوئها، وساعتها يرى إن كان سيأخذها إلى داره فى عزبته أم يذهب بها إلى أقاربهم فى الزقازيق، حتى تنجلى الأمور وتتضح الحقائق، ومن باب الاحتياط طلب من ابنتها زينب أن تعد ملابس أمها التى ستأخذها معها إن هى غادرت، ولما تلكأت الفتاة قام هو بنفسه ليبحث فى الصوان عن ملابسها، ولم تهدأ سُلَيْمَة إلا عندما رأته يبحث بنفسه عن ملابسها.

ترفض سُلَيْمَة أن تكون كشكران زوجة الشيخ يوسف السرسى، صحيح أنها أخطأت عندما عملت على إبعاد الجدة مريم عن شئون الدار الكبيرة، لكنها منذ أدركت خطأها وهى تحاول تداركه، ويكفيها أنها لاقت الأمرين من الجدة مريم وبناتها حتى قبلن بها بينهن، وتجاوبن مع رغبتها فى تحسين العلاقة معهن، لكن شكران تمردت على كل شىء، وأطلقت لرغبتها فى الاستئثار بزوجها العنان، وها هى أخذته بكليته إلى بلد أبيها وأمها، إذن هى لا تستحق أن ينظر إليها السراسوة بمثل ما ينظرون إلى شكران، نظرة الشامت لما يحدث لها، فلقد سمعت بأذنيها شماتة الناس فى شكران لما افتضح أمر ما فعلته فى دار حسانين الضبع، بل وفى الشيخ

يوسف السرسى نفسه، وكذلك لما انفضحت علاقة ابنها بخادمتهم، وهى ترفض أن ترى نفس المعنى فى نظرات السراسوة الذين تقاطروا على الدار ليقفوا على حقيقة ما سمعوه عن سقوطها مفلوجة.

لم تفارق ريحانة قدمى سيدتها، ظلت تمسك بهما وتدلكهما بحنو وتبكى، تماما كما تبكى زينب، فلقد فت فى عضدها نحيب الفتاة التى استوى عودها، وتأثرت بالارتباك الذى يرسف فى أغلاله أبناؤها، وزاد من تأثرها الارتباك الذى بدا على محيا شقيقها وعلى تصرفاته، فالرجل الذى لا يدرى كيف يتصرف يقف ويجلس طوال الوقت، فلا هو بالواقف ولا هو بالجالس، وعندما تنتفض أخته يقف قليلا ويتجه نحو باب الدار، لكنه سرعان ما يعود إلى مقعده إلى جوار سريرها، أمله أن يدركه الله بعنايته ويصل صهره قبل مغادرته وأخته معه.

لم تدرك سُلَيْمَة أن الجدة مريم فى حجرتها إلا عندما هب الجميع وقوفا لحضورها، وقبل أن تتهيأ للنزول من السرير أقسمت عليها الجدة لتبقى فى مكانها، وأخلى لها عقيل مقعده المجاور للسرير، لكنها طلبت أن يساعدوها لتصعد إلى السرير النحاسى العالى، وهكذا ساعدت ريحانة وصالحة وزينب فى رفعها إلى السرير، وما أن اطمأنت إلى استقرارها فوق السرير ومدت راحتها لتتأكد من حسن جلوسها فوقه حتى وضعت يدها على رأس سُلَيْمَة وراحت تتلو أورادها ورقيتها، علها تبرد رأس الزوجة المكلومة، التى يرغب زوجها فى الزواج عليها للمرة الثانية، وقبل أن تبدأ النسوة فى التغامز والهمس طلبت من الجميع أن يتركوها وحدها مع سُلَيْمَة.

لم تبح سُلَيْمَة أبدا بما دار بينها وبين الجدة مريم فِي ذلك الأصيل البعيد، و لم تتطرق إليه الجدة مريم فى حكاياتها التى كانت تُجلسُ أحفادها لتحكيها لهم، لكن سُلَيْمَة بعد ذلك اللقاء لم تعد هى سُلَيْمَة التى كانت قبله، فلقد وجدت سلواها فى التواصل معها، بل وزيارة رئيفة فى دارها، وأسعدتها الصداقة التى انعقدت بين ابنها الثانى مختار وبين ياسين ابن رئيفة الأكبر، بل إنها راحت تتردد على دار أمينة وتقضى عندها بعض الوقت، وصارت المرأة التى لم يكن يراها السراسوة إلا لماما معروفة لكل أفراد العزبة، من السراسوة وغيرهم، و لم تعدم دور الضبوعة وبعض دور الطوايخة زيارات المرأة التى قررت أن تنصهر فى حياة العزبة.

لم تغادر سُلَيْمَة دارها، وحمد شقيقها للجدة مريم انفرادها بأخته، إذ بعد أن انفتح الباب ودُعُوا للدخول كانت سُلَيْمَة هادئة ومستسلمة، وعندما سألها أخوها إن كانت مصرة على مغادرة الدار أجابته:

– لن أترك دارى لأحد يا كبير السراحنة

كان فى صوتها تحد لم يسبق أن لاحظه، كأنها قررت أن تكون مقاتلة، وكما حكت رئيفة بعد سنوات عديدة فإن الجميع أدركوا فى ذلك اليوم البعيد أن سُلَيْمَة بعد انفراد الجدة مريم بها تغيرت تماما، وقررت أن تلتفت إلى أبنائها ومصالحهم، وإلى إبنتها زينب التى دخلت فى سن الزواج و لم يتقدم أحد لخطبتها بعد، وكانت على استعداد لأن تتحدى زوجها من أجل أبنائها، حتى ولو كان الثمن هو غضبه، فالغضب لا يغير من الأمر شيئا.

فى تلك الليلة البعيدة غاب الشيخ سليمان عن داره، أرسل بإبلاغهم أنه سيقضى يومين فى المنصورة بسبب اجتماع لجنة الوفد، سيبيت لدى أصهاره السابقين من جماعة الجمل، ولاحظت سُلَيْمَة لأول مرة أن الصبى محسن ابن زوجها من المرحومة أمينة الجمل ليس موجودا، إذن فقد اصطحبه أبوه لزيارة أخواله وقضاء اليومين معهم، ولأن الصبى يكون طوال الوقت عند الجدة مريم، أو بصحبة أبناء رئيفة فإنها لم تلحظ غيابه، واغتنمت الفرصة لتجتمع بأولاها وتتباحث معهم حول ما سيكون إذا ما صدقت أقاويل الناس، من أن أباهم فى طريقه للزواج من ابنة محمد حفظى بك، شقيق هاشم حفظى باشا.

اكتشفت سُلَيْمَة كم كانت لاهية، ولا ترى الأمور على حقيقتها، لقد فسد إبنها حمدان تماما، وها هو مقبل على سن الزواج ولا يفعل شيئا، فإقناعه بالسروح إلى الغيط لمباشرة مصالح أبيه يحتاج منها ومن أبيه إلى مجهودات جبارة، فهو يرفض القيام بأى عمل، وما لم يتوتر أبوه ويقسم ليطردنه من الدار إن هو لم يفعل لا يقدم على شىء، وليته يجيئ من سروحه بما يسر القلب، بل هو يعود وفى أعقابه تتقاطر المصائب، فالفتى الجميل الطلعة، الذى أخذ عنها بياض البشرة ونضارتها، والعينين الرماديتين الساحرتين، وأخذ عن أبيه ملاحة الوجه ورشاقة الجسد، لا يكف طوال الوقت عن ملاحقة النساء، ولا يمتنع عن أى واحدة كانت، فكم أغمضت عينيها عما يفعله فى حجرة العجين مع فكيهة؟!، وكم تعامت عن ملاحقته فتيات الغيطان، وحتى بنات السراسوة اللائى يأتين إلى الدار الكبيرة لسبب أو لآخر.

واكتشفت أيضا أن ابنها الثانى مختار لم يعد يعيرها أى انتباه، فكما قال لصديقه ياسين ابن رئيفة والشيخ عمر هى لا يعنيها إلا أمر واحد، كيف تسترد أباه وتمنعه من تكرار تجربة الزواج عليها، ولا تفعل شيئا غير ذلك، أما ابنها الثالث سليم فهو لا يزال طفلا، لكنه يظهر نجابة فى الكثير من الأمور، لكنها لم تنتبه إليه أبدا، وكذلك أبوه، الذى لا يعيره هو وأخوته الانتباه، أللهم إلا محاولة دفع حمدان إلى المشاركة فى إدارة أطيانه. بقى طفلها الرضيع عبد العزيز، الذى يجلس بين أمه وأخوته، مستشعرا خطورة الوضع على نحو غامض، ومستعدا للانخراط فى البكاء إذا ما تجهموا بأكثر مما تطيق نفسه الصغيرة.

لكن زينب هى من تبعث الغضب فى نفسها، إذ كيف تركتها تكبر هكذا دون أن تلتفت إلى متطلباتها، إنها لا تفعل مثلما تفعل بنات شكران، فلا أدوات للتجميل ولا أنواع الصابون التى تنظف وتجمل، ولا الفساتين التى تشترى من أرقى المحلات فى المنصورة و"مصر"، ولا الأحذية العالية التى تظهر الفتاة فى أجمل صورة، كل ذلك كانت لاهية عنه، لا يعنيها إلا أمرها مع زوجها، كيف تسترده كاملا وتستخلصه لنفسها، فلا يعود يفكر فى الزواج من امرأة أخرى، الآن عليها أن تعترف بأنها أهملت أبناءها، وتركتهم يكبرون كيفما اتفق، فلا أبوهم أعطاهم خبراته، ولا هى فعلت، فشبوا كما تراهم الآن، كل فى طريق.

تعرف سُلَيْمَة أن السباق بين أبنائها وأبناء شكران انطلق منذ زمن، وفيما يتقدم أبناء شكران ينغمس أبناؤها فى اللهو والكسل، وفى النهاية، سيكون لكل واحد من أبناء شكران أرضا وعقارا أكثر مما لدى أبنائها،

والخطأ فى النهاية لا يقع على أبنائها، فهى لم تحفزهم ليفعلوا كما يفعل أبناء شكران، ففى الوقت الذى لا يعود فيه أبناء شكران من الغيطان إلا بعد غروب الشمس كما يفعل أبوهم، ها هم أبناؤها لا يستيقظون من النوم إلا مع الظهر، كما يفعل أبوهم، وإذا كان أبناء شكران يرفضون أن يتركوا أعمالهم لعمال أبيهم فإن أبناءها لا يفعلون شيئا، ولا يكلفون خواطرهم حتى متابعة ما يفعله العمال.

كل ذلك قالته سُلَيْمَة فى اجتماعها بأبنائها فى تلك الليلة البعيدة، مستغلة غياب زوجها والتوغل فى قلب الليل، أتراها تلقت نصائح من الجدة مريم بالالتفات إلى أبنائها وهدايتهم إلى صوالحهم؟!، أم تراها أفاقت بعد أن عرفت أن معركتها لاسترداد زوجها تبدأ من أبنائها؟!، وانقلب الأبناء إلى مشاركين نشطاء فى اجتماع هو الأهم فى حيواتهم كلها، لكن حمدان كان قلقا، ويريد أن ينتهى الاجتماع فى أقرب وقت، ولاحظت أمه ذلك، وفوجئ بها تقول له:

– إن كان هناك من سيفسد هؤلاء الأولاد ويخيب أملهم فهو أنت

وصعقه قولها فضرب صدره بيده:

– أنا؟!

فأجابته دون تردد:

– نعم أنت

وكانت على استعداد لأن تواجهه بكل ما يفعل، حتى بما يفعله بفكيهة وغيرها من النساء والبنات، بيد أنه لذكاء متأصل فى طبعه أدرك أن أمه

متأهبة لخوض الشوط حتى نهايته فأطرق إلى الأرض يغمغم، واستفزتها غمغماته فصرخت فيه:

– أسمعنى ما تقول يا كبير أخوتك

فنظر إليها بعينين حائرتين، وتساءل فى نفسه: أهذه أمه؟!، أهذه سُلَيْمَة ابنة الشيخ سرحان كبير الفوايد؟!.

عاد الشيخ سليمان من المنصورة فوجد الدار مختلفة، وسُلَيْمَة التى كانت تتهلل للقياه وهو عائد من سفره ليست هى التى استقبلته بترحاب فاتر هذه المرة، أما أبناؤه فهم فى الدار منشغلون بترتيب الفناء وتجديد أعشاش الحمام وإصلاح خزائن الدواجن، فكأنه دخل دارا غير داره، ولم يطق محسن الانتظار فانطلق صوب دار الجدة مريم يخبرها بعودته، ووجدها الشيخ سليمان فرصة ليسأل:

– أكل شىء على ما يرام؟!

وأجابت سُلَيْمَة بشىء من الفتور:

– إنه ما ترى

فأدرك أن شيئا ما تغير، وأنه لن يستطيع أن يأخذه من فم زوجته الآن، ورأى أن يقصد إلى حجرة نومه ليغير ملابسه، فأبناء أعمامه سرعان ما سيتقاطرون ليرحبوا بعودته، وليعرفوا ما جرى فى اجتماع لجنة الوفد فى المنصورة، وعما إذا كان الوفد سيشكل الوزارة عما قريب.

على عكس ما كانت تفعل كل مرة لم ترافقه سُلَيْمَة إلى حجرته، واضطر للنداء عليها لتوافيه هناك، سائلا عن ملابسه الداخلية التى سيرتديها،

وقفطانه النظيف، وجلبابه المعد، ومناديله النظيفة، وغيرها من الأغراض، فهو لا يخرج لملاقاة أقاربه إلا وهو فى أبهى زينة، ولما دخلت عليه كاد يسألها عما بها، لكنه آثر الانتظار، فالوقت سيكشف له كل شيء، ولما وضعت ملابسه على السرير وهمت بالخروج من الحجرة لاحظ أنها تتعمد عدم النظر فى وجهه، كأنها تخشى أن تلتقى عيناهما، وللمرة الثالثة كاد يسبقه لسانه، لكنه أمسكه والكلمات تتقافز عند طرفه.

بادرته وهو فى طريقه إلى المندرة بقولها:

– لو أخبرتنى أنك ذاهب إلى المنصورة لطلبت مرافقتك أنا وزينب

فسألها مندهشا:

– لمَ؟!

أجابته وهى تنكفئ على جلباب لأحد أبنائها تثبت أزراره:

– أولا ترى أن ابنتك كبرت بما فيه الكفاية؟، وأنها فى حاجة إلى ما تحتاجه البنات فى مثل عمرها؟!

تلك اللهجة لم يسبق أن لحظها فى حديثها إليه من قبل، وتساءل وهو يواصل عبور الصالة فى طريقه إلى المندرة إن كانت هذه هى سُلَيْمَة التى فارقها ليومين، ولم يرد أن يترك سؤالها بغير إجابة، فقال وهو يواصل المضى:

– فليكن فى الغد إذا شئتِ، فهى فى حاجة لأن تكون فى أبهى زينة عندما يأتون لقراءة فتحتها

وابتسم وهو يمضى فى طريقه، لكم تمنى أن يرى وجهها وهى تنصعق

بالخبر، فإذا كانت تخفى عنه شيئا، فهو أيضا لديه الكثير مما لا تعرفه.

لم تدعه يمضى إلى طريقه بعد أن فجر فى وجهها مفاجأته، أسرعت لتلحق به، وسدت عليه الطريق، وجذبته إلى داخل الدار من جديد، وبعينيها الرماديتين اللتين تخفيان الكثير، وبوجهها الصبوح الذى تعكر روقانه أسرار جديدة سألته بغير كلمات، فأجابها وهو يبتسم:

– عمى الشيخ يوسف كلمنى منذ أيام

وانتظرت أن يتم حديثه، لكنه لم يفعل، فغامت نظرتها قليلا، ترى لمن يطلبها الشيخ يوسف؟!، ألعبد الماجد الذى اتهم بالاعتداء على ريحانة؟!، أم لرفقى الذى ينشغل فى دراسته فى المنصورة، والذى هو فى الحقيقة مجرد صبى، أم لإسماعيل الذى يصغرها فى العمر؟!، و لم يخطر على بالها أبدا أن يكون قد طلبها ليحيى، لتعيش ابنتها مع زوج معوق طوال العمر، وتحدث الشيخ فى النهاية:

– قال إنه يريدها زوجة ليحيى

ودبت على صدرها:

– يا حزنى! يحيى!؟

فأجابها وهو ينتفض قائما:

– نعم يحيى

ورفع سبابته فى وجهها:

– هو أحسن أبناء عمى تربية وأخلاقا، وإذا طلبها له أبوه أجهزها وأصيغها وأرسلها إليه بغير مهر وانطلق ليلحق بأقاربه الذين ينتظرونه فى المندرة.

مواطن للبهجة.. وأخرى للحَزَن



حفل عرس زينب ويحيى مر كشىء عسر، بالغت الدار الكبيرة فى الابتهاج به لتغطى على حزن زينب، واعتراض سُلَيْمَة وأبنائها، وبخاصة حمدان، الذى لم يفلت الفرصة ليشعر أمه بأنه واقف إلى جانبها، حتى إذا تعلق الأمر بشىء يخالف إرادة أبيه، لكنه فى قرارة نفسه كان متألما، فيحيى ليس مجرد قريب سيكون زوج أخته، ولكنه شخص رقيق الحاشية، يشع وداعة فى أى مكان يوجد فيه، لم يأخذ من أبيه أو أمه أية خصال، وهو واثق من أن أخته زينب إذا ما تجاوزت عاهته فستكتشف رجلا رقيقا وزوجا رائعا، وسيمضى فى حياتها كأنه ملاك.

اكتشفت سُلَيْمَة أن زوجها يمتلك قدرة على كظم الغيظ لم تؤت لإنسان، وأنه يتمتع بطول بال يحسده عليه دعاة الصبر، وذلك عندما خطط لاستيعاب اعتراضاتها هى وحمدان، فلقد أعطاهما كامل انتباهه، واستمع باحترام لكل اعتراضاتهما، كل ذلك وزينب منزوية هناك، فى ركن الصالة، يخيم عليها حزن يكسر قلبها، وقلب أبيها، مكتفية بتقليب بصرها بين وجه أبيها ووجهى أمها وأخيها حمدان، لكنها فى قرارة

نفسها كانت مشفقة على أبيها، وتشعر على نحو أو آخر أنه واقع فى مأزق شديد، فهو آخر رجل فى الدنيا يستطيع أن يرفض يحيى لعاهته، لذا فإن نظرته المتبهة لما تقول أمها شردت قليلا، ولحظة عودتها مرت بعينيها كأنها تستنصرها، لذا فإنها ما أن انتهت أمها من اعتراضاتها، وقبل أن توجه إنذارها الذى أعدته على مضض، والتى أطلعت عليه أبناءها جميعا، والمتعلق بعزمها مغادرة داره إن هو أصر على هذا الزواج، قبل أن تفعل أمها ذلك وقفت وهى توجه لأمها نظرة معتذرة، وتعلقت العيون بها وهى تقول:

– أنا موافقة على الزواج من عمى يحيى

وكانت تناديه بما قالت، إذ هو ابن عم أبيها، وعندما قالت ذلك قام أبوها وأخذها فى حضنه، ولم يخجل عندما جرت دموعه فى حضور زوجته وأبنائه.

بالغوا فى تجهيزها بصورة تدعو للعجب، فالرجل الذى أنصفته ابنته أمام أمها وأخوتها أقسم ليجهزنها كما لم تجهز ابنة من قبل، وكان الشيخ يوسف السرسى قد دفع مائة جنيه كاملة مهرا، فضلا عما يقارب النصف كيلو جرام من المشغولات الذهبية كشبكة، لكن الموبيليا والمفروشات التى جهز بها الشيخ ابنته فاقت كل تصور، أما ملابس العروس فقد طلب هاشم حفظى باشا من الشيخ إحضار ابنته إلى "مصر" حتى تخرج مع بنات الأسرة لانتقاء ملابسها، ولما علمت سُلَيْمَة كادت تصرخ محتجة، لكنها قبلت بالعرض شريطة أن ترافق ابنتها فى مشوارها إلى العاصمة،

وهكذا واتتها الفرصة لترى فوزية ابنة محمد حفظى بك التى يشاع أنهم سيزوجونها لزوجها.

طلب الشيخ من عمه أن يولم بما يكفى لإطعام السراسوة جميعا، عيالهم قبل رجالهم، وبناتهم قبل نسائهم، ووافقت شكران على مضض، وغمغمت مليكة، فها هم أبناء سيد احمد السرسى لا يتركون فرصة إلا ويتوددون فيها إلى أقاربهم، الذين يحقدون عليهم ويحسدونهم على ما فى أيديهم، ولا يتورعون عن الخوض فى أعراضهم، لكنها كانت قد اعتادت الاختباء خلف عمرها حتى لا تثير غضب إبنها، الذى لا ينفك يستعطفها لتدعه لمصالحه، وحنق شكران اللعينة، التى لم تجد من بين نساء العالم من تختارها له إلا هى، والتى أنجبت له أورطة أبناء ليستعصى عليه التخلص منها.

حمل التختروان العروس إلى الربع، مسير ساعتين، وعلى حصان أبيض رافقها يحيى، مرتديا جلبابا صوفيا فخيما، أسفله قفطان أبيض مقصب بخيوط الذهب، وفى القدمين يضع حذاء بنيا من جلد الغزال، صنع خصيصا له، بمعرفة صانع دمياطى شهير يدعى "أبو" طوق، اعتاد أبوه والشيخ سليمان والشيخ زكريا أن يصنعوا لديه أحذيتهم، واخترق الموكب المقاطعة وتمى الأمديد ثم انعطف يسارا فى اتجاه الربع، ترافق الموكب فرقة الهباب الموسيقية، بمزاميرها وطبولها وآلات النفخ النحاسية العجيبة، أبواق تطلق أصواتا جبارة، واستحال ليل المنطقة إلى نهار، أضاءته المشاعل التى حملها السراسوة وهم فى طريقهم لتوصيل زينب إلى

دار عرسها في الربع، و لم ير أحد أبدا متى وضعوا يحيى فوق الحصان ولا كيف أنزلوه من فوقه.

توغل الليل وهدأت دار الشيخ يوسف السرسى، وكانت شكران قد فرضت طوال اليوم على الجدة مليكة حظرا من نوع فريد، أعطتها مسئولية الحفاظ على غرفة الحلوى التى أعدها الطباخ، وانشغلت الجدة بالحلوى ومفتاح الحجرة، ولم تتمكن أبدا من متابعة ما كان يجرى، على مدار اليوم بطوله، لكنها عندما اقترب موكب العروسين تركت كل شيء وخرجت لتشاهد الموكب مع المشاهدين، كانت مجرد واحدة من بين عشرات احتشدوا ليروا عروس يحيى، من السراسوة ومن أهل الربع، الذين جاءوا ليشاهدوا عرسا ربما لن يروه فى حيواتهم مرة ثانية، وأدركت مليكة – ربما لأول مرة – أنها غريبة عن المشهد الذى يدور أمامها، فلا أحد يأبه بها، ولا يوقرها، بل إن ابنها لم يتحدث إليها بكلمة واحدة طوال اليومين الماضيين، وكانت تتمنى لو جلس إلى جوارها وتحدث معها وربت على ظهرها وابلغها بكل ما اتفق عليه مع ابن أخيه، الشيخ سليمان السرسى، لكن كل آمالها ذهبت سدى، وها هم الناس يصخبون من حولها فيما هى تشعر بوحدة قاتلة، وانسحبت إلى الداخل لترى الدار خالية من الناس، وانزوت فى حجرتها تبكى، بكاء صامتا لم تجربه فى حياتها مرة واحدة، وتمنت فى قرارة نفسها أن تعرف، إن كانت مريم هى الأخرى تعانى الوحدة؟!، أو تبكى مثل بكائها، فى صمت وأسى؟!.

وهناك فى عزبة السرسى كانت الجدة مريم ترهف أذنيها لتعرف إن كان أحد فى العزبة غيرها وغير ابنتها رئيفة وزوجها الشيخ عمر لم يذهب

إلى الربع، فلقد خرج الجميع فى اتجاه الربع، حتى الشيخ زكريا وأبناؤه، ولم يترك الشيخ سليمان أحدا إلا واصطحبه، وأدرك الجميع أنه يريد أن يعيد اللحمة بين عمه الشيخ يوسف وبين السراسوة، وليس أقدر على ذلك من بهجة الأعراس وطعام الأسمطة، لكنها تشعر بالعزاء رغم كل شىء، فإذا كان ابن أخيها قد حاول مرارا أن يأخذها لتظل فى داره طوال أسبوع العرس، وبحدسها كانت على يقين من أن ما دفعه لذلك هو الحفاظ على شكله أمام الناس، وأنه لم يكن صادقا فى محاولاته، لكن بكاء سُلَيْمَة بين يديها كان خير عزاء، عندما حاولت أن تصطحبها لتقيم لديهم أيام العرس، وحتى تخرج زينب لزوجها.

رفضها كان واهنا وحادا فى آن، قالت لابن أخيها:

– ما دارك ودارى؟!، إنهما دار واحدة، فأنا فى دارك، فكيف تطلب منى أن أنتقل إليها وأنا فيها بالفعل؟!

تلمح إلى ما قاله ذات يوم، من أن دارها هى دار سيد احمد السرسى وليست دار يونس الراوى وبناته، ولم يكن ينقصه الذكاء ليدرك مرمى حديثها فانكفأ عائدا إلى داره مستسلما لرفضها، لكنها عندما حاولت سُلَيْمَة كانت أكثر هدوءا وتصميما، قالت فى إصرار:

– لا تحاولى يا بنتى، ولا تجهدى نفسك على الفاضى، فأنا لن أنتقل إلى دارك حتى ولو حملتمونى حملا، أما زينب فأنا أدعو لها فى كل صلاة، وفى جوف الليل ليدخل الله السرور إلى نفسها بعريسها فتقر عيناها به، ويرزقهما بالبنين والبنات.

ولما بكت بين يديها مرت براحتها على رأسها المتعب ورقتها رقية صغيرة، قبل أن تضربها برفق على ظهرها وهى تقول:

– قومى لمصالحك، فما أكثرها يا أم العروس

إن حمدت الجدة مريم لدار ابن أخيها شيئا فى كل أيامها فهى الزيارة التى قامت بها زينب قبل أن يحملوها فى التختروان ليأخذوها إلى الربع، عبرت بفستانها الأبيض الذى جلبوه من "مصر" الباحة بين دار أبيها ودار جدتها مريم، ووجدت الباب مفتوحا فولجت، ألفتها جالسة فوق الأريكة المجاورة للنافذة فارتمت فى حضنها، فى تلك الأنفاس الحارة التى تخرج من صدر الفتاة عرفت الجدة مريم كل روائح السنين، ورأت أطياف جداتها، من رأتهن ومن لم تراهن، لكنها وعلى وجه خاص شمت عبق جدتها مريم الكبرى، ودفء حضنها، واضطراب أنفاسها عندما يكون الصدر محتشدا بالذكريات.

للشيخ زكريا ابن عمها طريقة فى تبسيط الأمور لم تُقَدَّر لأحد من السراسوة، إلا لجدها أحمد السرسى كما سمعت فى الحكايات، فلقد جعل الرجل من دارها مقرا للاحتفال بالعرس، تماما كما كانت دار ابن أخته، ففى ليلة الحناء الكاذبة جاءت كل نساء دار موسى السرسى، زوجتا الشيخ زكريا وأبناؤهما، كما جاءت إحسان زوجة الشيخ عمر الأولى وأبناؤها، وفردوس الغاوى زوجة الشيخ عبد الرحمن وبناتها، وجاءت أخت الشيخ سليمان من الأم، وخالاته وأبناؤهن، وبعد أن سلمن على سُلَيْمَة وعلى العروس فى الدار الكبيرة انتقلن إلى دار الجدة مريم، فملأنها حتى بدا أنها تضيق عن استيعابهن، تماما كما أمر الشيخ زكريا، الذى

لم يكن ليترك ابنة عمه تلعق جراحها وتصطلى بالوحدة، وما أن وفدن إلى الدار حتى انطلقن فى الغناء كما تفعل الأخريات فى الدار الكبيرة، والذكور منهم جلسوا خارج الدار، ولم يعد أحد يقدر على التمييز بين الدارين، فكلاهما يضج بالفرح والغناء، حتى أن عينى الشيخ سليمان اغرورقتا بالدمع، فهؤلاء هم أخواله، أبناء موسى السرسى، يعرفون كيف يدخلون السرور على الحزانى، حتى وإن كانوا لا يجيدون الانخراط فى مسالك البهجة.

لكن الجدة مليكة شعرت بعزاء من نوع آخر، فحفيدها دخل فى دوامة خوف غريبة جعلته ينعزل بعيدا طوال أيام ما قبل العرس، وهى فى ركنها المنبوذ تسمع هسهسات ابنها وزوجته دون أن تعرف بالضبط ما الذى يدور، وبقلبها المشحون بألم الانقطاع أدركت أن تلك الهسهسات هى لشىء متعلق بيحيى الصغير، العريس الذى لم تتبق سوى ساعات ليدخل على عروسه، وواتتها الفرصة لتنفرد بحفيدها صبيحة يوم الحناء، استيقظت لصلاة الفجر وكانت الدار تغط فى النوم، وسمعت صوتا قادما من حجرته، كأنه يتحدث إلى أحدهم، ولم تفلت الفرصة، نقرت على الباب برفق، كان جالسا إلى مقعد صغير يحاول أن يثبت الجهاز الذى صنعوه له فى "مصر" بناء على أمر الأطباء، ليضع رجله المعطوبة فيه، ورأت ربما لأول مرة بعد أن صار رجلا تلك الرجل الجنينية التى تشبه ذراعا معطوبا، كان يتحدث إليها وإلى جهازه الجديد، وإلى نفسه المهتاجة بكدر نادر وحزن غريب.

سألته إن كان يمكن أن تتحدث معه قليلا، بسمتها خجولة اعتصرت

قلبه فمسح دمعة من عينيه وجاهد ليقف على قدمه السليمة، وأفسح لها، عند حافة السرير جلست وأخذته فى حضنها، ودون أن تخطط لشيء راحت ترقيه، لا تعرف من أين جاءتها كل الأوراد التى تلتها فوق جسده المنتفض؟!، ولا كيف واتتها الجرأة لأن تتحدث فى أذنيه حديث الواثق المجرب، لكنها فى النهاية شعرت بالجسد الثائر يستكين، وبالرأس المشحون بعشرات الأسئلة الكبرى يهدأ ويثقل على رجليها، كأنه سيسقط فى النوم، ولما نظرت فى الوجه الجميل كانت العينان الرماديتان الرائعتان مغلقتين على أسراره، كأنهما تتمعنان فى داخله الذى يتبدل، من الغضب إلى الرضا، ومن الخوف إلى السكينة.

سيعد يحيى رقوة جدته هى البلسم الذى شفى كل جراحه، وسنده الذى طرد به الخوف، وعندما انتهى السامر بعد أن لعبت فرقة الهباب تمثيلية عثمان وسيدته التى وقعت فى حبه صحب الفتى عروسه متجها إلى الدار، وبتدبير ربانى سألت زينب عن جدتها مليكة وكانت تنزوى فى ركن غرفتها فصحبوها إليها، وهناك تسلمت يدها وقبلتها، تماما كما نصحتها جدتها مريم فى بداية الليل، فى بادرة لَعَّبَت لها شكران حاجبيها تعجبا، ولما أنست الجدة إلى ما فعلته الفتاة أخذتها فى حضنها هى الأخرى، وكما فعلت مع يحيى بالأمس فعلت معها، رقتها رقية رائعة لم يعهدها منها أحد من قبل، و لم تجد شكران إلا أن تتعجب:

– شوفوا المرة ؟!

وبصوت مسموع أردفت:

- عملت شيخة على آخر العمر

لكن مليكة التى اخترقت الكلمات أذنيها تجاوزت عن سخرية زوجة ابنها، ومضت فى رقيتها مغمضة عينيها الهانئتين بعروس حفيدها وهى تستكين فى حضنها وتستجيب لرقيتها كما فعل عريسها بالأمس.

أصرت شكران على أن تفعل مثلما تفعل الأمهات فى الربع، وفى كل ربوع البلاد، إذ فاجأتهم بالصعود على باب حجرة العروسين وباعدت ما بين رجليها لتمر العروس من تحتها، فى إشارة إلى أنها صارت ابنتها التى ولدتها فوق عتبة الحجرة، وصار لها عليها حقوق الأم، وبعد أن عبرت الفتاة من تحتها انغلق الباب على العروسين، وهدأت الدار إلا من بعضهن، يساعدن فى حفظ ما تبقى من طعام وينظفن ما ترى شكران أنه فى حاجة إلى تنظيف، ونهرها زوجها لتخرج خادماتها من الدار، فهو لا يريد أن يزيد من حالة التوتر التى لازمت ابنه طوال الأيام السابقة.

والعروسان ظلا على حالهما وقتا طال إلى حد ظن كلاهما أنه لن ينتهى، فزينب التى فاجأت أمها وأخوتها بقبول يحيى زوجا برغم عاهته، انتصافا لأبيها وإحساسه المتضخم بمسئوليته عن سمعة ومسار دار سيد احمد السرسى، هى نفسها التى تجلس الآن وتقرأ الأوراد التى نصحتها بها جدتها مريم ليمر أمر رؤيتها لقدم يحيى هينا، فهى لا تتصور كيف سيكون تصرفها عندما ترى الرجل التى لطالما وصفوها لها قبل مشروع الزواج بأوصاف منفرة، تدفع للشفقة والخوف، والآن عليها أن تتعامل مع الأمر كحقيقة قائمة فى حياتها، أما يحيى فإنه ذاهل بالفعل، فلقد جاءت

اللحظة التى خشيها طوال عمره، لحظة كشف عاهته أمام من اختاروها لتكون زوجة له، كان آسفا كأبلغ ما يكون الأسف، ففى الوقت الذى يجب عليه أن يظهر أجمل ما فيه لتحبه عروسه يواجهها بعاهته لتكون أول ما تقع عليه عيناها.

تساءلت بينها وبين نفسها إن كان عليها إذا ما هم بالوقوف أن تمد يدها لتعاونه؟!، وإذا ما راح يفك أربطة جهازه المعدنى الخشبى الذى يساعد القدم الجنينية لأن تكتسب قدرا من الصلابة هل تعاون فى فك تلك الأربطة؟!، و لم يكن يحيى ليتخيل أبدا أنه سيطلب منها أن تعاون فى شيء من ذلك، فهو مع الأيام الطويلة التى رافق فيها عاهته اكتسب مقدرة فائقة على الحركة فى الاتجاه الذى يريد، بصورة قد تبدو مضحكة لمن لا يعرفه، ولكنها مذهلة فى تنفيذ ما يريد، معتمدا على ذراعين اكتسبا مع الأيام قوة كافية لأن تحمل جسمه كله، وكتفين رائعين قادرين على رفع أثقل الأحمال، لذا فإنه ما أن استرد رباطة جأشه حتى رفع عينيه فى وجه عروسه، وبعد قليل من التمعن فى عينيها الخجلتين قال:

– قد لا أكون العريس الذى تحلمين به

وأرادت أن تقول شيئا لكنها لم تستطع، فيما هو يردف:

– ولكننى أعدك بأن أكون زوجا طيبا

فى تلك الليلة البعيدة نهض يحيى من مقعده بطريقة تخلو من الارتباك، وعندما مدت يديها لتعاونه سلمها يده طواعية، واتجها معا إلى سريرهما حيث جلسا متجاورين، وأشار إلى شماعة مسمرة فى إحدى الزوايا

لتحضر جلباب نومه الحريرى الأبيض الذى وضعه هناك بنفسه، وفى طريقها للعودة رأته يحل أربطة جهازه المعدنى المساعد، ورأت القدم التى خشيت رؤيتها، كانت جنينية رقيقة، ملتوية بصورة غريبة، لها قدم صغيرة منكفئة لأسفل بصورة حادة، ولم تجتهد كثيرا لتعرف تأثير رؤيتها لعاهة زوجها، فلقد انبثق فى داخلها حب للرجل الذى اختاره أبوها ليكون لها زوجا، وحب لتلك العاهة التى تكسبه مسحة حزن اخترقت قلبها.

لم يشعر أحد من الأسرة بغياب نعَم فى تلك الليلة، ولا فى الليلة التى سبقتها، فحراز طباخ الأسرة الذى أنهى عمله مبكرا فى يوم الحناء مخليا الدار للطباخ القادم من السنبلاوين ليعد وليمة العرس واعدها ليلتقيا فى حجرة السطح، تلك التى يستعملونها فى تخزين ما تحتاجه الدار من الحبوب، كالأرز الأبيض والقمح الذى يعدونه للطحين، فلم يكن ليفلت فرصة كهذه لينعم بصحبة الفتاة المدلهة فى حبه، فلا يكاد يمر يوم إلا ويشعر بانجذابه إليها أكثر، حتى أن نظراتها التى تصوبها إليه باتت تصيبه بارتباك، وفى صحوه ومنامه يراها مقبلة عليه، فلا يدرك من تفصيلات الدنيا شيئا، هى وفقط.

فى الليلة السابقة كادت شكران أن تضبطهما، لما صعدت إلى حجرة السطح لتضع بعضا من الهدايا التى امتلأت بها الدار وفاضت عن طاقتها، قفف الفطير وأقماع السكر وعلب الحلوى التى يجيئ بها المهنئون طوال الوقت، وأجولة المكرونة وغيرها من الأشياء التى تزدحم بها الطرقات والفراغات، لكن القدر سترهما، اختفيا وراء أجولة القمح، وكان بإمكان أمها ومرافقاتها من النساء رؤيتهما إن هن مددن بصرهن

إلى أبعد قليلا مما يفعلن، وبعد انصراف الأم ورفيقاتها ظلت نعم ترتعد من الخوف، و لم تفلح محاولات حراز لإعادتها إلى حالتها التى كانت عليها قبل حضور الأم ومرافقاتها.

لكنهما ينعمان الليلة كما لم ينعما ببعضهما من قبل، فلقد خفت الأرجل من الدار، وأخوها يحيى يدخل الآن بعروسه، والدار كلها مشغولة بأول دخلة فى دار الشيخ يوسف السرسى، ولن تغادر أمها الصالة حتى تطمئن إلى أن ابنها قد نقل عروسه إلى دنيا النساء، أما أبوها فإنه لا يصعد إلى سطح الدار أبدا، وهو الآن مشغول ببقايا ضيوفه من السراسوة، وخاصة عمها الشيخ زكريا الذى جاء مع العروس نيابة عن والدها، والحرائق التى تضطرم فى دمها توشك أن تنفجر فى المكان كله، ورغبتها فى حراز تتجاوز كل ما ألفته من رغبات فى حياتها كلها.

هى ليست واثقة مما إذا كان حراز قد فعلها بالأمس أو فى أية مرة سابقة، فلقد اقترب منها مرات بأكثر مما يجب، وفى إحدى المرات شعرت به داخلها، شعرت به بشكل أكيد، لكنها لم تنزف دما غزيرا على غرار ما ترى وتسمع فى ليالى دخلة العرسان بعرائسهن، فقط بضع قطرات لوثت سروالها، ولولا أن دورتها أعقبت ذلك لكانت قد تأكدت، لذا فإنها ما أن اقترب منها سالم ونحى عنها ملابسها حتى ارتجفت خوفا، فتلك أول مرة تشعر فيها بأشياء غريبة تدفعها لأن تستسلم له كلية، أشياء تجعلها تنسى كل المحاذير التى ألقتها فى مسامعها أمها، وجدتها مليكة، وحتى أخواتها الأكبر والأصغر، لما عرفن بميلها إلى طباخهم الشاب.

لكنها لم تساير الخوف إلى نهايته، فهى الآن فى حضنه، ورغبتها فى

الصراخ من فرط ما تشعر به من متعة لا يلجمها إلا يد فتاها تكتم صراخها، الآن هى على يقين من أنها صارت امرأة، فالشىء الذى لم تكن متأكدة منه بالأمس تأكد الآن، وما يفعله معها حراز لا يمكن إلا أن يكون لأنها امرأة، وكادت روحها تزهق وهى تستعطفه ليكف عما يفعل، فهى لا تقدر على احتمال كل ما تشعر به من متعة، وغاب عقلها عن المكان والزمان، فلم تعد ترى إلا تماوج جسداهما، وصراخها المكتوم من اللذة، ولما بلغت بهما النشوة مداها صمتت عن الصراخ، وسقطت من عينيها دمعتان ساخنتان تكويان كالنار، فهى لم تكن تعرف أن الدنيا بها كل هذه اللذة، وفى غمرة اندفاعهما شعرت بدفقات ساخنة ترد لهفتها، وأفاقت على حقيقة مذهلة، فلقد تجاوزت مع الفتى كل أسوار الحرص.

جلست تلطم خديها فى حسرة، فكأنها لم تكن تنام مستسلمة فى حضن الفتى من دقيقة واحدة، وحراز الذى صعقته المفاجأة وسبقت حرصه على الإمساك برغبته حتى يقضيها خارجا راح يربت على كتفيها، لا يعرف ما الذى عليه أن يفعله، أيقول لها إنه سيتزوجها؟!، وهل إذا فعل سيقبل الشيخ يوسف بأن يزوجها له وهو مجرد خادم لديه؟!، ولكنه نحى التفكير جانبا وقام ليرتدى ملابسه، وشعر بالخطر يقترب فطلب من الفتاة أن تهب لترتدى ملابسها، لكنها كانت ذاهلة، فالشىء الذى ستكون من بعده الفضيحة يستقر هناك فى أحشائها، ولو تقدر أن تفتك بنفسها لتلقيه بعيدا لفعلت.

أفاقت على الحجرة خالية إلا منها، ومن أجولة الأرز والقمح، ورائحة الأقفاص والقفف المليئة بالفطير وأقماع السكر، وعلب الحلوى التى

تتراص فى أشكال غريبة شامتة، تساءلت أين ذهب؟!، وهل حقيقة ما مر بها فى الدقائق الماضية؟!، وهل فى أحشائها المملوءة بالندم تستقر تلك الدفقات القاتلة التى شعرت بها كحقيقة لا تقبل الشك؟!، وتناهى إلى سمعها لغط ظنت أنه قريب فانتفضت لترتدى سروالها، وعلى فخذيها شعرت بسائل لزج يشق طريقه لأسفل، لكم تمنت أن يسحب السائل معه روحها فتزهق!، لكن أصوات اللغط عادت لتتعمق فى أذنيها فأكملت ارتداء ملابسها، ومرت بأصابعها على عينيها لتزيل آثار الدموع، وقبل أن يفاجئها أحد دبت قدماها فوق درجات السلم الحجرى الهابط من السطح.

مرت ليلة الدخلة هادئة على العروسين، فزينب تغلبت بالكاد على خجلها ورجت يحيى أن يؤجل الدخول بها إلى الغد، ولما ناقشها فى طلبها دمعت عيناها، فلم يجد بدا من أن يستجيب لرجائها، وكان قد ارتدى جلباب عرسه الحريرى الأبيض، واستدار لتغير ملابسها فارتدت قميص نوم حريرى بلون لحم الهوانم، ولما كان الوقت فى نهاية الخريف وبداية الشتاء فلقد اندست إلى جواره تحت لحاف قطنى منجد بالستان الأحمر، وشعرت بحرارة جسده إلى جوارها فاقتربت منه، وكذلك فعل، وإن هى إلا دقائق حتى راحا فى النوم.

ذهبت محاولات شكران لإقناع ابنها بأن تأخذ الماشطة وجه الفتاة سدى، وكان رفضه حادا إلى درجة أن زوجها عنفها عندما عادت لتطلب من ابنها ذلك، ولما يئست من استجابته أعطته منديلا حريريا مطرزا ليأخذ وجهها عليه، وعندما هم بالرفض طلب أبوه أن يستجيب لأمه هذه

المرة، وهكذا وضع يحيى المنديل أسفل الوسادة لعند الحاجة، منتويا عدم استخدامه، لكن زينب وقبل أن يروحا فى النوم عثرت على المنديل أسفل الوسادة، فتركته حيث هو، فهى لا تعرف إن كان عليها أن تدع زوجها يأخذ دمها على منديله أم أن من حقها أن تطلب لعرضها خصوصية لا تتعداهما، كزوج وزوجته.

استيقظا فى جوف الليل على غير توقع، أو اتفاق، استيقظا معا، كان يحتضنها بحب، وكانت تحتضنه أيضا، لم يشعرا بغربة بين جسديهما، كأنهما نشآ معا، ونميا معا، وتمازجت راحتاهما كأنهما قضيا فى مزجها أعواما، حتى الأفكار التى جرت فى عقليهما كانت واحدة، سؤال كبير بعمق الليل يطلب إجابة فى متناول اليد، ماذا لو قضيا شأنهما الآن؟!، وكيف سيكون الأمر إن هما فعلا؟!، وكان هو البادئ، مد يده ليتأكد من أنها مستيقظة فربتت على كفه الدافئة كأنها قلبه، ودون أن يتصارحا بالكلمات أمسك بحرف سروالها ليزيحه، و لم تشأ أن تجعل الأمر عسيرا فنحت سروالها، و لم تصدر عنها إلا صرخة مكتومة واكبت دخوله فيها، صرخة جاهدت لتكون مقبولة، غير منفرة وغير مستنكرة، وامتدت يده لتطلب المنديل فناولته له، ومسح به دم عرضها، ورأته بعد أن سترت عريها يتجه به صوب الباب، وفتحه ونادى على أمه، كانت جالسة هناك بمفردها، ناولها المنديل وهو يقول:

– هاك ما تريدين يا شكران فقرى عينا

لن تنسى زينب أبدا تلك الزغرودة الطويلة المجلجلة التى أطلقتها شكران فى تلك الليلة البعيدة، والتى أيقظت أهل الدار من جديد، فكأنما

استعادت الدار فرحها، تلك الزغرودة التى انغرست كسكين فى قلب نعم، وكانت تتظاهر بالنوم فى سريرها، وما أن سمعت باب حجرة أخيها يصر والكلمات التى قالها لأمه بشىء من الضيق والفرح حتى اهتاج قلبها موجوعا بألم غريب، كأنه الموت، ثم لما أطلقت أمها زغرودتها الخشنة الطويلة قبضت على صدرها كأنها تلقت طعنة عميقة، استقرت فى القلب تماما، فمزقته وفجرت دمه الغاضب، الممزوج بخيبة غريبة وخوف لا يدانيه خوف.

لم يكن الشيخ زكريا قد غادر الربع برغم اقتراب الفجر، ففى معية ابن عمه جماعة من قرية ميت خميس القريبة من المنصورة، وهم من أصحاب الشيخ سليمان ورفاقه فى حزب الوفد، وتعرفوا على الشيخ يوسف السرسى فأقسم ليبيتون ليلتهم معه، ليحضروا الصباحية التى سيكون على رأس الحاضرين فيها صديقهم الشيخ سليمان، وإذ انصاعوا لرغبته لم يستطع الشيخ زكريا أن يتركهم ويعود إلى العزبة، فمنهم رجل عرفه فى مناسبة قديمة، أيام كان موزعا بين العزبة وبين العودة إلى ديرب نجم، ورؤيته جعلته يستعيد كل تلك الأيام بذكرياتها المؤلمة، التى هيجت قلبه فبكى فى صمت وبدون دموع، إنها معجزة أبناء موسى السرسى التى لا يشاركهم فيها أحد، البكاء فى صمت، ومن غير دموع.

تناهت إلى أسماعهم فى المندرة زغرودة شكران فأدركوا أن الشىء الذى ينتظره الجميع تم، وتظاهروا بتجاهل الأمر، لكن أحاديثهم التى علت على غير توقع، وذكرياتهم التى جنحت نحو الابتهاج بدون تدبير، والصخب الذى أصابهم بخفة لا تناسب مقاماتهم وأعمارهم، كل ذلك

فضح سعادتهم بالزغرودة الطويلة الخشنة التى خرجت من فم شكران فبدلت ليل الدار إلى نهار يسبق طلوع النهار الحقيق، وبتأثير الزغرودة المجلجلة سأل أحد الضيوف الشيخ زكريا إن كان يمكن زيادة وشائج الصداقة بالمصاهرة، وضحك الشيخ زكريا ملء فمه وهو يقول:

– ليس أكثر من بناتنا الصالحات لإنشاء الأسر الكبيرة يا صديقى

ولما استوضحهم أكثر لمعرفة مقصدهم عرف أنهم يريدون عروسا لولد لهم يدعى راشد، موظف بديوان وزارة الأشغال فى "مصر"، وضحك الشيخ زكريا وهو يشير إلى الشيخ يوسف ابن عمه:

– عرسك عرسان يا أبا يحيى

وهكذا تقرر أن يقوم الأصدقاء بزيارة الشيخ يوسف السرسى بعد سبوع ابنه، مصطحبين فتاهم راشد، ليرى مليكة، الابنة الكبرى للشيخ يوسف السرسى وتراه.

لم يطق قلب شكران احتمال فرحتين، وكانت عندما كبرت بناتها و لم يتقدم أحد من أقاربها فى الربع لخطبة إحداهن قد تولد لديها شعور بأنهن ضعن بسبب خطتها فى إخراج زوجها من عزبة أبيه وجده، فبناتها لم يتلقين تعليما، حتى ولو على المستوى الأولى، وذلك لأنها كانت ستضطر إلى إرسالهن إلى المنصورة، ليعشن إما فى منزل يشتريه زوجها لهذا الغرض، أو مدرسة داخلية، وهو ما رفضه زوجها بكل تصميم، ثم إنها لم تكن على يقين من أنها تريد تعليمهن، ففى رأيها أن تعليم البنات هو تدريبهن على حياة الزوجية، وتحمل مسئولية بيت يكون الرجل فيه

هو أهم شخص، ومن كل أبنائها الذكور لم يفلح فى التعليم إلا رفقى، لذا فلقد كرست له كل همتها.

طغت تطورات العروسين على كل الأخبار، فهذه زينب فى الصباحية استيقظت مبكرة وحممت زوجها فى حجرتهما، لم تشأ أن يخرج على من فى الدار ليتحمم فى الحمام المعد الذى يفتح بابه على الصالة الكبيرة، وعندما استيقظ أهل الدار وجدوها بينهم، وأول ما فعلت قبلت يدى عمها وجدتها مليكة، وأخذتها شكران فى حضنها وهى ترمق ابنها بنظرة إعجاب، وسلمت على بنتى عمها مليكة ونوران، وافتقدت نعم وسألت عنها، وأخبرتها مليكة أنها مستغرقة فى النوم، فلم تنم حتى طلع الصبح، وفى سريرها سمعت نعم لغطهم وسؤال العروس عنها، فأمعنت فى التظاهر بالنوم، كأنهم يرونها.

لكن الحياة لا تتوقف، حتى ولو طلب أحدهم ذلك، فنعم التى تمنت لو يتوقف الزمن أو تقوم القيامة فتنتهى الحياة كانت تشعر بأن الوقت يمر بسرعة مذهلة، وتمنت لو أنها تستطيع أن تمسك بعجلة الوقت فتوقفها عن الدوران، أما مليكة، أختها الكبرى، فإن الوقت كان فى نظرها لا يمر بالسرعة التى تتنماها، إنه يتباطأ عن عمد، كأنما يختبر احتمالها، فهى مستثارة إلى أقصى حد، ومن يوم أن أخبروها بقدوم عريس لها وهى تعد الساعات وتستنهضها لتمضى، وأخرجتهما نوران الصغيرة من تأملاتهما، سألت:

– كيف استطاع يحيى أن يدخل على عروسه؟!

ولم تفهم الفتاتان السؤال، والتفتت مليكة لتتأكد إن كان ما فهمته هو ما قصدته أختها الصغرى، لكن الصغيرة مضت فى أسئلتها:

– هل ساعدته كما تقول أمى؟!

وسألتها مليكة:

– أو قالت أمك ذلك؟!

وأجابت الطفلة فى براءة:

– نعم، قالت إن تربية سُلَيْمَة أفادت ابنتها فى هذا الموقف

وامتدت يد مليكة لتمسك بأذن أختها الصغيرة، وراحت تفركها وهى تقول:

– إياك أن ترددى هذا القول مرة ثانية

ولم تفهم الطفلة المتألمة لماذا يجب عليها ألآ تقول ذلك.



فى الرحـاب



مرضت الجدة مريم بشدة، كأنما انتظرت ريثما تنتقل مليكة ابنة أخيها إلى دار زوجها لتسقط مريضة، وكانت قد رفضت أن تذهب إلى الربع فى الأيام السابقة على العرس حتى لا تغضب الشيخ سليمان، فلقد رفضت أن تنتقل من دارها إلى داره وبين الدارين أمتار قليلة، فكيف إذن تقدر على الانتقال إلى بلد آخر يبعد عن دارها كثيرا؟!، لكنها حرضت بناتها على الذهاب إلى عرس ابنة خالهن، هن وأزواجهن ومن يقدرن على اصطحابه من أبنائهن، وحذرتهن من الغضب مما ستفعله شكران، فهن ذاهبات لملء دار أخيها بالسراسوة، وليس لتلقى حسنات المرأة البخيلة.

عند رأسها جلست رئيفة تبكى، فها هى أمها التى ملأت الأرض صخبا ونشاطا تتكوم فى ركن سريرها منكمشة كقبضة اليد، ولا يبدو من آثار الحياة فيها إلا أنفاس واهنة، بيد أنها فى هذا الصباح بالذات سمعتها تتحدث هامسة إلى نفسها، وجاهدت لتعرف ما الذى تقوله، لكنها فشلت، فالهمس يتجه إلى ركن الحجرة، كأنها تتحدث إلى أحد تراه هناك، وحاولت أن تلفت نظر أختها أمينة إلى همسها، لكنها وقد

أمعنت النظر فيما ستفعل فضلت ألا تكشف سر أمها، حتى لابنتها، فهى لا تود أن يظن أحد بأمها الظنون، فيقول إنها فقدت عقلها أو جنت، أو حتى هجرت فلم تعد تدرى ما تقول.

لكن الجدة مريم فى ركنها الأثير كانت مدركة لكل ما يدور، ليس فقط من حولها، ولكن فى الدار كلها، وتعجبت وهى التى لم تعد تملك إلا العجب كيف أرهف سمعها هكذا، فهى تسمع حفيف الأثواب وصوت سريان الهواء من النوافذ والأبواب، والهمس الذى يدور فى الصالة بين من يسأل عن حالها ومن يجيب، تعرف أنها ستنضم قريبا إلى ركب الراحلين، فما يصلها من أصوات الأحياء هى عازفة عنه، وليست مقبلة عليه كما كانت تفعل من قبل، الآن هى مقبلة على عوالم أخرى غائمة، لا تتضح أمامها بما فيه الكفاية، وهى على يقين من أن تلك الغيوم ليست راجعة إلى فقدان بصرها، فهى ليست فى حاجة إلى بصرها الفانى لتنخرط فى تلك العوالم الجديدة.

كأنما تذكر السراسوة أن معلما من تاريخهم سقط مريضا فتكالبوا على دارها ليعودوها، وانقسمت بناتها بين مؤيدة لإدخال السراسوة إلى حجرتها لرؤيتها ومعارضة، رأيهن أن معظم هؤلاء لا يريدون إلا رؤية المرأة الجبارة التى حكمت عزبتهم يوما، والتى زوجت أباها وهو شيخ لينجب ولدا يحرمهم الميراث، والتى ساوت بين ولدى أبيها حتى لا يميز أحدهما عن الآخر، متناسية بناتها اللائى يتحلقن من حولها كأن شيئا لم يحدث، وانتصر منطق رئيفة فى النهاية، فهى لا تمنع السراسوة من عيادة

أمها طالما يريدون، فقط يجلسون بعيدا ولا يدخلون حجرتها، لتنعم بوحدتها وهمسها الحنون.

مع المساء سطعت الشمس فى ركن وحدتها، أناس يرفلون فى ملابس بيضاء ناصعة، فى أيديهم مقاود إبل محملة بأحمال كثيرة، ميزت من بينهم أباها، ها هو أخيرا، سيد احمد السرسى، بطوله وعوده المحنى فوق نحافته، وابتسامته الغامضة التى لطالما احتارت فى تفسيرها، أهى ساخرة؟!، أهى مبتهجة ؟!، وانطلق صوتها يناديه، لكنه لم يلتفت إليها، يمضى فى طريقه مع الماضين ولا يلتفت إليها، وسمعتها رئيفة تناديه باسمه مفسرا وواضحا هذه المرة، وبدت كمن لم يتلق جوابا، وحزنت من أجلها كثيرا، فكل الأسلاف كانوا ينادون الراحلين، وكانوا يتلقون إجاباتهم، فما بال أمها لا يجاوبها أحد ممن تناديهم؟!!.

رفضت أى شىء يقدمونه لها، وأشاحت بوجهها عنهم، فهى لا تريد إلا أن يتركوها لركنها الذى يواصل الراحلون فيه المسير، كأنهم يعرضون أنفسهم عليها، ومن بعيد لاحت جدتها مريم الكبرى، ترفل فى رداء قمرى، على وجهها ابتسامة آثرة، نادتها:

- جدتى... جدتى

أجابتها:

- لا تبتئسى يا صغيرتى، أنت معنا

فسألتها باكية:

- إنه لا يجيبنى يا جدتى

مسحت على رأسها وهى تقول:

– ليس غضبا منك يا صغيرتى، ليس غضبا منك

فسألت:

– ماذا إذن؟!، ماذا إذن يا جدتى؟!

وأجابت الجدة الكبرى:

– إنه الوجد يا صغيرتى.. والافتقاد

ولم تجد كلمات لتسأل من جديد، لكن الجدة الكبرى واصلت وهى تمضى:

– يحب أن يسمع نداءك

فانطلقت تنادى أباها بصوت سمعه كل من فى الدار، بناتها ومن يعودها من السراسوة، وكان صوتها رائقا كالأيام الخوالى، وصافيا كنبع رقراق من ينابيع الفردوس

مع مقدم الفجر استجاب أبوها لندائها، انبسطت الأسارير المتوترة وملأت البسمة كل قسماتها، وعرفت رئيفة أن جدها سيد احمد يحاورها الآن، عله يسأل عن أحوالهم، وكيف مضت الدنيا بهم، وتمنت بينها وبين نفسها أن تنادى أمها على أبيها، يونس الراوى، الذى مر فى حياتهم كنسمة هواء فى حر الصيف، لكنها لم تسمع نداء أمها عليه، وفى ركنها الركين سمعتها تتحدث إلى أخيها يحيى، يا ألله!!، كانت تبكى بحرقة، وتنادى فكأن النداء يخرج من أعماق أعماقها، وهدأت قليلا قبل أن تتماوج فى ركنها، كأنه طفل وهى تناغيه، وعرفت رئيفة أن أمها ربما

تكون فى هذه اللحظة تسامح ابن أخيها إكراما لخاطره، لكن غُصّة وقفت فى حلقها، فمن بين الراحلين لم تناج أباها، فاضطربت وخرجت من لدن أمها حائرة.

ستحكى رئيفة لأحفادها بعد سنين أنها لما خرجت من لدن أمها وهى تناجى الراحلين فى ركن وحدتها وكان الصبح يوشك على الطلوع ألفت "قطب" ابن أختها سكينة جالسا عند باب الحجرة واضعا رأسه بين رجليه ومنخرطا فى بكائه الغريب، لم تشأ أن تلمسه، حتى لا تخرجه من بكائه الذى يحبه، وتعرف هى كما يعرف كل أبناء الجدة مريم أن نوبة البكاء التى يدخل فيها تجعله يخرج بعدها كيوم ولدته أمه، هادئا وقورا متحسبا، كأنه ليس ابن الليل الذى يصاحب المنسر، ويتيه عليهم بما يفعله، وأدرك الفتى مرور خالته به فانتفض، لكنه فى صمته كان يستجديها لتتركه لحاله، ولبكائه الذى يحتاج إليه كما لم يحتج إلى شىء من قبل.

ستحكى أنها لما استطلعت وجوه الحاضرين فى الداخل وأمام باب الدار وقرأت فى وجوههم قرب رحيل أمها انكفأت عائدة إلى حجرتها، وفى تلك اللحظة سمعتها تناجيه، نعم، يونس الراوى، تحدثه كأنه واقف أمامها، أو كأنه يطوق كتفيها بذراعيه السمراوين، وكانت تنظر فى وجهه وتتأمله، كأنما تخشى أن تفارقه، أو يتركها ويمضى مع الماضين، وأنها لما نظرت إلى جسد أمها أدركت أنها تموت الآن، فلقد انبسط الجسد الذى كان متكورا منذ قليل، وزايله التوتر والانقباض، ولا يتعلق منه بالركن الذى تناجى فيه الراحلين إلا التفاتة يسيرة من رأسها الذى انكشف شعره الأشيب، وبان فمها الخالى من الأسنان يتبسم ابتسامة رائعة، وكأنما شغلها

شيء فقطبت جبينها تقطيبة يسيرة، ثم انفرجت أساريرها، وعادت لتبتسم ابتسامة تجمدت فوق ملامحها، و لم تستطع الرأس أن تبقى على التفاتتها فسقطت على كتفها الأيمن، كأنها راحت فى النوم.

ستحكى رئيفة أيضا أنها وقبل أن تسقط الرأس على الكتف رفعت صوتها بالشهادة، ورأت شفتى أمها تنبسان بأحرف ربما كانت هى أحرف الشهادة، أو أنها رد على سلام ألقى عليها من بعيد، وقبل أن يتنبه من بالخارج إلى ما يجرى أغلقت جفنيها المنطبقين إلا قليلا لتدارى العينين المغرورقتين، ووجدت قطب ابن أختها يعيد الفكين إلى وضع الانطباق، ثم لما فردت الملاءة فوق الجسد الهزيل وغطت الوجه بكامله انطلق يجهش بالبكاء، و لم يكفه ما يفعل فراح ينادى جدته التى لم يشعر بالأمان يوما إلا فى جوارها، فأخذته فى حضنها، لكنها لم تستطع أن تستوعب عوده الفارع الذى يفيض عن طاقة يديها وحضنها، واندفع من بالخارج ليلقوا على سيدتهم نظرة الوداع، لكنها كانت غائبة خلف الملاءة البيضاء.

صلوا عليها العصر ثم توجهوا بها إلى جبانة الحجايزة، ودفنوها فى مقبرة جداتها، قرأوا عند رأسها القرآن ولقنوها حجتها، كما لقنوا جداتها، ووقفوا عند قبرها يترحمون ويسترحمون، وكانوا قد أقاموا سرادقا كبيرا فى جرن الوسية، فلقد أصر الشيخان زكريا وعمر على أن يقام سرادق عزاء الفقيدة فى الجرن الكبير، و لم يجد الشيخ سليمان بدا من الانصياع لرغبة خاليه، وتقاطر الناس من كل صوب ليعزوا فى المرأة التى قادت السراسوة فى أحرج أوقاتهم، والتى وقفت فى وجه أبيها لتأخذ لابن أخيها حقه، وعاد السراسوة بعد انتهاء ليلة المأتم ليحكوا لأبنائهم حكاياتهم القديمة،

فالجدة مريم التى حملت تلك الحكايات الرائعة فى صدرها وصبتها فى مسامع بناتها وأحفادها صبا رحلت عن دنياهم، وإذا هم لم يحكوا لأبنائهم حكاياتهم القديمة ستموت فى صدورهم التى يشتتها الفراق، وتضيق بالخلافات الدفينة والظاهرة، وأبناؤهم الذين يتحلقون من حولهم كالأرض العطشى للماء، يتلهفون لسماع حكايات أجدادهم الساحرة، ويقارنون طوال الوقت بين حالهم الذى كان، وأحوالهم التى تبدلت فلم يعودوا يتمتعون من حطام الدنيا إلا بالقليل.

فى ختام الليلة المشهودة انتحى الشيخ عمر بابن أخته جانبا، وحدثه بحديث كانت قد أوصته به الجدة مريم، فالدار التى قضت فيها حياتها مع زوجها وبناتها، والتى ربت فيها الشيخ سليمان نفسه، يجب أن يعطوها لقطب ابن ابنتها، وأوصت الشيخ عمر أن يسترضى بناتها كلهن على ذلك، فقطب إذا لم تترك له جدته دارا لن يمكنه بناء دار أبدا، وتعجب الشيخ عمر لما استنكر الشيخ سليمان حديثه، وراح يذكره هو بأنه أعطى لعمته سبعة قراريط ونصف فى أرض العزبة، وهو بذلك يكون قد أوفاها حقها، ومن ثم فإن الدار التى كانت تقيم فيها هى داره، وعلى بنات عمته أن يفارقنها بعد رحيل أمهن، لكنه يقبل أن يظل فيها قطب حتى يمر الأربعين، وبعدها لن يدع أحدا يبيت فيها ليلة واحدة.

لم يستطع الشيخ عمر أن يمد حبال الحديث حتى نهايتها، فرجال الفراشة قريبون يقومون على جمع حاجياتهم، وهو إذا تناقش مع ابن أخته فربما يتطور النقاش ويصل إلى مسامع أحد، وبخاصة قطب، القابع غير بعيد يرقب حديثهما.

عادوا إلى دار الجدة الراحلة لا كما يعودون فى كل مرة، معهم هذه المرة الخالة الست وأبناؤها، وبنتها الوحيدة نازك المتزوجة من قريبها توفيق نور الدين المدرس فى "مصر"، والخالة مهدية وأبناؤها، لكن الدار خالية الآن من أمهم، الجدة التى ملأت الدنيا صخبا وضجيجا، والتى حفرت فى كل طوبة منها ذكرى لا تَّمحِى، ولم يمر عليهم صمت الشيخ عمر مرور الكرام، فلقد تساءلت كل واحدة من بنات مريم عما يخفيه زوج أختهن الوفى، وذلك الحديث الذى نقله الواشون، والذى دار بينه وبين ابن أخته الشيخ سليمان، لكن واحدة من بنات مريم لم تشأ ان تسأل الرجل عن سبب صمته، وحزنه الذى يجلل ملامحه، ولم يكن فى حال تسمح بأن يتحدث إلى أحد، ولوهلة ظنوا أن باب الحجرة المغلق سينفتح عن الجدة مريم خارجة عليهم، وسائلة عن سر اجتماعهم فى دارها.

قالت رئيفة إن أمها أوصتها أن يبيتوا فى دارها أربعين ليلة، وأن يضيئوا كل غرفها ليلا، وإذا كان الأربعين يتركوا القطب شيئا من منقولاتها ويقسموا الباقى فيما بينهم، ويسارعوا بتزويجه من فتاة كانت قد رأتها ذات مرة فى زيارة سراسوة ديرب نجم لها، تدعى زبيدة، حفيدة عمها السيد السرسى من إحدى بناته، وكان قطب قد وافق جدته الرأى ذات مرة، لما عرضت عليه الفتاة، وكان منطقه أن فقر أهلها سيجعلهم لا يضعون شروطا صعبة للزواج، ويتم العرس بأقل التكاليف، وفى موضعه فوق الأريكة التى تعلوها النافذة المطلة حيث كانت تجلس جدته رمق قطب خالته رئيفة، وخمن ما تفكر فيه فاغرورقت عيناه من جديد، ورأى أن يقوم من مجلسه ليلقى نظرة على سرير جدته حيث شاهدها للمرة الأخيرة.

لكن الأيام حملت غيابا جديد للشيخ سليمان، و لم يجد السراسوة تفسيرا، أما بنات الجدة الراحلة فقد فسرن حزن سُلَيْمَة بسبب فقدان السند الذى كانت ترتكن إليه عند الحاجة، أمهن، وها هو زوجها يعود إلى الغياب عن الدار الكبيرة، وأبناؤه الذين انتظموا فى مراعاة أشغالهم حينا عادوا ليناموا حتى الظهر ويستنكفوا أن يسرحوا إلى الغيطان ليباشروا زروعهم وضروعهم التى يضطلع بها الكلافون والمرابعون، و لم تغادر الخالتان الست ومهدية، فلقد جد ما يجعلهما فى حاجة إلى تبادل الحديث مع ابن أخيهما الشيخ سليمان حول أراضيهما التى يباشر زراعتها لحسابهما، لكنه غاب عن العزبة بغير تفسير، كأنه يتعمد الفرار منهما، و لم تجد الخالتان بدا من الحديث إلى ابن عمهما الشيخ عمر، لكن الأخير نصحهما بعدم المغادرة حتى تضعا حدا لهذا الأمر.

ربما يكون الخوف هو الذى دفع سُلَيْمَة لأن تولم للخالتين الست ومهدية، كأنها تستبدلهما بالراحلة التى ما أن عثرت على لغة مشتركة معها حتى فارقت، ووجدتها الخالتان فرصة لمد أمد الإقامة فى العزبة حتى يعود ابن أخيهما من غيبته، ولجأ الشيخ عمر إلى أخيه يخبره بما دار بينه وبين ابن أختهما، بخصوص الدار التى أوصت حماته أن يتركوها ليتيم ابنتها قطب، كما وأنهى إليه خبر إصرار ابنتى عمهما الست ومهدية على تسلم أراضيهما أو بيعها لمن يشترى، ولأن الأرض معروفة الحدود والأبعاد فقد اصطحبهما الشيخ زكريا ذات أصيل ومروا بها، ورآهم كل من فى الغيطان، من الجيران والفلاحين والكلافين والمرابعين، وأنفار التراحيل الذين يأتون من مكان بعيد قرب ميت غمر، قرية تسمى كفر

تصفا، وعلى رأس العمال رجل يقال له عبد الظاهر.

لكن غياب الشيخ سليمان لم يكن أبدا بهدف الفرار من وجه عمتيه الست ومهدية، ولكن هاشم حفظى باشا الذى يرغب فى تزويجه إحدى بنات أخيه انتهز فرصة وجوده فى مأتم عمته وهمس فى أذنه ليوافيه فى "مصر" بعد انتهاء ظروف المأتم، وحتى لا يدعه يضرب أخماسا فى أسداس رسم بسمة صغيرة على وجهه ليطمئنه، وأدرك الشيخ سليمان أن المسألة لن تخرج عن موضوع الزواج الذى طال تأجيله لأسباب شتى، وهكذا فإنه ما أن انتهت أيام المأتم الثلاثة، الشرعية كما يقول، أعد عدته وسافر إلى "مصر" متعللا بقضاء بعض المصالح المتعلقة بتسجيل أرضه وشراء بعض الأراضى المطروحة للبيع فى زمام برقين، والتابعة للدومين العام.

لم تصدق سُلَيْمَة مما قال حرفا واحدا، فكل خلجاته تضج بالكذب، وهذه المرة هى ليست غرة يسهل خداعها، وإنما هى واثقة من حدسها وتخمينها، بل وتحليلها للأمور، فإذا كان مسافرا لقضاء مصالح مهمة كما يدعى فلماذا لم يصحب ابنه الأكبر وهى التى لطالما ألحت عليه أن يصحبه فى سفره ليعلمه مما يعلم، ويقدمه لأصدقائه ليحظى بمعرفتهم؟!، ثم ما هى تلك الأراضى التى يدعى أنها معروضة للبيع؟!، وكيف لم يتطرق إلى ذكرها مرة واحدة على مسمع منها هى أو أحد من أبنائها!؟، وعلى عادته فى إطلاع عمه الشيخ يوسف السرسى على كل شىء يجد لماذا لم يصطحبه معه إن كان ما يقول حقا؟!، وانتهت بعد كل تلك الأسئلة إلى أن زوجها ذاهب إلى "مصر" ليضع نهاية لعرض الزواج المعلق الذى سبق وأبداه الباشا.

أيام ثلاثة غابها الشيخ سليمان فى "مصر" وعاد يحمل هدايا قال إنه اشتراها من هناك لأبنائه، وأحست سُلَيْمَة أنه يرشو أولاده، حتى إذا ما فاجأهم بقرار الزواج من ابنة أخ الباشا ابتلعوا ألسنتهم، لكن وجود عمتيه الست ومهدية فى العزبة أغلق باب الحديث فى أى شيء إلا أرضهما وحقوقهما فى دار أبيهما، ونقل إليه عماله سروح العمتين إلى الغيط برفقة خاله الشيخ زكريا فأدرك أن دونه وأرضهما عقبات قد تفسد عليه وقته، ونقل البصر هنا وهناك يبحث عن طريق يسلكه ليجمد وضع الأرض كما هو ريثما ينتهى من مشروع زواجه من فوزية ابنة محمد حفظى بك فلم يجد إلا أن يبادر بزيارة خاله الشيخ زكريا.

فى مندرة خاله وجد الجميع هناك، خاليه عبد الرحمن وعمر، وأبناء الأعمام من كل البطون، والعبادى الصغير، ابن محمد العبادى عمدة المقاطعة وصهر خاله، وبعضا من رجال المقاطعة يعرف أشكالهم ولا يعرف أسماءهم، والسمدانى العربى شقيق صديقه حمدان السمدانى عمدة شنوان، وهو صديق نوح زكريا ابن خاله، ومنصور "أبو" دومة زوج الباتعة بنت شاهين الطحان، و لم يكن ينقص خاله الشيخ زكريا الذكاء ليعرف أن ابن أخته واقع فى مأزق كبير ويريد أن يخرج منه، وهذا المأزق لن يكون إلا أرض عمتيه، فلا بد أن أحد عماله أنهى إليه خبر سروحهما الغيط برفقته، وهذا بالتحديد ما جلبه إليهم فى تلك الليلة، فهو لم يدخل مندرته منذ واقعة شكران وحسانين الضبع، مكتفيا بحب أخواله له، وتجاوزهم عن تقصيره وابتعاده عنهم، ومحاولاته الدؤوبة لإعادة اللحمة

بينه وبين عمه الشيخ يوسف السرسى فى الربع، وها هما أمسيا صهرين فما حاجته لأخواله؟!.

بنظرة واحدة أدرك أن أخواله يعرفون سبب قدومه، فالابتسامة التى يقابله بها خاله الشيخ زكريا تشبه ابتسامة رآها ذات يوم فوق ملامح عمته مريم، ابتسامة ودودة ومتسامحة، لكنها فاهمة وواثقة من فهمها، أما خاله عمر فإن الحوار الذى لم يجف دمه بعد بينهما ليلة مأتم عمته مسطور فوق ملامحه المكسوة بشىء من الحرج، ولكن التسامح يغلفها أيضا، يا لأخواله هؤلاء!، إنهم لا يصدأون أبدا، ولا ينقلبون مع الأيام كما كل البشر!، فإذا صادقوا كانت أياديهم الأعلى، وإذا غضبوا يسبقهم تسامحهم، وإذا عادوا فالسلام منشود إلى ما لا نهاية، وإذا قاتلوا تركوا لعدوهم ثغرة يفر من خلالها، فكيف السبيل إلى الخروج من ربقتهم؟!.

ضمتهم حجرة داخلية بعد مرور بعض الوقت، هو وخاليه زكريا وعمر، فهو لا ينسى أبدا ما قاله خاله الشيخ زكريا ذات يوم:

– منزلة أخى عمر منى كمنزلة هارون من موسى، وزيرى وناصحى

وانفتح الحديث على المصراعين، وطوفوا بكل القضايا، وقال الشيخ زكريا إنه وأخوته لا يصرون على ربط الصلات مع من يقطعها، فالأمر راجع إليه، إذا أراد وصلا فبوصل، وإن أراد فصالا فكل فى طريق، وكان لما قرر الشيخ سليمان أن يزوج ابنته زينب ليحيى ابن عمه أن مضى فى تزويجها دون أن يخبر أحدا من أخواله، فقرئت الفاتحة و لم يُدْعُوا لها، ولبست الشبكة و لم يُدْعُوا لها، دُعُوا فقط فى العرس، وكذلك فعل الشيخ يوسف ابن عمهم، فكأن الشيخ سليمان يدعوهم كما يدعو أبناء الغاوى

و"أبو" دومة والقماش وأبو العز، لكن دعوة عمه الشيخ يوسف لهم كانت أكثر دفئا، فلقد جاء بنفسه إلى المندرة، ودعاهم جميعا ليشرفوه وليتعرفوا على أصدقائه، هكذا قال بالضبط.

لكنهما تجاوزا عن كل ذلك عندما طلب أن يتدخلا لإرجاء تسليم الأرض لعمتيه الست ومهدية، ريثما يرى إن كان يقدر أن يشتريها، وبادره الشيخ زكريا:

– وما دخل هذه بتلك؟!

ثم أردف بعد برهة:

– سلمها لأصحابها ثم اشتريها وقتما تريد

وفى شيء من الضيق قال الشيخ سليمان:

– وماذا لو باعوها لغيرى؟!

فأجابه زكريا:

– لن يكون ذلك أبدا، وأنا ضامنهما

ود الشيخ سليمان لو يسأله عن دخله بشئون تركة سيد احمد السرسى لكنه آثر السلامة حتى ينتهى الأمر على خير، لذا فإنه بعد أن ابتلع غيظه وهو مطرق إلى الأرض رفع وجهه فى وجه خاله وقال:

إذا كنت سأشتريها فلماذا أسلمها؟!

فقال الشيخ زكريا متعجبا:

– لأنها أرضهما

وابتسم الشيخ عمر متعجبا أيضا، فالطفل الذى بسببه غضب منهم عمهم هو من يريد الآن أن يضع يده على كل شىء، مدعيا أنها تخص أباه وجده، ولا شأن لبنات سيد احمد السرسى بميراثه.

وقف الحديث عند ذلك الحد و لم يجد الشيخ سليمان شيئا ليقوله، وكذلك انتظر زكريا ما سيقول ابن اخته، وظلا على حالهما حتى أخرجهما الشيخ عمر من صمتهما:

– لماذا لا يكون الحديث فى حضور صاحبتى الشأن؟

وانفعل الشيخ سليمان:

– لا ينقصنى إلا ناقصات العقول!

وابتأس الشيخ زكريا فنهره:

– كيف تقول هذا عن عمتيك؟!

ولما أخرسه السؤال أردف الشيخ زكريا:

– إنهما عمتاك اللتان تركتا لك أرضهما لأكثر من عشرين عاما، وقبلا منك ما تعطيهما دون حساب

واضطر الشيخ سليمان لأن يبدى ندمه على ما قال، بيد أنه عاد ليسأل:

– كيف سيكون التصرف إذن؟

ورد الشيخ عمر هذه المرة:

– لن يكون شىء إلا باطلاع صاحبتى الشأن، وهما على ما سمعت تريدان بيع الأرض لك، وليس لأحد غيرك

واستنهضه:

- فاطرق الحديد وهو ساخن

اجتمع بعمتيه مضطرا، وانتهى الاجتماع إلى الإقرار بتسليمهما أرضهما، ريثما يجهز مقدم الثمن، وعرف الشيخان زكريا وعمر أن من وراء ابن أختهما سرا يجعله لا ينازع فى تسليم أرض عمتيه، وأنه وهو يسلم الأرض أجرى فى سره حسابا انتهى فيه إلى ضرورة أن يتخلص من المشكلة برمتها، وخمنا أن يكون ذلك السر متعلق بمشروع الزواج الذى سيصاهر فيه هاشم حفظى باشا، الذى هو فى نفس الوقت صهر الشيخ زكريا، إذ هو ابن عمة زوجته عبادية.

بقيت مشكلة دار الجدة مريم قائمة بغير حل، فلقد مضى "أربعين" عمته وظل قطب مقيما فى الدار لم يغادر، ورأى الشيخ سليمان ألا يقدم على شيء يثير السراسوة ضده، وبخاصة خاليه الشيخين زكريا وعمر، لذا فإنه ومن طريق خلفى أرسل فى طلب منصور "أبو" دومة، فالرجل يعد نفسه صهرا له، إذ الباتعة زوجته ابنة شاهين الطحان ابن عمة أبيه، لذا فإنه حمد له دعوته لعرس إبنته، وحضر هو وزوجته وأبناؤه حفل العرس كاملا، فى العزبة وفى الربع، و لم يعرف أبدا ما إذا كانت دعوته لحضور العرس لتلك الصلة، أم لرغبة الشيخ سليمان فى أن يمر العرس بسلام، فلا يفسده شيء من الأمور التى يبرع فى إتيانها المنسر، والتى تفسد الأفراح وتقلب نورها ظلمة.

لم يعرف قطب بأمر استدعاء خاله لمنصور "أبو" دومة إلا بعدها بأيام، وعندما سأل "أبو" دومة عما طلبه منه خاله قال إنه يطلب حراسة أرضه

وسواقيه فى غيابه، مستندا إلى مشاحنات قليلة كانت قد ثارت بين أفراد من عزبة حفظى المجاورة وعماله، وخشيته أن يتسبب ذلك فى قلع زراعاته أو تخريب سواقيه، أو السطو على مخازنه وأجرانه، لكن "قطب" لاحظ أنه كلما دعى "أبو" دومة لزيارته فى الدار يتعلل بعلل غريبة حتى لا يأتى، وكذلك يفعل كل رجال المنسر، و لم يخرجه من حيرته إلا نوح زكريا، عندما أبلغه بأن خاله طلب من "أبو" دومة ألا تطأ قدمه أو قدم أحد من رجاله الدار، فى حضوره أو غيابه، وأسقط فى يد قطب.

ربما لا يستطيع أن يقف فى وجه خاله، لكنه يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة، وكان قد سمع من خالاته أنه رفض أن يترك له الدار، مقررا أنه أعطى عمته نصيبها فى سكن العزبة، و لم يعد من حق أحد من ورثتها أن يقيم فى دار هى داره، ولقد تركها لعمته حال حياتها إكراما لخاطرها، هو إذن فى سبيله لأن يتصادم مع رجل يمكنه أن يسحقه فى أية لحظة، بل ويمكنه أن يغرى به البوليس، فبدلا من أن يكون محميا به يمسى مصطليا به، كل ذلك دار فى عقل قطب وهو يبحث عن طريق ينفذ منه إلى ما يمكنه من دار جدته، فخالاته كلهن يسلمن له بها، ولا يتبقى إلا أن يقبل خاله بتسليمهن.

ولكن كيف السبيل إلى ذلك، ونظر فى اتجاه الدار الكبيرة فرأى سُلَيْمَة جالسة تمد قدميها على مقعد أمامها كعادتها، لم يشأ أن يكون البادئ بالحديث إليها، فهى التى انقلبت عليه وأهملته متعمدة، بل وطوال أيام الفرح لم تنظر إليه مرة واحدة، وحتى فى فرح مليكة ابنة خاله الشيخ يوسف جمعه بها ركب الذاهبين إلى الربع فتحدثت إلى الجميع إلا هو،

كبرياؤه يمنعه من مبادرتها بالحديث، لكنه تعمد أن يلفت نظرها، لعلها تناديه أو تطلب منه شيئا، وكانوا بصدد خطبة فتاة من بلد قريب من السنبلاوين لحمدان، وبما أنه لا يرى حمدان فى الدار الكبيرة، إذ عندما يكون موجودا لا يكف عن الحركة هنا وهناك، إذن فهو لدى أنسبائه كما يتوقع.

لكن سُلَيْمَة كانت ذاهلة عما حولها، فبالأمس أخبرها زوجها أنه بصدد الزواج من فوزية ابنة محمد حفظى بك، وهو يبلغها لا ليأخذ رأيها أو يطلب موافقتها، وإنما يبلغها من أجل العلم لا أكثر، ولأول مرة فى تاريخ علاقتها به تشعر بأن رائحة جسده تخنقها، بل وأنفاسه التى تتردد فى محيطها، وبدلا من أن تثيره فتكون النتيجة أن تخرج من دارها غير مأسوف عليها صمتت، فأخوها الذى سبق وأعطى زوجها الحق فى الزواج بما يتيحه له الشرع لن يناقض نفسه ويرفض هذه المرة، سيعطيه الحق أيضا، ورنت فى أذنيها كلمات قالتها لها الجدة مريم ذات يوم، عندما قررت أن تغادر إلى دار أبيها غاضبة، نعم، فهذه الدار هى دارها، فيها ولدت أبناءها، وفيها عاشت أيام هنائها وكدرها، و لم تستطع أمينة الجمل بكل ألوان المدينة التى جاءت بها أن تهزمها، بل هى التى هزمت وذهبت فى النهاية للقاء ربها، عليها إذن أن تصلب عودها وتنتصر بأبنائها الذين يدرجون مدارج الرجال، فعما قريب ستكون هنا زوجة حمدان، وغدا زوجة مختار، وبعد الغد زوجة سليم، وستمتلئ أركان الدار بذريتها فلا يبقى لزوجها إلا الخروج بمن سيتزوجها ليسكنها فى مكان بعيد.

رغم اقترابها من الأربعين لما تزل سُلَيْمَة رائعة الحسن، لم يفسد جسدها

تكرار الحمل والميلاد، بل إن السنون لم تزدها إلا حسنا، وقطب فى حالة الغضب التى تنتابه ينظر إليها لا كما كان ينظر فى المرات السابقة، إنه ينظر إليها اليوم كامرأة يتمناها، ولا يردعه عن النظر إليها أحد، وهو على يقين من أن زواج خاله من ابنة البك قريب، لذا فإنها ستنضم اليوم قبل الغد إلى مجاريح زوجها الطاغية، الذى يخيف الناس بجبروته وقوته وصلاته اللامتناهية، وفيما هو سارح فى أفكاره سمعها تناديه، والتفت كأنه لم يرها إلا بعد أن نادته، وحملته قدماه إلى حيث تجلس، لكنه لم يصعد السلمات القليلة التى تحمله إلى الشرفة المستديرة.

سألته إن كان قد سمع بما يقوله الناس عن زواج خاله فأطرق إلى الأرض، يتمنى لو يقول إن خاله لا يجرحها وحدها، بل يجرح كل من يقدر على جرحه دون عواقب، ورآها تنتظر إجابته فقال وهو مطرق:

– نعم سمعت

فسألته وعيونها مبللة بالدمع:

– ما رأيك أنت؟!

ظل مطرقا إلى الأرض وهو يسأل:

– فى ماذا؟!

– فيما سيفعله خالك؟!

حيره ضعفها فرفع عينيه ليلتقيا عينيها الدامعتين، إنهما ذات العينين الرماديتين القاتلتين، العينين اللتين أودتا به من قبل، وهو لا يستطيع أن

ينظر فيهما أكثر من ذلك، وإلا ارتمى عليها ليحتضنها، وتماسك وهو يعود إلى الإطراق:

– أنظرى، أنت هنا سيدة الدار، فإذا كان سيفعل فليرحل بمن يتزوجها إلى دار جديدة

طلبت منه الصعود إلى الشرفة ليجلس بصحبتها قليلا فتعلل باستعجاله، لكنها ألحت فصعد السلمات القليلة كأنه يساق إلى حتفه، وفوق أريكة خشبية واطئة جلس إلى جوارها، كانت قدماها الممدوتان على المقعد الذى يقابلها عاريتان، انحسر عنهما ثوبها البيتى الواسع، ورأى بعينيه بياض رجليها وجمالهما فاضطرب قلبه، لكنه أطرق من جديد إلى الأرض، فلقد عرف شئون النساء، وأطلعته الجارية على كل ما يقدر عليه الرجل، وما تهبه لرجلها أية أنثى، لذا فإن العبث بنفسه إلى أن يقضى حاجته لم يعد يروى ظمأه، وأراد أن ينصرف ليقف الأمر عند هذا الحد لكنها سألته إن كان قد تناول طعاما طوال اليوم، سؤال يحمل فى طياته خوفا عليه وشفقة به واهتماما بأمره على غير ما فعلت فى الشهور السابقة.

شكر لها اهتمامها، وسألها عما تريده منه بالتحديد فشهقت، ودبت على صدرها بيديها:

– أتستكثر على دقيقتين تسرى عنى فيها يا قطب؟

وأصابه اضطراب عظيم فصار ينقل النظر بينها وبين باب الصالة، يخشى أن يخرج أحد أبنائها من الداخل، وفهمت سبب اضطرابه فقالت:

- كلهم في الربع، حتى صالحة وريحانة ذهبتا معهم، يزورون زينب ويطمئنون عليها، فلقد جاءنا الخبر بانقطاع طمثها، وربما تكون حاملا

وبدلا من ان تمتد يده هو لتقع على يدها مدت هى يدها، وأمسكت بيده الباردة فارتجف، وبدون تدبير قام واتجه إلى داخل الصالة، يريد أن يختبئ من الدنيا كلها، حتى من نفسه، ولحقت به هناك، في ركن الصالة البعيد، حيث الباب المؤدى للفناء، ولما اقتربت منه احتضنها بقوة، وشعرت به، وانحنى ليقبلها فى فمها المرتعش فكادت تسقط على الأرض، وأفاق على صوت قادم من بعيد فاندفع خارجا.

أطباق الورد



زواج نوح زكريا من مليحة إبنة عمه سليمان الضبع قلب ليل عزبة السرسى نهارا، فالوفود القادمة للتهنئة لم تنقطع، وأخواله القادمون من سللنت تسبقهم فرق موسيقية وتمثيلية مجلوبة من المنصورة وتلبانة والجمالية، وكان الشيخ زكريا قد أدرك مبكرا أن ابنه مولع بالنساء، لذا زوجه من ابنة سليمان الضبع، عل قرابتها له تردعه، وبرغم أن "نوح" أبدى رفضا فى البداية إلا أنه أمام إصرار أبيه اضطر للموافقة فكان العرس الذى تحدثت عنه الجيرة كلها، والذى فاق فرح يحيى يوسف بزينب سليمان، واستأذن نوح أباه فحضر المنسر من كل مكان، ونصبت قعدات الحشيش فى الطرقات ففاحت رائحته فى العزبة كلها، وغضب الشيخ زكريا وأراد أن يطرد المنسر، لكن الشيخ عمر منعه، وطلب من نوح أن يجمع أصدقاءه فيغلقوا عليهم دارا من دور الوسية يصخبون فيها كما يريدون.

فى ليلة الدخلة أطلق المنسر البارود فترجع فى سماء المنطقة كلها، كأنها الحرب، وخلف الحفل الصاخب ألعابا سيظل الأطفال يلعبونها سنوات وسنوات، لكن السامر انفض، وخطت مليحة أولى خطواتها فى

الدار الكبيرة، دار عمها الشيخ زكريا الذى يتحاكون به، والذى شرفها باختيارها زوجة لزهرة أبنائه، نوح، ورأت من أول وهلة أن الدار منقسمة إلى حزبين، حزب هنومة أم نوح، وحزب عبادية التى أنجبت للشيخ ولدا وبنتا، وكانت بنات هنومة قد تزوجن فى أوقات سابقة، وجئن فى العرس مع أزواجهن وأطفالهن، ورجع الأزواج إلى قراهم فيما ظلت البنات فى دار أبيهن يتهجن بعرس أخيهن حتى السبوع.

لكن العزبة سرعان ما انشغلت بأمر زواج آخر، زواج ليس كما اعتاده الناس، حملت آلات حديدية لامعة يطلقون عليها سيارات الست فوزية كريمة محمد حفظى بك زوجة الشيخ سليمان السرسى الجديدة، وجاءت بها مع غروب الشمس إلى عزبة السرسى، وكان الشيخ قد أعاد تجهيز الدار لتناسب العروس الجديدة فهدم الجناح الذى كانت تقيم فيه المرحومة أمينة الجمل وأعاد بناءه من جديد، وألحق به دورة مياه مجهزة بحمام تمتد إليه المياه عبر أنابيب حديدية، تنقلها من صهريج كبير نصبوه فوق السطح، ورأى الناس لأول مرة فى حياتهم حنفيات الماء التى تدور فينزل منها الماء، ثم تدور مرة أخرى فينقطع، ورأى الناس لأول مرة جهازا عجيبا يضعون فوقه قرصا أسود يدور فتصدر عنه موسيقى وغناء، قالوا إنه الفونوجراف، وحملت إحدى العربات جهازا رائعا له جسد خشبى بنى يلمع بشدة، قالوا إنه الراديو، وإن رجالا ونساء يتحدثون بداخله ولكن بدون أجساد، وغطى ما رأى الناس على كل ما فعله أصدقاء نوح من منسر المديرية كلها، فى فرحه الذى لم تكد تمر عليه أيام.

عجل الشيخ سليمان بزواجه من فوزية حفظى حتى يتفرغ لإتمام زواج

ابنه حمدان، وحتى لا ينغص عليه شيء طلب من سُلَيْمَة إن هى أرادت أن تذهب إلى دار أبيها أياما ثم تعود، لكنها حملت ألمها فى قلبها وأصرت على أن تظل فى الدار، متبعة ما نصحت به الجدة مريم فى وصيتها التى صبتها فى عقلها صبا، لكن ابنتها زينب بكت بين يديها لتحملها على الذهاب معها إلى الربع ريثما يمر العرس، ونظرت سُلَيْمَة فى وجه ابنتها غير مصدقة:

– أتريدين أن تشمتى بى مليكة يا زينب؟!

وانخرطت فى بكاء مرير، لم تقلع عنه إلا بعد أن أفرغت غضبها، وشعرت بشيء من العزاء، وأن يدا حانية تربت على قلبها الموجوع، واستشعرت ويا للعجب طعم قبلة قطب فوق شفتيها المرتعشتين.

لم يظهر قطب فى حفل عرس خاله، تناثرت أقاويل فى دور خالاته بأن الشيخ سليمان أبرم معه اتفاقا، فمقابل خروجه من دار جدته وتسليمها له يعطيه عشرين جنيها ليبنى لنفسه دارا فى الأرض التى ستحصل عليها أمه من ميراث جدته، ولم يُدْعَ أحد من السراسوة فى حفل العرس هذا، فقط أقارب العروس، وصدحت الموسيقى من جهاز الفونوغراف، ووقف الناس يشاهدون من بعيد تلك المعجزة التى أخرست ألسنتهم وأصابتهم بالفزع، وحتى لا يتأذى الضيوف الكبار من مناظر الفلاحين بهلاهيلهم وتلقائيتهم عهدوا إلى مؤمن إبراهيم وشاهين الطحان ونافع النجدى ورزق الحبال بمهمة إبعادهم قدر الإمكان، فكانوا كلما أبعدوهم يتسربون من جديد، ويشبون على أظافرهم ليروا تلك الأعجوبة التى تصدر أصواتا صادرة عن المساخيط.

لم يستقدموا أحدا من أبناء "أبو" سنة ليعد طعام العرس على غرار ما فعل الشيخ يوسف والشيخ زكريا فى عرس ابنيهما، وإنما أتوا بطباخين من "مصر"، نصح بهم هاشم حفظى باشا، وهكذا شم السراسوة على بعد أقصاب روائح لم تمر على هواء عزبتهم من قبل، وكات ريحانة زوجة رزق الحبال تقول للرجال قبل النساء ما وصل إلى سمعها من أمور تلك الروائح، فهذه رائحة الكركم، وهذه رائحة العصفر، أما تلك الرائحة التى تسرى فى الهواء كأنها السحر فهى جوزة الطيب التى يستخدمونها فى شوى اللحم على الفحم، وزعق الناظرون يطلبون الطعام فلاحقتهم هراوات مؤمن وشاهين ونافع ورزق، وتفرقوا إلى حين.

وكانت زينب قد عادت إلى الربع بخفى حنين، فأمها رفضت أن ترافقها إلى هناك، وهى لا تقدر على البقاء لترى عرس أبيها على ضرة جديدة لأمها، وأبناء سُلَيْمَة يحبسون أنفسهم فى حجراتهم، لا يدرون ما إذا كان الأجدر بهم أن يواسوا أمهم أم يقفوا على الحياد، وكان الوقوف على الحياد هو رأى حمدان، الذى نصح أخوته بعدم إغضاب أبيهم، حتى لا يحرمهم خيراته التى ستزداد مع الأيام، وبقيت سُلَيْمَة وحيدة، يمر بها المارون فيلقون إليها بنظراتهم المشفقة، ويمصمصون الشفاة ويمضون فى طريقهم، لكنها لما صدح الفونوجراف بالغناء وطغى صوت الست منيرة المهدية والشيخ صالح عبد الحى وعبد الوهاب وأم كلثوم لم تتحمل المزيد، فأرسلت فى طلب نافع ليرافقها إلى دار أبيها، تبيت هناك ليلتها وتعود مع مساء اليوم التالى.

مع مرور الأيام تقبلت سُلَيْمَة الوضع، وإن على مضض، فالجناح الذى

أقامه الشيخ ليكون سكنى زوجته الجديدة جعلها بعيدا عنها إلى حد أنها كانت تتوهم فى معظم الأوقات أنها غير موجودة، وتعلمت أن تباعد ما بينهما فكأن ضرتها فى بلد آخر، لكن طبعها الغلاب دفعها للتلصص على ضرتها، لا لشيء إلا لتراها، وترى ما ترتديه أو تضعه على وجهها، وفى كل مرة كانت تذهب إلى ركنها المفضل فى الشرفة الكبيرة وتكشف ذراعيها ورجليها وتمسح عليهما، وتقول بملء فيها:

– رباني رباني، وليس عيرة!!

ملمحة إلى ما نقلته لها ريحانة زوجة رزق الحبال، من أن ضرتها سمراء ذات بشرة كالحة، ولولا المساحيق والأصباغ التى تدهن نفسها بها لكانت لا تُرَى، وكان يحلو لها أن تكذب عينيها، ففى مرات التلصص القليلة التى تمكنت فيه من رؤية ضرتها كانت الفتاة جميلة، ووجهها صبوح ومتألق، ولكنها فى كل مرة كانت ترجع ذلك إلى المساحيق والأصباغ التى جلبتها معها من "مصر"، وعند هذا الحد كانت تتحدث إلى نفسها حديثا مسموعا، حتى أن أبناءها سمعوها وهى تؤكد لنفسها:

– هى الأصباغ ولا شيء غير ذلك

وفاجأها الشيخ ذات يوم، أخبرها أن فوزية تريد أن تأتى لتسلم عليها وعلى أولاده، ونظر فى وجهها نظرة فهمت منها أنه يتمنى لو أن تحسن استقبالها، واجتمع الأبناء كلهم، فهم لم يتمكنوا من رؤية زوجة أبيهم الجديدة عن قرب، لكن سُلَيْمَة استمهلته يوما لتكون مستعدة لزيارتها، وتعجب الشيخ من منطقها لكنه انصاع لرغبتها، وهكذا انطلقت صالحة وريحانة وغيرهما من النساء العاملات فى الغيطات اللائى جئن للمساعدة

فى تنظيف الدار، فلم يتركن ركنا واحدا فيها، حتى الفناء وأعشاش الحمام وأقفاص الدواجن وغيرها رفعت من أماكنها وتم تنظيف ما حولها، كأن فوزية ستفتش عن نظافة كل شيء، وسأل سليم أمه عن سبب كل ذلك، فنهرته، إذ هى لا تريد أن تأخذ ضرتها عليها شيئا، حتى ولو مجرد ذكر أن فناء دارها غير مرتب.

فى ذلك الوقت كان قطب منشغلا بترتيبات زواجه من الفتاة زبيدة القادمة من ديرب نجم، ووقعت خالاته فى حيرة شديدة، فالنقود التى تسلمها ليبنى لنفسه دارا استخدمها فى الزواج، ولم يعد معه شيء ليبنى به، وهو إذ أخذ النقود من يد خاله لا يمكنه العودة إلى دار جدته من جديد، وأسقط فى أيديهم جميعا، لكن أمه لجأت إلى زوجها الشيخ كامل ليعاون فى الخروج من المأزق، وهكذا أعطاه الشيخ عمر زوج خالته دارا من دور الوسية ليتزوج فيها ريثما يبنى داره على جزء من الأرض التى حصلت عليها أمه، ولما حلت معضلة المكان أسرعت الخالات فى عمل معجنة كبيرة، وقمن بإعادة دهك الدار الصغيرة، وتركنها أياما لتجف ثم طلينها بخليط الطمى لتصير ناعمة وتتلاشى شقوقها، وصارت الدار بعد أسبوعين صالحة لاستقبال العروس.

كل أهل العزبة كانوا يتسابقون لتقديم ما يمكنهم تقديمه فى فرح قطب، وتبارت خالاته فى تقديم ما يلزم لتكون الدار دارا حقيقية، وقبل أن تصل العروس استقر بلاص المش بالجبن القديم فوق السطح، وارتكنت زراوية السمن البلدى المترعة حتى فوهتها فى ركن الحجرة الوحيدة، وتعلقت فى السقف المشنة المليئة بأرغفة الخبز، وارتكن البرميل الكبير المحتوى

على أربع كيلات من الأرز الأبيض إلى جدار الحجرة، وآخر مملوء بالدقيق الأبيض، حتى الردة والسرس والصابون وحصير الجبن وزلعة عسل أسود كبيرة، كل هذه الأشياء وغيرها عمرت بها الدار التى ستستقبل عروس قطب، فمن يصدق أن الطفل الذى ذاق مرارة اليتم، والذى انخرط فى أمور المنسر بعد أن ذاق جسده طعم كل أنواع الضرب ممن نصبوا من أنفسهم آباء ليقوموه، من يصدق أن يصير هذا الطفل رجلا يستقبل عروسه عما قريب.

وفاجأت سُلَيْمَة الجميع، فها هى تسهم فى تكوين دار قطب بتربية بط رائعة، وبدواجن تضع دجاجاتها بيض البشاير، وأربعة أعشاش عامرة بالحمام، لا ينقصها إلا التعليق فى السقف، وساق إليه الشيخ كامل زوج أمه عجلة بقر صغيرة، قال إنها جيدة، فشهيتها للطعام مفتوحة عن آخرها، وجسدها الفاضى يبحث عن الامتلاء، وطوال أيام العرس اجتهد أبناء خالاته فى تنظيف أرضية الدار وبناء فرن صغير فى الخلاء الذى تفتح عليه دور الوسية، وكانون صغير أيضا جلب ياسين قطعة حديد رائعة ليدعم حمالاته بها، وجلست الخالات ليعمرن الدار بالغناء والرقص، ومعهن سُلَيْمَة.

وكان الخياط الشهير على أبو اسماعيل القاطن فى المقاطعة قد جاء ليأخذ مقاس قطب، وأصر الشيخ كامل أن يصنع للفتى قفطانا مقصبا أسفل جلبابه تشبها بالكبار فى الأسرة، ولما عرف الناس أن على "أبو" اسماعيل فى دار قطب يأخذ قياسه تسابقوا ليروا بأعينهم الرجل الذى يصنع ملابس الشيخ سليمان السرسى وعمه الشيخ يوسف والشيخ زكريا وابنه نوح.

وكان الشيخ زكريا قد أهدى الفتى مقطع صوف انجليزى فخيم ليكون جلباب العرس، وهكذا فإن كل شيء كان قد تم إعداده، وتكلف الشيخ كامل الشيء الكثير ليجهز داره لاستقبال المهنئين، فقطب كما يقول ليس فقط ابن زوجته الحبيبة، ولكنه فى مقام ابنه، فهو أخ أبنائه الذين رزقه الله بهم من سكينة بعد زواجه من ساجدة لعشرين عاما بغير إنجاب.

عاشت العزبة ليلة غريبة، عرس فقير يميز عن كل ما مر بها من أعراس، فلا هو بروعة عرس نوح زكريا أو عرس يحيى يوسف، ولا صلة له أبدا بعرس الشيخ سليمان الأخير، لكنه عرس متميز بحق، غنى كل السراسوة فيه، رجالا ونساء، ورقصوا ما طاب لهم الرقص، واختلطوا بالمنسر فوجدوا أنهم أناس مثلهم، يتهجون ويضحكون، يغنون ويرقصون، ويخطفون الطعام من بعضهم البعض، وصنع أبناء الخالات طوقا من حول العريس وظلوا يرقصون حتى كادت العروس تتجمد فى جلستها أمام الدار.

بكى فى تلك الليلة من بكى، ولكنهم حرصوا على أن يخفوا بكاءهم، وقبل أن يدخل قطب بعروسه أصر أصدقاؤه من المنسر على أن يدخن معهم شيئا من الحشيش، وهكذا ذكر الاسم المحرم على مسمع من السراسوة جميعا، وإذ نظر الفتى فى اتجاه أعمامه وأزواج خالاته متحرجا ضحك الشيخ زكريا ملء فمه وأقسم ليبدأن هو بأول نفس من الجوزة، وهكذا ضج الجميع بالصخب، فالليلة ليلة زواج يتيم موسى الطوخى، ولا يصح أن يكون فيها شيئا ممنوعا، وتقدم الشيخ زكريا، ومد له أبو دومة الجوزة فجذب نفسا طويلا بدون خبرة، وعندما أفلت الغابة انطلق فى سعال

فكأن رئتيه ستندفعان خارج صدره، وكاد يسقط على جانبه فضج الجميع بالضحك.

لم يحضر الشيخ سليمان حفل زواج قطب من زبيدة، إذ كان مريضا بنزلة برد شديدة، هذا ما قاله أبناؤه، وتهكمت سُلَيْمَة، فهى لا تصدق أن زوجها مريض، وإذا كان مريضا حقا فمرضه يدعى فوزية، وتصنع من سمع حديثها الابتسام، فهم لا يريدون أن يضحكوا من قريبهم حتى وإن كان مقصرا، وقبل أن ينصرف الليل فوجئ الجميع بيحيى ابن الشيخ يوسف السرسى قادما هو وزينب، وكان الأبناء الآخرون بمن فيهم رفقى قد قدموا من أول الليل وانضموا إلى أبناء الشيخ سليمان، بمن فيهم ابن المرحومة أمينة الجمل الذى كان قد انتقل ليعيش مع أخواله فى المنصورة عندما سقطت الجدة مريم مريضة مرض وفاتها.

بانضمام هؤلاء كبر الطوق من حول العريس الذى ما أن انتهى من تدخين الجوزة كطلب رفاقه حتى عاد ليتوسط دائرة أبناء الخالات والأخوال، وكاد الفتى يسقط من تأثير الحشيشة القوية التى جعلت رأسه يدور مع دوران الطوق المحيط، وجاءت لحظة دخول العروس إلى الدار، ضيوف السراسوة من أهل ديرب نجم كانوا من الكثرة بحيث توزعوا على مختلف الدور ليحظوا بواجب الضيافة، وكان الشيخ كامل السيد قد أصر على أن يولم للضيوف، ولما كانت رقة حاله معروفة فقد اشترك معه ابنا عمه الشيخان زكريا وعمر، وهكذا وبمعاونة الخالات صنعوا طعاما كثيرا فاض عن حاجة المدعوين والضيوف.

الماشطة المرافقة للعروس القادمة من ديرب نجم دخلت مع الفتاة، وأصر قطب على أن يخرجها، لكن خالاته منعنه فقبل وجودها على مضض، وكانت أمه قد سلمته قطعة شاش بيضاء ليأخذ عرض عروسه عليها، وهكذا وبدون أن يبدو عليه التوتر لف قطعة الشاش حول إصبعه، وحاولت الفتاة أن تضم فخذيها فلطمتها الماشطة لتفرجهما، ومد قطب إصبعه وجاهد قدر استطاعته ليدخله برفق فى عروسه المرتعدة، وظهر الدم فزغردت الماشطة، وجاوبتها النساء خارج الدار بالزغاريد والغناء، وأعاد السراسوة ذكرى قديمة يعرفها الصغار والكبار، ذكرى دخول جدهما الأكبر أحمد السرسى على جدتيهما حورية وسرية، وغنت النساء، وفى أعماقهن غنى الرجال أيضا:

يا صْغَيَّرْ يا طبق الورد

يا صغير يا طبق الورد

يا صغير قولوا لابوها

يا صغير قولوا لاخوها

ييجى يحضر بياض العرض

زيارة الشيخ سليمان للعروسين بعد أيام خففت من غضب بنات مريم الدفين، جاء ومعه زوجته الجديدة فوزية، وعرف الجميع أنه لم يصحبها بغرض انصهارها فى محيط أقاربه، ولكن لأنها ألحت عليه بأن يصحبها، إذ هى تضطرم بالرغبة فى رؤية عرس فلاحى، وكانت قد ألحت عليه كثيرا ليلة العرس ليأخذها لترى الحفل، لكنه رفض بشدة، وها هى تأتى معه

لزيارة العروسين بعد أيام ثلاثة من دخولهما، ورأى السراسوة ابنة محمد حفظى بك وهى تضع معطفا صوفيا رائعا أسفله فستان يطول إلى ما فوق القدمين بقليل، وتضع على رأسها حبرة سمراء ويشمك من التل الأسمر يظهر ما تبقى من وجهها كفلقة قمر.

أثار حضور فوزية حفظى ارتباكا فى الدار الصغيرة الواطئة، فبحثوا عن مقعد لتجلس عليه لكنهم لم يجدوا فى كل الدور القريبة، وسابق ياسين ابن الخالة رئيفة الريح ليحصل على مقعد من دار عمه الشيخ زكريا، وظلت فوزية واقفة حتى جاء ياسين بالمقعد فوضعوه لها عند باب الدار وأجلسوها، وظل الحرج باديا على وجوه الجميع فترة طالت إلى حد تصوروا أنه بلا نهاية، لكن خروج النساء والأطفال من الدور ليشاهدوا زوجة الشيخ سليمان الجديدة هون الأمر، وجعلهم ينسون حرجهم وهم يبحثون عن مقعد، و لم تكن سُلَيْمَة لتفلت تلك الفرصة حتى يقارن السراسوة بين زوجتى الشيخ، ويعرفوا أن جمالها هى من نوع خاص، لا يدخل فيه غش المساحيق ولا تفرضه الصنعة، فجاءت هى الأخرى مصطحبة ابنها الأصغر عبد العزيز، ترفل فى فستان أحمر زادها رونقا، فكانت وهى الأم التى صار أبناؤها رجالا أجمل من الزوجة الجديدة التى تجلس باقتدار فوق المقعد الذى جلبوه لها من بعيد، ولا تنتبه لما تفعله ضرتها التى دخلت إلى دار العرس بجلبتها المعتادة.

لن تمر أيام حتى يصحب الشيخ سليمان زوجته الجديدة فى زيارة إلى "مصر" بحجة زيارة أهلها، وسيعرف القاصى والدانى أن الزوجة الجديدة اشترطت على الشيخ أن يشترى لها دارا فى المنصورة لتقيم فيها، بعيدا عن

ضرتها التى تسلقها بلسانها الحاد كل يوم، والتى تمنع عنها صالحة وريحانة حتى لا تجد من يخدمها، بل إن الخادمة فرندة التى جلبتها معها من "مصر" وهى امرأة سوداء تتحدث بلغة عجيبة لاقت هى الأخرى معاملة قاسية منها، ومن النساء اللائى يخدمنها ليل نهار وتمنعهن من المعاونة فى فعل أى شيء فى جناحها، وعندما سمع الشيخان زكريا وعمر تلك الأنباء ضحكا فى سخرية، وقالا:

– وها هى أرض جدك تضيع يا سليل المشايخ!

فإذا كان مقبلا على شراء دار لعروسه الجديدة فى المنصورة، فهذا لا يعنى إلا أنه لن يقدر على شراء أرض عمتيه، الست ومهدية، ويعنى أيضا أنه سينتقل ليعيش فى المنصورة بعيدا عن أرضه، وعزبة أبيه وأجداده.

لم تدعه سُلَيْمَة يقترب منها بعد زواجه من فوزية، إلا بعد أن أقسم على نقل فوزية إلى دار بعيدة، كان يمكنه أن يجبرها على معاشرته، لكنه لم يشأ أن يضربها أو يغصبها على فعل ذلك وهو الذى جرحها وآلمها بتصميمه على الزواج من غيرها، مرتين وليس مرة واحدة، وهكذا تركته ينعم بها معطية إياه كل ما بخلت به فى الأعوام السابقة، حتى أنه كان يتلهف على أسبوعها فيأتى إليها والشوق يسبقه، ولم تكن تتهيب وجود أبنائها فى الدار، بل كان هو الذى يفعل، لذا فإنه كان إذا أرادها يعمل المستحيل ليخلى الدار من الأبناء، وعندها ينعم بها تجره إلى غايات لم يبلغها من قبل، ثم تعيده إلى واقعه بعد أن تهدهده كطفل.

كثيرا ما تساءلت عما يغرى الباشوات فى الإلحاح على مصاهرة الشيخ

وإعطائه ابنتهم التى تقارب أبناءه فى العمر، و لم تجد حسب رأيها سببا واحدا، وفى إحدى الليالى سألته دون حرج عن ذلك، فانخرط فى ضحك صاف كنبع، و لم يجب على سؤالها، لكنه وجه إليها سؤالا بالمقابل:

– أتراك حقا لا تعرفين قيمة زوجك؟!

وتمنت لو سألت الفتاة فوزية نفسها عما تراه فى زوجها، لكنها لم ترد أن تذهب بخيالها إلى أبعد مما تريد، فأوقات تلصصها على ضرتها حتى صارت عادة يومية أنبأت عن حب كبير تكنه الفتاة لزوجها، ولولا أن سُلَيْمَة تستميت لتجعل من حياتها فى العزبة لعنة كبيرة لهنأ للفتاة المقام، فسُلَيْمة على يقين من أن ما تفعله بها هو ما يدفع الفتاة لأن تحاول الاستقلال بدار بعيدة.

لكن سُلَيْمَة لم تتوقع أن تكون الدار الجديدة التى ستستقل بها الفتاة فى المنصورة، وعندما بلغها الخبر شعرت بالحرائق تأكل قلبها، فهذا لا يعنى إلا أن فترات غياب زوجها عن العزبة ستطول، وقد ينتهى الأمر إلى إقامته هناك بصورة دائمة، وهكذا انقلب السحر على الساحر، لكن جعبتها لا تفرغ من الحيل، هكذا راحت تقول لنفسها، وفى إحدى المرات دفعت ابنيها الكبيرين حمدان ومختار لأن يفتعلا شجارا مع عمال أراضى عمتيه الست ومهدية، غرضها أن تدفعه لشراء الأرض فيتعطل مشروع شراء الدار الجديدة، ووقع الشجار بالفعل بين عمال زراعة أرض العمتين والولدين، بل إن رأس مختار أصابه حجر فأحدث به جرحا سال منه الدم، ورأت سُلَيْمَة أن تدع الدم على ملابس ابنها حتى يراه أبوه.

تحقق لسُلَيْمَة ما أرادت، ولكن من طريق غير التى فكرت فيه، فالشيخ الذى بلغه خبر تشاجر فلاحى عمتيه مع أولاده أدرك أنه لا يمكنه الابتعاد عن العزبة فترة طويلة، وهو إذا اشترى دارا فى المنصورة سيضطر إلى غياب طويل، تتعطل بسببه مصالحه فى العزبة، وأولاده لا يقدرون على تسيير الأمور فى غيابه، لذا فقد أرجأ حتى حين مسألة شراء دار فى المنصورة، واستطاع أن يقنع زوجته الجديدة فانصاعت لرأيه مضطرة، بعد أن رأت بنفسها دماء مختار تلوث ملابسه، وامتد بصرها ذات مرة إلى الدار الصغيرة المقابلة، التى كان يشغلها قطب قبل انتقاله إلى دار الوسية، لكنها سرعان ما صرفت النظر عنها، فجناحها الذى تقيم فيه مجهز بطريقة تجعل الحياة فى العزبة مقبولة إلى حد كبير، ودونهم وإعداد الدار الصغيرة المقابلة أمور قد تطول إلى حد بعيد.

وجاء عرس حمدان على عروسه لتزداد صعوبة الانتقال إلى المنصورة، بل ولتقترب من درجة الاستحالة، فمدخرات الشيخ لم تكف بجانب تكاليف زواج حمدان إلا لشراء بضعة أفدنة من أرض عماته، وهو لا يستطيع أن يدفع ما معه على أنه مقدمة ثمن الأرض كلها، فسرعان ما سيأتى الوقت الذى سيكون عليه فيه أن يسدد باقى الثمن فلا يستطيع، وهكذا بعد أن دعى الشيخ يوسف السرسى ليشترى ما تبقى من أرض أختيه وكان الجزء الأكبر انطلق السراسوة ليشتروا الأرض، فاشترى الشيخ عمر فدانين، وكذلك فعل الشيخ زكريا، وعجز الشيخ كامل عن الشراء، واشترى سيد احمد الطوخى فدانين هو الآخر، ولما تقدم صالح أبو العز

القادم من نواحى دكرنس لشراء بعضها وكذلك حسين القماش رفض الشيخ سليمان بشدة، وأوعز إلى أنسبائه من جماعة حفظى أن يشترى ما تبقى فضمها هاشم باشا إلى أملاكه المجاورة.

واستأجل الشيخ عمتيه فى شراء نصيبهما فى دار جده، وفرض لهما دار عمته مريم مقابل نصيبهما، حتى إذا استطاع أن يتدبر أمر شرائها يضمها ونصيبيهما فى الجرن إلى داره، وهكذا عادت دار الجدة مريم لتكون دار أختيها الست ومهدية، وأعطى الشيخ عمر مفتاحها فرأى أن الوقت صار مناسبا لأن ينتقل قطب بزوجته للعيش فيها بدلا من الدار التى أثار أمر سكن قطب فيها حنق مكرم بشاى بك، نتيجة لوشاية كاتبه نسيم أفندى، الذى كانت مهمته إبلاغ البك بالتجاوزات التى تحدث من السراسوة، واستطاع الشيخ عمر أن يحصل على موافقة ابن أخته، وفى ليلة رائقة لمعت فيها النجوم فى صحن السماء كأنها مصابيح انتقلت زبيدة لتعيش فى دار الجدة مريم، التى شهدت طفولة زوجها وصباه، وتلقت سُلَيْمَة نبأ انتقالهما للعيش فى الدار القديمة بابتهاج وقلق.

فسُلَيْمَة كما قطب، كلاهما لا يعرف إن كان ما يكنه للآخر هو الحب أم أنه شعور آخر، فعندما انخرطت فى شئون زواجه لم تشعر بأى قدر من الغيرة، والمحب لا يفعل ذلك، وقطب لا يفكر فيها أبدا إلا وهى عارية مرتمية فى حضنه، ولا يؤرقه أمر علاقتها بزوجها الذى هو خاله، أللهم إلا فى إطار ما يأخذه عليه من الاستهانة به واعتباره نبتة فاسدة فى حياة عزبة جدهم الشيخ أحمد السرسى، ولكنه لا ينكر أنها تبعث فيه كلما رآها نارا

تأكله فلا يستطيع الفكاك منها، والطريقة الوحيدة التي يمكنه معها الفكاك من أسرها هو تجاهلها، وتعمد نسيانها، وهو الأمر الذى لن يتأتى أبدا طالما سيراها أمامه كل يوم.

وكان الشيخ سليمان قد طلب من الباشا عندما تقدم بناء على طلبه لشراء أرض عمتيه أن يطرد العمال الذين اعتدوا على ولديه، واستجاب له الباشا، وطلب من ناظر زراعته أن يستعفى أولئك العمال من الزراعة، وعرف العمال أن مشاجرتهم مع ابنى الشيخ هى السبب فى طردهم من الأرض التى آوتهم سنين طويلة، و لم يكن قطب ليدع الأمر يمر هكذا دون إدخال السرور إلى قلب سُلَيْمَة، فسألها إن كانت تريد أن يلقن هؤلاء العمال درسا قبل أن يرحلوا، لكنها رفضت أن يفعل بهم شيئا، فهى التى أوعزت إلى ابنيها ليستثيروهم ويتشاجروا معهم، و لم تكن لتفعل ذلك ثم تأمر بالاعتداء عليهم من جديد، فيكفيهم – كما قالت – ذل السؤال وقهر الحاجة، وقسوة الانتقال بأطفالهم وأسمالهم إلى الضياع، بحثا عن مكان يؤويهم، وقطعة أرض يزرعونها.

لكنها أدركت مغزى سؤال قطب، إذ هو يخبرها بوضوح تام أنه عند طلبها، فإذا هى طلبت شيئا، أى شىء، فهو الملبى دائما، وشطح بها الخيال فرأته مستعدا لفعل أى شىء، حتى ولو كان ذلك الشىء هو قتل خاله، وعند هذه النقطة توقفت عن الإسهاب فى الخيال، فهذا الفتى الطويل كرمح، الأسمر كليل سطعت نجومه يقبع على بعد أمتار، فى دار جدته، ليلبى نداءها إن هى أرادت، وتذكرت ذلك الحضن العجول الذى ضمهما معا، والقبلة المتلهفة التى لم تكد تستقر حتى فارقت، وتمنت فى

قرارة نفسها لو أنها طالت قليلا، تلك القبلة الحارة التى تشققت بسببها شفتيها.

لم يشعر السراسوة فى عرس حمدان بالحميمية التى شعروا بها وهم يبتهجون بعرس قطب وزبيدة، فأيادى مؤمن ونافع النجدى ورزق وشاهين الطحان تحمل أعواد الخيزران لتطرد المتطفلين، فإذا كان الشيخ يدعوهم لحفل عرس ابنه الأكبر فلماذا إذن يكلف رجاله بملاحقتهم، وسأل بعضهم "قطب" إن كان عليهم أن يصدقوا دعوة خاله لهم، والتى حملها إليهم مؤمن إبراهيم؟!، أم أنه لا يقصد منها إلا ذر الرماد فى العيون، وعدم إثارة غضب أخواله وبخاصة خاله الشيخ زكريا الذى لا يتردد فى مواجهته بنقائصه كلما أوغل؟!، و لم يجد قطب ما يجيب به سوى أن يقول:

– اسألوه بأنفسكم

وابتسم فى مرارة وهو يردف:

– فليس لدى إجابة على سؤالكم

وجرى العرس على نحو ما يتوقع الجميع، فلقد دعى السراسوة و لم يحضروا، إلا قليل منهم بطبيعة الحال، وامتلأت الدار الكبيرة بالضيوف من كل نوع، الحفظية بباشواتهم وبكواتهم وأفندياتهم، وعائلة الجمل بكواتهم وأفندياتهم وطرابيشهم القانية، وأهل العروس ببذلاتهم الغريبة وقمصانهم المنشأة ونسائهم الرائعات الحسن، وأصدقاء الشيخ من أبناء مساعد السمدانى القديم، ومحمد حسنين وإبراهيم شلباية، بجلابيبهم الصوفية الباهظة وقفاطينهم المقصبة وطرابيشهم المشرعة بأزرتها السمراء التى تلعب من حولها وتهتز كأنها الحياة.

و لم يطق قطب أن تبقى زوجته فى الفرح دقيقة واحدة، فلقد رأى بأم عينيه وسمع بأذنيه المشرعتين من يطلبها لتعاون فى غسل الأطباق وتنظيف أماكن الطعام، ورأى أن ذلك لا يعنى إلا أنهم لا ينظرون إليها إلا كخادمة، شأنها شأن صالحة زوجة نافع النجدى وريحانة زوجة رزق الحبال، وغيرهن من النساء العاملات فى الزرائب والدوار، وعندما حاولت زبيدة أن تجادله لطمها لطمة طقت منها عيناها بالشرر، وكانت أول مرة يضربها، فانسحبت من العرس باكية مكسورة القلب، وتعجبت من الرجل الذى حولها إلى حزينة فى يوم يبتهج فيه كل الموجودين.

وكأنما أدركت سُلَيْمَة ما دار بين قطب وزوجته، فعندما انتهى الحفل ودخلت العروس إلى حجرتها تفقدت زبيدة فلم ترها، وسألت عنها فأخبرتها ريحانة بما كان من أمر قطب معها، فدخلت من فورها إلى الطباخ وأمرته بإعداد صينية فيها من كل ما أعده من طعام، وفوجئ قطب وفوجئت زبيدة بأم العريس وهى تدخل عليهما الدار حاملة فوق رأسها صينية الطعام، هى بنفسها وليس فوق رأس إحدى خادماتها، وقبل أن يهب قطب لمقابلتها ليحمل عنها الصينية فاجأتهما بقولها:

– تتسللون خلسة حتى لا تأكلون طعام عرس حمدان؟!

وقبل أن يجيبها أحدهما أردفت:

– يا عيب الشوم.

أعقاب حجرة الخزين

أول من لاحظت تباطؤ نعم وانحراف مزاجها كانت أمها، إذ لما تزوجت أختها مليكة أصابها خوف لم تعرف كيف تفر منه، أو كيف تتظاهر بأنه ليس هناك، يسكنها ويقض مضجعها، ويحرمها النوم، ولأنها لا تعرف كيف تدارى جزعها شحب لونها وسكنت هالات سوداء حول عينيها، وتعجبت شكران، فى بادئ الأمر ظنت أن ما تراه من شحوب فى وجه ابنتها راجع إلى تعاقب عرسين على الدار، عرس يحيى وعرس مليكة، و لم ينل أحد من أهل الدار كفايته من الراحة والنوم على مدى شهر أو يزيد، ونعم هى الأخرى لم تنل كفايتها من الاثنين، النوم والراحة، فضلا عن ابتعاد أختها عنها، وشكران تعرف كم كانتا متقاربتين، لكنها لاحظت أن الأمر فى ازدياد، فالشحوب يزداد، وهالات السواد المصاحبة للأرق تبدو واضحة، فداخلها شىء من القلق.

لم تلحظ شكران كثرة غياب ابنتها عن عينيها، ولا بقاءها فترات طويلة فى الحمام، ولن تربط بين ذلك وغياب حراز الطباخ، والتعلات الواهية التى يأتى بها كل مرة، وأنى لها أن تربط بين الأمرين، وهى التى منذ أن

حاضت ابنتها مليكة تراقب تعاقب دورتها الشهرية، هى ومن تبلغ من البنات، ولا تخجل أن تسأل كل بنت من بناتها عما إذا كانت دورتها قد جاءت أم لا، ومؤخرا حاضت ابنتها نوران، ودخلت هى الأخرى فى مضمار المراقبة، لكن شحوب نعم أربكها فنسيت أن تسأل عن قدوم دورتها.

هذا بالضبط ما كان يقتل الفتاة قتلا، فقبل موعد مجيئ دورتها بأيامٍ كثيرة شعرت بحدة الروائح فى أنفها، وعافت الطعام فلم تعد تطلبه إلا لكى لا يلحظ أحد من أهل الدار شيئا، وبخاصة أمها التى تفتش عن دورات بناتها كل شهر، وعندما تستيقظ من النوم تشعر بميل إلى القيء اجتهدت لتداريه عن الجميع، ومنت نفسها أن يكون كل ما تشعر به بسبب الخوف وليس أكثر، ولم تستطع أن تروح فى النوم إلا كما يغفو العصفور، دقائق قليلة وتستيقظ على رعب يجمدها فى سريرها، ولقد مر موعد مجيئ دورتها ولم تر فى سروالها إلا نقطة وردية باهتة، توقعت أن يعقبها الطمث، ولما لم يأت أسقط فى يدها.

لا تعرف إن كان قرارها بالحديث مع حراز صائبا أم لا، لكنها اندفعت لتخبره، ألحت مرات ليلحق بها إلى حجرة السطح لكنه لم يستجب، المرة تلو المرة، ولما خشى أن ينكشف أمرهما لحق بها على مضض، لم تكن أمها فى الدار، كانت فى زيارة أختها مليكة، وقد طلبت منها أن ترافقها، لكنها تعللت بالتعب فتركتها وهى متعجبة من صدود نفسها عن كل شيء، وهكذا خلت الدار من رقيبها الذى تخشاه، لذا فإن لقاءها بحبيبها امتد لبعض الوقت، رغم محاولاته المتكررة لإنهاء الموقف، لكنها كادت تصرخ

فيه، فدورتها الشهرية لم تأت فى موعدها، وهى تخشى أن تكون حاملا، وعندما وصلت إلى الكلمة الأخيرة همست بها وهى تلطم خديها.

لا يعرف حراز كيف يتصرف حيال ما يسمع، ولكنه على يقين من أن شيئا فظيعا سيحدث عما قريب، ولن تكون الحياة بعد ما سمع من أخبار مثلها فى السابق، لكن منظر الفتاة وهى تلطم خديها وتبكى أمامه جعله يتسمر فى مكانه لحظات، تمنى لو أنه لم يعمل يوما لدى هؤلاء الناس، فهم ليسوا فقط بعيدين عن كل الناس بعدا يجعلهم وكأنهم يعيشون فى عالم منعزل، إنهم أيضا أقارب أسرة التونى التى لا تجيئ سيرتها إلا بالسوء، وذكرياتهم القريبة والبعيدة لا تحمل إلا كل شر، والسراسوة أهل أبيها يؤوون المنسر لديهم، وتلك المرأة الغريبة التى يسمونها الجارية، التى تشرب من دم الضحايا كما يشيع الناس.

ربما تكون تلك هى اللحظة التى قرر فيها أن يترك العمل، مقدرا أنه إذا غادر فإنه لن يكون مضطرا للبحث عن سبيل للخروج من المصيبة التى وقع فيها، لم يكن أمر الفتاة فى تلك اللحظة وما ستواجهه هو ما يقلقه، وإنما الربط بينه وبين المصيبة التى وقعت، فهو إذا ترك العمل قبل أن يكتشف أحد أمر الفتاة فإنه ساعتها يستطيع أن يتخلص من اتهامهم له، وحتى إذا اتهموه فإنهم سيحرصون على أن يكون الأمر فى طى الكتمان، حتى لا يفضحون أنفسهم، بل إنهم قد يكفون على الخبر ماجورا ويتكتمون أمرهم ليتخلصوا من الفضيحة التى ستلطخ سمعتهم بالعار، ولن يكلفه الأمر إلا افتعال خلاف مع أحد من أهل الدار، وزوجة ابنهم الجديدة ستكون هى الفرصة المناسبة، فسيدة الدار أظهرت مبكرا عدم ارتياحها

لها، ولقد سمعها بأذنيه تشكو لزوجها صلف الفتاة وعدم استجابتها لإرشاداتها، بل ودفاع يحيى عنها بصورة تغضبها على طول الخط.

لم يكن فى تلك اللحظات معنيا بما تقوله نعم، ولا بما تفعله فى نفسها، فكانت هى التى تتحدث طوال الوقت، وهو يؤمن على ما تقول، حتى إذا ما بدأت تسأل إن كان سيبحث عن طريق للتخلص مبكرا من عارها ومصيبتها فإن حركة رأسه الموافقة وكلمة نعم الوحيدة التى يجيب بها كانت هى كل ما يملك، فعقله المضطرب يتخبط هناك فى متاهة الرغبة فى الفرار من الموقف، إن لم يكن من الدنيا كلها، فلقد دخل عقله فى منطقة الذكريات التى لا تحمل دهاليزها إلا الخوف، ذكريات الحرب الضروس التى انطلقت قديما بين أسرته وعائلة التونى، والتى يصر أهل الربع على نعتها باسم جلبى تدليلا على أنهم أناس مجهولو النسب ومجلوبون من خارج البلاد.

لا تعرف نعم إن كان عليها أن تهدأ لتأكيد حراز أنه سيبحث عن حل لنجدتها وتخليصها من مصيبتها، أم عليها أن تبحث لنفسها عن حل فى مكان آخر؟، وعندما وصلت إلى هذا الفرض تركت نفسها تسقط على الأرض، بين أجولة الأرز وبراميل القمح والدقيق، فلم تكن قد نزلت من حجرة السطح خلف حراز، وفضلت أن تبقى لفترة حتى لا يقرن أحد بين نزولهما من فوق السطح، لكن زينب زوجة يحيى ربطت بين صعودهما إلى السطح، وظلت ترقب نزولهما فلاحظت نزول الطباخ وهو يتعثر فى خطاه، وظلت جالسة فى الصالة حتى نزلت نعم، وعندما سمعت دبيب

قدميها فوق الدرجات الهابطة انشغلت بعمل شيء ما، حتى لا تعرف الفتاة أنها تراقبها.

تيقنت زينب أن ثمة سر بين نعم وحراز، فلم تكن مراقبتهما وهما يتسللان إلى السطح، ثم وهما يهبطان من هناك الواحد بعد الآخر هو الأمر الذى دفعها لهذا الاعتقاد، سبق وأن لاحظت اهتمام نعم به، ولقد رأتهما مرات ونعم تشير إليه بإشارات لا تكون أبدا إلا بين المحبين، وعندما يتولى وضع الطعام على المنضدة تساعده، ولكم رأتهما وهما يتهامسان بكلمات قليلة يعرفان كيف يختلسانها اختلاسا من وراء الظهور، ولكنها متأكدة من أنها بمفردها هى من لاحظ تلك العلاقة المريبة، إذ لو أن أحدا آخر لاحظ ما يدور فلا بد أن الأمر كان سيصل إلى حماتها، شكران الرهيبة التى تسمع دبة النملة فى دارها، والتى تعرف فراخ دارها، ومن منها تحمل بيضتها، وأين ستضعها.

وحتى يعود عمها وأبناؤه مع المساء أو بعده فى الكثير من الأحيان تكون الدار أنثوية تماما، واليوم تغيب شكران لدى إبنتها فى ميت خميس القريبة من المنصورة، ولا يوجد فى الدار إلا هى وجدتها مليكة، التى تغلق على نفسها باب حجرتها طوال الوقت، ولا تخرج إلا لتذهب إلى الحمام فى زيارات قليلة معروفة الوقت، وقد تدق بعصاتها على حرف طستها لتقوم إحدى الخادمات بدلق الماء المتخلف عن وضوئها، وبعد أن انفجرت حكاية عبد الماجد وريحانة امتنع أهل الربع عن إرسال بناتهن للخدمة فى الدار الكبيرة المنعزلة، و لم يعد هناك إلا امرأة كبيرة فى السن تدعى هندام

تقوم على خدمة الجدة، وهى معظم الوقت ترافقها فى حجرتها، فلقد شكت الجدة لابنها من قيام زوجته بأخذ خادمتها منها، وصدر الأمر من الابن بألا تفارق هندام حجرة أمه إلا برأيها.

فى ذلك اليوم استأذنت هندام من الجدة مليكة لتساعد حراز فى أعمال المطبخ، ولأن شكران غائبة وليست هى صاحبة الاقتراح فإنها سمحت للخادمة بمساعدة الطباخ دون إلحاح، ولم يكن بالدار بخلاف هؤلاء إلا هى، ونوران الصغيرة التى تلهو هنا أو هناك، ونعم التى لا تنخرط فى شئون الدار كما يجب على فتاة فى مثل عمرها، وتحبس نفسها فى حجرتها على عادتها فى الفترة الأخيرة، بيد أنها خرجت دون مقدمات وجلست قليلا فى الصالة، ونادت على هندام لأغراض بسيطة طلبتها، وأدركت زينب أنها ربما تلفت نظر حراز إلى أنها فى الصالة، إذ سرعان ما ظهر الفتى متعللا بالرغبة فى الحصول على بعض الأوانى من البوفيه الكبير الذى يشغل ركنا كاملا من أركان حجرة الطعام الفسيحة، ورأتهما زينب وهما يتبادلان الإشارات، أعقبها انسحاب نعم إلى السطح المرة بعد المرة، إلى أن لحق بها.

هل يجب عليها أن تخبر أحدا بما رأت؟، أم عليها أن تبتلع لسانها وتصمت؟، وماذا لو أن نعم واقعة فى علاقة شائنة مع الطباخ!؟، موقف محير كان عليها أن تواجهه بغير معين، فلا هى تقدر على البوح بسر الفتاة لزوجها، إذ هى بذلك تكون قد أوصلت الأمر إلى أبعد نقطة، وهى لا تريد ذلك، ولا هى تقدر أيضا على التلميح بذلك لحماتها، فهى امرأة

شرسة بأكثر كثيرا مما كانت تظن، ولا تستبعد أن تصنع من ذلك واقعة رهيبة، وينتهي الأمر باتهامها بالعمل على تسويئ سمعة بناتها، ولم يكن أحد إلى جوارها يمكنها أن تستشيره في الأمر، وعلى طريقتها في اتخاذ إي قرار وضعت نفسها موضع أبيها وسألت نفسها ماذا تفعل، وتلقت الإجابة واضحة بغير غموض، عليها أن تعمل قبل أي شيء على طرد حراز من الدار، فتطورات الأمر قد تطال أي أحد في الدار، وهي أول من ستطالها.

جاء الأمر للفتى على الطبطاب، فالخلاف الذي يبغي افتعاله سعى إليه بدون عراقيل، إذ لما طلبت الجدة مليكة هندام لشأن من شئونها أبطأت المرأة في تلبية طلبها، الأمر الذي دعى الجدة لأن تصرخ في حجرتها، وتبكي بكاءها المر الذي أخذت في انتهاجه في الفترة الأخيرة، وهو ما دعى زينب لأن تتوجه إلى المطبخ لتعنف المرأة، لكن حراز قال بهدوء إنه هو من طلب منها ألا تلبي نداءها الآن، فأمامهما أعمال كثيرة يجب إنجازها، وأشار إلى الحوض المليء بالأواني والأطباق التي تحتاج إلى غسيل، ولم يكن حراز قد تجرأ على محادثتها بهذه الطريقة من قبل، واعتبرت هي أن هذا تجاوز منه فالتفتت عما قال وتوجهت إلى المرأة بكليتها، وطلبت منها بغير تلكؤ أن تترك ما في يديها وتتجه من فورها إلى سيدتها، ولم يعجب الفتى تصرفها فغمغم بكلمات فهمت منها أنه يصفها بالمتسلطة كبقية أهلها.

وكان أول ما أبلغت به زوجها هو ما وقع من الطباخ الصفيق، هكذا

وصفته، و لم يكن يحيى من الشبان المتسرعين، لذا فلقد استدعى حراز وواجهه بما قالت زوجته، لم يكن فيما فعل يحيى خطأ يستوجب غضب زينب، لكنها اعتبرت أن مواجهة الطباخ بقولها يعنى أنه يريد أن يستوثق من صدق ما أخبرته به، ولكنها لم تظهر غضبها، وانتظرت حديث الفتى لزوجها، فإذا بالفتى يمضى فى غيه ويعترف بأنه فى الحقيقة قال ما سمعته زوجته بالحرف الواحد، وأنه قال ما قال ردا على إهانتها له، لما تجاهلت حديثه ونهرت هندام لتدع المطبخ المرتبك وتذهب لترى ما تبكى من أجله الجدة الكبيرة، و لم يكن الشيخ يوسف قد فتح فمه بأى كلمة انتظارا لما سيسفر عنه تحقيق ابنه فى الأمر، وعندما وصل حديث الطباخ إلى ذكر ما ذكره عن أمه، اعتبر الرجل أن الفتى تجاوز كل الحدود فثار فى وجهه طالبا أن يغرب عن وجهه فى الحال، وفى لمح البصر اختفى الفتى، تاركا المنضدة عامرة بالأوانى والأطباق التى تحتاج إلى رفعها، والمطبخ على حاله من الارتباك الذى يحتاج إلى إعادة النظام إليه.

لم يلحظ أحد إلا زينب اضطراب نعم، بدا على وجهها أنها تختنق، وتكاد تموت، وعندما ترك الفتى حجرة الطعام كادت تنهض وتمضى وراءه. فى تلك اللحظة بالتحديد اخترق شيء قلبها، شعرت بأن الأمر يبدو أكبر مما خمنت، وكأنما خشيت أن تتصرف نعم بطريقة تفضح علاقتها بالطباخ فانتهزت فرصة قيام نوران من جوار أختها وانتقلت دون أن يلحظ أحد لتجلس إلى جوارها، و لم تكد نعم تعود إلى رشدها – بعد أن كانت الأصوات تأتيها غريبة ومنفرة، وغير مفهومة – حتى وجدت زينب تجلس إلى جوارها، وتصورت للحظات أنها ربما تكون إلى جوارها

منذ بداية الطعام، لكنها سرعان ما أدركت خطأها عندما عادت نوران لتجلس إلى مقعدها، ولما وجدت زينب تشغله توجهت لتجلس إلى جوار أخيها يحيى.

كل الرجال فى دار الشيخ يوسف السرسى يذهبون إلى النوم مبكرين، فهم يستيقظون مع أبيهم فى الفجر، وقبل أن تشرق الشمس يكونون قد أدوا معظم أشغالهم فى الغيط، أو فى الزرائب التى برعوا فى تربية الماشية والقطعان بها، وعندما يجيء وقت الغذاء يرسلون فى طلب الطعام فيأتيهم حيث يتواجدون، فقد يكونون عند مجمع السواقى التى تروى أراضيهم، يباشرون النجارين الذين يعملون فى صيانتها، أو عند إحدى العرائش المنتشرة فى غيطانهم الواسعة، أو عند أطراف الغيطان يشرفون على تشوين نقلات السباخ التى جلبها العمال على الحمير المدربة، وفى كل الأحوال فإنهم يتناولون الطعام حيث هم ولا يعودون إلى الدار إلا بعد الغروب.

لكن يحيى اضطر إلى مجاراة زوجته فى السهر، كما اضطرت هى إلى مجاراته فى الذهاب إلى النوم مبكرة، وفى بادرة حب رائعة اتفقا على أن يسهرا قليلا ويذهبا إلى النوم مبكرين على قدر المستطاع، لذا عندما ذهبت زينب إلى النوم مبكرة أدرك يحيى أنها ربما تكون غضبت لما بدأ فى سؤال الطباخ عما دار بينهما، لكن زينب كانت قد نسيت الأمر، ولم يعد يشغلها إلا علاقة نعم بطباخهم المطرود، التى لم يلحظها أحد فى هذه الدار الكبيرة المكتظة بالأشخاص، وفى اللحظة التى شعرت فيها أن يد زوجها الحانية تربت عليها كانت بصدد اتخاذ قرار بضرورة مفاتحة

الفتاة فى الأمر، بصورة أو بأخرى، فربما استطاعت أن تتدارك الأمر قبل تفاقمه.

لكن نعم سبقت الجميع، إذ لما غادر فتاها الدار مطرودا أدركت أنها الآن صارت بمفردها، لا يعرف أحد ما الذى شعرت به وهو يمضى مطرودا وغاضبا، فلقد وقع الخلاف كأنه قدر يعاقبها، أو هو قدر يجردها من سند تلجأ إليه للتخلص من عارها، لذا فإنها وقد أدركت أن هذه الليلة بالتحديد هى الفيصل بين فضيحتها وسترها قررت أن تتخلص من أختها نوران وتنفرد بحجرة أخرى كانت مخصصة لشقيقتها مليكة قبل زواجها، فأمها ستعود فى الغد، وإذا عرفت أن دورتها لم تجيئ سيحدث شىء قد يكلفها حياتها، وهى الآن لا تخشى الموت، ولكنها تخشى الفضيحة، لأبيها الذى يتيه على أقاربه، ولأمها التى يناصبها الجميع العداء، ولأخوتها الذين ينطلقون فى عوالم الرجولة غير هيابين، وحتى لأختها المتزوجة التى سينالها كل الضرر من الفضيحة، ولشقيقتها الصغرى نوران، التى لن يتقدم لخطبتها أحد متى دخلت فى سن الزواج الذى يطرق الأبواب بإصرار.

لكنها لا تعرف كيف ستتصرف، فكل خبراتها فى هذا الأمر تعود إلى ما سمعته لما أدرك ريحانة خادمتهم القديمة الوقت وتأخرت دورتها، وكيف أنها كانت تصعد لأعلى مخازن الحبوب فوق السطح ثم تقفز من فوقها، وكيف أنها أيضا كانت تضرب بطنها بقوة لتتخلص من حملها، ولما لم تجد تلك الأشياء حملتها أمها إلى إحدى السيدات فى القرى البعيدة وتمكنت من إجهاضها، متعللين بمرافقتها لمليكة فى زيارتها لأقاربهم فى "مصر"، لكنها لا تستطيع أن تفعل مثل ريحانة، فهى إذ استطاعت أن

تتسلل وتصعد إلى السطح، وتعتلى أحد مخازن الحبوب، فإنها إذا قفزت فوق السطح ستوقظ كل من فى الدار، وسيفتضح أمرها، لا مفر إذن من أن تختلى بنفسها داخل حجرة أختها مليكة، أو تدفع نوران لتنام إلى جوار جدتها مليكة، وتصعد إلى الصوان الكبير وتقفز من فوقه.

أخيرا صارت بمفردها، فنوران الصغيرة انصاعت لرأيها وذهبت لتنام إلى جوار جدتها، وما أن دخلت فى سريرها حتى أحاطتها الجدة بيديها المعروقتين وراحت ترقيها بهمس مسموع، وأغلقت على نفسها الباب فانقطعت أصوات العالم عنها، والهسهسات القادمة من حجرة أخوتها، والأحرف المتقطعة التى تأى بين الحين والحين من حجرة يحيى وزينب، أما شخير أبيها الذى راح فى النوم ما أن دخل حجرته فقد صار مجرد صدى هى ليست على يقين من أنها تسمعه، وأحكمت غلق الباب من الداخل، ثم قربت مقعدا لتقف فوقه، ومن ثم تكون قريبة لأن تصعد فوق الصوان، وبعد محاولات كثيرة تمكنت من الصعود، وفوق الصوان انحنت لتتجنب الاصطدام بسقف الحجرة، وصور لها خيالها أنها إذا قفزت فربما تسقط ميتة فشعرت براحة كبيرة تسرى فى ثناياها، وقبل أن تفكر فى المزيد ألقت بنفسها.

ظلت مطروحة على الأرض فترة لم تستطع أن تقدرها، لا تعرف إن كانت فقدت الوعى أم أنها ذاهلة من جراء الآلام التى انبعثت فى كل مكان من جسدها، ظهرها وقدميها، وجنبيها اللذين كادا ينفجران، عليها أن تقوم لتصعد إلى أعلى الصوان، وتلقى بنفسها من جديد، لكنها تشعر بأن قدميها مكسورتان، قالت لنفسها: حتى لو أنهما مكسورتان، يجب

أن أصعد، وأرمى نفسى من جديد، فربما ارتطم رأسى بشىء وأفارق الحياة. سحبت نفسها على الأرض لتمسك بالمقعد، ولدهشتها تمكنت من الوقوف على قدميها، و لم تأبه بالآلام التى تنبعث من كل مكان فيها، وبعد محاولات مضنية صعدت إلى الصوان، ومن هناك ألقت بنفسها من جديد.

لا تعرف إن كان أحد يدق عليها الباب، أم أن تلك النقرات تأتى من عوالم أخرى، إذ هى ليست على يقين من أنها تمت بصلة للحياة، الآن يمكنها أن تبكى، وأن تتعزى، وأن تدعو الله أن يساعدها، لأنه إذا لم يفعل لن يساعدها أحد، هو الوحيد الذى يستطيع أن يمد لها يد العون دون أن يسألها عما بها، فهو عالم بكل شىء، أما الآخرون فإنهم لن يمدوا إليها يد المساعدة إلا بعد أن يفتشوا فى داخلها ويسستخرجوا ما تجاهد لتخفيه، وانقطعت النقرات فشعرت برغبة عميقة فى البكاء، وبعد محاولات عديدة أدركت أنها لا تستطيع، فملامحها متجمدة من الرعب، وصدرها يضيق بالأنفاس الواهنة التى تتردد فيه.

عاد النقر يصعد فى أذنيها، وهمس عجيب يتسرب من خلال الفرجات، الآن يمكنها أن تقترب من الباب، وان تمد يدها لتطلع الدنيا كلها على خيبتها، فإذا كانت تموت وهذا ما تشعر به فهى فى أمس الحاجة إلى من يقرأ عليها أوراد الموت، وأن يتشهد فى أذنيها عندما تفارقها الروح، ثم يسحب جفنيها ليغطيا عينيها المنطفئتين، ويرد فكها المندهش إلى وضعه الحقيق، ولكن وجه هندام يهبط فوقها بإصرار، يسأل بحروف ممطوطة هامسة عما يحدث، فهل تبوح لها بخيبتها؟!، وهل يجدى أن

تبوح وهى مفارقة إلى حيث لم يعد أحد ليحكى ما الذى يجرى هناك، بعد أن ينتقل الإنسان إلى العالم الآخر؟!.

أفاقت لتجد نفسها مطروحة فوق سريرها، باب حجرتها مغلق ولا أحد إلى جوارها، أين ذهبت هندام؟!، وكيف تمكنت من الخروج من الحجرة وهى على حال إغلاقها من الداخل؟!، وإذا لم تكن قد دخلت فمنذا الذى كان يحدثها منذ قليل، ويسألها عما يحدث؟!، ومن حملها ووضعها فى سريرها لتنتظر قضاءها؟!، وأدركت فى النهاية أنها هى من فعلت كل ذلك، وأن هبوط وجه هندام فوقها فى محنتها قد يكون علامة على أنها ربما تكون الشخص الذى أرسله الله ليساعدها، ما عليها إذن إلا أن تقوم من سريرها وتتسلل إلى حجرة جدتها لتوقظ المرأة التى تفترش الأرض وتنام هناك عند قدميها.

بالكاد رفعت رأسها فرأت سقف الحجرة يهبط نحوها، وآلام هائلة تنبعث من كل عظمة فيها، ولكنها استمرت فى النهوض، فهى إذا لم تفعل تكون قد استسلمت للفضيحة، ولوثت شرفها للأبد، وقهقه شىء ما بداخلها، ساخرا من فكرتها، فلقد تلوث شرفها بالفعل، وما هى بصدده هو محاولة للتغطية على الفضيحة ولا شىء غير، واكتشفت أنها صارت فى مواجهة الباب، لا تعرف كيف خطت إلى هناك، وما إذا كانت قدماها هما اللتان تحملانها، ومدت يدها لتدفع الترباس إلى الوراء فانفتح الباب على مصراعيه، وجاءها صفير غريب من عمق الصالة الفسيحة، وأصوات عابثة تأتى من كل مكان.

الآن يمكنها أن تنظر إلى نفسها لتدرك أنها لا تزال تقدر على الوقوف على قدميها، وقدرت أن الفجر فى طريقه للقدوم بعد ساعة أو ساعتين على الأكثر، وإذا لم تصل إلى نتيجة مع طلوع الشمس فهى نهايتها الحتمية، واقتربت من باب حجرة جدتها فجاءتها أصوات شخير النائمين، تميز من بينها شخير أبيها الذى يتردد بإصرار وقوة، ومضغت نوران الصغيرة أحرف كانت بسبيلها للنطق بها، أما جدتها فقد مال رأسها فوق الوسادة مظهرا الفم الخالى من الأسنان، وانحنت فكاد عظمها يتفكك، ولمست كتف هندام فاستيقظت المرأة متسائلة فى ذهول، وبعد أن تفرست قليلا فى وجهها نهضت مستجيبة لتحذيرها ألا يعلو صوتها.

أغلق الباب دونهما وانخرطت فى بكاء غريب، لم تكن لتقدر أنها بدلا من أن تستنجد بالمرأة تروح فى نوبة بكاء غريبة، فحتى هى نفسها لم تسمع طوال حياتها – السابقة على تلك الليلة واللاحقة عليها – بكاء مثل بكائها، وخمنت المرأة السر من وراء البكاء، إذ لو كانت سيدتها مريضة فإن شكواها ستسبق بكاءها، أما وهى تحرص على جعل بكائها سرا من الأسرار فإن من ورائه شيئا لا يمكن إفشاؤه، ووقفت منتظرة فراغ الفتاة من نوبة البكاء الحادة التى انتابتها، وعندما هدأت رمقتها بعينين ضارعتين وتمنت لو تستطيع أن تدفع عنها ما بها من ضر، ولو كلفها حياتها.

لكن ما تطلبه منها الفتاة يتجاوز قدرتها على الفعل، فهى لا تستطيع أن تضع نفسها فى موضع المتسائلة عن حقيقة الأمر، وعن الفتى الذى فعل بها ذلك، هى تستطيع أن تخمن، فجرأة حراز طباخهم الشاب لا تخفى على عين خبيرة مدربة كعينها، هى الخادمة التى قضت حياتها كلها فى

خدمة آل التونى، والتى تعلم فوق جسدها كل أبناء الأسرة كيفية الوثوب فوق امرأة، كما تعلمت هى أيضا كيف تستطيع أن تتخلص من أى واحد منهم فتجهز عليه فور أن يبدأ، وقبل أن يبدأ إن هى أرادت، الآن تطلب منها فتاة من الأسرة التى تخدمها مساعدتها، وإنزال حملها قبل أن يتحول الأمر إلى فضيحة.

نظرت فى عمق عينى الفتاة وسألت:

– ماذا فعلت حتى الآن؟

فأجابت وهى تتحاشى النظر فى عينيها:

– صعدت أعلى الصوان وقفزت إلى الأرض مرتين

فقالت بغير تفكير:

– ليس كافيا

وحملتها من تحت إبطيها حملا ووضعتها فوق المقعد، وطلبت منها أن تصعد من جديد إلى أعلى الصوان، ومن هناك أصدرت الأمر هامسة ولكن بحزم:

– هيا

وقفزت الفتاة إلى الأرض، تمنت لو تلقفتها هندام هذه المرة، لكن المرأة تركتها تسقط فوق قدميها، ثم تنهار إلى الأرض منقطعة الأنفاس، وتكرر الأمر مرة بعد مرة، وفى كل مرة تتركها المرأة مطروحة على الأرض وتذهب إلى الباب وتلصق أذنيها، تتسمع إن كان أحد هناك يتلصص على ما تفعلان، وعندما سقطت الفتاة فى لجة إغماءة عميقة حملتها هندام

ووضعتها في السرير، وقبل أن تفيق نحت عنها ملابسها ونظرت فيها، لم يظهر أي شيء يدل على أن دماء تنزل منها، وعرفت المرأة بخبرتها أن الحمل لن ينزل بسهولة.

يمكنها والفتاة في حالها تلك أن تعثر على عود حطب صغير، أو ساق جافة من سوق نبات الملوخية فتدخله فيها وينتهي كل شيء، وهي بهذا تكون قد قدمت لها خدمة عمرها، وستأسرها بها حتى الممات، لكن من يدريها أن الأمر سيمر بسلام؟!، وكيف إذا تفاقم الأمر وانفجرت دماء الفتاة؟!، هي لا تقدر على أن تفعل ذلك من تلقاء نفسها، وعليها أن تحصل على موافقة الفتاة قبل أن تشرع في البحث عن أداة مناسبة، وفيما هي واقفة تتأمل عزى الفتاة أمامها فتحت الفتاة عينيها، استطلعت أرجاء الحجرة ثم قطبت جبينها وراحت في الغيبوبة من جديد.

اندفعت هندام باحثة عن أداة تفعل بها ما تعرف أنه السبيل إلى إفراغ حمل الفتاة الواقعة في لجة الغياب، ووجدت في أحد أدراج الصوان إبرة معدنية طويلة كانت تستخدمها مليكة قبل زواجها في صنع أغطية للرأس وكوفيات، وغيرها من الأشياء التي تصنع من التريكو، لها بوز دقيق لامع وجسد نحيل بطول شبر أو يزيد، رأت فيها المرأة أداة مثالية، وحذرت نفسها، فإذا هي أخطأت الطريق تكون قد قضت على الفتاة بغير شك. حملت الإبرة الطويلة وتوجهت بها إلى الحمام، وهي في طريقها سمعت حركة الجدة مليكة في سريرها تبحث عن طستها وإبريق وضوئها، وحتى لا تجعلها تنادي عليها تسللت إلى الحجرة متصنعة أنها تفتح الباب من

الداخل، وناولتها إبريقها وقربت منها طستها، واستأذنت لتذهب إلى الحمام.

كانت الإبرة المعدنية الطويلة وهى تقترب من الفتاة تقطر ماء صافيا، فلقد غسلتها جيدا بالماء والصابون، حاولت أن تفتح رجلى الفتاة على اتساعهما، لكن ارتخاء الجسد أعاقها عن تهيئتها لتحسن وضع ذلك الشيء فيها، و لم تتمكن من الفتاة إلا برفع قدميها فوق كتفيها، كأنها رجل يضاجع امرأة. صارت الفتاة مفتوحة أمامها ككتاب، إن ارتعاش يدها لا يعنى إلا أنها تقتل الفتاة قتلا، تقتل سيدتها التى استغاثت بها، وحتى إذا لم ترتعش يدها فإنها يجب أن تكون حساسة جدا، بحيث إذا شعرت بأقل قدر من المقاومة فذلك يعنى أن الطريق الذى يسير فيه ذلك الشيء ليس صحيحا، هكذا تحدثها خبرتها الطويلة، وعندها يجب أن تتوقف وتعيد المحاولة من جديد.

لم تبد الفتاة أية مقاومة، فقط ارتخت رجلاها فكادتا تنزلقان من فوق كتفى هندام، لكنها أحكمت رفعهما ومضت تكمل ما بدأته، أذهلتها سهولة سريان ذلك الشيء فى الفتاة الغائبة، وأفاقت على غياب ما يقارب نصف طوله داخلها، إنها إن أدخلت المزيد منه فذلك لا يعنى إلا أنها تقتلها بالفعل، ولكن الفتاة لا يظهر عليها أى شيء، و لم تسقط منها قطرة دم واحدة، وأصابها الخوف بقشعريرة أعقبها عرق غزير طم وجهها، وسقط من ذقنها فوق يديها المرتعشتين، وتمنت لو أن الفتاة تظل غائبة عن الوعى دقائق أخرى، إذ لو أفاقت وتحركت ربما تؤذى نفسها، وهى لن تمد ذلك الشيء فيها لأبعد من ذلك ولو لبوصة واحدة.

الأفضل أن تسحب الإبرة منها وترى إن كان ثمة شىء، وبدأت فى سحبها ببطء، وما أن أخرجتها حتى رأت مقدمتها ملوثة بقطرات قليلة من الدم، ولما أنزلت قدمى الفتاة من فوق كتفيها وتركتها مطروحة فى سريرها سال الدم منها، وصنع بقعة كبيرة فى الملاءة، و لم تدر هندام هل تبتهج لما يجرى أم تخاف، عليها أن تعيد الفتاة إلى الوعى لترى إن كانت تنزف أم تفرغ حملها، واقتربت منها تصفعها صفعات بسيطة على صدغيها، وتناديها باسمها، لكن الفتاة لم تستجب لنداءاتها، فأمسكتَ بأنفها وفركته بشدة، تقلصت ملامح الفتاة قليلا، ثم لما عادت هندام لتفرك أنفها من جديد حركت رأسها، وأخذت شهيقا عميقا كأنها تعود إلى الحياة.

لم ينقطع الدم حتى طلع الصبح، وشحبت الفتاة إلى درجة جمدت هندام من الخوف، فما لم يتوقف الدم فإن الفتاة ستموت، واستيقظ الرجال، ومعهم استيقظت زينب، وانشغلت بإعداد الفطور لعمها ولزوجها وأخوته، واضطرت هندام لمعاونتها، لكنها بدت غير طبيعية، و لم تعن زينب بالبحث فى سبب ذلك، فالمرأة غريبة الأطوار على طول الخط، وأهل الدار لا يلقون بالا إلى تقلباتها، بل ولا يغضبون من حديثها الجارح الذى تلقيه على مسامعهم بين الحين والحين، ويكتفون فى معظم الأحيان بالضحك مما تقول، فالمرأة التى جاءت إلى الدار بعد انتقال عمها إلى الربع عاصرت ميلاد كل أبنائه، عدا يحيى.

تناول الرجال الفطور على عجل، وبعد أن فرغوا خرجوا إلى عملهم، وخرجت زينب لتودع زوجها حتى الباب الخارجى للدار، وعندما

عادت لم تجد هندام، ولأنها تعلم أن سيدة الدار غائبة فلقد وجدتها فرصة ودخلت غرفتها لتكمل نومها، فلقد سهرت بالأمس على غير ما انتوت، وبدلا من أن تتحدث إلى زوجها عما رأته بأم عينيها من أمر نعم والطباخ استسلمت لمداعباته، وسهرا حتى الفجر، لكن هندام وبمجرد أن تناول الرجال الفطور عادت إلى حجرة نعم، وأحكمت غلق الباب من ورائها، ووجدت الفتاة مطروحة فى سريرها بلا حراك، ولا توجد علامات على أنها على قيد الحياة إلا ارتعاشة تهز سريرها، واضطراب فى الجفنين المطبقين على آلام قاتلة، نادتها برفق حتى لا يسمع أحد صوتها، فقطبت الفتاة جبينها و لم تجب، فبكت من الخوف وهى تعاود النداء، واستجدتها لتجيبها، وفتحت الفتاة عينيها بالكاد، وأخرجت من بين شفتيها همسا لا تكاد تسمعه.

لا تعرف هندام كيف تتصرف، فقطع القماش التى تضعها للفتاة غرقت كلها بالدم، كل همها هو ألا يراها أحد من أهل الدار، وبخاصة زينب زوجة أخيها، التى تعرف أن سيدة الدار لا تحبها كثيرا، وتتحفظ أكثر بخصوص معرفتها بأسرار دارها وبناتها، بل وأبنائها الذكور، وحرصت أيضا على إبعاد نوران الصغيرة عن الحجرة، انهت إليها أن نعم أمرت بألا تدخل عليها الحجرة، حتى تأتى أمها، وامتثلت الفتاة الصغيرة وهى حائرة لتصرف أختها، ولكنها ظلت جالسة فى الصالة وهندام تخرج من الحجرة باللفائف الغارقة فى الدم، وتعود بها بعد غسلها فى الحمام، وفى إحدى مرات عودتها وكان الوقت ضحى وجدت الفتاة كأنها مستغرقة فى النوم، وعندما اقتربت منها لتتأكد من نومها وجدتها باردة كلوح الثلج،

ولا يصدر عنها نفس يدل على الحياة، فألقت بما معها من لفائف وأطلقت صراخا انخلع له قلب الجدة مليكة فى حجرتها، وقفزت بسببه زينب من سريرها كأن الدار تنهار فوق رأسها.

ليلة مولد المختار



مع الظهر عادت نعم إلى الحياة.

فنزيف الدم الصبح كان قد تباطأ مع طلوع الصبح، وظنت هندام أن سيدتها إن لم تكن ماتت فهى فى طريقها إلى الموت، وجهزت دفاعها جيدا، فإذا سألوها عما حدث ستقول إنها سمعت صرخة كبيرة أيقظتها من النوم، وعندما خرجت إلى الصالة سمعت صوت أنين قادم من حجرة نعم، ولما اقتحمت الحجرة وجدتها مطروحة على سريرها وهى تنزف دمها، ووجدت ذلك الشيء المعدنى إلى جوارها فأخفته حتى لا تقع عينا زينب عليه، ولها فيما فعلته نعم مع أختها الصغيرة عندما أمرتها بأن تذهب إلى النوم إلى جوار جدتها سند لا يمكن إنكاره، لكن قدوم شكران من ميت خميس قلب الأمور رأسا على عقب.

قدوم شكران تزامن مع الصرخة التى أطلقتها هندام، فلقد توقف الركب الذى جاء بها من المنصورة ليحصل الرجال على شيء من الطعام وبعض القهوة، وكانوا من رجال دوار العمدة، والد زوج مليكة، استبقتهم فى المندرة الخارجية ودخلت تتفقد الدار، ووجدت آثار الصرخة مسطورة

على ملامح نوران وزينب، أما هندام فإنها كانت واقفة عند سرير نعم، مصعوقة بمنظر الفتاة التى لا يمكن إلا أن تكون قد فارقت الحياة، وعندما رأت سيدتها انهارت باكية، ولما سألتها شكران عما حدث غمزت لها بعينها، فأشارت إلى ابنتها الصغيرة لتخرج من الحجرة، وخرجت فى أثرها زينب، إذ هى على يقين من أن حماتها لا تريدها أن تطلع على شيء من خصوصياتهم، حتى ولو كانت ابنتها فى طريقها للموت، وما أن خلت الحجرة منهما انطلقت هندام تحكى لسيدتها ما كان من أمر نعم، والشيء المعدنى الغريب الذى وجدته إلى جوارها، ونزيفها الذى لا ينقطع، وحرصها على إخفاء الأمر عن أى أحد من الدار حتى عودتها، لترى ما يكون.

لا تدرى شكران إن كان عليها أن تشكر المرأة أو تنهرها، فلقد سبقتها روحها إلى حجرة ابنتها، وعلى السرير الذى شهد إفراغ دم الفتاة رأتها مطروحة بين الحياة والموت، وشفتاها بيضاوان لا يظهر فيهما أثر للدم، وتذكرت تلك اللحظات التى ظنت فيها أن خادمتهم ريحانة فى طريقها إلى الموت، الآن ابنتها لها نفس الملامح، وعلى شفتيها يتراقص ظل الموت القادم بإصرار، لا يعنيها إن كانت قد أحدثت بنفسها ما أحدثت لأمر أو لآخر، كل ما يعنيها فى تلك اللحظة هو أن تسترد إبنتها من براثن الموت، فهجمت عليها تستعيدها من الغياب، لكن الفتاة كانت غائبة تماما، وفى أذنيها تتردد أصوات غريبة تأخذها إلى منحدر سحيق.

بخبرتها أدركت شكران أنه طالما خف النزيف حتى كاد ينقطع و لم تزل الفتاة حية فإن بقاءها على قيد الحياة هو الأرجح، عليها أن تعطيها

سوائل كثيرة لتدب فى جسدها الحياة، أمرت بصنع شيء من مشروب الحلبة وتحليته بعسل النحل وجلست وأخذت رأس ابنتها على رجليها، وصارت تأخذ من الكوب بملعقة وتصب الشراب فى فمها، فى البدء لم تبتلع الفتاة الشراب القليل الذى قدمته لها، وكادت تختنق به، لولا أنها تنبهت قليلا فصارت كلما وضعت لها أمها شيئا منه تبتلعه بصعوبة، وشيئا فشيئا صارت تبتلع ما تصبه أمها فى فمها فى يسر، حتى إذا ما قارب الكوب على الانتهاء كانت وكأنها تطلب المزيد.

مع الظهر عادت إلى الحياة، ووقعت عيناها على ملامح أمها فبكت فى صمت، وارتسمت فوق ملامحها أمارات الهلع، لكن المرأة القوية وقد أدركت أن ابنتها تعود إلى الحياة استغلت فراغ الحجرة من أحد إلا هما وقالت:

– شوفى يا بنت الكلب يا وسخة مثل أهلك

وبحلقت فى الوجه الشاحب كأنما تتيقن من أن الكلمات قد أحدثت أثرها، ثم أردفت:

– إنسى ما حدث تماما

ونظرت صوب الباب لتعرف إن كان أحد قادما ثم أكملت:

– لا تتذكرى هذا الأمر حتى بينك وبين نفسك

ورأت أن تطمئنها من جهة هندام فقالت:

– دعى هندام لى، فأنا أعرف كيف أجعلها تمسك لسانها فلا ينطق بحرف واحد حتى تقوم القيامة

وتظاهرت بالخروج من الحجرة، ونظرت فى الصالة لتتأكد من أن المرأة لا تزال فى المطبخ تعد مشروبا جديدا، وأن زينب مستقرة فى حجرتها، ونوران فى حجرة جدتها كما أمرتها، ثم عادت:

– لا تضطربى إذا دخل عليك أبوك أو أحد من أخوتك

وأمسكت بشحمة أذنها بشىء من القسوة:

– فأنت مريضة بداء المصران لكثرة تناولك تلك الأشياء الحراقة التى تلهب جوفك كالنار، وذلك الشىء الذى ينزف الكثير من الدم والذى يسمونه البواسير يهاجمك ويكاد يفرغ دمك

واكتفت الفتاة بسماع ما يلقى إليها من حديث دون أن تجيب، ولما لم تجب فركت شكران شحمة أذنها من جديد، وبقسوة أكبر، فاضطرت الفتاة إلى التصديق على كل ما قالت.

وهكذا مر الأمر دون أن تقف زينب على حقيقته، وكذلك نوران الصغيرة، والجدة مليكة التى ظلت تسأل عن الأمر طوال اليوم دون أن تجد إجابة شافية، لكن زينب أدركت بحسها أن الأمر متعلق بعلاقة نعم بطباخ الأسرة، وكاد قلبها يسقط فى رجليها وهى تتصور أن الفتاة ربما تكون قد أخطأت معه، وأنها حملت منه، وأرادت أن تتخلص من حملها فعمدت إلى قتل نفسها، ولكن كيف فعلت؟!، وكيف استنقذوها إن كانت قد تناولت شيئا من السم؟!، أما نوران الصغيرة فهى لا تستطيع أن تقطع بشىء معين، ولا يعنيها إلا أن تطمئن على صحة أختها، وفى حجرتها المسدلة الستائر دعت الجدة مليكة أن يشمل برحمته حفيدتها التى تعانى شيئا غامضا لا يريدون أن يطلعوها عليه.

دار الحديث فى الدار عن البواسير اللعينة التى أصابت فتاتهم وجعلتها تنزف الكثير من دمها، ورأت الأم أن تصطحب ابنتها وتسافر إلى "مصر" لتعرضها على الأطباء، وعبثا حاول زوجها أن يقنعها بعرضها على الدكتور عبد الحميد حفظى فى السنبلاوين، أو على الأطباء فى المنصورة، لكنها أصرت على رأيها، وهكذا فإنها بعد مرور عدة أيام على الواقعة اصطحبت نعم وسافرت بها إلى هناك، و لم يستطع الشيخ يوسف أن يرافق زوجته وابنته فأرسل معهما ابنه رفقى.

نعم لم تستطع أن تخبر "حراز" بما جرى، وبالطبع لم تستطع أيضا أن تخبره بسفرها، فلقد أصمت هندام أذنيها عن سماع رجائها، وأخبرتها أنها إن فعلت فإنها تستحق أن تذبح على باب الدار كالشاة، ونصحتها أن تكف عن التعلق بالفتى، وعددت الأسباب التى من أجلها يجب أن تخرجه وإلى الأبد من حياتها، فهو ليس الرجل المناسب للزواج منها، فمثلها لا يليق بها إلا أفندى ملء هدومه، كزوج شقيقتها مليكة، ابن عز وحسب ونسب، إذ هى لا يجب أبدا أن تنسى أنها ابنة الشيخ يوسف السرسى عين أعيان المنطقة وشكران هانم شوكت ابنة الحاج محمد شوكت على سن ورمح، وشقيقة إسماعيل بك شوكت المدير بمصلحة الأشغال العمومية، وإذا هى اعتبرت أن ما حدث يقلل من فرصها فى الزواج ممن يليق بها فهى مخطئة تماما، إذ يمكن إخفاء الأمر بطريقة تنطلى على أكثر الرجال خبرة، وذكرتها بما فعلته صالحة مع رزق الحبال زوج ريحانة، وكيف أن المنديل الملطخ بدم عرضها لا يزال يشغل موقعه فى مقتنيات أمها هنا فى الربع.

وحراز الذى فاجأته أخبار سفر نعم مع أمها وأخيها إلى "مصر" اعترف بأنه تعجل الهرب، وندم أشد الندم، ثم حاول العودة إلى الدار الكبيرة، لكن الشيخ يوسف السرسى رفض بشدة، فلقد أهان زينب ابنة الشيخ سليمان السرسى وزوجة ابنه، التى تتفانى فى خدمته بأكثر مما تفعل بناته وزوجته، وأدرك الفتى أنه لن يتمكن من العودة إلى الدار الكبيرة أبدا، وأن علاقته بنعم انتهت إلى الأبد، فراح يذكر فى مجالسه ما كان من أمره معها، وكلما سأله أحدهم عن سبب تركه الخدمة فى دار الشيخ يوسف السرسى يرجع ذلك إلى تعلق ابنتهم به، وتناثر الكلام حتى وصل إلى واحد من رجال المنسر.

نوح زكريا لم ير فى حياته نعم ابنة عمه الشيخ يوسف السرسى، بالكاد يعرف مليكة التى تزوجت فى ميت خميس القريبة من المنصورة، ويعرف الطفلة المشاكسة نوران، التى تكثر من المجيئ إلى دار الشيخ سليمان، أما نعم فإنه لا يتذكر أنه رآها، لكن جنونه جن لما سمع بخبر ذلك الفتى الذى يدعى حراز، والذى يدعى بأنه ضاجع ابنة الشيخ يوسف السرسى، واضطرمت فى دمه حرائق لا يعرف كيف يمكنه التصرف حيالها، فصمت حيث يجب أن يتحدث، فالمنسر الذين نقلوا إليه الخبر يتمنون لو يكلفهم بأى شيء، لكن هاتفا بداخله جعله على يقين من أن أمرا بهذه الخطورة ينبغى ألا يؤخذ باستخفاف، والاستعانة بالمنسر فى هذا الشأن هى الاستخفاف بعينه.

نظر حواليه فرأى رجالا لا يعنيهم من أمر الخبر المشين شيئا، فمنصور أبو دومة رجل غريب، لا يعنيه من أمر شرف ابنة الشيخ يوسف السرسى

شيئا، حتى ولو كانت قريبة زوجته، وكذلك الجارية الجالسة فوق مقعدتها الهائلة ومنسرها، ومن يحوم حول المنسر من شباب السراسوة لا يفيدون فيما هو مقبل عليه من تفكير، فلقد تلوثت أيديهم بالسرقات مع المنسر، وولاؤهم لن يكون إلا لمنصور "أبو" دومة والجارية، فهما ربا نعمتهم، ولن يخرجوا عن طوعهما مهما حدث، فإذا استعان بأحد منهم فى شىء لن يجن الليل أو يطلع الصبح إلا وأبو دومة يعرفه، وسيكون عليه أن يطأطئ الرأس للرجل بدلا من الشموخ عليه، عليه إذن أن يبتعد عن الحكاية قليلا ليرى كيف يمكنه التعامل معها، فلأول مرة فى حياته ورجل المنسر يخبره بأمر الطباخ وابنة الشيخ يوسف السرسى يشعر بأن رأسه أمام المنسر منكسة.

إنه فى أمس الحاجة إلى الحديث مع أحد، وليس فى السراسوة كلهم أحد يمكنه التحدث إليه فى هذا الأمر، لأنه إذا تحدث مع أبيه أو عمه الشيخ عمر أو الشيخ سليمان أو أى واحد من السراسوة الكبار فإنه من لحظتها لن يكون المتصرف فى الأمر، وقفز إلى رأسه يحيى ابن جده السيد السرسى، ولكن أين يحيى الآن؟!، إنه هناك فى ديرب نجم، وقفز إلى رأسه أيضا صديقا ليحيى حكى عنه ذات مرة، رجل غريب الأطوار يقال له عباس الذكراوى، يقول يحيى إنه يستأجر للقتل، وعندما زارهم هنا ذات مرة وسهر معهم لدى الجارية خرج من السهرة دون أن يتفوه بكلمة واحدة، كان طوال الوقت يتفرس فى الوجوه كأنما يرسمها فى دماغه، فهو كما يقول يحيى لا يتحدث فى أى جمع من الناس، فمن له مثل مهنته ينبغى أن يكون حديثه بحساب، ونظراته بحساب، وضحكاته

بحساب، وصداقاته بحساب، بل إن تواجده بين الناس ينبغى أيضا أن يكون بحساب.

أين هو يحيى الآن؟!، تساءل وهو يخب فى الظلام خارجا من مجلس المنسر لدى الجارية، و لم ينتظر ليجيب، فبإمكانه أن يرسل فى طلبه، فما سمعه الليلة يستأهل أن يناقشه مع من يرتاح إليه من السراسوة، فقطب برغم قرابته للفتاة لا يقدر على تقديم عون كبير، على مستوى الرأى على الأقل، وحده يحيى هو الذى يستطيع أن يضربه فى كتفه دافعا إياه، ومشيرا عليه بما ينبغى، ووجد نفسه مندفعا فى اتجاه دار أحد عمال الوسية، وقبل أن يطرق على الرجل الباب تأكد من أن المكان خال من أى متطفل، فالليل بقدر ما هو ستار مخادع أيضا.

مع العصر جاءه يحيى منزعجا، إذ كان نوح قد نبه على الرسول أن يحضر يحيى معه، لأن الأمر عاجل ولا يحتمل التأخير، تصور يحيى أن الشيخ زكريا ابن عمه قد حدث له مكروه، أو الشيخ عمر، أو أخاه من أبيه الشيخ كامل السيد، وكان طوال الطريق يستنطق الرسول ليفصح عن حقيقة الأمر، والرجل يقسم بأغلظ الأيمان بأنه لا يخفى شيئا، وهكذا طال به الطريق بأكثر مما يطيق، لكن "نوح" طمأنه، وهكذا تناولا غذاءهما فى المندرة، وعاد الشيخ زكريا من غيطان الوسية فرأى ابن عمه حاضرا فبش لقدومه، وقضى معه شطرا من الليل، وعندما قام ليلحق بموعد نومه انفرد نوح بيحيى.

أول ما قال يحيى تعليقا على الخبر هو:

- لماذا نتصور أن ما حكى عنه الطباخ هو الحقيقة؟!، ولماذا لا يكون قد تعمد الإساءة إلى سمعة الفتاة وأهلها لما طردوه من عمله لديهم؟!

فمعلوماته أن صلة ابن عمه الشيخ يوسف بأهل الربع ليست على ما يرام، وقد يكون الحديث من تداعيات ذلك الأمر، بل إن الأولى بهما أن يسألا إن كان الطباخ المذكور قد قال فعلا ما نقله إليه المنسر أم لا؟!، وكل هذا لا يمكن الوثوق به إلا إذا قاما بزيارة إلى دار ابن عمهما فى الربع، وتصور يحيى أنهما يمكن أن يقوما بالزيارة على الفور، لكن اقتراحه ووجه بضحكة ساخرة من نوح، فيحيى يتصور أن الشيخ يوسف السرسى مثلهما، يسهر الليل ولا ينهض من نومه إلا فى الضحى!.

حتى لا يضيع الوقت اقترح نوح أن يستيقظا مع الفجر فيتوجها إلى الربع، ليلحقا بالشيخ يوسف السرسى وأبنائه قبل خروجهم إلى الغيطان، وهكذا عادا إلى المندرة حيث كان السمدانى العربى جالسا مع بعض من مريدى نوح زكريا، ولما عادا قام أحدهم بتعمير أحجار الجوزة وحملها ليدور بها على الجالسين كما يفعلون كل يوم، واضطر نوح لأن يعلن أن طاقم الأحجار ذاك سيكون خاتمة المطاف، فوراءه مشوار شديد الأهمية بعد صلاة الفجر، وهكذا دارت الجوزة على الجالسين وهم يتعجبون، فهذه أول مرة يتعجل نوح الذهاب إلى النوم.

لحقا بالشيخ يوسف وهو يهم بالخروج من الدار، لكن مجيئ نوح زكريا ويحيى ابن عمه لزيارته أمر يستحق الاحتفال، وعبثا حاول يحيى ونوح أن يرافقاه إلى أعماله ليقضيا معه شطرا من اليوم، لكن الشيخ يوسف

أبى، وأدرك نوح أن شكران ليست موجودة، وإلا لظهرت لترحب بهم كعادتها، فهى لا تخشى من السراسوة إلا أباه، وعن له أن يسأل عنها ليتيقن من استنتاجه فأخبره المضيف أنها فى "مصر" هى ونعم ورفقى لعرضها على الأطباء، ولأن هندام كانت هى من يقوم على خدمتهم أدرك نوح أن "حراز" ترك عمله لديهم بالفعل.

يعرف نوح أن هندام هى سر سيدتها، لذا اتجه تفكيره أول ما اتجه إلى الضغط عليها للحصول على أى معلومات حول واقعة الطباخ وسيدتها الصغيرة، لكنه لما أمعن التفكير أدرك أنه إذا فعل سيكون قد ارتكب خطأ كبيرا، إنه بذلك يكون قد أنهى مأموريته مبكرا، دون أن يصل إلى الحقيقة، وهو لا يستطيع أن يأتنس برأى يحيى فى هذا الخصوص، فالرجل لا يعرف الكثير من الأمور التى يعرفها هو عن دار الشيخ يوسف السرسى، ويكاد لا يعرف شيئا يذكر عن شراسة شكران، ولا عن موقع هندام من سيدتها أو من دار الشيخ يوسف السرسى كلها، لذا عليه أن يحسن التفكير ولا يتعجل اتخاذ أى قرار قبل النظر فيه بروية.

من خلال الحديث عرف أن الشيخ يوسف طرد طباخهم لما تجرأ وأغضب زينب زوجة ابنه، وتذكر نوح أنه لم يسأل عنها منذ قدم، واعتبر أنه مخطئ فى ذلك إلى أقصى حد، عزاؤه أنه فى مهمة شديدة الأهمية، لكنه تدارك الأمر وسأل يحيى إن كان يمكن أن يسلم على زينب، وإن هى إلا دقيقة حتى جاءتهم مهللة، مرحبة بابن خالها، وكانت تناديه كما يفعل أبوها، ومرحبة بعمها يحيى الذى لم تره كثيرا، لكن نوح لم يستطع

أن يمكث لديهم أكثر من هذا، وعلل زيارته برغبة يحيى في زيارة بعض أصدقائه في عزبة مجاورة، ولأنهما في طريقهما إلى هناك قررا أن يمرا عليهم، يسلما ويريا إن كانوا يريدون شيئا.

نوح لم يكن ليترك الربع دون أن يمر بدار حراز، هو نفسه لا يعرف ما الذى دفعه لأن يذهب إلى هناك، لكنه مر بدار الفتى متوقعا أن يراه، فالفتى يعرفه جيدا، وهو أيضا يعرفه، ويعرف بعض أقاربه، ممن كانوا يأتون إلى العزبة للسهر مع المنسر، لكن دار الفتى كانت مغلقة، وتوجه إلى دار صديق له، وهناك استقبله صديقه بالترحاب والاستغراب، فلقد كانا معا منذ أيام قليلة، وهو لم يرسل ليعرفه بقدومه.

لحسن الحظ كان بيت صديقه قريبا من دار حراز، وجرى الحديث بين الصديقين فطوفا بأمور كثيرة، وفى وسط الحديث أدرك الصديق أن "نوح" يريد أن يعرف كل شيء عن حراز، فالحديث الذى من أجله لا يرى نوح النوم وصل إلى سمعه هو الآخر، وإذ تيقن فى داخله أن زيارة نوح ليست إلا محاولة لجمع أكبر قدر من المعلومات عن الحديث المشئوم عرف أن هذا الأمر لن يكون خاتمة المطاف، بل إن المطاف يبدأ الآن، وفكر للحظة فى التظاهر بعدم الفهم ويعطى نوح ما يريد بدون أن يسأل، لكنه وقد أدرك قصده وما وراء الأسئلة التى يوجهها إليه رأى أن يكون الحديث صريحا وبلا مواربة، لكنه قدر إن هو تصارح مع نوح فلا بد سيبلغه بما سمعه هو نفسه من فم حراز، لما ادعى أنه فجر بابنة السراسوة، وأنها حملت منه، لكن أمها أجهضتها، كما سبق وفعلت مع ريحانة خادمتها.

نوح ليس على هذا القدر من الخفة التى يظنها صديقه، لذا فإنه لما فاجأه

صديقه بالسؤال عما يقلقه من خبر حراز أدرك على الفور أن لدى صديقه حديثا لا بد سيسمعه منه ذات يوم، وهو اليوم لن يتعجل الأمور، فقط يكتفى بالتحرك كعادته عندما يكون بصدد اتخاذ قرار ما، أو الاضطلاع بمهمة ما، ومهمته اليوم لا تتعدى زيارة المكان الذى انطلق منه الحديث الذى قبح شرف أسرته، وربما يكون هو المكان أيضا الذى تم فيه الاعتداء على هذا الشرف، إنه بهذه الزيارة يحتشد لما سيأتى، فهو واثق من أن شيئا قريبا لا بد قادم.

تساءل وهو فى طريق عودته إلى العزبة إن كان صديقه فهم شيئا؟!، فأن يكون فى الربع لزيارة عمه ثم ينعطف ليزوره فهذا لا يخرج عن المألوف، يهمه ألا يثور لغط حول الأمر قبل أن يبدأ، إذ ما أن ينفرط عقد الشىء لا يعود إلى سيرته أبدا، وحكايته مع الطباخ حراز لم تبدأ بعد.

لا يعرف أحد من أهل العزبة من السراسوة أو من غيرهم شيئا عما ينتوى أن يفعل، فقط هو وصديقه يحيى، ويحيى لا يمكن أن يفشى سرا ائتمن عليه، بله أن يكون ذلك السر مما يخصه هو الآخر، فالفتاة التى تم الاعتداء على عرضها إن كان حدث هذا هى ابنة أخيه، فالشيخ يوسف السرسى ابن عمه المباشر، وحتى إذا لم يكن قد اعتدى على عرضها بالفعل، فلقد تم ذلك بالقول، والطباخ لم يقل ما قال فى مناسبة واحدة، وإنما فى مناسبات عديدة، وها هو قرأ كل ما بلغه من قول على ملامح صديق نوح فى الربع، و لم يمنع "نوح" من سماع ما يعرف إلا رغبته فى إعطاء مسألته مع الفتى وقتا يتدبر فيه أمره قبل أن يصل إلى قرار.

عاد يحيى إلى ديرب نجم على وعد بالاتصال إذا جد شيء، اتفقا على ألا يفكرا فى الأمر بجدية إلا بعد أن يسمعا حديث شكران، وعندما اقترح نوح هذا عارضه يحيى بشدة، فكيف يتسنى له أن يجتمع بالزوجة دون علم زوجها، وماذا لو أنها أنكرت كل شيء، فهل يستطيع بعد ذلك أن يجزم بحدوث الأمر؟!، إنه إن فعل سيكون هو الذى يقوم بتلويث شرف ابنة عمه، وليس حراز أو من نقل الحديث عنه، لكن إصرار نوح دفعه لأن يصادقه على ما يريد، ظنه أن الأيام القادمة ربما تقدم من عندها حلا، وساعتها سيكون لكل حادث حديث.

لكن الأيام لم تأت بجديد، فقط علم نوح من ريحانة زوجة رزق الحبال أن شكران عادت هى وابنتها من "مصر"، وراح يمعن الفكر فى كيفية الانفراد بشكران دون أن يسبب ذلك ضررا لعلاقته بعمه، وفى كيفية العثور على المكان الذى يمكنه أن يمارس عليها الضغط فيه.

هل يمكن أن يقدم له صديقه فى الربع تلك المعونة؟!، يستدرج شكران إلى داره ويتركه يضغط عليها ليعرف منها حقيقة الأمر؟!!، ولكن كيف يمكنه طلب ذلك من صديقه إلا إذا أطلعه على نواياه؟!، وهل إذا أطلعه على نواياه سيمضى فى معاونته؟!، كلها أسئلة راحت تدور فى عقل نوح فحرمت عليه النوم، حتى أن زوجته ابتأست من كثرة ابتعاده عنها وضجت من إهماله لها، فأقسمت لو لم ينصلح حاله لتشكونه لعمها الشيخ زكريا، ليرى فيه رأيه، و لم يكن ينقص نوح نزق زوجته، فما هو فيه يكفيه وزيادة، ويوما بعد يوم يتضخم الجرح الذى أحدثه كلام رجل

المنسر عما قاله الطباخ اللعين، ولكى لا يترك أمر زوجته يتفاقم فيتسبب فى نقمة أبيه عليه عزم على استرضائها.

جاءت ذكرى مولد النبى بالحل، فمنذ أسابيع وشباب العزبة يحاربون من أجل استقدام صييت ليحيى ليلة المولد، أسوة بالقرى المحيطة، وكان الشيخ زكريا يرفض بشدة، فإحياء المولد النبوى لا شأن له بالأفعال التى تحدث فى تلك الليلة، من مشاجرات الشبان والمعارك التى تقوم بين القرى، فالشيخ زكريا كان فى الحقيقة متأثرا بشدة برأى الشيخ إبراهيم شلباية صديق الشيخ سليمان ابن أخته، المنقول عن رجل يقولون إن اسمه حسن البنا الذى يشكل أسر صغيرة فى القرى والمدن ليعمل على إعادة الإسلام إلى مجده القديم، عبر تنظيم يسميه الأخوان المسلمين، ولأن الشيخ عمر يعرف ذلك عن أخيه فقد حاول قدر استطاعته أن يثنيه عن هذا الرفض، وما أن تمكن من إثنائه حتى انفجر الخلاف بين الشبان حول الصييت الذى يريدون، منهم من يطالب بإستقدام صييت لا يستخدم فى مديحه آلات موسيقية، ومنهم من يصر على استقدام شاعر السيرة الهلالية الشاب سيد حواس، وانتصر الرأى الثانى، واستقروا على استقدام الشاعر.

عادة القرى فى إحياء ليلة المولد أن تدعو كل أسرة أقاربها من القرى الأخرى، والمتوقع إذن أن يتم توجيه الدعوة إلى الشيخ يوسف السرسى وأهل بيته من أكثر من دار فى العزبة، فعلى الأقل ستوجه إليه الدعوة من الشيخ سليمان وخاله الشيخ زكريا، والشيخ عمر أيضا، وستكون شكران على رأس أسرتها، وحتى يتأكد مما إذا كان أبوه سيوجه الدعوة إلى الشيخ

يوسف سأله نوح عمن سيوجه إليهم الدعوة ليتولى إنجاز الأمر مبكرا، وما أن ذكر أبوه اسم عمه الشيخ يوسف حتى عزم على التوجه إليهم فى الربع لدعوتهم بنفسه، وليتأكد من أن شكران ستحضر، إذ ربما لا تحضر حتى لا تعيد للأذهان ذكرى وجودها فى دار حسانين الضبع، كما وأنها قد لا تلبى الدعوة إن هى اقتصرت فقط على دعوة الشيخ سليمان، فعلاقتها بسُلَيْمَة برغم المصاهرة بينهما ليست على ما يرام.

مضت الأيام بطيئة، قضاها نوح فى تدبر أمره والبحث عن سبيل للتعامل مع الموضوع بصورة لا تجذب إليه الأنظار، حتى إذا حسم أمره واختار هذه الطريقة أو تلك لا يسارع أحد باتهامه، أو حتى بالإشارة إليه، لذا فإنه استغل وجود صديقه الذى يعيش فى الربع برفقته فى إحدى المناسبات وتعمد تجنب الإشارة إلى أى شىء يمت بصلة إلى حراز، أو حتى إلى عمه الشيخ يوسف السرسى، ثم تقابل معه مرة ثانية وأخرى ثالثة دون أن يتطرق إلى أى شىء أيضا، حتى إذا كانت لدى الصديق أية أفكار حول حديثه السابق يطرحها جانبا.

وأخيرا جاءت ليلة المولد، الشيخ زكريا ذبح عجلا كبيرا وأحضر طباخا ليعد الطعام للمدعوين، سيكون لديه الأقارب والأصهار من كل البلاد، من سللنت ودكرنس والحجايزة وغزالة والربع والمقاطعة و"أبو" داوود السباخ وديرب نجم، ومندرته ستكون عامرة بالأهل والأصهار والأتباع، وحتى أبناء الليل من أصدقاء ابنه نوح، الذين يعدون عن الوسية والعزبة أذى زملائهم من اللصوص وأبناء الليل، وهى الأجواء التى تحبها شكران،

بعيدا عن التحفظ الذى تحياه دار الشيخ سليمان، وبخاصة بعد زواجه من فوزية حفظى، المتهمة من سُلَيْمَة ومن غيرها بأنها فرضت على الدار ستارا من الغموض والإيغال فى البعد.

لم يعد فى القوس منزع، فإذا لم تجئ شكران الليلة سيتوجه نوح إلى الربع، مستغلا وجود زوجها وأبنائها فى العزبة، وليكن ما يكون، لكن شكران كانت على رأس الحاضرين، وقبل أن تأتى إلى دارهم توجهت هى وأبناؤها وبناتها إلى دار الشيخ سليمان، وهناك ألقت السلام على سُلَيْمَة، ومن باب التطفل أن زارت ضرتها فتحية حفظى، حتى إذا ما استقرت زينب لدى أمها استأذنت هى فى التوجه إلى دار الشيخ زكريا، فلقد جاءهم نوح بنفسه ليدعوهم، وعندما همت سُلَيْمَة بالاعتراض تعللت شكران بأن الشيخ زكريا لن يقبل منهم أى عذر، وغمغمت سليمة بكلمات مضغومة، تعرض بشكران التى لا تهدف إلا إلى إلقاء نظرة على دار حسانين الضبع، وتتذكر ما مضى.

وكانوا قد نصبوا سرادقا فى جرن الوسية الكبير، وأقاموا مسرحا صغيرا فى صدر السرادق بوضع عدد من الكنبات الخشبية فوق بعضها، وجاء موعد صعود التخت الذى يسبق صعود الشاعر نفسه، ولعب الآلاتية بأوتار آلاتهما ونقروا فوق طبولهم، وسمع الناس عن قرب، وربما للمرة الأولى فى حياتهم نقر العود وصوت أوتار الكمان، وزغرودة الناى الحزينة، ورأوا بأم أعينهم أصابع المطبلاتى وهى تنقر على الطبلة بسرعة البرق، ولما اطمأن الجميع إلى صلاحية آلاتهم للعزف جاءوا بربابة الشاعر التى سيستعملها وهو يغنى، الربابة التى اشتهر بالعزف عليها بنفسه،

وطيرت شهرته فى أركان بر مصر، حملها أحد أفراد التخت، وأمسك بعودها وجرى به على وترها فأصدرت صوتا تعرفه الآذان المتلهفة إلى سماع قبس من السيرة الهلالية.

ما أن صعد الشاعر إلى المسرح الصغير وتقدم الفرقة وأمسك بالربابة حتى انفجرت حناجر المئات الذين احتشدوا فى الجرن الكبير، والذين جاءوا من كل القرى المحيطة، وفى غمرة الهياج الذى أحدثه لعب الشاعر بربابته اقترب نوح من شكران، وكانت جالسة فوق أحد الأسطح المطلة على ساحة الحفل وأسر فى أذنها لتلحق به لأمر هام، وأخذت المرأة على غرة، فلقد تلبستها حالة خوف كبيرة، إذ ظنت أن ابنتها نعم بها شيء، أو أن زوجها أصابه مكروه، أو أى شيء آخر، وهبطت من فوق السطح وتتبعت خطا نوح حتى وجدت نفسها فى ظهر دور الوسية الواطئة، وبدون أى مقدمات قبض نوح على يدها وأمرها بأن تسير برفقته فى هدوء.

نظرة نوح أفزعتها، وجعلتها المفاجأة مسلوبة الإرادة، و لم يكن نوح يطلب أكثر من تلك اللحظات ليبتعد بها عن المكان، لم يفكر كثيرا فيمن رآه يتحدث إليها وهى فوق سطح دار الوسية الواطئة، إذ يمكن تبرير أى شيء إلا أن تصرخ أو تقاوم فينكشف أمره، كل ذلك كان يدور فى رأسه وهو يسحب المرأة من خلفه وهى تنقاد له، وعندما فكرت فى الاستغاثة لم يخرج صوتها من فمها، فلقد صاروا بعيدين عن العزبة، وخفتت أصوات الجموع التى تحتفل بشاعرها، و لم يكن نوح هو فقط من يخيفها، بل ذلك الرجل الملثم الذى يسير من خلفها ويدفعها حتى لا تتقهقر أو تقاوم،

والذى أبدى الاستعداد ذات مرة لحملها إذا هى لم تستجب وتتقدم صوب المجهول.

سألت نوح ضارعة:

– ماذا ستفعل بزوجة عمك؟!

أشار إليها أن تصمت، ورأت سكينا فى يده عكس التماعة الأنجم البعيدة فخرست، ووصلوا إلى عريشة صغيرة قائمة فى قلب الغيطان فأدخلها فيها، ووقف عند بابها يسأل:

– قولى بالصدق حكاية ابنتك والطباخ حراز

ولما استبطأ إجابتها هددها:

– إذا لم تقولى الصدق سأذبحك فى هذا المكان، وسأخفيك فلا يعرف الذباب الأزرق لك طريق جرة

وتصنعت الدهشة:

– أى طباخ وأية بنت!؟، لا أعرف شيئا عما تقول

أدرك أنها تروغ منه وأن الزمن الذى يسرع فى المضى ليس لصالحه فقرر أن يستخدم العنف ليجبرها على الحديث، رفع سكينه وهجم عليها كأنه يهم بذبحها، وخرجت صرختها تشق سكون الكون، لكن يده كتمت الصرخة فى منتصفها، ولما حاولت عقر يده عاجلها يحيى بضربة على رأسها أفقدتها توازنها، وسقطت على الأرض.

لم يستغرق الأمر بعد ذلك أكثر من دقيقة، بكت بحرقة وهى تحكى عما فعله الطباخ بابنتها، وكانت طوال الوقت تستعطفه كى لايقتل ابنتها،

فلقد غرر الطباخ اللعين بها، وهاجمها وهى بمفردها ونالها غصبا، وفى كل ذلك كان نوح يوافقها لتكمل حديثها، ولما انتهت نكست رأسها وانخرطت فى البكاء، ورق لها قلبه، لكنه سرعان ما أفاق من ضعفه وراح يخبرها بما يقوله الطباخ فى كل مجلس، وما نقله إليه رجال المنسر، بل وما قرأه على ملامح أصدقائه فى الربع، ولما رآها منهزمة وتكاد تحفر لنفسها فى الأرض أنهضها، وطوال الطريق راح يملى عليها ما ستفعله، لأنها إذا لم تفعل سيقتلها هى وإبنتها، حتى يغسل العار الذى أصابت به السراسوة، ولما أخبرته باستعدادها لعمل ما يريد شريطة ألا يقتل ابنتها عاهدها على عدم إيذاء الفتاة إذا هى انصاعت لما يطلب، وكانوا قد وصلوا إلى المكان الذى لحقت به فيه خلف السرادق فترك يحيى وحده وصحبها ليوصلها إلى المكان الذى كانت فيه.



المصرف العجوز



وكانت معركة اختيار زعيم للوفد خلفا لسعد باشا زغلول قد انتهت باختيار مصطفى النحاس باشا رئيسا بالإجماع، وذلك فى 14 سبتمبر من العام 1927، وكعادتهم فى الوفد تولى الزعيم الجديد الرئاسات الثلاث، رئاسة الوفد، ورئاسة الهيئة البرلمانية الوفدية، ورئاسة مجلس النواب، واختير وليم عبيد سكرتيرا عاما، وبانتخاب النحاس بما عرف عنه من تطرف وطنى حافظ الوفديون على الطابع الثورى للوفد، الذى يشد إليه الجماهير المتطلعة إلى حريتها واستقلالها، وتأكد أيضا الطابع البرجوازى للقيادة الوفدية، فالنحاس ابن تاجر أخشاب متوسط الثروة فى سمنود، من صميم البرجوازية المصرية، والصغيرة منها على وجه الخصوص.

وكانت المحادثات بين مصر وانجلترا قد توقفت عقب وفاة سعد باشا، فلقد رأى اللورد لويد المندوب السامى البريطانى وقفها والتريث حتى يتمكن الأحرار الدستوريون من انتزاع القيادة الشعبية من الوفد، فالزعيم الذى كان يمكنه التفوق عليهم اختفى من المشهد السياسى، وفى غيابه لن يكون الوفد كحاله السابق، لكن الحكومة الانجليزية فى لندن رأت أن

غياب سعد باشا يمثل حافزا على الاستمرار فى المحادثات، ففى استمرار المحادثات إمكانية لتشكيل حزب سياسى بقيادة ثروت باشا من المؤيدين للمعاهدة بين انجلترا ومصر، واستمرت المباحثات تحت إلحاح ثروت باشا رئيس الوزراء، وكانت انجلترا على يقين من أن ثروت لن يمكنه إحراز موافقة زعماء الوفد على المعاهدة، وتعمدت من ثم أن تضع نصوص تفرغ الاستقلال من مضمونه وتجعل احتلالها لمصر مشروعا، وأرجأت التفاوض حول مسائل شديدة الخطورة كمياه النيل والجيش والبوليس لموعد لاحق، وحتى يضمن الانجليز موافقة مصر على مشروع المعاهدة، وأيضا لاختبار عود الوفد تحت زعامته الجديدة اجتمع اللورد لويد بالنحاس باشا وحذره من رفض المعاهدة، ورفض النحاس باشا تحذيره، وأعلن رفض الوفد رسميا للمعاهدة، وهكذا اضطرت وزارة ثروت باشا لرفض المشروع وأبلغت انجلترا بقرار الرفض، وقدم ثروت باشا استقالة حكومته.

وكما اشترك الأحرار الدستوريون من قبل فى الانقلاب على الدستور عادوا ليفعلوا بعد رحيل سعد باشا، رغبة فى الوثوب إلى الحكم بغير الطريق الديموقراطى، وسرقة القيادة الشعبية من الوفد، لدرجة أن البعض رأى أن وجود القصر والأحزاب المتمردة على الفكرة الديموقراطية كان يمثل استعمارا داخليا لا يقل وطأة من الناحية السياسية عن الاستعمار الانجليزى، فضلا عما يمثلونه فى الحياة الاجتماعية كعناصر استغلالية للطبقات الجماهيرية من الفلاحين والعمال بحكم امتلاكهم لأدوات الإنتاج، الأرض والمصنع، وأن بقاء القصر والأحزاب المتمردة على الفكرة الديموقراطية كانت السبب فى إطالة أمد معركة الاستقلال وتأخر جلاء

الانجليز عن مصر، بل إن بقاء هذه العناصر بعد إبرام معاهدة 1936 كان من أكبر الأسباب فى عدم استفادة البلاد بما تضمنته المعاهدة من مزايا(*).

لم تستطع حكومة النحاس باشا الائتلافية مع الأحرار الدستوريين التى تلت حكومة ثروت باشا أن تصمد أمام الأعاصير، فلقد وقع الصدام بين الوفد والأحرار الدستوريين، واتجهت الوزارة نحو أن تكون وفدية خالصة بعد استقالة وزراء الأحرار الدستوريين، لكن الملك فؤاد وبإيعاذ من المندوب السامى الانجليزى سارع بحل البرلمان ذى الأغلبية الوفدية وطرد الوفد من الحكم، وسواء كان ذلك نتيجة لمؤامرة أطرافها الأحرار الدستوريون والقصر والانجليز أم نتيجة لتلاقى إرادات الجميع فى التخلص من كابوس الحياة الدستورية والبرلمان ذى الأغلبية الوفدية وحكم الوفد الذى يتجه لأن يكون خالصا فإن الواقع يؤكد أن انقلابين دستوريين وقعا فى خلال أربع سنوات من الممارسة الديموقراطية، فالدستور الذى ينشئ الحياة الدستورية وينظمها كان هو نفسه الذى يمنح الملك الحق فى الانقلاب عليها.

وبرغبة الإنجليز جاء محمد محمود باشا رئيسا للوزارة الجديدة بدلا من صدقى باشا الذى يريده الملك، وعاد الانجليز لممارسة السلطات الاستعمارية بفجاجة، ووسَّعُوا سلطات المديرين والمحافظين وحكمداريى البوليس، وأعادوا العمل بقانون المطبوعات القديم الصادر فى 1881، الذى يجيز تعطيل الصحف وإلغاءها إداريا، وهكذا ألغيت رخص مائة

(*) الدكتور عبد العظيم رمضان – تطور الحركة الوطنية فى مصر من 1918 إلى 1936.

صحيفة، وعطلت جرائد وصحف أخرى، وصدر قانون الاجتماعات رقم 28 لسنة 1929 فضيق حق الاجتماع إلى أقصى حد، ونتيجة لذلك اعتدى الانجليز بالضرب على النواب الوفديين الذين كانوا فى طريقهم للاحتجاج لدى القصر على تعطيل الحياة النيابية، ولكن كل ذلك لم يفلح فى تغيير الموقف من الوفد، كما ولم تفلح محاولات محمد محمود باشا فى التقرب إلى الفلاحين والعمال، ولا محاولات تشوية سمعة النحاس باشا ورجال الوفد الآخرين.

انتشرت الاجتماعات السرية وطبع المنشورات، ونظم الوفد حملة لمقاطعة البضائع الانجليزية، وسافر مكرم عبيد والدكتور حامد محمود وعبد الرحمن عزام إلى انجلترا لفضح ممارسات الاحتلال أمام الرأى العام البريطانى، ولما اعتلى حزب العمال سدة الحكم فى انجلترا أُقْصِى اللورد لويد عن منصبه كمندوب سام وكعقلية استعمارية متطرفة ساهمت فى تكريس سلطة الاحتلال وتدمير الحياة النيابية فى مصر، وذلك بالاتفاق أو بالتعاون، أو حتى بالتوافق مع الملك فؤاد وحزب الأحرار الدستوريين.

فشلت أيضا مفاضات محمد محمود باشا مع الحكومة العمالية الانجليزية، برغم حصوله على موافقة الانجليز على مقترحات لطالما كانت السبب فى انهيار المفاوضات لتعنت انجلترا فى الموافقة عليها، وهى انسحاب القوات الانجليزية من العاصمة وكافة المدن المصرية وتمركزها فى منطقة قناة السويس، واعتبار مصر هى المسئولة عن أرواح الأجانب وحماية الأقليات، وأراد السياسيون المناوئون للوفد عجم عوده تحت القيادة الجديدة وإحداث وقيعة بينه وبين الشعب فعرض عليه محمد محمود باشا

مشروع المعاهدة ليقول رأيه فيها، ولكن الوفد أفلت من المأزق فلم يعارض الاتفاقية أو يقبلها، وإنما هاجم توقف الحياة البرلمانية، وقال إن المسألة يجب أن تطرح على برلمان منتخب انتخابا ديموقراطيا، وحرم محمد محمود باشا من الاعتبار الذى أراده لنفسه باعتبار أنه هو الذى توصل إلى المشروع الذى يحتوى على تلك الشروط المرضية.

فى الثانى من أكتوبر سنة 1929 تقدم محمد محمود باشا باستقالة وزارته، وعهد الملك إلى عدلى يكن باشا بتأليف وزارة تجرى الانتخابات لإعادة الحياة النيابية، وأسفرت الانتخابات كالعادة عن أغلبية للوفد، وكان الأحرار الدستوريون قد قاطعوا الانتخابات خشية سقوطهم، وأيضا لإظهار أن البرلمان الجديد له مهمة محددة وهى إبرام معاهدة مع انجلترا، فإذا فشلت المفاوضات يكون من حقهم طلب حله، وهذا ما حدث بالفعل، فلقد تشكلت حكومة الوفد برئاسة النحاس باشا فى الأول من يناير سنة 1930، وكالعادة فشلت المفاوضات لما أصرت انجلترا على موقفها من مسألة السودان، وعاد النحاس من لندن ليواجه رغبة الملك فؤاد فى إقالة حكومته وتعطيل الحياة النيابية من جديد، وحتى يضع الوفد الملك فى مأزق تقدم النحاس باستقالة مسببة فى 17 يونيه سنة 1930 و لم يكن قد مضى على تشكيل الوزارة ستة أشهر، ولجأ النحاس إلى خطة مضمونها دفع البرلمان لرفض الاستقالة، وتدبير مظاهرة كبرى تتجه إلى قصر عابدين لمطالبة الملك بعدم الموافقة على استقالة الحكومة، لكن الملك فؤاد استفاد من بطء تحركات الوفد وأسرع بقبول استقالة الوزارة، وعهد إلى صدقى باشا بتشكيل الوزارة الجديدة، وكان ذلك عشية المظاهرة الكبرى التى

كان مزمعا توجيهها إلى قصر عابدين، وكسب الملك الجولة.

نشبت حرب مبكرة بين الوفد وبين وزارة صدقى باشا، وإثر الاعتداء على النحاس باشا فى المنصورة وقعت اضطرابات شديدة نتج عنها موت أعداد كبيرة من الناس، فى مدن القناة وفى الإسكندرية، وتقدمت البوارج الانجليزية معلنة عن عزم بريطانيا حماية أرواح الأجانب، لكن السياسة الانجليزية وقفت على الحياد فى الصراع الدائر بين القصر وصدقى باشا من ناحية والوفد من ناحية، وفى 22 أكتوبر سنة 1930 أبطل الملك دستور سنة 1923 على سند من القول بأنه أكثر تطورا من حال الشعب المتخلف سياسيا، الذى تضرب فى جنباته الأمية، والذى لم يبلغ التطور اللازم للحكم الديموقراطى الخالص، كما أمر بحل مجلسى البرلمان، وأصدر فى نفس الوقت دستورا جديدا ركز المزيد من السلطات فى يديه، وحرم البرلمان من معظم الحقوق التى كانت له فى الدستور الملغى.

حكم صدقى باشا بالحديد والنار، وشكل ما يسمى بحزب الشعب ردا على رفض الأحرار الدستوريين إلغاء دستور 1923، ما دفع الأحرار للتحالف مع الوفد، ووقعت اضطرابات شديدة فى البلاد بسبب مقاطعة الانتخابات، لكن صدقى باشا زور الانتخابات كما فعلها من قبل فى العام 1925، واستمرت وزارته فى الحكم إلى أن وقع الخلاف بين الوفد وبين الأحرار الدستوريين بسبب ما سمى آنذاك بالوزارة القومية، فإثر سقوط حزب العمال فى الانتخابات العامة فى انجلترا ومجىء المحافظين إلى الحكم ظهرت فكرة تشكيل وزارة قومية مصرية لتكون شريكا فى المعاهدة المطلوبة، وانقسم الوفد حول الموقف من تلك الفكرة، وحدث انشقاق

كبير خرج على إثره بعض من أساطين الوفد من الحزب، وانفض التحالف بين الحزبين، الوفد والأحرار الدستوريين.

لكن نظام صدقى تصدع فى النهاية، فلقد رفضت انجلترا التفاوض معه لأنه لا يمثل أغلبية تجعل المعاهدة مقبولة من الشعب، وأيضا فإن نقض حكم إعدام قاتلى مأمور البدارى كشف عن التعذيب الذى يجرى فى مراكز البوليس، فاستقال بسبب ذلك على ماهر باشا وزير الحقانية، احتجاجا على التعذيب، ولما كان التحقيق فى وقائع التعذيب سيكشف عن مدى الفظائع التى تم ارتكابها فى عهد وزارته رأى صدقى باشا أن يبادر بتقديم استقالته فى 4 يناير 1933، وكلفه الملك من جديد بتشكيل الوزارة، ولكن هذه المرة بعد استبعاد على ماهر باشا وعبد الفتاح يحيى باشا، وصار الملك منذ تولى صدقى الوزارة هو الحاكم الحقيقى للبلاد، وسقط صدقى مريضا فبرز دور زكى الإبراشى باشا واتسع نفوذه وبلغ أقصاه، وتزامن هذا مع نقل السير برسى لورين المندوب السامى من مصر وتعيين السير مايلز لامبسون بدلا منه، وهو ما أعطى الانطباع أن انجلترا ستتدخل فى الشئون المصرية بأكثر مما كان فى عهد لورين، وبحجة الخلاف حول تعيين وزير المالية انتهز صدقى باشا الفرصة وتقدم باستقالة الحكومة فى 21 سبتمبر سنة 1933، وقبلها الملك وعين عبد الفتاح يحيى باشا رئيسا للوزراء، دون استشارة رئيسى مجلسى البرلمان.

مصر كانت فى ذلك الوقت تموج بتيارات شديدة الوطأة، حتى أن نعم ابنة الشيخ يوسف السرسى عندما سافرت إلى "مصر" لتمضى بعضا من الوقت لدى خالها إسماعيل بك شوكت احتاج أمر توصيلها إلى هناك

عناية كبيرة، ما دفع الشيخ يوسف السرسى إلى إرسال ابنه رفقى لمرافقتها فى رحلة الذهاب، وكان رفقى راغبا بشدة فى الذهاب إلى "مصر" كى يطلع بنفسه على ما يجرى هناك، وعلى ما يقوم به الشبان الوفديون من محاولات لرأب الصدع بين التيارات السياسية المختلفة ومحاولة تكوين جبهة قوية مساندة للوفد، وأيضا لجس النبض حول مسألة رغبته فى الالتحاق بالكلية الحربية، ومعرفة ما إذا كان خاله إسماعيل بك سيوافقه على ما يريد، أم أنه كالمعتاد سينصح بالالتحاق بكلية الحقوق.

فى تلك الفترة بذل الطباخ حراز جهودا خارقة للعودة للعمل فى الدار، توسط له أحد أقاربه، لكن الشيخ يوسف السرسى رفض بشدة، ومضت الأيام بطيئة على نوح زكريا فأرسل يطلب من شكران أن تنفذ وعدها، وسبق تنفيذ الوعد لقاء بينها وبين حراز، جمعتهما وقفة قصيرة عند ركن حديقة دارها، فى هذا اللقاء أعاد حراز طلبه العودة للعمل، لم تكن شكران قد تحدثت معه فى أمر علاقته بابنتها، فرأت أن تفاتحه فى الأمر فى ذلك اللقاء، وذهل الفتى لما أبلغته أنها لا تمانع فى زواجه من ابنتها، تريد أن تزرع الاطمئنان فى نفسه حتى يلين فى يدها، ورقص قلب الفتى لما وجد الأم ابنة الباكوات هى التى ترغبه فى الزواج من ابنتها، ورأت أن تطرق الحديد وهو ساخن فأبلغته أن مخططها لن ينجح إلا إذا توجه بصحبتها إلى عزبة أحمد السرسى لتوسيط الشيخ سليمان لإقناع زوجها، وابتلع الفتى الطعم.

اختارت لتنفيذ الوعد ليلة بلا قمر، تماما كما طلب نوح، وكان قد أبلغها أنه سيضرب الفتى علقة ويكسر أطرافه حتى لا يتجرأ على ذكر

ما فعله بالفتاة مرة ثانية، و لم تكن شكران ساذجة لتصدق أن الأمر سيقف عند هذا الحد، لكن قسم نوح بأرواح كل من ماتوا من السراسوة طمأنها قليلا، ولأنها لم تعتد سماع حديث القتل وغيره من الأمور الخطرة صدقت قسمه وأيماناته المغلظة، وهكذا ضربت للفتى موعدا عند مشارف القرية، عند بداية الطريق القادم من الربع، الذى ينحدر فى اتجاه الطريق الواصل إلى تمى الأمديد، ومنها إلى المقاطعة وصولا إلى العزبة، وهناك عند كوبرى الهدار ينعطفان يسارا ليدخلا إلى العزبة من غير الطريق المعتاد، حتى لا يقابلهما أحد، فنوح أعطاها موعدا عند مدخل العزبة من هذا الطريق، ومن ثم يتجهون إلى إحدى دور الوسية.

أخفى نوح ضيفه فى دار بعيدة عن العمران، بناها واحد من أصدقائه، لم يرد أن يراه أحد من المنسر الذين يملأون دار الجارية كل ليلة، وعلى الأخص منصور أبو دومة الذى سيسأل لا محالة عن سر وجوده، وفى الليلة المحددة وبعد أن أوغل الليل وذهب الشيخ زكريا إلى النوم خرج نوح ليلتقى يحيى ورجل الليل عباس الذكراوى عند مشارف العزبة، ومن هناك أخذوا طريقهم إلى كوبرى الهدار ثم انتظموا على جسر مشروع أم غنام حتى ابتعدوا عن مظنة اللقاء بأحد، وهناك كمنوا بالقرب من مصرف جانبى يصب ماءه القليل فى مياه المشروع الضخم، السير على جسر هذا المصرف الجانبى يوصل للعزبة من الخلف.

صوت خرير الماء يتنوع بصورة تأخذهم إلى شىء من التدبر. يقين نوح لم يهتز لحظة، وهذا الصوت المتواصل يجعله على يقين من أن ما هو مقبل عليه ليس إلا واحدة من تلك المهام العظيمة التى أتاها السراسوة

على طول تاريخهم، وتتحدث عنه حكاياتهم التى لا تنتهى، وفى داخله المليء بالغموض اكتفى يحيى بالنظر، فهناك فى هذا الداخل الفسيح تقبع حكايات ترفض أن تتضح، إنها فقط تحتفظ بغموضها، ووجه أبيه يلوح من بعيد، بحمرته الأخاذة، ولحيته المختلطة بالشيب، وعينيه المحمرتين ببكاء لا يرى، وفى وهدة الليل البهيم تلمع الأنجم البعيدة فلا يرى فى داخله إلا المزيد من الغموض، وشيئا من الترقب والإثارة.

الذكراوى هو وحده الذى يغمض عينيه متبرما، انتظارا لما سيأتى، فما سيكون هو نفسه الذى يحدث فى كل مرة يقتل فيها أحدهم، لا شيء جديد، رجل آخر مجهول يذهب إلى الجحيم، فعل شيئا قبيحا، وإلا لما تعرض لمثل ما هو منتظر، لا يهمه أن يسأل عما فعل المجهول القادم، فهو فى عمله لم يسأل مرة واحدة عما فعله هدفه، فقط ينفذ فى يسر، وينظف المكان فلا يترك أثرا يدل عليه، ولا تؤرقه الأمور التى تعقب العملية، فوجه غريمه تأخذ ملامحه نصيبها من الغياب.

ماذا لو أن شكران عدلت عن عهدها و لم تأت بالفتى؟، سؤال طرحه نوح على نفسه، ونظر فى اتجاه يحيى يطلب الإجابة، لكن يحيى كان مستغرقا فى داخله المضطرب بالذكريات المرة، والوجه المهزوم لأبيه الذى رفض العودة إلى عزبته، وأمه التى تبدأ يومها بسب السراسوة، وتظل تسبهم طول اليوم، ولا تنسى أن تسبهم قبل النوم، إذ هم سبب هزيمة زوجها، وانكساره الذى لم يقم منه أبدا، حتى وهم يوالون الضغط عليه ليعود إلى عزبة أبيه.

أخرجهم من صمتهم صوت قادم من بعيد، بدا كأنه يأتى من دواخلهم، ومضى دهر حتى اتضح وتحقق، وصاروا يسمعونه بيقين، ميزوا صوت شكران، كانت تتحدث إلى مرافقها فى شيء من الحدة، ومرافقها يقسم بأيمان تضيع أحرفها مع الهواء والليل، واقتربا فرأى المتربصون جرمى امرأة ورجل، كأنهما شبحان يأتيان من أوهامهم.

لكزت يد نوح جانب يحيى فانتبه، ولم يكونوا فى حاجة إلى تنبيه رجلهم الغريب، إذ قبل أن يتنبها كان الرجل يتكور على نفسه كقط، يحتشد لما سيجيئ، وسأل فى تنمر:

- أهو رجلكم؟

أجابه نوح:

- أظنه هو

خلف أعواد نبات التيل التى تكثر فى المكان وقف الرجل متنمرا، طلب منهم عدم الظهور إلا بعد أن يفاجئ القادمين من الأمام، وأن يكون ظهورهما من الخلف، حتى لا يتمكن الفتى من الفرار، ولم يكن قد تحدث إليهما بما يريد من قبل، وأدرك نوح أن الرجل الذى يتحدث ليس هو الشخص الذى كان معهما من دقيقة واحدة، إنه شخص آخر، يستعجل الزمن دون ارتباك، وفى تلك اللحظة مرت شكران من أمامهم، لم يعد ثمة شك فى أنها هى، وأن مرافقها هو حراز نفسه، ومع تقدمهما خطا عباس الذكراوى من خلف نبات التيل، تحرك بخفة قط يوشك أن ينقض على فريسته، وقفز أمام شكران وسالم.

الصرخة التى ندت عن شكران شقت سكون الليل، وصدر الأمر لها ولرفيقها بالصمت فخرس لسانيهما، أدرك نوح أن تلك هى اللحظة التى يجب عليه فيها أن يقفز إلى الطريق خلفهما، ففى ثانية واحدة التفت الفتى مرتين، يفكر فى النكوص على عقبيه، وفى لمح البصر كان هو ويحيى فى الخلف، واستدارت شكران، وكذلك فعل حراز، أدركا أنهما وقعا فى أيدى نفر من رجال الليل يقصدون سرقتهم، و لم تكن الصرخة التى أطلقتها شكران هذه المرة بمثل سابقتها، كانت أقل حدة وأكثر يأسا.

صدر الأمر لشكران أن تبتعد، لم تفهم الأمر فى البداية لكن الأمر صدر من جديد فابتعدت عن حراز خطوات، وقبل أن يدرك الفتى وضعه أطلق عباس الذكراوى بندقيته فى صدره، لم يستغرق الأمر سوى لحظة، ضاعت فيها صرخة شكران مع ترجعات صوت العيار، لم يكن لديها شك فى أن عيارا آخر سينطلق صوبها، وتوالت الصرخات والفتى ساقط على الأرض ينتفض كدجاجة مذبوحة، ما دعى الذكراوى لأن يطلق عليه عيارا آخر، وسكن على الفور، وأدركت شكران أن "نوح" زكريا على رأس المهاجمين، وانطلقت تصرخ بأعلى صوتها:

– قتلتموه يا نوح!؟، قتلتموه!؟، أهذا قسمك لى!؟

و لم يتمالك الذكراوى فصفعها لتكف عن الصراخ، وكفت.

تسمروا فى أماكنهم وقتا بدا أنه بلا نهاية، فنوح لا يعرف ما سيتلو ذلك، وكذلك يحيى، وعباس الذكراوى يقف متنمرا، يرغب فى مغادرة المكان على الفور، وحداثة عهد أصدقائه بما يفعل تجعله لا يتبع الأصول

الصحيحة لعمله الدقيق، وإذ أدرك أنهم لن يخرجوا قريبا من صدمتهم قال فى حسم:

- لننصرف من هنا

وبالكاد خرج صوت نوح وهو يشير إلى سالم المكوم على الأرض:

- ونتركه هكذا!؟

فتعجب الرجل:

- وما حاجتك به!؟

وأجاب نوح:

- يجب أن نخبئه

فسأله الذكراوى:

- لماذا تخبئه!؟

وأجاب نوح:

- لا أريد أن يكتشفوا موته

وكان قد تحدث من قبل فى هذا الأمر مع يحيى، فانطلق يحيى يشرح لعباس الذكراوى:

- نريد أن يظنوا أنه فر إلى مكان ما، فيبحثون عنه بعيدا عن مظنة أنه قتل

و لم يجادلهم الرجل كثيرا، وهداه تفكيره إلى الماسورة التى يسقط منها الماء إلى المشروع، هبط عند منشئها من جهة المصرف الصغير وقاس قطرها،

وجدها تتسع للجثمان فشرع فى سحب الجثة، وعاونه يحيى حتى هبطوا به إلى منشأ الماسورة، جردوه من ملابسه ودفعوا برأسه فيها، وواصلوا الدفع حتى غاب داخلها، ولم يتنبهوا إلى أن خرير الماء توقف قليلا، إلى أن وجد الماء طريقه إلى السقوط من جديد فعاد الخرير، ولكنه هذه المرة كان واهنا.

فى سريرها تقلبت شكران، اختارت لتنفيذ وعدها باصطحاب حراز الليلة التى سافر فيها زوجها إلى "مصر" لبعض شئونه، لم تكن تدرى أنها تصطحبه لحتفه، لكن نوح زكريا غدر بها، تماما كما غدر بالطباخ، المسكين الذى لا يكف عن التلوى، ولا تفارقها قفزاته الملتاعة، ولا صرخات الموت الرهيبة التى تصدر عنه مضغومة بلا أحرف، لغة أخرى لا يعرفها الأحياء، وبجبروت إرادتها راجعت كل شىء من جديد، منذ أرسلت هندام لتحدد موعد لقائها بحراز عند ركن حديقة بيتها، مرورا بوقفتها معه عند ذلك الركن القصى بعيدا عن أعين الرقباء، وحتى انتظاره لها خارج القرية، واصطحابها له طوال الطريق، لا لم يرهما أحد، حتى هندام نفسها لم تر شيئا، فهى لا تعلم بأمر مشوارها معه.

وجاء الصبح ولم يكن النوم قد اقترب من جفنيها، وملأ ضوء النهار غرفتها فخشيت أن تخرج إليهم فى الصالة، كأن كل من يراها سيسأل عن سر غيابها عن الدار ليلة أمس، وعادت لتفتش فى نفسها، كأنها تحمل فى موضع ما من جسدها علامة تدل على ما فعلت، أو كأن شيئا فيها سيخبر أحدا بما جرى، وظلت منتظرة فى سريرها حتى فتحت عليها نوران الباب، ونادت بصوت سمعه الجميع:

– ماما، ألا تنهضين!؟

بالكاد أجابت:

– لا أقدر

ثم أمرت بصوت واهن:

– أغلقى الباب يا نوران

وجاءها من الصالة صوت زينب زوجة ابنها تسأل:

– مالها عمتى يا نوران؟

وجاءتها أحرف ابنتها متناثرة فلم تدرك ما قالت

ومنذ عاد نوح زكريا إلى العزبة وهو يرفض الحديث إلى أحد، بكلمات قليلة لا يعرف كيف قالها ودع يحيى وعباس الذكراوى اللذين انطلقا من فورهما إلى ديرب نجم، وعاد إلى العزبة بمفرده، نبحت الكلاب فخشى أن تكشف سره، قال فى نفسه إنها لم تفعل بهذه الحدة من قبل، وعند باب الدار وقف ينظر فى الظلام، شىء ما من المشهد هو على يقين من أنه عالق به، أو جزء من الفتى الذى أزهقت روحه منذ ساعة، والذى ينحشر الآن فى ماسورة المصرف العجوز، وربما واحدة من انتفاضات جسده قبل أن يستكين، أو صرخة يائسة محتضرة من تلك الصرخات التى سكنت دماغه فلم يعد يطيق سماعها.

إنه لم يُعْطَ الفرصة حتى ليسترحمهم، لم يدرك أنه سيموت، ربما لو أدرك لاسترحمهم، ولكن ما فائدة الاسترحام!؟، وهل كان سيتركه!؟، إن ما يثير الرعب فى نفسه أنه هو، هو ولا أحد غيره كان سيد مصير

الفتى اللعين، هو ولا أحد غيره من كانت حياة الفتى رهن بكلمة تصدر عنه، و لم تصدر عنه إلا كلمة واحدة، حملت أمرا بإنهاء حياته، الحياة التى خلقها الله و لم يجعل لأحد من البشر عليها سبيلا، الآن هو إنسان فاقد للبراءة، جلله الدم فلم يعد ذلك البرىء الذى كان، نعم لقد ضاجع الجارية قبل زواجه، بل وضاجعها بعد زواجه أيضا، لكنها لم تكن أبدا زوجة أحد، ولقد ضحك على نفسه وأقنعها بأن الجارية هى فى الحقيقة مما ملكت يمينه، إذ هى فى حماه وتحت رقابته، لكنه الآن قاتل، قاتل حقيقى، بكلمة منه زهقت روح إنسان، جرمه أنه اعتدى على فتاة ينتهى نسبها إلى رجل بعيد غامض يدعى أحمد السرسى.

لماذا لم يفكر فى الأمر على هذا النحو من قبل!؟، لماذا ينسى الآن، والآن بالتحديد الثورة التى كانت تعيث فى دمه وتطلق كل كوامن الشر!؟، لماذا لم يفاتح يحيى فى أمر ما بلغه عن أخته وترك له أمر التصرف فى شأنها!؟، أتراه كان يرغب من داخله فى خوض التجربة؟، أتراه كان على يقين من أنه لن يعرف معنى للرجولة الحقة إلا بالتعمد بالدم؟، أسئلة كثيرة راحت تهاجم نفسه المضطربة وهو واقف عند باب الدار ينظر فى الظلام إلى نفسه، باحثا عن ذلك الشىء العالق به والذى يجعل منه قاتلا، وربما ظاهرا لكل الناس، فما باله بأبيه وعمه الشيخ عمر اللذين يستنبطان المعنى من قلب السكون.

قالت مليحة إنها تشم فى ملابسه رائحة غريبة، تصنع الضحك، فهى لا تتحدث إلا عن نساء أخريات يجىء من عندهن كل ليلة، لكنها أقسمت، قالت إن ملابسه مليئة بتلك الرائحة، وقامت إلى الملابس التى

خلعها وقربتها من أنفه ليشمها، لم يستطع أن يشم شيئا، فخياشيمه فى الأصل مليئة بتلك الرائحة، التى يرجح أنها رائحة البارود الذى انطلق، أو رائحة الدم الذى تفجر فى كل مكان، ليته يستطيع أن يعود إلى هناك، فقط ليتأكد أن يحيى قد غطى بالتراب كل بقعة دم، فلم يعد شىء يدل عليه.

حتى طلع الصبح لم تكف مليحة عن استجوابه، و لم يجب عن سؤال واحد منها، لكنه لم يستطع أن يغمض عينيه، تلح عليه ملامح الطباخ المجللة بسواد الليل، وخلجاته المظنونة، يالقسوة الخيال!، يا لبشاعة افتراض أى شىء!، إنه أقسى من الحقيقة، ولكن – وهذا ما أقض مضجعه بالفعل – هل يوجد أقسى من رؤية إنسان يموت!؟، أو بالأحرى يقتل!؟، إنسان كان قبل دقيقة واحدة يمتلئ بالحياة، والثقة فى المستقبل، ويأتى أحدهم ويقتنصه، يقضى عليه، يسلب روحه، يتركه كومة لحم وعظم بلا روح، كومة تغوص فى وحل الدم النازف منها، إنه وهو ينظر بعينيه المفتوحتين عن آخرهما يرى انتفاضات الجسد وهو يقاوم انسحاب الحياة، ويسمع فى أذنيه طنين العيار مختلطا بصرخات غريبة، كأنها تصدر عن كيان غامض، لا هو إنسان ولا هو حيوان.

وطوال الطريق إلى ديرب لم يكف يحيى عن هز رأسه متعجبا، فبعد أن أشعل النار فى ملابس الفتى بعد خروجهما من السنبلاوين راح يملأ نفسه بالتعجب، من نفسه ومن نوح زكريا، الذى يدخل فى مناطق شديدة الوعورة فى حياته، فحتى إلى ما قبل مفاتحته فى أمر الاستعانة بصديقه عباس الذكراوى كان يظنه مجرد لاه فى مراعى المنسر وأبناء الليل، الآن وبعد قتل الطباخ صار نوح ابن ليل حقيقى، يخطط ويقتل ويظهر أمام

الناس خاليا من الآثام، وهو أيضا صار كذلك، وفى سره لعن شكران، ونعم، بل وابن عمه الشيخ يوسف السرسى نفسه، وكل ما دفعه لأن يدخل فى تجربة لطالما تغنى بالوقوف عند شواطئها دون الإبحار فى خضمها الرهيب.

لكن الأيام مضت فى طريقها، لا يعوقها خبر اختفاء حراز، أو محاولات أهله الكشف عن سر اختفائه، بل واشتراك معظم أهل قرية الربع فى الانتشار فى كل مكان بحثا عنه، أو عن أى خبر يدل عليه، أو على مصيره، ولم يتوقف نوح زكريا عند حدود الصدمة، تجاوزها مع الوقت، وصار المشهد الرهيب لا يهاجمه إلا فى الليل، وعندما أخذته قدماه إلى المكان لم يتعرف على أى ملمح فيه، فهو فى النهار غيره فى الليل، والخرير الذى سمعوه واضحا فى الليل يضيع فى صخب النهار، الصخب الذى يجمع الجلبة من هنا وهناك ليجعل منها صوت النهار الواضح، الجلى، الذى تألفه الأذن فكأنه غير موجود، لكن سقوط الماء مستمر، من حول مصبه زبد قليل سرعان ما تنفجر فقاعاته لتفسح الطريق لفقاعات أخرى قادمة.

تمنى لو ينظر فى الماسورة ليتأكد من وجود الجثة هناك، لكنه لم يفعل، اكتفى بالوقوف هناك لدقيقة، وانعطف يسارا ليسير بمحاذاة الحدود الغربية لأراضى الوسية، لطالما تخيل جده موسى وهو يسير فى نفس الطريق، ولكنه لم يشعر أبدا بشعور أبيه وعميه، فهو لا يعرف بالضبط لماذا يستعذبون البكاء وهم يتذكرون رحلة أبيهم فى المكان وحوله، اليوم

هو لا يستطيع أن يتخيل جده، ولا يقدر على تركيب صورتين اثنتين من ذكرياته السمعية التى شحن بها نفسه أبوه وعمه الشيخ عمر، فاليوم هو فى حضرة الإحساس العظيم بالذنب، والرغبة فى البكاء حتى النهاية، والتوق إلى ساعة واحدة من النوم.

الأيام تمر ولا أثر لحراز، الفتى الذى صار اسمه على كل لسان، وتتوالى الأخبار طوال الوقت، فمن قائل إن أحدهم رآه فى محطة مصر هابطا من القطار أو مستقلا له، ومن قائل إنه أرسل إليهم من الإسكندرية قبل أن يستقل الباخرة المتجهة إلى الشام، فلقد وعده أحدهم بالذهاب للعمل هناك لدى أسرة عريقة فى حلب، ولكن شيئا لم يستقر، فالأخبار التى تتوالى سرعان ما يثبت كذبها، والأيام التى تحملها تنصرم فى إصرار عجيب وكينونة لا تعرف الكلال أو الملل، وهدأت ثائرة الثائرين، وتباطأ البحث عن الفتى حتىٰ أصبح مقتصرا على أسرته الصغيرة، أبيه وأمه وأخوته، ومن باب المجاملة لا أكثر الأعمام، إلى أن زعق فى الكون زاعق.

تقول ريحانة زوجة رزق الحبال إنها كانت عائدة من لدن أهلها فى الربع ورأت أن تختصر الطريق فتسير فوق جسر المشروع حتى تدخل العزبة من الخلف، وبرغم أن الجسر فى الليل يكون مرتعا للعفاريت وكائنات الليل الغريبة إلا أنه بالنهار آمن، فالناس فى الغيطان على الجانبين، وعند مرورها أمام مصب المصرف العجوز الفاصل بين أملاك مكرم بشاى وأملاك عقيلة مرسال رأت شيئا يتدلى من الماسورة ويرفض السقوط فى الماء، واقتربت لترى ما يكون فوجدته قدم إنسان، غالبت الخوف وانطلقت تعدو فى الغيطان وهى تشير فى اتجاه الماسورة، واجتمع إليها الناس من الجانبين.

تمكنوا بعد لأى من إخراج الجثة من الماسورة، كانت متآكلة فى مواضع كثيرة منها، والوجه مختف تقريبا، واجتمع خلق كثير من القرى المحيطة بلغ المئات، وجاء أهل الربع، بكبيرهم وصغيرهم، نسائهم ورجالهم، كلهم يريد أن ينظر إلى الجثة، فربما تكون لفتاهم الغائب، الذى أعياهم البحث عنه، لكن ملامح الوجه المتآكلة حالت دون التعرف عليه، ومن موقعه بين المتدافعين لرؤية الجثة المعثور عليها وقف نوح ممتقعا، قلبه يدق بعنف، اكتفى بالوقوف بين الناس، و لم يتقدم الصفوف كعادته، الآن فقط يعرف قيمة أنه لجأ إلى قاتل محترف، فلو أنهم تركوا الملابس فوق الجثة لاهتدى الناس إلى هويته بغير عناء.

مع العصر جاءت الشرطة، المكان الذى عثروا على الجثة فيه يتبع زمام قرية المقاطعة، لذا فإن العمدة محمد العبادى كان فى انتظار المأمور الذى قدم ممتطيا حصانا رماديا، دائم الحركة والتمرد على اللجام المعدنى الذى يسيل على جانبيه زبد أبيض، وكمحاولة أخيرة قبل نقل الرفات الذى فسد فى الساعات القليلة التى انقضت ما بين إخراجه من الماء وقدوم الشرطة طلبت أسرة سالم حراز النظر إليه ثانية، وغالبوا الرائحة الرهيبة المنطلقة من الرفات ونظروا، لكن ملامح الجثة كانت مختفية، فالوجه والعنق والصدر والبطن والردفان والفخذان وعضلات الرجلين، كلها كانت متآكلة، وبان أنهم كانوا يتمنون لو تكون الجثة لابنهم الغائب فيكون مركبهم قد رسا إلى شاطئ!.

جمعوا الرفات فى زكيبة من الخيش وانطلقوا بها، وأفرغ الخفراء ما فى بطونهم وهم يحملون الزكيبة إلى مقر العمودية فى المقاطعة، ومع

كل خطوة يخطونها كان نوح يسترد رباطة جأشه، فأن تبتعد الجثة دون الاهتداء إلى صاحبها فهذا مؤشر على أن الأمور تسير فى طريقها الصحيح، وبدلا من أن ينكفئ عائدا إلى العزبة رأى أن يواصل المسير مع السائرين فى اتجاه المقاطعة، ولما طلب المأمور من الجنود طرد الناس الذين يتبعونهم انصرف مع المنصرفين، وقرر أن يتبع حدسه، وحدسه يأمره بالانخراط وسط الناس، لا يتقدم عنهم خطوة ولا يتأخر.

حدثته نفسه بالذهاب إلى المقاطعة لتسقط الأخبار، فمحمد العبادى صهر أبيه، وهو منذ تزوج أبوه بعبادية لا يكف عن الذهاب إلى هناك، يسهر فى دوار العمدة مع أبناء غالب شاهين وغيرهم من أبناء الأسر المتحالفة، ورأى أن يعرض الأمر ثانية على حدسه، ووجد فى داخله ارتياحا للذهاب إلى هناك فانطلق دون أن يخبر أحدا من ذويه، أو حتى دون أن يصطحب أحدا من أصدقائه أو عمال أبيه، فهو برغم أى شيء ذاهب إلى هناك ليتسقط أخبارا لا يجد رغبة فى أن يجعلها متاحة للجميع، فأن ينتهى الأمر بتجهيل صاحب الجثة ومن ثم دفنها دون الوقوف على حقيقة صاحبها هو النجاح بعينه، وعليه أن يتسقط الأخبار بنفسه، وليس عن طريق أى أحد آخر.

هناك فى المقاطعة عرف أن الجثة لم تمكث لديهم دقيقة واحدة، فلقد انطلق بها الخفراء إلى المركز فى السنبلاوين، صحبة مجموعة من الجنود الذين يركبون المطايا، وعرف من العمدة أن والد حراز أبى إلا أن يرافق الذاهبين إلى المركز ببقايا الجثة المعثور عليها، فبرغم ضربه بالعصى والخيزران فوق أكتافه وعلى أطرافه وظهره رفض أن يتراجع، الأمر الذى لفت نظر المأمور

فأشار إليهم ليتركوه، وعندما قربوه منه سأله:

– ماذا يا رجل!؟

فانطلق الرجل:

– إبنى يا معالى الباشا

وأعجبت المأمور الصفة التى خلعها عليه الرجل فعاد ليسأله:

– ماله ابنك؟

وأجابه الرجل وكان يجرى تقريبا ليحافظ على ملازمته المأمور:

– غائب من أسبوعين

ومن خلال انقطاع أنفاسه واصل حديثه:

– بحثنا عنه فى كل مكان فلم نعثر له على أثر

وأخيرا قال وصوته يتهدج بالبكاء:

– قلبى يحدثنى أنه هو

وقال المأمور يواسيه:

– فأل الله ولا فألك، إذهب يا رجل إلى بلدك، وتعالى لتقابلنى فى الغد، ساعتها سيكون الطبيب الشرعى قد كشف على الجثة ورأى رأيه فيها

ياسين وأخوه رضوان وأبناء خالاتهما كانوا ضمن الجموع التى تكالبت على المكان لرؤية الجثة، وتسللوا إلى مكان قريب فرأوا الرجلين الخاليتين من اللحم، وراعهم بياض عظام أصابع القدمين والساقين، وتعجب ياسين من أمر نوح ابن عمه، الذى اكتفى بالنظر إلى الجثة من

بعيد، يصخب كما يصخب الناس ويتقدم مع تقدمهم، بل ويتراجع مع تراجعهم خشية خيزران الجنود الذين نشطوا لما جاء المأمور راكبا حصانه العنيد.

سيحكى ياسين لأبنائه بعد عشرات السنين أن شيئا ما دب فى قلبه، كأنه نذير، جعله يربط بين ابن عمه وبين الجثة المعثور عليها، وما جعله يرصد تصرف نوح فى ذلك اليوم هو أنه لم يكن بالنسبة له مجرد ابن عم، كان فى الحقيقة قدوته، وكان يتمنى لو أن يسلك كما يفعل، وأن يعرف الجارية ويصادق المنسر ويسهر طوال الليل ويدخن الحشيش ويمص الأفيون، وكلها أشياء كانت فى نظره من علامات الرجولة الكاملة، فأن يكون نوح فى ذلك الموقف على غير طبيعته أمر يسترعى انتباه ياسين الذى يتحرق شوقا لأن يتشبه به، لذا فإنه لم يجد أقرب من ذلك الحدس العجيب الذى ملأ كيانه.

لقد سمع ياسين هو أيضا أحاديث المنسر حول ما قاله الطباخ حراز، ويعرف أن "نوح" سمع هو الآخر تلك الأحاديث، وإذا كانت قد أصابته بكل ما ران عليه من حزن وما اعتراه من غضب أفلا يكون نوح قد وقع فى بحيرة أكبر وأكثر عمقا من الحزن!!؟، وعصفت به أنواء غضب أعتى من تلك الأنواء التى عصفت به!!؟، لذا فإن حدسه هو أن "نوح" يعرف شيئا عن الجثة وهوية صاحبها، وربما تكون الجثة للطباخ المفقود.

مع صباح اليوم التالى استيقظ الناس فإذا بأهل الربع ينتشرون فى الغيطان القريبة من مكان العثور على الجثة، بحثا عن ملابس أو آثار تدل على هوية القتيل، جمعوا خرق قديمة ونعال مهترئة وبقايا أحبال وأجولة،

و لم يتعرف أحد منهم على شيء يخص غائبهم، وخرجت العزبة هي أيضا إلى الغيطان، ومر ياسين بنوح زكريا وهو جالس بصحبة منصور "أبو" دومة، وتعجب كيف لا يكون في طليعة الذاهبين إلى الغيطان، ليرى ما سيكون من أمر البحث الذي يجريه أهل الربع.

لكن "نوح" كان يواظب على الذهاب إلى مقر العمودية في المقاطعة كل ليلة، فالعثور على قتيل في زمام المقاطعة يعني بالنسبة للعمودية الشيء الكثير، وأخبار التحقيقات التي تجرى في المركز تصل إلى العمدة يوما بيوم، يأتي بها الخفراء المنتدبون للعمل في المركز بالتناوب، والعساكر الذين يجيئون ويروحون كل يوم، يحملون الطلبات للعمدة أو يصطحبون المطلوبين إلى المركز، وعن طريق العمودية عرف نوح أن الطبيب الشرعي الذي أجرى تشريح ما تبقى من الجثة المعثور عليها قرر أن الجثة لشاب في نهاية عشرينات العمر، بالضبط كما هو عمر الغائب حراز، وأن الجثة لذكر أصيب من قبل بكسر في عظام الترقوة، وكسر آخر في إبهام اليد اليمنى، وكلاهما ملتئمان، وأنه قتل بعيارين ناريين، أحدهما في البطن وخرج من العمود الفقري، والثاني في الصدر مر من الضلوع وخرج من لوح الكتف، وعندما واجهوا والد سا لم بتلك المعلومات انفجر باكيا، فالآن والآن فقط، هو على يقين من أن الجثة لابنه الغائب، الذي طال البحث عنه بلا طائل.

قال الأب المكلوم للمأمور، وأيضا في التحقيقات التي أجرتها النيابة أن ابنه أراد أن يتعلم إطلاق النار ذات يوم، وأعطاه واحد من أصدقائه بندقية لي أنفيلد مما تطلق عيارا منفردا، ولأن ابنه كان حديث عهد بالبواريد

وإطلاقها لم يثبت كعب البندقية فى كتفه، ولما أطلق العيار ارتدت البندقية فى صدرة وكسرت ترقوته، وبرغم أن المعلومة أكيدة إلا أن النيابة لم تعتبرها دليلا يقينيا على أن الجثة المعثور عليها هى للفتى الغائب من الربع، الذى يجرى البحث عنه من أكثر من أسبوع، والذى انطلق الناس فى الغيطان المجاورة ليبحثوا عن أى شيء يدل عليه، فإذا كان الأب المكلوم قد دلل على حادثة إصابة ابنه بكسر الترقوة، إلا أنه لم يقدم للكسر فى إبهام اليد اليمنى أى تفسير.

قاتل الأب ليدفن بقايا ابنه فى مقابرهم فى الربع، لكن النيابة أمرت بدفنها فى إحدى مقابر الصدقة فى جبانة المسلمين فى السنبلاوين، وفى جوف الليل جمع الرجل أقاربه وشاركوا فى دفن بقايا ابنه كما قال، وبكى عند قبره، وكذلك فعلت أمه، ووقف أخوته غير بعيد يبكون ويتعجبون من إصرار الأب على أن الجثة لولده، وتركهم الجنود وعادوا أدراجهم إلى دركاتهم، فلقد انتهت المأمورية التى كُلِّفُوا بها، ربما كان انصرافهم لأنهم يعرفون ما سيجرى بعد انصرفهم، لذا فإنهم سارعوا بالانصراف و لم يكن التربى قد انتهى بعد من تثبيت الأحجار التى يغلق بها باب المقبرة.

يعرف القاصى والدانى من أهل الربع، والكثيرون من أهل المنطقة أن أهل سالم الذين شيعوا جنازة الجثة المجهولة ما أن انصرف الجنود حتى نبشوا القبر وأخرجوا الجثة فى كفنها، وانطلقوا بها إلى بلدهم، وفى جوف الليل دفنوها فى مقابرهم، يسترهم الليل ومبلغ من المال اشتروا به سرعة انصراف العساكر وصمت التربى المنوط به إغلاق القبر على صاحبه، و لم يتقبلوا العزاء فى فتاهم الغائب، فهو قتيل، ولا بد من معرفة قاتله، ودونهم

وهذا الأمر بحث سيطول حتى يهتدون إليه، و لم يوقع اليأس فى قلوبهم أو يقلل من عزيمتهم أمر النيابة بقيد القضية وحفظها ضد مجهول.

أخوان وموتى

غابت زبيدة زوجة قطب أياما لدى أهلها فى ديرب نجم، ذهبت لتعود أباها فى مرض ألم به، أرسلها قطب فى معية خالها يحيى السيد، وخلت دار قطب من أى عائق يمكن سُلَيْمَة من الألمام بها بين الحين والحين، وكان حمدان الابن الأكبر للشيخ سليمان السرسى من سُلَيْمَة قد قضى أياما رائعة مع زوجته، لكنه مع مرور الوقت اكتشف أن فى عروسه شيئا غير عادى، ومع مرور المزيد من الوقت عرفوا أن الفتاة كانت تعالج من هذا الشيء لدى طبيب فى "مصر"، يكره أن يسمى ذلك الشيء الجنون، لكنه فى الحقيقية قريب من ذلك.

بدأ الأمر بانعزالها عن بقية أهل الدار لأوقات طالت بغير مبرر، وعندما فاتحتها سُلَيْمَة فى أمر انعزالها أجهشت بالبكاء، ومنذ أجهشت أول مرة لم تنقطع عنه إلا أوقات قليلة، ولم تبلغ سُلَيْمَة الشيخ سليمان بالأمر إلا بعد أن فرغت كل حيلها، فالفتاة لم تعد طبيعية، إنها تسقط فى بحيرة الصمت ثم تجهش فى البكاء من دون سبب، ولم تعد تسلم نفسها لزوجها ليقضى وطره، وحتى إذا أجبرها على ذلك تسوء حالتها إلى درجة يكره فيها نفسه،

وتساءلت أمه عن سبب ما بزوجته، وعرفت أن كل ما يحدث سببه إجبار حمدان لها على مضاجعته، وهكذا عرف حمدان طريقه الليلى إلى غايته، فبمجرد أن تنام زوجته يتسلل خارجا، ويتلمس طريقه إلى حجرة الخبيز ليقع على الخادمة فكيهة، وقد تقبل صالحة أيضا تودده فتسلمه نفسها ثم تحبطه بقولها إن ما بينه وبين زوجها بون شاسع.

غادرت زوجته فى النهاية إلى شبراهور، ليعرضها أهلها على الطبيب من جديد، فهى كما عرف السراسوة لم تستكمل علاجها لديه، وتعجل أهلها فى تزويجها، رحلت وبطنها عامرة بحمل جعل الشيخ سليمان يشفق على إبنه الأكبر من جراء ذلك، لكن حمدان كان منغمسا فى تلك الأيام بمحاولة التودد إلى ريحانة زوجة رزق الحبال، فصالحة رغم أى شىء امرأة فى عمر أمه، وهى فى كل مرة تصفعه على قفاه بتمجيدها قدرة زوجها التى لا تضارع، لكن ريحانة كانت تتمنع لأسباب تذكرها، وتعلات تبتدعها ابتداعا، ثم لما أدركت أنها أحيط بها بكت ليتركها تعيش فى كنف زوجها، وإلا ستترك العزبة إلى غير رجعة.

المنطقة كلها كانت فى تلك الأيام منشغلة بأخبار الحفل الكبير الذى يدعوا إليه الشيخ إبراهيم شلباية صديق الشيخ سليمان بمناسبة الزيارة التى سيقوم بها للمنطقة الشيخ حسن البنا مؤسس جماعة الأخوان المسلمين، ونشط الناشطون فى كل القرى والعزب المحيطة، وتشكلت شعب جديدة، ودعا أبناء عائلة شلباية شباب السراسوة للانضمام للأخوان المسلمين، فاتحوا نوح زكريا وحمدان ومختار إبنى الشيخ سليمان وقطب وياسين ابن الشيخ عمر من زوجته الثانية رئيفة وغيرهم، و لم يلب النداء سوى ياسين

ومختار، ووقعا على أوراق تفيد انضمامهما لجوالة شعبة الأخوان المسلمين في قرية المقاطعة، واحتفظ بها مقرر الشعبة، وهو واحد من أبناء غالب شاهين.

كانت المنطقة قد انتهت بالكاد من الانتخابات التي نجح فيها مرشح الوفد بالتزكية، فلقد أحجم الأحرار عن دخول الانتخابات كما أسلفنا، وبعد أن هدأت الأمور إذا بأخبار زيارة الشيخ البنا تثير نقاشا كبيرا، فالشيخ سليمان لما بلغه أمر الاحتفال لم يشأ أن يعترض على ما يفعل صديقه إبراهيم شلباية، فقط قال في وضوح:

– إن الواحد منا يشعر بالازدواج طوال الوقت

ولكي يفسر غموض حديثه أردف:

– فأنا وفدي مؤسس، ولكن قدمي منغرستان في هذا الشأن الذي يدور في البلاد

يقصد دعوة الأخوان التي تتردد في أرجاء البلاد من أقصاها إلى أقصاها، فهو أول العارفين بذلك الصراع بين دعوة الأخوان وحزب الوفد بالذات، ولقد سمع من صهره هاشم حفظي باشا كيف أن شباب الأخوان لا يكفون عن العراك مع شباب الوفد، وقد يقع من أحد الطرفين أو من الجانبين قتلى وجرحى، فدعوة الأخوان تتصادم مع ما ينتهجه الوفد من سياسات تؤدي إلى انخراط الأقباط في هياكله وفعالياته، وهي إذا انتصرت ستؤدي إلى صدام كبير، قد تدفع معه البلاد الكثير مما حصلت عليه في شأن الاستقلال، وستقوى حجة الانجليز الذين يدعون ليل نهار

أنهم فى الحقيقة يحافظون على حقوق الأقلية المسيحية من طغيان التشدد الإسلامى، ولكنه برغم حديث الباشا صهره لا ينكر سحر دعوة الأخوان، وذلك الجانب الخفى فى نفسه الذى يشعر فيه بشىء من التعاطف معها.

وحده الشيخ عمر الذى وقف مدافعا عن وفدية السراسوة، قال إنهم صناع دعوة الوفد الحقيقيين، وإنهم هم الذين شاركوا فى الثورة وقطعوا خط السكة الحديد لمنع الانجليز من الوصول إلى المناطق المضطربة، وإن دعوة الأخوان إذا اقتصرت على مجرد الدعوة فهى مقبولة، أما إذا كانت منغمسة فى السياسة وتهدف فى النهاية إلى تنحية الوفد عن الصدارة فإنهم يرفضونها، بل ويرفضونها بشدة، و لم يعلق الشيخ زكريا على ما يقول أخوه، فقط حذر ابنه الأكبر نوح من الانضمام إلى شعبة الأخوان فى المقاطعة، التى يدعو إليها وينشط فى تأسيسها بعض أصهاره هناك، لكنه متضامنا مع أصهاره وعلى رأسهم هاشم حفظى باشا ومحمد العبادى عمدة المقاطعة يناصر الوفد، وإن من طرف خفى، فمكرم بشاى بك مالك الوسية يكره الوفد، ولا يكف عن إعلان مناصرته للأحرار الدستوريين، يقول إنهم أصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد، فمن لا يملك فى البلاد شيئا يخشى عليه ليس صاحب مصلحة في تقرير ما سيكون، وعن لمنصور الطوخى أن يضحك من رزق الحبال فسأله إن كان سيذهب إلى الاجتماع، وعلق رزق على الأمر قائلا:

– الناس يا شيخ منصور على حالهم، عرايا وحزانى وجوعانين، مع هؤلاء وهؤلاء

وضحك نافع النجدى، لكن "رزق" أردف غير مكترث بالضحك:

– يجيء الوفد والناس على حالهم، ويروح الوفد والناس على حالهم، يجيء الأخوان والناس على حالهم، وغدا يروح الأخوان والناس على حالهم أيضا

ويضحك منصور الطوخي وهو يكمل لرزق:

– مثل البرنجانة، في طيزها عود

وجاء وقت الحفل فتحولت عزبة أحمد السرسي إلى سوق، يختلط فيه كل شيء، الجميع يتسابق للذهاب إلى عزبة شلباية، إلى السرادق الضخم الذي أقامه إبراهيم شلباية ليحظى فيه الناس بلقاء الشيخ حسن البنا، يقولون إن الشيخ إبراهيم شلباية ذبح عجلين واستقدم طباخين لإعداد الطعام للأعداد الغفيرة التي ستقصد إليه، ومن ثم جلبت الدعوة كل من يريد الذهاب لمجرد التطفل، أو المتشوق لرؤية الشيخ الذي يتحدثون عن كراماته، أو لينال شيئا من الطعام الذي أعده المضيف، أو لرؤية الحشد الغفير من الناس الذين سيذهبون إلى هناك، في سابقة لم تمر بها المنطقة من قبل، أللهم إلا مرات معدودة على أصابع اليد الواحدة، منها مرتان في عزبة أحمد السرسي، مرة لم يرها أحد من الأحياء وإنما نقلت لهم عبر الحكايات، وهي يوم أن اجتمع الآلاف لرؤية المنسر وهم يعذبون في واقعة المنسر الشهيرة الذين أوقع بهم الشيخ أحمد السرسي وأبناؤه وعلى الرأس منهم ابنه الأكبر موسى، والمرة الثانية لما اجتمع في الجرن الكبير آلاف البشر يوم أن ألقى الانجليز القبض على سعد باشا ونفوه إلى خارج البلاد.

ربما فكر قطب في الذهاب إلى عزبة شلباية هو الآخر، ولكن وجود

سُلَيْمَة بمفردها فى فراندة الدار الكبيرة وخلو داره لوجود زبيدة فى ديرب نجم جعله يؤجل الذهاب إلى حين، وعندما مر به ياسين وأبناء خالاته تعلل بالانشغال بشأن ما، مؤكدا أنه سيلحق بهم بعد قليل، فالمسافة بين عزبتهم وعزبة شلباية لا تستغرق وقتا طويلا سيرا على الأقدام، وهكذا خلت العزبة من الجميع، فلقد غاب الشيخ سليمان فى سفر يعرف الجميع أنه افتعله افتعالا، حتى لا يتهم بالتخلف عن الوجود فى حفل صديقه، أو بالانخراط فى دعوة الأخوان المناهضة للوفد، وفى الفراندة تجلس سُلَيْمَة كعادتها، تمد رجليها فوق مقعد مقابل فينحسر الجلباب البيتى عن جمال يأخذ بلب قطب ولا يفلته.

لا يهم إن كانت هى التى نادته أو أنه هو الذى توجه إليها، فالدقائق التى أعقبت الشعور بالصمت الذى ران على العزبة أوجدتهما فى محيط واحد، هو عند أعتاب الفراندة وهى جالسة تمد قدميها فوق المقعد المقابل، قالت:

– أخيرا رأيناك

لم ينكس الرأس أو يطرق كعادته، أجاب وهو ينظر فى عينيها:

– نعم أخيرا

يقصد الممازحة، ثم سأل:

– أين الأبناء!؟

عيناها الرماديتان تضيقان عن قصد، أجابت:

– كلهم هناك، فى عزبة شلباية

وأنزلت قدميها كأنما تتأهب لأمر ما:

- وخالك فى "مصر"

الآن يمكنه أن ينهى الموقف بحيث لا يراه أحد واقفا هنا، عند أقدامها، لكن الدار قد تكون مشغولة بخدمها، صالحة أو ريحانة، وكأنما أدركت سُلَيْمَة ما يفكر فيه فقالت وهى ترتجف:

- اسبقنى إلى دارك

استدار بغير تفكير، قدماه لا تقويان على حمله إلى داره، فما تمناه طوال سنوات يقترب، كأن الدنيا على موعد معه، وكل الظروف تتهيأ لحدوثه، والقلب الصب يدق بقوة، ويكاد ينخلع من صدره ويقفز خارجا.

طوال الطريق إلى عزبة شلباية لم يكف ياسين عن مناقشة أبناء خالاته فى شأن ذلك الشيخ الذى سيلتقونه، كل منهم يمد الآخرين بما سمعه عنه، سليمان ابن سيد احمد الطوخى من الخالة تاج كبرى بنات الراحلة الجدة مريم يقول إنه رجل مبارك، وأن رقياه لا تخيب أبدا، وعامر ابن البيومى سلام خولى أنفار وسية عقيلة هانم مرسال القاطن فى عزبة مرسال اللصيقة بالسرسى يقول إنه سبق له الوجود مع فتيان جوالة الأخوان، وإنهم علموه كافة فنون القتال، حتى إطلاق النار من المسدسات والبنادق، إذ هو عضو فى جوالة شعبة الأخوان فى شبراسندى القريبة، وهى أقرب شعبة للمكان، فيما يؤكد ياسين أن أصدقاءه من أسرة شاهين فى المقاطعة لهم خبرات بالشيخ، وأن الأخوان لا ينامون إلا ثلث الليل، ويقضون الثلثين فى العبادة، الصلاة وتلاوة القرآن، ولهم يوم فى الأسبوع يخرجون فيه إلى

تل ابن سلام للتدريب على أمور الفتوة والفروسية، ويوم فى الشهر يبيتون فيه خارج دورهم، إما فى زيارة زملائهم فى قرية أخرى، أو فى زيارة قرى أخرى بعيدة يقضون ليلهم هناك فى أحد مساجدها.

ويصلون إلى مشارف عزبة شلباية فيأتيهم لغط عظيم وضجة هائلة، وينبعث من السرادق الذى يملأ الجرن الكبير فى العزبة الصغيرة ضوء يحيل الليل إلى نهار، مئات الكلوبـ ـت الكيروسينية تنفث ضوءها الأخاذ، ومئات الناس يتمايلون كموج البحر، تسبقهم تشكيلات يرتدى أفرادها قمصانا سوداء وسراويل طويلة، ويضعون على أكتافهم شارات كتلك التى يضعها رجال البوليس، وبين الحين والحين يصطفون فى صورة سرية عسكرية ويتجهون إلى الجموع الغفيرة، يرفعون أيديهم ويكورون قبضاتهم ويصيحون:

– الله أكبر ألله أكبر ألله أكبر ولله الحمد

ومرة بعد مرة يتعلم الناس كيف يجيبون، فما أن تنتهى سرية الهتاف من النداء حتى يرفع الناس هم أيضا قبضاتهم، ويلوحون بها فى وجه الريح، ويرددون بزئير يرج المكان ويصعد إلى عنان السماء:

– ألله أكبر ألله أكبر ألله أكبر ولله الحمد

دخل الليل فى نهاية ربعه الأول، وثار لغط عظيم، فالجميع يؤكد أن الشيخ البنا وصل إلى دار الشيخ إبراهيم شلباية، وانفجر المكان بالنداء الذى تعلمه الجميع، وما أيسره من نداء!!!، وخرج على الناس عشرات من أصحاب القمصان السوداء يحملون صوانى عليها أطباق الطعام،

وحمل مكبر الصوت أمرا للجميع بالجلوس فى أماكنهم وعدم التدافع، فكل منهم سيصله طعامه فى مكانه، واستجاب الناس للنداء، ونظر ياسين إلى الجمع الغفير فوجده كسجادة كبيرة فرشت الجرن، وبينهم تتحرك الصوانى المحملة بأطباق الطعام، وتفرغ ما فيها فتلحق بها أخريات، ولم يمض طويل وقت حتى كان الجميع منشغلا بتناول الطعام.

أطباق من الورق، أول مرة يرى فيها الناس هذا النوع من الأطباق، وورقة صغيرة مع الطبق تستخدم كمنديل لتنظيف الأيدى والأفواه بعد الفراغ من تناول الطعام، وكانت بعض التشكيلات تمر يحمل أفرادها أجولة يضعون فيها أطباق الذين فرغوا من تناول الطعام، وكذا المناديل التى مسحوا بها أيديهم وأفواههم، وقبل أن يفرغ آخر فرد من الجماهير الغفيرة من تناول نصيبه من الطعام بدأت تلاوة القرآن.

طال الوقت بقطب وهو جالس فى صالة الدر فى انتظار سُلَيْمَة، شيء ما جعله يعيد على نفسه الكلمات التى نطقتها، قالت دون لبس، اسبقنى إلى دارك، أو لم تقل هذا!!؟، كذب أذنيه لما طال به الوقت، وتمنى لو أنه كان قد ذهب مع أبناء خالاته إلى حفل الأخوان المسلمين، إذن لكان منخرطا الآن فى الجموع التى ذهبت إلى هناك، ولرأى بعينيه الشيخ الذى لا يكف الناس عن ذكره، بدلا من التعلق بأذيال الوهم، وانتظار سُلَيْمَة إلى الأبد، وأراد ان يفتح باب النافذة المطلة على الدار الكبيرة ليرى إن كانت لا تزال جالسة فى ظلام الفراندة، لكنه تراجع ويده فوق المزلاج.

فمن أدراه ما الذى تفعله هى الآن، ربما تدبر أمرها حتى لا يفتضح أمرهما، لقد تمكنت منه، تمكنت منه إلى ما لا نهاية، وها هو قلبه يدق

فى عنف ويرفض أن يتراجع، يأبى أن يطاوعه لينكص على عقبيه، والدار الصغيرة الغارقة فى الظلام تنتظم هى الأخرى فى الامتثال، وفى سديمها تضوى ملامح وجهها الحلوة، ومفرق صدرها الذى يخلب الألباب، وبطنها الطرية التى تذهب بما تبقى من عقله، وفخذاها الطويلان الساحران، ومن عمق الظلام تلمع عيناها الرماديتان القاتلتان، وتفترش الأمنيات جبينها المضيء فكأنه سرير بحجم الكون، يهتز تحت وطأة رغباته الجبارة.

لقد ترك الباب مفتوحا، أغلقه دون أن يغلقه، حتى إذا ما مر به أحد يظنه مغلقا، دفعة واحدة تمكنها من الدخول دون أن يلحظ أحد، ستعرف طريقها إليه، فهو يشع بالرغبة، ولكن الليل يوغل، وهى لا تأتى، ولم يدرك أنه سقط فى النوم إلا عندما لفحت وجهه نسمة غريبة، كأن أحدهم يتنفس قرب وجهه، مد يده فإذا بها واقفة عند قدميه، تنتابها رعشة تهز كيانها كله، ما الذى جعله يجفل عندما لمست يده صدرها المضطرب!!؟، استرد يده كأنها ملسوعة بالنار، وشعر بيدها تتحسس وجهه، وتتخلل شعره العارى، فهو لا يعرف أين سقطت طاقيته، ومدت يدها الأخرى فضمت رأسه ليغوص فى مفرق صدرها، وانبعثت فى كيانه كله رائحة لم يشمها من قبل، اجتمعت فيها كل ورود العالم.

لم يطل القارئ قرآنه الذى جوده بصوت رخيم، ووقف أحدهم يعلن فى مكبر الصوت أن الشيخ حسن البنا سيخرج إليهم بعد قليل، ووقف الناس على أظافرهم، يريدون أن يروا الشيخ المبارك الذى لن تكون لحياتهم بعد رؤيته تلك الصعوبات التى كانت، سينسدل فوق متاعبهم ستار،

وأحزانهم ستنداح فلا يبقى فى الحياة إلا معانى الإيمان الرائعة، والتكافل الذى لا يعرفونه إلا من خلال الكلمات، والأخوة التى لا تحفل بالفوارق، والفروسية التى تعيدهم إلى القرون الأولى، يوم أن كان المسلمون كلهم أخوة، يوم ان كان النبى يقود جيوشه المؤمنة.

لكن الأمر صدر بالجلوس من جديد، واحتاج الأمر إلى شىء من الوقت هذه المرة، واحتد الصوت لتمتثل الجموع للأمر، فجلس الناس فى أماكنهم، كأن عصاة ضخمة هوت فوق أكتافهم، أو كأن سلسلة ضخمة طوقتهم وجذبتهم إلى الأرض، وعندما نظر المتحدث ورأى السجادة البشرية وقد افترشت المكان من جديد قال فى هدوء:

– هذه هى دعوة الأخوان، السمع والطاعة

بدأت الوفود تصعد إلى منصة كبيرة تواجه الجالسين، يعلن مقدم الحفل عن الشعب التى تم تشكيلها فى القرى، وعندما يذكر اسم قرية يتصاعد هتاف يرج المكان رجا:

– ألله أكبر ألله أكبر ألله أكبر ولله الحمد

يبدأ بأهل القرية التى جرى ذكرها، ثم تشاركهم الجموع الهتاف، وأوشك مقدم الحفل على الانتهاء من تقديم وفود القرى و لم يأت بعد على ذكر تشكيل شعبة الأخوان فى المقاطعة، ودون أن يتوقع الناس صعد الشيخ حسن البنا إلى المنصة، تنبه بعضهم إلى وجوده فأطلق عقيرته بالتحية، وكأنما سرت النار فى الهشيم فانتفض الناس واقفين، كل منهم يريد أن يرى الرجل الذى يحتشدون لرؤيته وسماعه، وانطلقت رصاصات الترحيب

من مكان قريب من المنصة، و لم تدر الجموع إلا وصراخ ينطلق من مكان على يمين السرادق، أحدهم أصابه عيار طائش فسقط على الأرض ميتا.

لم يعرف ياسين وأبناء خالته هوية القتيل، سمعوا أنه شاب من قرية شبراسندى، وقال آخرون إنه رجل متوسط العمر من "أبو" داوود السباخ، وسيقسم ياسين لكل من يقابله أنه رأى بعينيه الرجل وهم يرفعونه ليمضوا به إلى مكان ما، وأنه نظر صوب المنصة فلمح ظهر الشيخ حسن البنا يغادر، وساد الهرج، كل الموجودين يسابقون الريح ليفروا من المكان، دون أن يدرى لماذا يفر، فقط الكل يريد أن يغادر، تماما كما فعل الشيخ، ونسى مقدم الحفل مكبر الصوت مفتوحا فسمعت الجموع سباب واتهامات وأسماء لا يعرفونها متهمة بالإطلاق، وعندما خرج ياسين من نطاق الحفل تفقد أبناء خالاته، ووجدهم ينتظرونه عند مشارف العزبة، فى المكان الذين اتفقوا على اللقاء عنده إذا تفرقوا.

لا يعرف أبناء الخالات إن كان قطب قد لحق بالحفل كما وعدهم أم أنه لم يأت من الأساس، واختلفوا بين مؤيد لفكرة العودة إلى عزبة شلباية لتفقده أو المضى فى طريق العودة، أو الانتظار فربما يظهر قادما ضمن المغادرين، وانتصر الرأى الأخير، وقفوا يرقبون الخارجين من الحفل كأنهم يفرون، وطال بهم الانتظار و لم يظهر لقطب أثر، ومن مكانهم سمعوا تعليقات المارين، فمن قائل إنها مؤامرة نسجت خيوطها بالاتفاق بين رجال الوفد ومنسوبى الإدارة، ومن قائل إنها عملية عفوية، فكعادة الناس فى القرى يطلقون الأعيرة ابتهاجا، وأسئلة كثيرة بلا إجابات تمر بلا انقطاع، ولا أثر لقطب.

خرجت عزبة أحمد السرسى عن بكرة أبيها بحثا عن أبنائها، على الطريق الهابط فى اتجاه عزبة شلباية يخب الشيخ زكريا فى عباءته مرتكنا على كتف شقيقه الشيخ عمر، فكما تفقد أبناءه تفقد الشيخ عمر أبناءه أيضا، وكلاهما لم يجد أحدا منهم، وهذا لا يعنى إلا أنهم هناك، فى الحفل الذى تطايرت الأخبار عن قتل أعداد من الموجودين فيه، إن بالرصاص أو دهسا بالأقدام عند الفرار، وعلى الطريق كانت كل القرى والعزب المحيطة تخب فى اتجاه المكان المشئوم، وكلما مروا بأحد من الفارين سألوه عما هناك، بعضهم يجيب بما يعرف، والكثيرون لا يعرفون كيف يردون لهفة السائلين.

وعند نهاية الترعة التى يوصل جسرها إلى عزبة شلباية كانت أعداد هائلة من البشر تتلكأ فى الانصراف، فالأنباء ترد عن القدوم الوشيك للبوليس، قالوا إن عمدة المقاطعة أُبْلِغ بقدوم المأمور بنفسه، وكان أحد ضباط المركز موجودا على رأس قوة صغيرة لتأمين الحفل، وعندما وقعت الواقعة وسقط القتيل ضربت القوة طوقا حول الجثة ومنعوا الاقتراب منها، بعد أن تأكدوا أن صاحبها فارق الحياة، لم يتلكأ الشيخان زكريا وعمر عند الجمهرة التى تقف فى انتظار قوة البوليس القادمة، فالأبناء لم يعودوا، ولم يقابلا أحد منهم على طول الطريق، ونوح بالذات يثير قلق أبيه، بعد أن سمع بأذنيه أحاديث اتهامه فى قتل الطباخ حراز.

لا يعرف أحد من أهل العزبة سواء من السراسوة أو غيرهم بأمر الزيارة التى قام بها منذ أيام قليلة الشيخان زكريا وعمر إلى الربع، إذ ما أن سمع الشيخ زكريا بتلك الأحاديث التى تربط بين ابنه وبين مقتل حراز حتى

أرسل فى طلب أخيه، فالشيخ عمر بالنسبة إليه ناصحه ومعينه، وعقله الذى يفكر به، ورأى الشيخ عمر أن يستجوبا نوح قبل اتخاذ أية خطوة فى اتجاه نفى التهمة عنه، ومثل نوح فى حضرة أبيه وعمه، هو لايخشى استجواب أبيه، أما استجواب عمه ففيه الخطر الحقيقى، إذ لا يكتفى عمه كما يفعل أبوه بتوجيه الأسئلة ليتلقى عنها إجابات، وإنما يسأل ويسأل ويسأل ثم يقارن بين الإجابات بعد أن يستخرج منها ما يعينه على إدراك ما يريد.

لكن الاستجواب مضى آمنا، ولم يكن الشيخ عمر فى لياقته الكاملة، ربما لأنه يستبعد أن يكون ابن أخيه ضالعا فى قتل الفتى، وربما لأنه من الأساس لا يصدق أن الجثة التى عثر عليها فى ماسورة المصرف العجوز هى للطباخ الغائب، وهكذا قرر الرجلان أن يصحبا إبنهما ويذهبا إلى أسرة حراز فى الربع، يقفا على حقيقة ما يوجه لنوح من اتهام ويبرئا ساحته، وهكذا أرسلا فى طلب زيارة الأسرة فأجيبا إلى طلبهما، وهناك نفذ نوح حرفيا ما طلبه منه عمه، جلس خاضعا غير مطرق إلى الأرض، متماسكا وغير هياب، ومقدرا لحالة الأسرة التى فقدت إبنها إما لغيابه أو لموته.

هناك عرفوا أن السبب الذى جعل أسرة حراز تتجه بالاتهام إلى نوح كلمات قالها أحد رجال المنسر إلى صديق له من الربع، لم يتنازلوا عن ضرورة دعوة صديق رجل المنسر ليقول كلماته فى حضورهم، وهكذا أرسلوا فى طلب الرجل، فقال إن رجل المنسر عندما ورد ذكر حراز ذات مرة قال إنه لا يستبعد أن يكون نوح زكريا هو قاتله، كلمات من باب

التخمين لا غير، وفى مواجهة القائل جلس نوح يشاهد ما يدور، كأن الحديث يدور حول شخص آخر وليس عنه هو، وخرجوا من لدن أسرة حراز متوجين ببراءة ابنهم، ومشيعين بأسمى آيات الاحترام.

الآن يدب فى صدر الشيخان زكريا وعمر خوف من اتهام إبنهم فى واقعة عزبة شلباية، فكما صار ذكر نوح دارجا على ألسنة أناس كثيرين، يمكن أن يذكر اسمه فى هذه الحادثة، فرجال المنسر كما رأى الشيخ عمر يوقعون بنوح لأسباب لا يعرفها، وعلى نوح أن يقدم لآبائه يد العون ليعرفوا لماذا يتقصدونه، و لم يقدم لهم نوح شيئا يعينهم على الفهم، لكنه انتوى معاقبة رجل المنسر الذى قال ما قال وكاد يدعسه فى واقعة قتل الطباخ اللعين، لم يتوقف الشيخان عن المضى فى اتجاه عزبة شلباية، حتى إذا ما أشرفا على دخول العزبة وجدا ياسين وأبناء خالاته يقفون فى انتظار ظهور قطب.

لم يخبر ياسين أباه وعمه بما يعرفه عن مكان نوح، فقط طمأنهما على أنه لم يكن حاضرا الحفل المشئوم، ولكنهما لم يكتفيا بما قال وواصلا طريقهما صوب مكان الحادث، لم يبق هناك إلا القليل من الناس، ودار الشيخ إبراهيم تنبئ عن أن الشيخ البنا غادر، فالدار حزينة لما حدث، والجنود يفرضون الطوق حول القتيل الذى يتكوم هناك، وسط الطوق، الآن عرفوا شخصيته، فهو رجل من قرية بيضاء السوق من أعمال مركز السنبلاوين، جاء ضمن وفد من شباب القرية ليعلنوا فى وجود الشيخ البنا تشكيل شعبة قريتهم، بل إنه هو الذى صعد إلى المنصة قبل موته بدقائق وسلم مقدم الحفل أوراق تشكيل الشعبة، لكن قدره كان فى انتظاره،

وبرغم الاهتداء إلى حقيقة شخصيته فشل الجميع فى معرفة من أطلق العيارات النارية.

يعرف ياسين أن "نوح" ابن عمه بالاتفاق مع منصور "أبو" دومة توجها إلى قرية كفر غنام، فهناك وليمة أعدها واحد من عائلة هيكل للمنسر، احتفالا باستعمالهم فى استرجاع أرض كان أقرباؤه قد استولوا عليها، فلقد هجموا على الأرض المنزرعة وأتلفوا زراعتها بعد أن قيدوا الفلاحين وأوسعوهم ضربا، وظلوا يحتلون الأرض أسابيع حتى انعقد مجلس عرفى قضى للرجل بأحقيته فيها، وبرغم أنه أجزل لهم العطاء إلا أنهم إكراما لخاطر نوح زكريا الذى أوصى بهم المنسر أولموا للجميع، يعرف ياسين أن "نوح" سيفعل شيئا فظيعا وهو فى طريق عودته من هناك، فالرجل الذى وشى به لدى عائلة حراز سيكون معهم، وفى طريق العودة سيعرف نوح منه أصل الحكاية، وهو إذا أخبر أبوه وعمه بهذا السر فإنه سيفقد ثقة نوح إلى الأبد.

استشاط الشيخان غضبا، فأن يكون هذا الحدث الضخم على بعد خطوات من العزبة ولا يكون نوح موجودا يشير إلى أنه ربما يكون ضالعا فى شأن ما أكثر وعورة، هذا ما فكر فيه الشيخ عمر، وتحدث فيه إلى أخيه وهما فى طريق عودتهما من عزبة شلباية، وأفضى الشيخ زكريا لأخيه بخوفه من أن يفعل نوح شيئا عنيفا مع رجل المنسر، انتقاما منه لوشايته به، لكن الشيخ عمر طمأنه إلى أن "نوح" قطع معه عهدا بألا يعاقب الرجل على ما قال، ويترك له أمر التصرف فى الأمر، ونظر الشيخ زكريا فى عينى أخيه وسأله:

– وهل صدقته؟

وأجابه الشيخ عمر بثقة:

– نعم صدقته

وأراد أن يدعم إجابته بشيء من التأكيد، لكنه فضل أن يقف بالحديث عند هذا الحد.

انقلبت الدنيا رأسا على عقب وقطب لا يعرف عما يجرى شيئا، الشيء الوحيد الذى يعرفه، والحقيقة التى يعيشها بكل كيانه هى أن سُلَيْمَة أخيرا بين يديه، فى الظلام رآها كما يرى القمر، ورأته بكل تفصيلاته، وبكت لا يعرف مما بكت، وبكى هو أيضا ولكنه يعرف لماذا بكى، بكى أيامه التى انصرمت بدونها، وشوقه الطويل لحضنها الندى، وخوفه من الأيام القادمة، وخيانته لخاله الذى فتح له داره، لكنه لم يعرف أبدا لماذا بكت، ولا هى نفسها، فلقد كفت عن التفكير فى أى شيء، عدا هذا الرمح الذى انتفض وغمرها بفيضه، وهذا الوجود العجيب الذى تشعر فيه بكل كيانها، كأنها أنثى تحققت للتو.

كلما تنهض لتنصرف تقبض يده على ذراعها فتستكين، وكلما يسرح بفكره إلى بعيد تستعيده كجنية حقيقية، لكن اللغط الذى تلتقطه أسماعهما يدفعهما للخوف، فتشق الباب لترى إن كان أحد هناك فى البراح الموصل بين الدارين وتنسل خارجة، تصعد سلمات الفراندة فى خفة قطة، وتجلس قليلا فى ظلام الشرفة، ويهدأ قلبها، فالآن هى فى دارها، وقطب فى داره، وكل ما حدث مجرد ذكرى، ستذهب مع الأيام،

موال قديم عاث فى داخلها فسادا وها هى زعقته بكل ما أوتيت من قوة، الآن عليها أن تغتسل من وزرها فكأنها لم تفعل شيئا، و لم تدر إلا والدموع تنهمر من عينيها، إنها ساخطة على هذا الرجل الذى أهانها مرتين، مرة إذ تزوج عليها أمينة الجمل، وأخرى عندما تزوج عليها للمرة الثانية ابنة عبد الحميد حفظى، وهى لم تفعل أكثر من أنها عاقبته، فكما تحب المرأة رجلها وتتفانى فى خدمته تعاقبه أيضا إن هو استهان بقدرها، وأضحك عليها القاصى والدانى.

وكانت قد تركت الباب مردودا حتى إذا ما عادت تدخل دون أن يلحظ أحد، والآن فإن أولادها ربما يكونون فى طريق العودة من حفل عزبة شلباية، وعليها أن تدخل إلى حجرتها وتتصنع النوم، حتى إذا ما طرقوا الباب تنهض كأنها مستيقظة لتوها، لكن شيئا ما يمنعها من دخول حجرتها، ويدفعها لأن تستحم أولا قبل أن تضع نفسها فى سرير الرجل الذى أهانها، فهى لا تقدر على تدنيس سريره، هذا ما راحت تؤكده لنفسها، وبحثت عن مصباح الكيروسين الصغير وأضاءته، وفى الحمام أخذت تصب على نفسها الماء، و لم تكن تشعر ببرودة الماء، فقط كانت ترى الماء ينسرب فوق أرضية الحمام حاملا معه أدرانها.

فى دار قطب كان الظلام مخيم، وعيناه المجللتان بالدمع تبحلقان فى الفراغ المليء بأشكال عبثية، تختلط فيها أوهامه بأحلام رآها ذات مرة، وجه جدته يرفض النظر إليه وظهر أبيه وهو يولى الأدبار، وجاءته طرقات كأنها سياط تلهب ظهره، أصاخ السمع فإذا هى طرقات حقيقية على الباب، خاله الشيخ زكريا واقف عند الباب يدقه بعنف، و لم يعد يقدر على

الصمت أكثر من ذلك فأجاب كأنه خارج لتوه من النوم، ولما فتح الباب ليرى الطارق فاجأه الجمع الضخم، خالاه الشيخان زكريا وعمر، وأبناء خالاته جميعا يتقدمهم ياسين، وأبناء خاله الشيخ سليمان.

استجمع كل خبراته مع المنسر ورجال الليل، وتلبسته روح الإنكار بكل تفصيلاتها، كان يتساءل: ماذا لو أنهم جاءوا ليعاقبوه على ما فعل مع زوجة خاله!!؟، ولكن من أين لهم العلم بما فعل!!؟، وأخرجته كلمات خاله الشيخ زكريا من هواجسه، يسأله عن نوح، ابتلع جفاف حلقه و لم يشأ أن يجيب على الفور، يعرف أن المنسر فى وليمة فى كفر غنام، وأن "نوح" ذهب معهم إلى هناك، فهو فى الأساس المعنى بالوليمة، هذا ما قاله لخاله الشيخ زكريا بعد أن تمكن من جمع شتاته، و لم يعرف أبدا سر تلك النظرة التى تبادلها خالاه الشيخان زكريا وعمر ردا على ما أخبرهما به، وعلى الفور أمره خاله الشيخ عمر بارتداء ملابسه للذهاب معهما إلى كفر غنام، وفيما هو يرتدى ملابسه أسر الشيخ زكريا لأخيه بأنهما سيرتكبان خطأ كبيرا إن هما اصطحبا "قطب" فى مشوارهما إلى كفر غنام، فقطب لا يحب نوح، وإذا وقف على شيء من شأنه لن يكتم خبره، سيذيعه على الملأ، وبدلا من أن يقف الشيخ عمر حائرا نادى على قطب:

– أكمل أنت نومك وسنذهب نحن

منصور أبو دومة لم يستطع أن يثنى نوح زكريا عن عزمه الانتقام من رجل المنسر الذى وشى به، وحتى لا يغضبه رأى أن يسمع للرجل قبل أن يوقع به أى عقاب، فربما كان لديه حديث آخر، غير ذلك الذى سمعه من رجل الربع، لكن "نوح" كان محتشدا بشدة، وعازما على فعل ما يريح

صدره، وعندما واصل أبو دومة اعتراضه قال نوح:

– أنا حفيد رجل علم نفسه كيف يتعامل مع المنسر

يلمح إلى ما فعله جده موسى برجال المنسر فى واقعة مندرة الغيط، و لم يكن أبو دومة يجهل ما يلمح إليه، ورأى أن يقول:

– لا أريد أن تخسر صداقة هؤلاء الرجال

وفهم نوح أنه يهدده فانطلق يرغى ويزبد:

– ظز فيك وفى رجال المنسر من أول رجل فيهم إلى آخر رجل، ومن الغد لا أريد أن أرى منهم أحدا، ومن الغد أيضا لا تخط بقدمك مندرة الشيخ زكريا

كانا يتقدمان المنسر العائدين من الوليمة الفخيمة، ولما رأى أبو دومة أن الحديث ذهب إلى غير وجهته ترفق فى الحديث وقبل رأس نوح:

– أهكذا يا ابن الكرام، تقبح أصحابك عند أول خلاف!؟

فساومه نوح:

– دعنى أختلى به وأنظر إن كان لديه حديث غير الذى بلغنى

وأدرك أبو دومة سر اصطحاب بعض عمال الوسية معهم إلى الوليمة، ورأى أن ينفذ لنوح ما يريد حتى لا ينقلب السحر على الساحر، وتصحو عزبة أحمد السرسى فإذا بالمنسر ملقيين خارجها.

رحيـل



كل الظروف كانت تعمل ضد عبد الفتاح يحيى باشا رئيس الوزراء، فلقد سقط الملك فؤاد مريضا، وتداول الانجليز مسألة تعيين مجلس وصاية يختارون أعضاءه بأنفسهم حتى يضمنوا ولاءهم للاحتلال، سواء فى حالة بقاء الملك حيا مع اشتداد المرض عليه، أو فى حالة رحيله وصعود ابنه فاروق إلى العرش، فهو لم يكن إلا صبى لا يعى من أمور الحكم شيئا، وانتهى الأمر بتقديم عبد الفتاح يحيى باشا استقالته وخلفه محمد توفيق نسيم باشا الذى كان قد أعلن نفسه معارضا لدستور 1930، وبعد أسبوعين من توليه الوزارة صدر أمر ملكى بإبطال العمل بدستور 1930، ولما لم يصدر أمر بعودة دستور 1923 فقد بقيت البلاد بلا دستور وتحت الحكم الاوتوقراطى للملك مباشرة، وتحت سلطة الاحتلال مباشرة أيضا.

وبسبب محاولات صدقى باشا إضعاف الوفد نشأت جمعية مصر الفتاة بقيادة أحمد حسين، وتعلقت بها آمال بعض الشباب المصرى من طلبة المدارس والجامعات ومن فى سنهم من الطبقات الأخرى، وهى الجمعية التى وصفها البعض بالفاشية لما تبنته من أفكار تمجد القومية المصرية

وتضعها فوق الجميع، وتدعو إلى تأسيس امبراطورية شامخة من مصر والسودان وتحالف يضم الدول العربية والإسلامية، وبمجيء وزارة نسيم باشا عاد الوفد إلى تنظيم صفوفه واستعادة قوته فنظم مؤتمرا جماهيريا حضره ثلاثون ألفا من الأنصار، وناور الملك العجوز فأعلن قبوله عودة دستور 23 حتى يبين أن الانجليز هم من يرفضون عودة الحياة الدستورية، فلقد سبق وطلب نسيم باشا من الانجليز عودة دستور 1923 لكنهم رفضوا، وألقى السير صمويل هور وزير الخارجية الانجليزى فى 9 نوفمبر 1935 تصريحه الشهير الذى يفهم منه اعتبار وجود قوات الاحتلال فى مصر بقوة الأمر الواقع، وأيضا اعتبار دستور 1923 غير مناسب لحالة مصر التى تعانى التخلف السياسى، واشتعلت الثورة فى مصر.

أمام الثورة التى قتل فيها كثرون تراجعت انجلترا بصورة مدروسة، فأعلنت أنها لاتتدخل فى اختيار المصريين للدستور الذى يريدون، وكانت انجلترا على أبواب حرب مع إيطاليا التى أرسلت المزيد من قواتها إلى الحبشة، وهو ما يعنى تهديد منابع النيل، وتشكلت جبهة وطنية بين الوفد والأحرار الدستوريين، وصدر مرسوم ملكى بإعادة دستور 23، ونتيجة لاستقالة السير صمويل هور أرسل وزير الخارجية البريطانى الجديد أنتونى إيدن رد الحكومة الانجليزية على طلب إنفاذ نصوص مشروع النحاس- هندرسون فى 1930، وجاء الرد مؤكدا ضرورة الاتفاق على النصوص العسكرية قبل أى شيء، وقبل الوفد الخطة الانجليزية، وتشكلت وزارة ائتلافية برئاسة على ماهر باشا مهمتها إجراء انتخابات برلمانية، فيما تشكلت لجنة للتفاوض رأسها النحاس باشا، وبعد مفاوضات أدارها

الانجليز بمنطق التعويض، أى أخذ شىء فى مقابل ترك شىء، تم توقيع الاتفاقية فى 26 أغسطس من العام 1936، الاتفاقية التى تعتبر نهاية طبيعية لثورة 1919، واختتمت بها صفحة من العداء الشديد بين مصر وانجلترا، وفتحت صفحة من التحالف بين البلدين، وسيكتشف المصريون لاحقا أن انجلترا تطبق قواعد التحالف لصالحها فيبدأ نضال وطنى جديد، لا يستمد نيرانه من وقود ثورة 1919 وإنما من ظروف ونتائج تطبيق المعاهدة وتغير الظروف الدولية التى ستأتى بها الحرب العالمية الثانية (*).

وفى عزبة أحمد السرسى كانت الحياة تمضى فى طريقها المعتاد، وبصعود الوفد من جديد صعد نجم الشيخ سليمان السرسى إلى عنان السماء، لكن البعد بينه وبين أقاربه ازداد أكثر، و لم يعد قريبا من أحد إلا أصدقائه وعمه وصهره الشيخ يوسف السرسى، ووقعت حادثة قتل الرجل الأخوانى فى عزبة شلباية وهو فى "مصر" لدن أصهاره الجدد، عائلة حفظى باشا، و لم تصله أخبارها فى حينها.

وكذلك لم يعرف بها نوح زكريا، الذى كان فى طريق عودته من كفر غنام صحبة المنسر و"أبو" دومة، كان مستغرقا حتى قمة رأسه فى خطته للانتقام من رجل المنسر الذى أوحى لأهل حراز بضلوعه فى قتله، ونظر من طرف خفى إلى رفيقيه جاد المولى ورجب المرسى فأمنا فى الظلام على نظرته، فهما ليسا مجرد عاملين فى الوسية تحت إمرته وإمرة أبيه، إنهما قبل أى شىء قريبا أمه، قدما من سللنت إلى العزبة مع زواج هنومة من الشيخ زكريا، جاد المولى جاء وهو طفل ورجب جاء رجلا، وما أن استقرا فى

(*) تطور الحركة الوطنية فى مصر من 1918 إلى 1936، د.عبد العظيم رمضان.

العزبة حتى استعملهما الشيخ زكريا فى الوسية، جاد المولى فى الحظائر يساعد فى أعمال كلافة الثيران والماشية، ورجب كعامل تلويط لا تمتد يد أحد لتمليس قنوات الوسية إلا يده هو ونافع النجدى ورزق الحبال، وإذا كان الشيخ سليمان يستعمل "نافع" النجدى و"رزق" الحبال فإن رجب ظل عامل الوسية الذى لا يؤجر مجهوده لأحد آخر، و لم يلبث أن زوجه الشيخ زكريا من روح الفؤاد ابنة أحد نجارى السواقى العاملين فى الوسية.

جاد المولى بقامته الفتية المديدة ووجهه الأسمر وعضلاته المكتنزة يقبض على كتفى رجل المنسر فيما رجب بذراعيه الطويلين وكفيه العريضين يكمم فمه حتى لا يصدر عنه ما ينبه أصحابه، وفى الخلف يساعد نوح فى دفع الرجل حتى لا يفلت منهم، وكان منصور أبو دومة قد تمكن من أخذ رجال المنسر عدا الرجل المقصود وانعطف بهم إلى اليمين بحجة معاينة سواقى إحدى الوسايا القريبة من غزالة، وأيضا معاينة زرائبها، كهدف محتمل لعمل قريب، فلقد امتنع ناظر الوسية عن دفع الأتاوة التى فرضوها عليه وأغرى بفعلته آخرون راحوا يماطلون هم أيضا ويستأجلون الدفع.

بقى من المنسر ثلاثة رجال، أحدهم هو الرجل المطلوب، فيما أرسل نوح الرجلين الآخرين إلى شأن خاص به فى عزبة محمد مصطفى، فلقد قصده أحدهم ليسترجع مواشيه المسروقة، ظنه أن المنسر الذين يقيمون فى العزبة هم من وراء سرقتها، و لم يتبق معه هو ورجليه إلا الرجل المطلوب، الذى راح يدق الأرض بقدميه ويرفض التقدم، فأخرج نوح سكينا من ملابسه ووضعه فوق رقبته، ولما شعر الرجل ببرودة النصل انصاع لرغبته،

وهكذا قطعوا به مسافة طويلة فى الغيطان، ووصلوا إلى إحدى العرائش فدفعوا به داخلها، وراحوا ينظرون فى وجوه بعضهم البعض والرجل محاصر بثلاثتهم.

الرجل يستعطف "نوح"، يريد أن يعرف لماذا يفعل به ما يفعل، فلقد راجع وهم يدفعونه كل ما حدث منذ خرجوا من كفر غنام فى طريق عودتهم، وأدرك أن الجميع تآمر عليه، بدءا من هؤلاء الذين تعللوا بالذهاب إلى الوسية المتمردة، وانتهاء بالزميلين اللذين انطلقا إلى عزبة محمد مصطفى، فما الذى أتاه ويجعلهم كلهم يتآمرون عليه!؟، السكين يعكس حده لمعة الأنجم البعيدة ونوح واقف يسأل:

– أصحيح لا تعرف!؟

يقسم:

– لا ورب العزة

ويتهكم نوح:

– أتعرفه!؟، أتعرف رب العزة الذى تقسم به!؟

ويشير إلى رَجُلَيْه فيهجمان عليه، يطرحانه أرضا ويوثقانه بأحبال كانا يخفيانها، ويصير جاهزا لتلقى الأمر بالحديث، ويسأله نوح:

– ما الذى تحدثت به عنى لذلك الرجل من الربع؟

– أى رجل!؟

وتسبق السكين رد نوح، تنغرس فى كتفه العارى فينفجر الدم، ويصرخ الرجل وما من مجيب، إلا صدى صرخته يترجع فى الفراغ المحيط، ويسقط

مع الندى فوق الزروع النائمة، ويهم نوح بضربه ثانية فيصرخ الرجل:

- قل لى أى رجل؟، أنا أعرف كثيرين من الربع

فيلامس نوح رقبته بحد السكين وهو يقول:

- الرجل الذى تحدثت معه عن حراز

ويتصنع الرجل الدهشة فتنغرس السكين فى جانب رقبته، ويصرخ من جديد، ولكن صرخة المذبوح هذه المرة، فغزارة الدم الذى يسيل تستدعى تدخل رجب، يكتم الجرح بيده العريضة فيتوقف تقريبا، ولا يعطى نوح الرجل فرصة لالتقاط الأنفاس، ويجيب الرجل هذه المرة:

- هو الذى قصدنى، أعرفه عن طريق بعض أصدقائنا من السمارة، سألنى إن كنت أعرف شيئا عن اختفاء حراز فنفيت معرفتى بالفتى من الأساس

يد رجب تتراخى قليلا فيعود الدم للتفجر، ويصرخ الرجل:

- أنا أموت يا سى نوح، أنا أموت

فيحكم رجب كتم الجرح ويشير نوح ليواصل حديثه، لكن الرجل يستجدى رجب:

- النبى طنبيك تكتم الجرح يا عم رجب، دمى يُصَفَّى

ولا يجيبه رجب، فقط يحكم كتم جرح الرقبة، فيما جرح الكتف يواصل النزف:

- سألنى عنك، إن كنت أظن أن لك يدا فى أمر اختفائه فنفيت،

وسألته لماذا يسأل عنك أنت بالذات، أجابنى بأن بعض الناس يقولون إن السراسوة هم من وراء اختفاء حراز، وأنه لما استعرض رجال السراسوة رأى أنك أول من سيقوم منهم بالانتقام من الفتى

ويفقد نوح حذره ويسأله:

– أنتقم منه!؟، لماذا أنتقم منه!؟

فيقلب الرجل النظر فى الرجلين، رجب وجاد المولى:

– أنت تعرف يا سى نوح

ويدرك نوح أنه تسرع، لكنه يعود للسؤال:

– ألم تخبره أنك لا تشك لحظة فى أننى من قمت بقتله؟

وينبرى الرجل باكيا ومستعطفا:

– وحياة العيش والملح يا سى نوح ما تحدثت معه بكلمة واحدة زيادة على ما أخبرتك به

– ولماذا لم تخبرنى بما دار بينكما!؟

– الناس تتكلم طول الوقت يا سى نوح، فهل أخبرك بكل ما أسمع!؟

وينتحى نوح جانبا، تاركا الرجل بين أيدى رجليه يتألم بصورة تجعله يشعر ببعض الندم، لماذا يشعر بأن الرجل صادق!؟، وكان من قبل على يقين من أن ما سمعه من رجل الربع هو حقيقة ما دار بينهما!؟، وأخيرا اهتدى إلى حل:

– إسمع

لكن الرجل المنشغل بآلامه ورعبه لم يحر جوابا، وسأله نوح:

– هل إذا تركتك تعدنى بالجمع بينك وبين ذلك الرجل لأرى أيكما الكاذب؟

وكأنما أمسك الرجل بطوق نجاته، انطلق يتعهد بما طلب نوح، ويقسم بأغلظ الأيمان إلى أن فقد قوته، فراح يؤكد على الأيمان من جديد، بإشارة مصحوبة بآهة واهنة.

لكن الأيام لا تمضى على ما يريد الناس، فالشيخ زكريا الذى أقلقه انغماس ابنه الأكبر يوما بعد يوم فى شئون أبناء الليل بدأ يفكر جديا فى طرد المنسر من العزبة، وهو على يقين من أن قرارا كهذا لا بد ستكون له تبعات، أخطرها ما قد تتعرض له زرائب ومخازن الوسية من هجوم وسرقات، لكن كل ذلك يمكن تداركه، أما ضياع ابنه فلا يمكن تداركه، أعيته الحيل فى جعل ابنه معاونا له فى شئون الوسية، واعترف بالفشل، بل إن نسيم افندى كاتب الوسية الذى يضعه مكرم بشاى بك عينا عليه وعلى مسلك السراسوة فى وسيته نقل إلى البك كل ما يشين "نوح"، من أول علاقته بالجارية وانتهاء بقعدات تدخين الحشيش ومضغ الأفيون، واستقر فى يقين الرجل أن "نوح" لا يصلح أبدا لمعاونة أبيه، فإذا حدث له شىء فإن مكرم لن يقبل أن يحله محله، وستضيع إلى الأبد فرصة الاقتراب من أرض أبيه، أرض موسى التى يحرسها من خلال نظارته إلى ان تحين الفرصة لاستردادها.

لا يعرف أحد حتى أخود الشيخ عمر بأمر الخبيئة التى يخبئها لدى زوجته هنومة لحين الحاجة، أموال يدخرها تزيد مع الأيام، حتى إذا ما زهد

مكرم فى الأرض وأراد بيعها يكون جاهزا للشراء، حتى ولو اضطر إلى بيع بعضها ليتمكن من شراء الباقى، لا يعرف أحد وخاصة ابنه الأكبر نوح أنه تقريبا فى كل ليلة من ليالى هنومة يجلب الخبيئة ويأخذ فى عد النقود، الآن لديه ما يكفى لشراء عشرين فدانا، وهى تصلح كمقدمة لشراء ثلاثة أمثالها، فإذا باع الشيخ عمر فدانيه وباعت رئيفة ميراثها من أمها، وكذلك فعلت أختها سكينة زوجة ابن عمه الشيخ كامل السيد فإنهم يستطيعون بشىء من التساهل من قبل البك أن يشتروا أرض أبيه وعمه السيد، التى باعاها لبنك الأراضى وهما خارجين إلى ديرب نجم ذات يوم.

وجد نفسه يسير بمفرده فى الطريق المفضى إلى أراضى الوسية، وينتظم فوق مشاية الوسط التى شقها أبوه ذات يوم ليستكمل إصلاح الأرض وجعلها صالحة للزراعة، على الجانبين ابتهجت المزروعات بوجوده، لم ير أحد إلا هو أباه وهو يقطع هذه المشاية جيئة وذهابا، إنه هو فقط الذى يستطيع أن يرى آثار خطوات أبيه فوق ترابها، وهو فقط من أبناء موسى والسيد السرسى من رأى بعينيه عرق أبيه وعمه وهو يسقط فوق هذه الأرض الشاسعة، كأنما يرويها لتصير خضراء، وعندما تمايل بكتفيه مقلدا مشية أبيه سال الدمع من عينيه، ومن خلال دموعه رأى أباه واقفا أمامه، منتصبا كأنه لم يفارق الدنيا، على وجهه علامات الظفر، وليس مهزوما على نحو ما كان فى أيامه الأخيرة.

أتراه أخطأ عندما لم يفكر فى تقديم أخيه الشيخ عمر ليكون بديله فى نظارة الوسية؟، أم تراه كان على صواب؟، فأخوه ليس حازما كما يجب، وقيادة تلك الجيوش الجرارة من العمال والكلافين والفلاحين

يحتاج إلى شيء من الشدة، بل والقسوة فى بعض الأحيان، وهو ما لا يقدر عليه أخوه الطيب، الذى لا يفكر أبدا فى الأمور على نحو ما يفكر الناس، وعاد ليسأل إن كانت القيادة لا تصلح إلا بالطريقة التى يراها، فهو لم يجرب أبدا القيادة على طريقة أخيه، الحب الذى يشمل الجميع، والشفافية والوضوح الذى لا يجدى معه أى لبس، وأمعن النظر فى أحوال ابنه الأكبر، نوح، ودمعت عيناه من جديد.

ليس فى أبنائه من يصلح لنظارة الوسية من بعده، وبرقت عيناه وهو يقول: إنها لا تصلح إلا لياسين ابن عمر، ولكنه مجرد صبى، ونظر غير بعيد فوجد أخاه الشيخ عمر يتبعه، لا يريد أن يلحق به أو يتخلف عنه كثيرا، يسير بمعدل خطواته، ويتوقف إذا توقف، كأنه يحافظ على المسافة بينهما، يحفظ عليه خصوصيته ويراقبه كظله، هذا هو عمر، ابن أبيه وأمه، الذى لم تلد النساء أخا مثله، والذى لا يفكر أبدا كما يفكر الناس، ولا يسلك كما يسلكون، بل كما تفعل الملائكة.

لماذا تلح عليه الآن الفكرة التى ألقاها فى ساحته أخوه، وأعادها عليه بالأمس فقط، لما أبلغه أن ناظر وسية أباظة القريبة أنهى إليه أنهم يبيعون ثلاثين فدانا من الوسية واقعة فى زمام قرية شنوان، للتخلص من تبعات ريها، فهى تأخذ ماء ريها من ترعة أخرى غير تلك التى تروى بقية أراضى الوسية، وهم لا يحبذون إنشاء سواقى جديدة على ترعة شنوان لمجرد وجود ثلاثين فدان لهم هناك، وتلقى فكرة أخيه بغير تعقيب، فلقد عرضها فى البداية على ظنونه، فمن أين لأخيه معرفة أنه يحتفظ بالمال الذى يكفى لشراء تلك الأفدنة!!؟.

إنه الآن أقرب إلى فهم مقصود أخيه، فلا شك أن أى واحد من المقربين منه لا بد على علم بأنه يدخر شيئا من دخله، فمهما بالغ فى الإنفاق فإن دخله من الوسية يفوق أى إنفاق، يكفيه الأفدنة العشرة التى يزرعها بلا نفقات تقريبا، وهو فى نهاية السنة ليس ملزما بسداد إيجارها، فهى أجره عن نظارة الوسية، وحتى بعد أن استخدم البك نسيم افندى لم يستطع الرجل أن يلم بكل خفايا الوسية، وتمكن من استعمال الأنفار فى خدمة فدادينه العشرة دون أن يلحظ المراقب الأريب، إذن فأخوه يفكر بالطريقة التى كان عليه أن يفكر بها، ألا يدع القريب الممكن فى سبيل المستحيل، أو البعيد على أقل تقدير.

ماذا لو أنه لحق بآبائه الآن، هل تفصح هنومة عن أمر الخبيئة!!؟، أم تسلمها لنوح فيختص بها وحده دون أخوته!!؟، وهل إذا لم يفعل وجعلها للكافة سيحسن التصرف فيها!!؟، هل سيستغلها فى شراء أرض تكفل لهم الحق فى حياة كريمة!!؟، أم تراه سيبددها هنا وهناك!!؟، وهل إذا هو أبلغ عمر بأمر الخبيئة سيكون قادرا على توجيه نوح إلى ما يجب عليه عمله!!؟، أم ترى نوح سيضرب بتوجيهات عمه عرض الحائط!!؟، على بعد مئات الخطوات راح يقلب الأمر على جوانبه، وعمرغير بعيد، وغير قريب أيضا، يحافظ على تلك المسافة الآمنة، التى يرى الشيخ زكريا أنها لا تقتحم عليه خصوصيته ولا تتركه منبتا.

الشيخ عمر يعرف أن أخاه يشعر بخيبة أمل فى إبنه الأكبر، يعرف أنه الآن يتساءل عما إذا كان ابنه يصلح لأن يتولى الأمانة التى ألقاها الله بين أيديهم، أمانة حراسة أرض موسى السرسى، ريثما تحين الفرصة لاستردادها،

ويعرف أيضا أن أخاه يتتبع الآن خطى أبيهما، موسى السرسى العظيم، الذى أفنى عمره فى التمكين للسراسوة فى هذا المكان، والذى لم يهنأ بتحققهم فى المكان فخرج غاضبا، إلى الشتات، إلى الضياع، إلى كلاب السكك تنهش لحمه وأحلامه، وتفتك بمقاديره هو وأخيه، وأطفالهما الذين عرفوا الهزائم قبل أن يعرفوا أى شيء عن معانى الفوز.

هو على يقين من أن ابن أخيه ضالع فى أمر التخلص من طباخ الشيخ يوسف السرسى، فلقد تتبع المسألة حتى ذهب إلى يحيى فى ديرب، وأخذ عليه العهد بألا يتطرق بذكر أمر زيارته لأحد، وعلى ألأخص نوح زكريا، فزيارة يحيى الخاطفة للعزبة ومعه عباس الذكراوى تطرح على أى متابع عشرات الأسئلة، وإجاباتها تصب كلها فى اتجاه واحد، هو أن "نوح" زكريا ضالع فى أمر التخلص من الطباخ، وسيفتح على ألأسرة بابا لن ينغلق عما قريب، ولما تعهد يحيى بعدم التطرق إلى أمر الزيارة لأحد حتى نوح زكريا نفسه أجرى الشيخ عمر استجوابه بطريقته، وأدرك من المفارقات التى ملأت جنبات إجاباته أنهما هو ونوح زكريا استعملا صديقهما فى التخلص من الفتى.

معنى أن يكون ابن أخيه ضالعا فى قتل أحدهم هو أنه لم يعد يصلح لأى شيء آخر، فالدم يصبغ صاحبه بانعدام الصلاحية للخير، وقيادة الوسية خيرٌ معجلٌ مؤجلٌ فى آن، معجل بالرزق العميم الذى يثاب به صاحبه، ومؤجل بإمكانية استعادة الأرض التى أفنى ابوهم شطرا هائلا من عمره فى سبيلها، فإذا اجتمع لنوح التهتك مع الجارية، وحفلات الحشيش ومضغ الأفيون، فإن كل ذلك يمكن تجاوزه، لكن الاصطباغ

بالدم شيء آخر، شيء مما تفسد به الروح فلا تعود إلى سابق عهدها أبدا، وبالمقارنة بما فعله أبوه فإن السراسوة كانوا فى وضع المدافع عن النفس، ولم يسفر فعله عن قتل روح إنسان مهما كان شأنه، أما المملوك القديم قفل، فإن قتله لم يكن إلا لدفع الأذى عن أسرة أناخ عليها الدهر ولعبت بها الأنواء، فأين ذلك من قتل روح لا لشيء إلا لأن صاحبها تتناوله الأقاويل الغير مؤكدة.

لكن كل ذلك لم يكن السبب من وراء تتبع خطا أخيه فى مشاية الوسط التى شقها أبوهما ذات يوم، فرئيفة التى تعرف كيف تتحين الفرصة لتبلغه ما تريد اقتربت منه ليلة أمس وأبلغته أن الولد ياسين الذى كانت تظن أنه لم يبلغ الحلم بعد صار رجلا دون أن تدرى، يعرف أنها تريد أن تبلغه بشىء، وها هى مهدت لما تريد بما يكفى، ولم تنتظر لتقلقه فأبلغته أن ابنهما يريد أن يخطب أمينة زكريا، ابنة عمه الشيخ زكريا من عبادية، لا ينكر الشيخ عمر أنه شعر بشىء من الفرح ورئيفة تبلغه بذلك، لكنه احتفظ بفرحه ريثما تبلغه بكل ما لديها، فحدسه يجعله على يقين من أن ذلك ليس كل ما تريد إبلاغه به.

جاءت على ذكر ما يخشى سماعه، فالصبى الذى يظن أن الدنيا بسيطة وميسرة اقترب ذات مرة من زوجة عمه، أم العبادى قرة عين عمه العظيم، وفاتحها بكل جرأة فيما يريد، واندهشت المرأة، رمقت الفتى بعينين ثاقبتين وسألت:

– هل تعلم أمك بما تقول!؟

ولما أجابها بلا عادت لتسأله:

- ولا أبوك!؟

فأجابها بلا أيضا، لم تشك لحظة فى صدقه، لكنها قاسته كما أبلغ أمه من فوق لتحت قبل أن تسأل:

- وهل تقدر على مهرها!؟

قالت رئيفة إنها لا تعرف إن كانت عبادية تقصد ما تقول أم أنها كانت تعابث ابنها، وكما جرحت الجملة رئيفة فعلت فعلها فى الشيخ عمر، فهو على يقين من أن عبادية تقصد أنهم لا يقدرون على مهر ابنتها.

لم ينظر الشيخ عمر إلى الأمور أبدا من زاوية أن أخاه أغنى منه، وأقدر، فقط نظر إليها على أنها حياة واحدة يعيشها أبناء موسى السرسى، زكريا وعبد الرحمن وهو، لا فرق بينهم، وعندما أبلغته رئيفة بما جرى بين أم العبادى وبين ياسين انغرس مسمار فى قلبه، لهذا هو ساذج، لهذا هو كما يقول أخوه طيب إلى درجة تثير الشفقة، فحتى بين الأخوة تتمايز الأمور، فهذا غنى وذاك فقير، هذا قادر وذاك عاجز، هكذا تكون الدنيا إذن، وحتى يضع حدا للآلام التى تفتك به رأى أن يفاتح أخاه برغبة ابنه، ليرى إن كان رده كما ردت أم العبادى، لكن انفراد أخيه بنفسه وتمايله على طريقة أبيه جعله يرجئ الأمر إلى حين، فالساعة ساعة ذكرى، وتدبر ومراجعة، وغوص فى خضم النفس، وما يفعله أخوه وهو يخطو ويتوقف ويخطو ويتوقف لا يعنى إلا أنه غارق فى أشجان لا يقدر على مفارقتها.

وكان هاشم حفظى بك قد نجح فى وضع أمر الترعة التى تحمل الماء

رأسا من الصافورية إلى أرض العزبة على جدول أعمال الحكومة، إحياء لذلك المشروع القديم، الذى لطالما حلموا به فى المنطقة الممتدة من عزب حفظى وحتى قرية غزالة، مرورا بعزبة أحمد السرسى ونجيب مليكة والحلو والعرب محجوب، والذى توقف قديما لما انتكس مشروع محمد على باشا، ثم توقف ثانية لما انتكس مشروع حفيده اسماعيل، وها هم عمال الحفر يهلون بمعداتهم وآلاتهم ويتخذون من قطعة أرض من الوسية مكانا لتجمعهم، أبلغهم الشيخ سليمان السرسى أن الباشا نجح فى إقرار إنشاء الترعة باسم عمه، أبو بكر حفظى، وهكذا أعلن فى المنطقة كلها أن إدارة الأشغال العمومية تترقب هؤلاء الذين يرغبون فى توريد أنفار للعمل فى مشروع شق الترعة، كمقاولى أنفار، وتمنى الشيخ زكريا لو أن ابنه نوح يتقدم لتلك المقاولة، إذن لتحدث مع الباشا بشأنه، أو أوكل إلى الشيخ سليمان أمر إقراره كمقاول معتمد لدى إدارة الأشغال، لكن "نوح" لم يبد اهتماما للأمر، ولما تقدم السمدانى العربى الابن الأصغر للأعرابى الراحل مساعد السمدانى ابتهج نوح، فهو صديقه، وبناء على نصيحته اشترى دارا فى العزبة ليقيم فيها، بعيدا عن بقايا عزبة أخيه وأخوته المقيمين فى شنوان، وطلب نوح من أبيه التوسط لدى من يرى ليقع الاختيار على صديقه!!.

الشيخ عمر يعرف أن أخاه أصابه إحباط لما وجد من ابنه الأكبر صدودا عن كل ما يجعله متقدما، فهو لا يرغب إلا فى بهجة الحياة، دون كدها ونصبها، وعندما أراد أن يقلد جده موسى ويستنطق رجل المنسر ضحك عليه الرجل، وكاد يفسد الصلح الواهى الذى أبرموه مع عائلة حراز فى

الربع، ففى آخر لحظة بلغه ما ينتوى ابن أخيه أن يفعل، أبلغه جاد المولى بما يدور، خشية أن يتورط نوح فيما لا يمكن تفادى أثره، لذا فإنه ودون أن يدرى نوح أفسد ذلك التدبير، افسده سرا حتى لا يفتش ابن أخيه عمن وشى به فيقودهم إلى مأزق جديد، كما ويعرف أنه إذا عامل أخاه واحدة بواحدة فإن الحياة فى رهط موسى لن تستقيم.

يكفيهما هو وزكريا شقيقهما عبد الرحمن، وما يفعله بهما وبمن يتبعهما ليل نهار، فأن يكون أخوهما قليل الرأى إلى هذا الحد أمر كان بعيدا تماما عن حسبانهما، ما أشبههما هو وزكريا بأبيهما وعمهما السيد، لما لم يدركا ذات يوم طبيعة شقيقهما إبراهيم وأدركها أخوهما سيد احمد، الآن هما لم يتنبها إلى طبيعة أخيهما إلا بعد فوات الأوان، وبعد أن ضربت زوجته فردوس الغاوى نطاقا من حوله لا يقدر أحد حتى أبوهما نفسه لو عاد للحياة أن يخترقه، هذا الأخ الموجوع دائما من داخله، بسبب ومن غير سبب، الذى لا يرى فيما يقول الناس أو يفعلون إلا غطاء لمعان لا يصرحون بها، وهو أنه رجل مقطوع النسب، فلم يرزق إلا ببنات.

ترك الشيخ عمر الأمر للظروف، فابنه الذى هو مجرد صبى بلغ الحلم بالكاد يشعر بجرح عميق من حديث زوجة عمه، ورئيفة لا تريد أن تشق عليه، لكن الأمر صار أكبر منها ومن محاولة تدبير الأمر بعيدا عنه ثم إبلاغه به ليشرف على وضعه موضع التنفيذ، فما قالته عبادية لا يعنى إلا أنها تستكثر مهر ابنتها على قدرتهم، وهذا يعنى أنها ربما ستفرض عليهم مهرا أكثر من المعتاد، إما لتبتزهم أو لتعجزهم عن تدبيره، وفى الحالين سيكون

لفعلها ما بعده، فإما تقهر ابنه إذا هم رضخوا لابتزازها أو تدق فى علاقته بأخيه إسفينا لا تعود بعده الحال إلى ما كانت عليه أبدا.

لا يعرف الشيخان زكريا وعمر دافع أم العبادى من وراء ما قالت لياسين، ففي حين يرى الشيخ زكريا أنها ربما استكثرت أن يتحدث إليها الصبى فى أمر لا يكون إلا بين الكبار فقالت ما قالت من قبيل التفكه والتندر، يرى الشيخ عمر أنها لم تفعل إلا لأنها تستكثر ابنتها على ابنه، فابنتها ابنة زكريا الذى تجرى الأرزاق بين يديه، وابنة أم العبادى شقيقة العمدة، أما ابنه فهو ابن الوصيف، الرجل الذى يلتقط رزقه بالكاد، ولا يعرف إلا أمور الإصلاح بين الناس وإكرام وفادة الغرباء، من الغرابلية وبائعى الكتاكيت وصناع أحمال الصوف وعمال جز الأغنام وقص الحمير وبيطرة البهائم وتجارة الرسمال(*).

وأمينة - الصبية التى شبت عن الطوق - هى وحدها التى تعرف مقصود أمها، فبعد أن انصرف ياسين نادتها، سألتها إن كان ابن عمها قد صرح لها بشىء أو تحدث معها بأى حديث، وتعجبت الصبية من سؤالها، فياسين يكاد يكون الوحيد من أبناء أعمامها الذى لا يجاذبها أطراف الحديث، وفى حضورها يعمد إلى الإطراق كأنه لا يريد أن يراها، وأدركت المرأة أنه يحب ابنتها، فلا يسلك كما يفعل إلا من يحب، وحتى تضع النقاط فوق الحروف قالت لابنتها:

- انظرى

(*) هو زبل الحمام ويستخدم فى تسميد أنواع محددة من الخضروات، وقديما كان تجار الرسمال يجوبون البلاد طولا وعرضا لشرائه.

لم تفارق الدهشة الصبية فيما أمها تواصل:

– ياسين هذا ليس فقط ابن عمك، إنه أيضا ابن رئيفة بنت مريم سيد احمد

وتساءلت الفتاة:

– وماذا فى هذا يا أمى!؟

فقرصت المرأة شحمة أذنها وهى تأمرها بالجلوس والإنصات إلى ما تقول:

– زمان اشترى أبى الأرض التى هى الآن وسية مكرم بشاى، ونازعه فيها ذلك الرجل الذى يدعى سيد احمد، أبو مريم أم رئيفة، وحدث صراع كبير قتل فيه أكثر من شخص، واعتدت فيه مريم على جدك العبادى صقر، الذى هو أبى، وعلى أخى العمدة

الصبية تقف على أظافرها من الدهشة، فهى لا تعرف أى شىء عما تقول أمها، ولكى لا تقرصها أو تعاقبها من جديد فضلت أن تنصت حتى تكمل الأم حديثها:

– واليوم يأتى هذا الصبى سيئ التربية ويطلبك منى

وتساءلت الصبية فى خجل:

– يطلبنى أنا !؟

فأطبقت المرأة على رقبتها وقرصت أذنها حتى كادت تدميها، وبكت الصبية متألمة، وأمام إصرار أمها بكت فى صمت وهى تنصت:

– لا أحب أن يتزوج ابنتى حفيد تلك المريم، التى تجرأت على مقام أبى وصفعت أخى العمدة على وجهه

وحتى تعى إبنتها الدرس رفعت فى وجهها سبابتها:

– إن وصل إلى أبيك حرف مما قلت سأقطع خبرك

وواصلت بعد لحظة صمت:

– ومن الآن إن رأيتك تبادلين هذا الولد كلمة سأدفنك حية

كل ما قاله الشيخ زكريا لأخيه ردا على ما أخبره به:

– هى أم الفتاة يا عمر وأنا لا أملك الموافقة على زواج البنت بمفردى

وهو ما اعتبره الشيخ عمر ردا لا ينبئ بخير، فطالما يعلق أخوه الأمر على موافقة زوجته فإنه يكون قد خسر الحرب قبل بدايتها، والشيخ زكريا لم يحدد موعدا يجيب فيه على ما طلب، ولا استأجله لمدة محددة، فقط أخبره بأن زوجته شريكة فى أى قرار يتخذه بخصوص الفتاة، وانقلب عائدا إلى داره والحزن باد على وجهه، وعند باب الدار أشفق على ابنه مما قال أخوه فوقف حائرا، وفكر فى التوجه إلى دار الشيخ كامل السيد، ابن عمه.

كثيرا ما تساءلت رئيفة عن مقدار المهر الذى تريده أم العبادى لابنتها، وكثيرا ما تساءلت عن سر اختيار ابنها لتلك الفتاة بالذات، إنها إذا لم تكن ابنة الشيخ زكريا السرسى فهى لا تليق أبدا بابنها الناهض، العاقل كأبيه، والناشط كعمه الشيخ زكريا، فعيناها الذابلتان تعلوان وجنتين خشنتين، وصدرها كصدر أمها ضامر، ولا تناسب بينه وبين عجيزتها الضخمة،

ولكنها لم تتحدث أبدا بمثل هذا أمام ابنها، وراحت تعد العدة لتدبير المهر المطلوب، قالت إنه إذا كان مهر الفتاة عشرين جنيها فإن مهر أمينة تلبية لطمع أمها سيكون ثلاثين، ولديها فى الحظيرة زوج من الجاموس تدر الواحدة منها صفيحة كاملة من اللبن، لذا فهما تساويان عشرين جنيها، وبإمكانها أن تدبر عشرة ثالثة وتدفع المهر المغالى فيه.

لم يستطع الشيخ عمر أن يصارح الشيخ كامل بما يعتمل فى صدره، ولا بصدمته من رد أخيه على طلبه، و لم تتركه سكينة لحاله، فبعد أن سألته عن اختها سألته عما فعله فى مسألة زواج ياسين من أمينة، وهاجمه الألم من جديد وكان يوشك أن ينسى ولو مؤقتا، ولما تجاهل سؤالها سأله الشيخ كامل مندهشا:

– تخطب للولد دون أن تبلغنى!!؟

فاضطر للاعتذار، إذ الأمر لا يعدو أن يكون مجرد اقتراح، اقترحته رئيفة و لم ينظر فيه بعد، واعترضت سكينة:

– ابنك أبو عين زائغة هو الذى طلبها وليست أختى

واضطر الشيخ عمر لفتح صدره لكامل، لم يوافقه الشيخ كامل أبدا على رأيه، فلو تقدم لابنة الشيخ زكريا عريسا كل يوم لن تحظى بواحد مثل ولده، وقال الشيخ عمر فى انكسار:

– إنها ابنة عبادية يا كامل، وليست ابنة أخى

وبعد لحظة صمت أردف:

– هكذا قال أخى

ولكن الأمور تطورت بشدة، فما أن علمت رئيفة بما دار بين زوجها وأخيه حتى قصدت إلى دار الشيخ زكريا تجر فى يديها الجاموستين اللتين لم يرهما أحد فى العزبة حتى اللحظة، ورأى الناس البهيمتين الرائعتين واللبن يتساقط من ضرتيهما، وعندما بلغت دار الشيخ زكريا ربطتهما فى حديد النافذة وطرقت الباب، الشيخ زكريا كان جالسا وسط أهله، يمد قدميه فى اتجاه أم العبادى وهى تدلكهما، ولما رآها ضم قدميه وبش لها، كانت مستثارة إلى أقصى حد، وبدلا من أن توجه الحديث لأم العبادى وجهته له:

– أريد أن أعرف مقدار المهر الذى تطلبون يا خال

وتساءل الرجل مندهشا:

– مهر!؟، أى مهر!؟

فأجابتها متحدية:

– مهر أمينة

نقل الرجل النظر بينها وبين زوجته، وبين ابنته التى انكمشت فى ركنها، ولم يجب، وكذلك فعلت زوجته، احتفظت بدهشتها وتصنعت الصدمة، لكن رئيفة واصلت حديثها:

– إن كان مهرها عشرين جنيها فإننى أربط فى حديد نافذتك مهرها وزيادة

والتفتت إلى أم العبادى:

– وإذا أرادت أم العبادى المزيد فيكفيها أن تقدر ما تريد وأنا أنفذ

لم يفهم الشيخ زكريا مما تقول رئيبة شيئا، وحتى يفهم ما يدور خرج من الدار ورأى البهيمتين مربوطتين فى حديد النافذة، و لم يدر هل يغضب أم يضحك، لكنه اكتفى بأن قال:

– ولكن هذا جنون يا رئيفة، ما هكذا يخطبون بنات الناس يا ابنتى

وعاد إلى الدار دون أن يدعوها للدخول.

انتشر الخبر فى كل مكان، فى العزبة وفى المقاطعة، تناقلوه كشىء من الغرائب التى لا يخلو منها تاريخ السراسوة، أما فى المقاطعة فلقد تناقلوه كدليل على طبيعة السراسوة التى ترفض التهذيب، لكن النتيجة واحدة، فرئيفة من حيث لا تقصد أساءت التصرف، هكذا قال الجميع، لكن الشيخ عمر لم يلمها، إذ هو الوحيد الذى يعرف بم أجابه أخوه عندما طلب ابنته لابنه، وكيف ترك الأمر لنزوات زوجته المدللة، ابنة العبادى صقر عدو الأسرة القديم، وشقيقة العمدة، العدو الذى هادنهم بإعطائهم شقيقته زوجة لكبيرهم، فرئيفة فى رأى الشيخ عمر لم تفعل شيئا أكثر من إعلان فراغ الصبر من جراء المراوغة.

لم يعرف نوح بما جرى إلا بعد انتهاء كل شىء، وفى مجلسه فى المندرة راح يقلب الأمر على مختلف جوانبه، تعجب، كيف يتجاهله الجميع فى أمر كهذا!!؟، وهو إذا التمس العذر لزوجة أبيه لا يستطيع أن يلتمسه لأبيه، ولا لعمه، ولا لياسين الذى يريد أن يتبعه كظله، والذى يجهزه لملازمته، لكن هاتفا داخليا سرعان ما رده إلى الواقع، فهو بعيد تقريبا عن كل شىء، عن العزبة وشئونها، والمنطقة وهمومها، والوسية وما يجرى

فيها ومن حولها، هم لم يتجاهلوه، بل هو الذى أدار ظهره للجميع، وانشغل بشئونه مع المنسر ورجال الليل، وسهرات الحشيش التى لا تنتهى، وسره الذى يقض مضجعه.

وعندما زال غضبه تعجب، كيف يماطل أباه فى زواج أمينة من ياسين!!؟، إنه إن حدث سيكون أول زوج مناسب لواحدة من بناته، وظل يقارن بين ياسين وأزواج أخواته، كلهم لا يقارنوا أبدا بابن عمه، الذى يسير بخطى ثابتة فى طريق الرجولة، بطيبة أبيه وبركة أمه، وعزم على التدخل لإنهاء الأمر لكن الوقت لم يسعفه، فلقد سقط أبوه مريضا، خرج ليتفقد أمور الوسية وكان منحرف المزاج بسبب شعوره ببعض التعب، طلب مطية جهزوها له، وسار وراءه أحد أبنائه، تربيعة تربيعة، حتى إذا ما عاد إلى نقطة البداية أمسك بصدره من شدة الألم ومال بجانبه فلحق به ابنه، وكذلك بعض ممن كانوا عند مشروع حفر الترعة الجديدة، تلقفوه قبل سقوطه عن ظهر المطية ونقلوه إلى الدار.

جاءهم أبو منصور بعد ساعة، وكان الحال مستقرا، فلقد تمكن الشيخ عمر من الحيلولة بينه وبين الناس الذين توافدوا على الدار بغير انقطاع، وعزله فى حجرة داخلية بعيدة، وعندما جاء أبو منصور ورآه عرف أنه مصاب بعلة القلب، ولا بد من تناول ذلك الدواء الجديد الذى ذاع صيته، والذى يذيب الجلطة إذا هو أخذ فى موعده، وانطلق مؤمن إبراهيم إلى السنبلاوين، معه النقود وورقة فيها اسم الدواء المطلوب، وعنوان الأجزجى الذى سيجلب منه الدواء، ورافقه حسانين الضبع على مطية ثانية.

قبل عودة مؤمن بالدواء صعدت روح الشيخ زكريا إلى بارئها، ظل صدره يعلو ويهبط، ثم عجز عن التنفس، الألم كان يعتصره اعتصارا، وشفتاه تهمس بأحرف ضائعة، وعيناه معلقتان بنقطة فى الفراغ، ثم انسحب نورهما.

دفنوه عصر اليوم الثانى بعد أن وضعوا على الجثة ثلجا جلبوه من السنبلاوين، وأقاموا ليلة المأتم فحضره حشد كبير من البشر، ذكرهم بما سمعوه عن مأتم جدهم الأكبر الشيخ أحمد السرسى، وتصدر الشيخ سليمان والشيخ يوسف والشيخ عمر والشيخ كامل والشيخ منصور الطوخى والشيخ حسانين الضبع طابور متلقى العزاء، وبعد انتهاء العزاء جلس السراسوة فى مندرة المرحوم وعمال الفراشة يجمعون أغراضهم، وحكى الشيخ عمر للسامعين ربما لأول وآخر مرة الشبه بين رحيل الشيخ زكريا ورحيل أبيه.

فحل طعم



اختلفت عزبة أحمد السرسى بشدة بعد رحيل الشيخ زكريا، فأولئك الذين كانت حياتهم تعتمد على وجوده تزلزلت أوضاعهم، وأدار الشيخ عمر أمور الوسية إلى جوار ابن أخيه نوح إلى حين، فمكرم بشاى بك الذى جاء ليعزيهم فى وفاة الشيخ فى ثالث أيام الرحيل سافر دون أن يتحدث بكلمة واحدة عما ينتويه، ورأى نوح أن هذا أمر مبشر، لكن عمه كان مبتئسا، فلو أن الرجل يريد أن تستمر النظارة فيهم إذن لأبدى قبوله بكلمة أو حتى بإشارة، فهو بعد أن قدم العزاء انتقل ليمضى قليلا من الوقت فى السراية، وتأهب نوح لمرافقته لكنه رفض، متعللا بضرورة أن يبقى ليستقبل المعزين، وكذلك فعل عندما تأهب هو لمرافقته، والوقت القليل الذى قال إنه سيمضيه فى السراية امتد حتى أقبل الليل، يرافقه نسيم أفندى كاتب الوسية، ورجال لا يعرفونهم، لم يسبق أن ظهروا فى العزبة من قبل.

الشيخ سليمان السرسى وعمه الشيخ يوسف كانا على رأس مستقبلى مكرم بشاى بك فى مندرة الراحل الكبير، و لم يتحرك واحد منهما ليسأل

إن كانت الدنيا ستسير كما كانت، فالشأن كما قال الشيخ عمر ليس شأنهما، وهما اعتادا أن يطمئن الناس على أمورهما، أما هما فلا شأن لهما بأحد.

طال بقاء مكرم بشاى بك فى السراية، ورأى الشيخ عمر نسيم افندى يخرج منها المرة تلو المرة، ثم يعود مصطحبا أحد العمال أو الكلافين أو النجارين، أى كأن البك يراجع عهدة الوسية، هكذا دون أن يطلبهم أو حتى يسألهم عن مفاتيح المخازن وحساب الوسية الذى لطالما حرص الشيخ زكريا على تدوينه أولا بأول، ولاحظ الشيخ عمر أن الكثيرين من أهل العزبة من السراسوة وغيرهم يتابعون ما يجرى فى السراية، إذن فالرجل لا يريد حتى لرحيلهم أن يكون كريما.

لاحظ أهل العزبة أن نسيم افندى يصطحب معه فى روحاته وغدواته رجلا من أهل الصعيد، هكذا عرفوا من جلبابه ذى الأكمام الواسعة والخطوط العرضية، ربعة متوسط القامة، له شارب ضخم لا يفتأ يبرمه ليظل مستقيما على الجانبين، تناقلوا اسمه فوصلهم فى المندرة، قالوا إنه المعلم حنا وهيب، وإنه متزوج من امرأة شحيمة تدعى عجايب، أودعها عند مجيئه صحبة البك حجرة هارون شتا فى حديقة السراية، البعض يقول إنه الناظر الجديد، وآخرون يؤكدون أنه خولى لا أكثر، فحديثه وطريقة مشيه والقليطة(*) التى يفضحها شكل طاقيته، كل هذا لا ينبئ أبدا بأنه الناظر الجديد.

(*) فتق وريدى فى صورة تجمع دموى فى خلفية الرأس يسميها العامة فى ريف مصر "قليطة".

المنسر لا يقلون قلقا، فمصيرهم مرتبط بآل زكريا، وإذا خرجت النظارة عن نوح ففى هذا رحيلهم، وهم الذين هيأوا أمورهم ورتبوا أوضاعهم على أساس الاستقرار فى العزبة، بل إن بعضهم وبلغة الحديث حرق مراكبه فى أماكن كثيرة ظنا منه أن مكوثه فى العزبة دائم، الآن عليهم أن يعيدوا ترتيب أوضاعهم، وأراد أحدهم أن يتطفل على ما يجرى فى السراية فنهرته الجارية:

– أنت لا تعرف السراسوة، أنا أعرفهم

ودبت على صدرها ثم أردفت:

– فمن حيث تظن أن الواحد منهم يقع تجده واقفا كالحصان

رصد الناس فى تلك الليلة العمال المنتظرين فى الوسية، فنسيم افندى قابل سليمان الضبع، شقيق مليحة زوجة نوح زكريا، ومختار سليمان، ابن الشيخ سليمان السرسى، وقطب الطوخى، إذن فهم سيعملون فى الوسية، ولأن مختار يجيد القراءة والكتابة فالمرجح أن يكون كاتبا للوسية، أما سليمان الضبع فربما يكون خوليا أو مسئولا عن حظائرها، وقطب سيكون حرامى الوسية!، هكذا قالوا من باب التفكه، واستلقى بعضهم على قفاه من الضحك، فقطب لا يجيد شيئا فى حياته إلا هذا الأمر، السرقة، و لم يغمض للشيخ عمر جفن حتى ألم بكل المستجدات، فمكرم لم يغادر إلا قرب انتصاف الليل، تاركا حنا وزوجته فى ضيافة هارون شتا ونسيم افندى، وهو بلا شك أعطاهم تعليماته التى ستفصح عنها الأيام القادمة، ولأن "نوح" أراد أن يقصد من فوره إلى السراية ليرى ما يفعلون

نصحه عمه بالتريث، فالحق حتى اللحظة فى جانبه، وإذا ذهب إلى هناك ربما يخطئ ومن ثم يكون الحق فى جانب الآخرين.

لكن الأيام مرت متعاقبة دون أن يظهر شىء، فالرجل الصعيدى القابع فى حجرة هارون شتا يظهر لماما هو وزوجته الشحيمة، ويتندر الأطفال على لهجتهما الصعيدية وطباعهما الخشنة وغضبهما لأتفه الأسباب، وخبزهما الشمسى الذى يضربون به الحائط فلا ينكسر، وزلعة الملوحة التى تعبر رائحتها الأجران، ونسيم افندى يغيب يوما ويظهر يوما، لا يقترب من نوح وعمه ولا يبتعد، وفى المقابل وعملا بنصيحة عمه أكثر نوح من التوجه إلى المخازن وفتحها وجرد ما بها من أجولة وأكياس، واطمأن على براميل الكيروسين وعبوات التوكسافين التى كان أبوه يخزنها فى مخزن صغير خاص، وأكثر أيضا من مباشرة الثيران والكلافين واستدعى نافع النجدى ليعرف منه سر استدعائه للسراية فى وجود مكرم بك فأخبره الرجل أن البك كان يريد حصرا بالثيران والأبقار والأعلاف الموجودة فى الأجران، وبان للعزبة كلها أن نوح يقوم فى الوسية مقام أبيه، ولكن برعاية عمه.

وبقدر ما حزن قطب لرحيل خاله الشيخ زكريا بقدر ما فرح لخبر الاستغناء عن خدمات نوح فى الوسية، لكن استمرار نوح فى مباشرة أعمال أبيه جعله يطئ الخطى، فربما قبل به مكرم بك بعد أبيه، وساعتها ستكون العزبة كلها، والمنسر كلهم تحت إمرته، لكن ذلك ليس كل شىء، فزبيدة التى عادت من لدن أهلها فى ديرب نجم شمت بأنفها رائحة غير معتادة

فى زوجها، رائحة الرجل الذى يكثر الاعتناء بنفسه ويحافظ على نظافته، و لم يكن كذلك عندما استأذنته لتعود أباها فى مرضه، لكن ما جعلها واثقة من أن زوجها يخفى شيئا تلك الزيارات الغير مبررة التى تقوم بها سُلَيْمَة لدارهم المتواضعة، حيث تمضى معظم النهار برفقتها، وتظل تأتى بكلمة من الشرق وأخرى من الغرب دون هدف أو نهاية.

ليس فى العزبة من تستطيع أن تأنس إليه إلا خالها الشيخ كامل، ولكن زوجته سكينة هى أم قطب، وإذا هى نطقت بحرف واحد عما تظنه من علاقة بين زوجها وسُلَيْمَة سيكون فيه طلاقها، وإذ وجدت أن الأبواب موصدة فى وجهها اكتفت بالجلوس فى ظلام الليل تبكى سوء بختها، فالمرأة التى أنجبت رجالا فى عمر زوجها وصارت جدة تزاحمها فى زوجها، ولا ترضى بكونها زوجة أكبر رجل فى مركز السنبلاوين، بل وفى المديرية، وتعلمت كلما عرفت بسفر الشيخ سليمان أن تراقب سُلَيْمَة وقطب، ففى كل مرة تغيب وزوجها مسافر كان قطب هو أيضا يغيب، ولا يدخل الدار إلا بعد أن تكون سُلَيْمَة قد استقرت فى دارها.

يشعر قطب أن زوجته تتساءل فى داخلها عن أمور كثيرة، لكنها لم تصرح مرة واحدة بسؤال، وطالما هى لم تفعل فإنه يفضل ترك الأمور على حالها، ريثما ينتهى من بناء داره والانتقال بها إلى الدار الجديدة، لكن ما يقض مضجعه هو إحساسه بأن سُلَيْمَة تخفى عنه أمرا، هو لا يريد أن يسألها عما تخفيه، خشية أن تغضب فتنصرف عنه، لكنه لا يستطيع المضى فى طريقه وهذا الإحساس يتربع فى داخله، ففى المرة الأخيرة رأى آثارا

زرقاء فى جسدها، وتعللت بزلة قدمها وسقوطها من على السلم النقالى، وحتى يتأكد من صدقها يلزمه أن يسأل أحدا ممن يعملون فى الدار، لكن أنى له هذا!!؟.

أما سُلَيْمَة فإنها تسير طوال الوقت كالمذبوحة، فلقد انقطع عنها طمثها عقب لقائها الأول بقطب، وراجعت نفسها فوجدت أن الشيخ باشرها قبل أسبوع من لقائهما، وداخلها الشك، هل ما فى بطنها ابن زوجها أم هو ثمرة اللقاء المحرم، واستعصى عليها النوم، خبراتها تقول إنه ثمرة اللقاء المحرم، ففى كل مرة حملت فيها شعرت بحدوث الحمل فى أول أيامه، يأتيها فى صورة إحساس بالشبع من غير طعام، وإدراك لتغير لا تستطيع وصفه فى جسدها، خمول ورغبة فى النوم، وخشية لا إرادية من التمطع، وطوال الأسبوع الذى مضى على معاشرة الشيخ لها لم تشعر بشىء من ذلك، وشعرت به فى الصباح الذى أعقب لقاءها بقطب، لكنها تعود لتتذكر أنها عندما حملت فى حمدان لم يحدث لها شىء من ذلك، ولم تعرف بحملها إلا فى بداية شهرها الثالث.

كل الأمور التى يمكن تصورها فعلتها لتتخلص من حملها، وفاتحت الشيخ فى رغبتها العرض على طبيب للتخلص من الحمل، ولما سألها عن السبب تعللت بكثرة العيال وهدة الحيل، وآلام تقصم ظهرها طوال الوقت، لكن الرجل التفت عن حديثها، ولما فشلت كل الحيل عادت للقاء قطب، فربما أسقطها عنف اللقاء وحرارته، ولكنها لم تزد الأمر إلا تفاقما، ففى كل مرة تلتقيه يزداد تعلقها به، وتعود إلى دارها محملة بآثام العالم كله، وتتولد لديها رغبة حقيقية فى قتل نفسها، لا يبددها إلا خوفها

الغريزى من الموت، ولكم تمنت أن تنام مثلا فتموت وهى نائمة، لكن أى شىء من أمنياتها لم يحدث، وبقى الحمل عالقا برحمها، متحققا ورافضا السقوط.

كأن ما ينقص نوح زكريا هو أن يأتى عباس الذكراوى صديق يحيى لينهى إليه أن أحدا من أهل حراز من الربع ذهب إلى أناس يعرفهم فى ديرب نجم وسألهم عنه، قال الرجل إنه لا يأبه للأمر، وإنه لو أراد لقتل الرجل فى ذلك اليوم، فلقد بلغه خبره وهو لا يزال فى ضيافة أصدقائه، ولكنه يبلغه حتى يكون على علم بالبحث الذى يجريه أهل القتيل، بل إن السؤال الذى أراد الرجل الإجابة عليه كان متعلقا بالمعلومات عن علاقته به، وحتى لا يسىء نوح الفهم رأى الرجل ألا يصحب يحيى فى مشواره إليه، بل إنه رفض أن يدخل العزبة جهارا حتى لا يراه أحد فيقطع بوجود علاقة بينهما.

إن ما يجرى أكبر من قدرة نوح عن استيعابه، بله أن يتعامل معه ويتجاوزه، فموت أبيه أوقفه أمام كل الحقائق عاجزا، حقيقة أنه لم يقدم سيرة محمودة ليرتكن إليها فى طلب الحلول فى نظارة الوسية محل أبيه، وحقيقة أنه سلب إنسانا حياته لمجرد الكبرياء، أو لأنه أراد التشبه بأسلافه برغم بعد الشبه بينه وبينهم، وحقيقة أنه لم يتعلم فى حياته كلها شيئا مما يفعله الناس للاسترزاق، فلا هو يعرف كيف تكون الفلاحة، ولا هو يعرف كيف تزرع الأرض، فقط معلومات غير مكتملة، وهو لا يستطيع أن يلوم أباه، فلقد حاول الراحل مرارا وتكرارا، لكنه أصم أذنيه ومضى فى طريقه غير آبه، حتى أنه فر من الدار أكثر من مرة لما أجبره أبوه على

العمل، وفى إحدى المرات غاب شهورا حتى أعاده نفر من أصدقاء أبيه.

عليه إذن أن يعيد صياغة حياته، فلقد أسرت إليه أمه أن أباه يخبئ لديها مالا كثيرا، وهو لم يطلع على هذا المال حتى الآن، وما جرى الصرف منه على أمور المأتم وخلافه كان من مبلغ وجدوه فى دولاب أبيه فى حجرة عبادية، عليه إذن وقبل أى شيء أن يرى ما الذى ستصير إليه الأمور مع زوجة أبيه وولديها صقر وأمينة، فضلا عن ابنتها صابحة من زوجها السابق، فالمرأة والحق يقال تقدم له منذ قدمت إلى الدار كل آيات الاحترام، وتأتمر بأمره، بل وتطلب من ولديها أن يفعلا فعلها، فإذا تمكن من إقناعها بالاستمرار فى الوجود فى الدار فإنه يكون قد بلغ أولى درجات النجاح.

وعليه أن يبحث عن أرض مناسبة ليشتريها بمال أبيه الذى يخبئه لدى أمه، يشتريها بأسماء الأبناء الذكور، فيكتب لأخويه الخمس وله ثلاثة أخماس، فأرض أخواته البنات ستكون معه، وحتى يكون جاهزا للتنفيذ عليه وضع حد لذلك الغموض الذى يجلل علاقته بنظارة الوسية، فإما هو ناظر الوسية خلفا لأبيه، وإما هو خارجها، وساعتها لن يكون مسئولا عن أى شيء يحدث فيها، فى حظائرها ومخازنها وأجرانها، أو حتى مع عمالها، سواء من الأقارب أو الأغراب، أما من تجرأوا عليه فى محنته وهرولوا ليجدوا لأنفسهم مكانا فى الوسية فإنه سيعطى نفسه قليلا من الوقت ثم يقتص منهم.

لكن الخبر الذى نقله عباس الذكراوى يظل هو الأخطر، فأهل القتيل يسيرون فى الطريق الصحيح للبحث عن القاتل، وعليه قبل أى شيء

آخر – حتى قبل جمع شمل الأسرة بعد رحيل والده – أن يفكر جيدا في أمر هذه المطاردة، وإلا فوجئ بهم يقفون عند رأسه، واليوم غير الأمس، فالمنسر على كف عفريت، غير مرحب بهم فى المكان، وعما قريب سينقلبون على الجميع ويعيثون فى الأرض فسادا، فأبوه ليس هنا ليحتويهم فى دار واطئة من دور الوسية، ويغدق عليهم حتى لا يعتدوا على مخازن الوسية وحظائرها وأجرانها، فلقد أبلغه منصور أبو دومة أن نسيم افندى كاتب الوسية طلب منه إجلاء المنسر من الدار التى يعيشون فيها، لكنه لم يبلغ "نوح" أن الرجل دس فى يده عشرة جنيهات ليضطلع بالأمر دون أن يسىء إلى موقف الوسية، وتعجب أبو دومة، فالجنيهات العشرة أكثر من ثمن الدار التى يطلب نسيم إجلاء المنسر منها.

والشيخ عمر يعيش أسوأ أيامه فى عزبة أبيه وجده، فلقد رحل الشيخ زكريا، الأخ الأكبر الذى لم يعرف للدنيا طعما بدونه، وها هى الدنيا تريه أوجهها الأخرى، فقديما رأى من أوجه الدنيا الكثير، لكن أباه كان هو الذى يتلقى ضرباتها، وعمه السيد، وأخوه الشيخ زكريا، أما اليوم فهو من يتلقى كل الضربات، فلأول مرة منذ عادوا إلى العزبة لا يعرف ما الذى عليه أن يفعله، كان يستيقظ من النوم ليصلى الفجر ثم ينطلق إلى مندرة أخيه، يتناول فنجال البن مع قطعة خبز وحصاة ملح، وعندما يجن الليل لا تعرف قدماه طريقا إلا إلى مندرة أخيه، حيث البشر من كل مكان، يعرضون حاجاتهم ومظلماتهم، ويقضى الشيخ زكريا فى بعضها فيما يتولى هو الفصل فى الكثير منها، اليوم هو لا يعرف إلى أين يتجه، فإن هو ذهب إلى دار أخيه عبد الرحمن، فإن فردوس الغاوى لن ترحب به،

ليس لأنها ترفضه هو بالذات، ولكن لأنها ترفض أى واحد من السراسوة يختلف إلى زوجها.

في ذكرى الأربعين امتلأت المندرة بالمعزين، فكأنه مأتم ثان، ومضى الوقت فتوقفت الأقدام عن السعى إلى هناك، فكر الشيخ عمر فى السهر فى المندرة مع ابن أخيه، ولكن الذين امتلأت بهم الجنبات ليسوا من مقامه، فالمنسر موجودون بقضهم وقضيضهم، يتقدمهم أبو دومة نافشا ريشه كطائر مغرور، ويتصدر المندرة السمدانى العربى منتشيا بعمله كمقاول أنفار فى مشروع الترعة الجديدة، وبعض عمال أخيه يجهزون المواقد وتسليك الأراجيل والجوز التى ستدور عليهم حتى مطلع الفجر، والمتطفلون من أهل العزبة ينضمون إليهم لينعموا بقضاء وقت جميل، أو للتندر على ما سيكون، وفى هذا كله ليس له دور، وحتى ابن أخيه، فإنه لم يرع الأصول ويدعو لاحترام وجودعمه، ولو بمجرد الكلام، لذا أخذ طريقه إلى الخارج يبحث بين صحائف الليل عن ملاذ.

ليس فى الدنيا كلها ليل كليل عزبة أحمد السرسى، إنه يلهم عشاقه الأحزان من كل لون، وهو الليلة يمسح على رأس الشيخ عمر بأصابع باردة، تطفئ نار نفسه المهتاجة، والقمر الصاعد من خلف غزالة بعد انتصاف الليل أكبر من المعتاد، أحمر يبشر بهزيع غريب، ليس فى الدنيا كلها ليل كليل عزبة أبيه وجده، إنه لا يمضى كما تمضى الليالى، إنه يسكن ويقفز، يسكن ويقفز كالضفدعة، وينق كما تنق، ثم يتماوج كالسراب ويتلوى ماضيا نحو الفجر فى نعومة، نعومة لا تترك لمن يعاينها فرصة للفرار، وهكذا فوجئ الشيخ عمر بصوت قادم من بعيد، كأنه يأتى من

داخل حلم قديم، صوت ابتهالات شجية يصدح بها أحدهم، هناك فى مكان ما، فوق مئذنة بعيدة.

لم يكن بدأ حلمه الأول عندما هزته رئيفة برفق، كان قد صلى الفجر وعاد إلى الدار، وجدها فى وسط الدار تبدأ أعمالها اليومية بعد أن صلت الفجر، قال إنه سينام ساعة، وها هو لم يكمل نصفها، واستيقظ ملهوفا ليجدها تبتسم فى وجهه، يعرف هذا الوجه جيدا، والابتسامة الندية التى تجيدها هذه القسمات، ولكن انكسارا صغيرا فى بريق العينين ينبئ عن ألم قادم، وجاءه صوتها وهى فى طريقها إلى خارج الحجرة:

– يقولون إنهم عثروا على السمدانى العربى ميتا

هب من فراشه:

– أين؟

فاستدارت تجيب:

– أمام باب داره

شىء ما جعله يغمض عينيه ويحمد الله، فالرجل كان فى مندرة ابن أخيه ليلة أمس، وخشى أن يكون مات هناك، ولكنه فى حاجة إلى معرفة المزيد، و لم تتركه يخرج على عماه فأبلغته بما يريد:

– عثروا عليه فى غبش الصبح، مقتولا بطعنة فى خاصرته، وأخرى فى بطنه أخرجت أمعاءه

وعاد إليه كدره، فقدم ابن أخيه ستجر فى التحقيق شاءوا أم أبوا، وعليه أن ينهض ليراه قبل أن يطلبوه.

لم يكن البوليس قد قدم بعد، وحول الدار تحلق بشر كثير، فيما الخفراء يطوقون الجثة ويمنعون الناس من الوصول إليها، من بين الخفراء وقف الشيخ كامل مرتديا لبدته المرقمة ومعطفه الخشن وحذاءه الثقيل، ومعلقا سلاحه الميرى فى كتفه، وعلى إحد الجوانب اجتمعت النساء تولولن وتنثرن على رؤوسهن التراب، وعندما رأته إحداهن صرخت بعلو صوتها:

– يا قتيل السراسوة يا سمدااااانى

وجاوبنها بالصراخ ونثر المزيد من التراب، وتردد النداء مرات ومرات، بإمكانه لو أراد أن ينهر المرأة، لكنه إذا فعل سيكون قد صب الزيت على النار لتزداد اشتعالا، ورأى أن ينصرف إلى مندرة ابن أخيه ليرى أين هو، وأخبره أحدهم أن "نوح" كان هنا منذ قليل، ولما صرخت النساء باتهام السراسوة انصرف، ولمحه الشيخ كامل فاقترب منه، وطلب منه أن يأمر السراسوة المتواجدين بالانصراف، فلا يليق بعد صراخ النسوة أن يظل أحد منهم واقفا، وأبلغه الشيخ عمر أنه منصرف، فيما يبقى هو من خلال عمله كخفير ليرصد ما سيكون.

مع ارتفاع الشمس من بيت مشرقها جاء البوليس، جاءوا بخيولهم وأسلحتهم وشىء من الغضب، فأن يعثر على جثة أحدهم فى ماسورة المصرف العجوز، منهوشة وضائعة الملامح فهذا مما يمكن اعتباره شأنا لا يخص السراسوة بالذات، أما أن يعثر على قتيل داخل العزبة نفسها فهذا شىء يستحق الغضب، فالمنسر يملأون جنباتها ولا يخلو طريق فيها من أحدهم، وهذه المرأة سيئة السمعة المسماة الجارية تنشر الرزيلة فى كل مكان، وتجمع

من حولها كل أنواع المجرمين، وأهل العزبة أنفسهم، أصحابها على وجه التحديد هم من يرحبون بوجود تلك المرأة ومنسرها.

سبق السيف العزل، والعمدة الذى تعيش أخته فى أعز دورها ينفض يديه من العزبة وأهلها، قال للشيخ عمر عندما قصده ليساعد فى ترقيق الإجراءات التى ستجيئ:

– نوح منزلته منى منزلة الإبن، لكننى لا أقدر على فعل شيء

وحتى يفهم الشيخ عمر قصده أردف:

– لقد حذرونى إذا أنا تدخلت إلى جانب أصهارى

وأشهد نفرا من المتواجدين فشهدوا بأنهم سمعوا بآذانهم المأمور وهو يحذره، وفى طريق عودته إلى العزبة رآهم قادمين بخيولهم، ورأى ابن أخيه موثق اليدين ومربوطا إلى حصان أحدهم، وكذلك رأى "قطب" موثق اليدين هو أيضا، ومربوطا إلى حصان ثان، وانخلع قلبه، صاح بأعلى صوته:

– لا تخافوا يا اولاد، لا تخافوا، سأجد حلا قبل أن يصلوا بكم إلى المركز

ونالته خيزرانة أحدهم، شقت الهواء مولولة ونزلت على كتفيه، ومن شدتها تركت أثرا باهتا فى جلبابه.

فر المنسر من العزبة، استيقظ الناس مع الصبح فإذا بهم ليسوا هناك، تركوا الدار الواطئة التى أسكنهم فيها الشيخ زكريا ومضوا إلى حيث لا يعرف أحد، لكن "أبو" دومة لم يفر، قبع فى داره مع الباتعة زوجته

وأولاده، كواحد من أهل العزبة، يعنيه ما يعنيهم ويؤلمه ما يؤلمهم، وينال منه ما ينال منهم، هذا بالضبط ما قاله للشيخ عمر عندما أرسل فى طلبه، لكنه لم يقدم شيئا ذا بال، فقط أبلغه أن السمدانى سهر معهم حتى اقترب الفجر ثم قام ليلحق بأى قدر من النوم قبل أن يستيقظ ليباشر عماله فى مشروع حفر الترعة الجديدة، و لم يكن به شيء يستدعى الملاحظة، كان كما هو فى كل مرة.

وحتى لا ينفرط عقد دار الشيخ زكريا أمسك الشيخ عمر بدفة الأمور، انصاعت المرأتان هنومة وعبادية لأوامره، وكذلك فعل الأبناء، وأغلقت المندرة، و لم يزامله فيما يفعل سوى الشيخ كامل ابن عمه وعديله، ما أشبه يومه بالبارحة، يوم أن اضطلع بأمور العزبة وهى مدمرة بالحريق، ورجالها جميعا إما فى الحبس أو فى شتات الفرار، اليوم ألقى القبض على ابن أخيه العابث، ولا أحد ممن ملأوا بطونهم من خير أبيه يمد يد العون، وألقى القبض على قطب يتيم الأمس شقى اليوم، ولا أحد من أعمامه يسأل عما سيكون من أمره، فهم يعدونه من آل سيد احمد، باعتبار أمه وجدته، عليه إذن أن يباشر أمر المحبوسين إلى أن يرسو القارب الحزين إلى شاطئ.

الكل على يقين من أن "نوح" إذا خرج من هذه المحنة سالما لن يقف بعدها فى وجهه أحد، سيتفرعن ويضع يده على كل الرؤوس، هذا ما وضعه الشيخ عمر فى حسبانه وهو ينتظر فى مندرة ابن أخته الشيخ سليمان ريثما يخرج إليه، فهو منذ تزوج من فاطمة ابنة حفظى لا يظهر كثيرا، وغيابه أكثر من حضوره، وجاءه صوته مرحبا قبل أن يدخل المندرة:

– مرحبا يا خال

جاء من جناح زوجته الجديدة، يسبقه عطر وحبور، كأن ابن خاله الأعز المرحوم الشيخ زكريا ليس مقبوضا عليه، وكأن "قطب" الذى هو بمثابة ابنه ليس مقبوضا عليه، والشيخ عمر وقف متلقيا ترحاب ابن أخته، وبعد حديث طويل قال الشيخ سليمان:

– هذه أمور النيابة يا خال، ولا يستطيع الباشا أو غيره التدخل فيها

وجاءت سُلَيْمَة مرحبة، يأكل قلق غامض ألق عينيها، حملها ظاهر وتسأل عن المحبوسين، وفى نفسه قال الشيخ عمر إنها تفهم فى الأصول أكثر من ابن أخته، وهم بالانصراف قبل أن يتناول مشروب الضيافة فاستدرك الشيخ سليمان:

– يمكننى أن أذهب معك إلى محام، فهذا ما يحتاج إليه نوح

وإذ أدرك أنه لم يأت على ذكر قطب أردف:

– وقطب بالطبع

وابتسم الشيخ عمر فى حزن، إنه لا يقدر على تجاهل نبرة الشماتة فى صوت ابن أخته، وحتى لا يظن به الشيخ سليمان الغفلة قال وهو ينصرف:

– وعلى ماذا أعطلك، فلوسى فى جيبى ومكاتب المحامين مفتوحة على المصراعين

ليس فى جيب الشيخ عمر أو فى داره جنيها واحدا، وأرملتا أخيه لم تقدما إليه جنيها واحدا يعينه فيما هو مقدم عليه، وعليه أن يسارع

بالحصول على المال حتى لا يضطر إلى الوقوف متفرجا ولا يملك إلا الأمنيات الفارغة، ودونه وسؤال أرملتى أخيه عن المال حرج وخجل خلقه الله مسكونا به، وأسر إلى الشيخ كامل بما يريد فاستبشع ابن عمه تصرفه:

– تبيع أرضك يا عمر!؟، الأرض التى تطعم أبناءك بالكاد!؟

وبسط الشيخ عمر يديه يائسا:

– دبرنى أنت، هل أمامى طريق آخر!؟

فى المساء دفع واحد من عائلة القماش ثمن الفدان المباع إليه، وإكراما لخاطره دفع الثمن منجزا، واستأجل الشيخ عمر تسليم الأرض حتى جمع المحصول، وكانت منزرعة قطنا، أخفى الأمر عن زوجته وأبنائه، فأولاده من إحسان سيثورون إذا علموا، وقد ينتهى الأمر بشىء لا تحمد عقباه، أما ياسين فإنه لن يمانع، فنوح هو قدوته، ومثله الأعلى، ولن يتردد أبدا فى بيع هدومه من أجله، بقى أن تعرف رئيفة بالأمر، يكره أن يساوى بينها وبين إحسان، فأين منها ابنة الخولى، التى تستقوى عليه برزالة ابنها الأكبر، وانسياق بقية أبنائها وراءه.

وجدها رئيفة كما يتوقع، وأبدت الاستعداد لأن تبيع من أرضها هى إن أراد، لكنها استعطفته ليكون المحامى للغائبين معا، نوح وقطب ابن أختها، لم يستغرق مشوار المحامى وقتا، فالأستاذ عبد العزيز توفيق المحامى الذى يقع مكتبه فى حى المختلط بالمنصورة يشغل فى نفس الوقت عضوية مجلس النواب عن حزب الوفد، وكلمته مسموعة، وإكراما لخاطر السراسوة إذ

هو يعرف تاريخهم مع الوفد قبل تخفيض أتعابه إلى حد شعر معه الشيخ عمر بالراحة، فثمن الفدان سيبقى منه مبلغا يمكنه من متابعة القضية وتدبير نفقات زيارة المحبوسين فى سجنهما فى معسكر بلوكات النظام فى طلخا، وهكذا أشيع فى المنطقة كلها أن الشيخ عمر أقام عن ابن أخيه وابن حماته محاميا كبيرا هو زميل النحاس باشا فى الوفد وفى البرلمان.

لم يمض على عمل الشيخ كامل كخفير إلا عامين اثنين، اضطروا إلى تخفيض سنه حتى يلحق بالوظيفة التى يحتاج إلى راتبها البسيط ليعين على مواجهة تكاليف الحياة، ويقوم على زراعة فدانين أعطاهما له الشيخ زكريا ابن عمه، وكان يحاسبه عنهما حسابا خاصا، الآن بعد رحيل ابن عمه سيكون عليه أن يتحاسب مع الوسية عن الفدانين كما يجرى الحساب مع الناس أجمعين، لذا فإنه لم يكن ليقدر على مصاريف قضية قطب، وهو لا يستطيع أن يطلب من سكينة أن تبيع أى قدر من أرضها، فهذا قرارها، وهو أبلغها أنها إذا أرادت أن تتصرف بالبيع فى جزء من أرضها فإنه لن يمانع، لكنها صمتت و لم تحر جوابا.

تعرف أن ابنها برىء من تهمة قتل السمدانى، وأنه على خلاف مع نوح زكريا، فكيف يجتمع الشامى والمغربى!؟، بل إنها على شىء من اليقين أن "نوح" هو الآخر برىء من التهمة، فالسمدانى صديقه، وليس بينهما أى خلاف مسموع أو دفين، ولقد وصل إلى سمعها حديث قاله واحد من أهل المقاطعة، مفاده أن خلافا مستعرا كان ناشبا بين القتيل وبين شخص يدعى عباس الأحمر من المقاطعة، يعمل مقاول أنفار هو الآخر، ويشارك فى العمل فى مشروع الترعة الجديدة، والخلاف نشب بينهما

حول منطقة عمل كل منهما، بدأ بين أنفارهما ثم امتد إليهما، وأنهما تسابا على مسمع من الناس قبل واقعة القتل بأيام، ورأت أن تخبر زوجها بما سمعت، فربما يعين على تزكية براءة المظلومين، ابنها وابن خالها.

مع الصبح جاءت الأخبار محملة القلق، فالبوليس الذى عاين مكان الجثة لم يعثر على آثار دماء فى المكان، ولا أى أثر لحدوث تماسك أو مقاومة، بل إن الجثة كانت بفردة حذاء واحدة و لم يعثر البوليس على الفردة الأخرى، وهذا يعنى أن القتل وقع فى مكان آخر وتم نقل الجثة إلى هذا المكان للتمويه وإخفاء الأثر، وقبل أن يستوعب الناس الخبر انتشرت فى غيطان العزبة وطرقاتها فرق من البوليس يمسكون بكلب رمادى ضخم قالوا إنه الكلب هول، ورأى السراسوة الكلب الضخم يتشمم الأرض هنا وهناك ولا يتوقف عن المسير، حتى مسح شوارع العزبة شارعا شارعا.

مع الضحى وقف الكلب هول عند شىء ما فى أحد الغيطان القريبة، وتناقل الناس خبر العثور على الأثر المطلوب، فالكلب يرفض مغادرة المكان الذى وقف عنده، ويهجم طوال الوقت على الأثر ليشمه من جديد، فيما حارسه يقبض على مقوده ويمنعه، خشية طمس معالم الأثر، ونادى المنادى أن الأثر المعثور عليه هو جزء من مخ القتيل، وقال العالمون بالأمر إنه يستحيل أن يكون كذلك، فرأس القتيل سليمة فكيف يخرج منها جزء من جوهر المخ!!؟، وعاد المتحدثون يقولون إن الأثر جزء من أمعاء القتيل، وصمت المعترضون إلى حين.

لم يعرف أحد من أهل العزبة أنهم سيجيئون بالمحبوسين نوح وقطب

لينصبوا سامر الكلب هول على الملأ، فجأة رأى المتحلقون حول المكان "نوح" و"قطب" وهما يساقان إلى مكان الأثر المعثور عليه، الأرض المنزرعة بالقطن لم تتفتح لوزاتها بعد، والشيخ كامل أقرب الخفراء إلى الأثر تابع بدقة عمل الكلب هول، وأحس أن الحارس المكلف به والذى يقوده يتركه على هواه فيذهب هنا ويروح هناك، وإذا أراد أن يوقفه يجذب مقوده جذبة صغيرة فيقف الكلب ويأخذ فى شم المكان فكأنه عثر على شىء، وعندما أوقفوا الشابين قريبا من المكان جاءت وقفتهما قريبة منه.

لم يستطع الشيخ كامل أن يتحدث إليهما بكل ما يريد، لكنه طمأنهما إلى أن الشيخ عمر أوكل القضية إلى محام كبير فى المنصورة، وأن المحامى أبلغه بأن استعراف الكلب هول ليس دليلا على أى شىء، لذا فهو يطلب منهما الهدوء وعدم الخوف، لكن منظر الكلب وهو ينقل النظر بينهما وبين الأثر الذى يهم بالهجوم عليه أوقع الرعب فى نفسيهما، ودب الوهن فى أوصالهما والكلب يتوجه إلى الأثر ليشتمه من جديد، وبدأ السامر، فالكلب سيبحث هذه المرة عمن يحمل فى بدنه أو ملابسه شيئا من رائحة الأثر، وهكذا جال الكلب على الحاضرين يشتمهم وهو يسير بخطى قلقة ومتنمرة، فتارة يهم بالوقوف لكنه يمضى فى سيره، وتارة يعود إلى شخص ثم يتجاهله، إلى أن وصل إلى حيث يقف قطب فنبح بضراوة وهم بالهجوم عليه.

أعاد الكلب الكرة، وعاد ليهجم على قطب وسط هياج الناس وصياحهم، وارتفع صوت أحدهم محتجا، قال إن الحارس يحرض الكلب على التعرف على قطب، وبان لأول مرة أن الشاب الذى يرتدى

بذة سمراء ويقف بالقرب من المكان هو وكيل النيابة الذى يجرى الاستعراف، فلقد ارتفع صوته آمرا المتحدث بالصمت، لكن الشيخ كامل الذى أخرجه استعراف الكلب على قطب عن رشده عاد ليتهم الحارس باصطناع الاستعراف، ولم يكتف بهذا بل خلع لبدته وألقى بها على الأرض، وفيما يتكالب عليه الجنود لم يكف عن الاعتراض، فالحارس يصطنع الاستعراف ويحرض الكلب على اختيار ابن زوجته، والأثر الذى يتشدقون بالعثور عليه ليس إلا فحل طعم(*) دهسته أحد الأقدام، ولما تكالبوا عليه وأحكموا وثاقه سحبوه إلى الوراء ليمضوا به إلى غايتهم، وصوته لما يزل يتردد فى المكان.

(*) نوع من اليرقات ينموا فى الطين فى أشهر الصيف، يستخدمه الناس فى صيد الأسماك من الترع عن طريق السنارة.

حريييييق



قضى بحبس الشيخ كامل ستة أشهر، وتذكر السراسوة تلك الحكاية القديمة، يوم أن حبس أبوه ستة أشهر فى واقعة العجلة التى إدعى أنها ابنة بقرته، لكنهم لم يتبسموا، فقط تذكروا الحكاية ومصمصوا الشفاة، وصار حمل الشيخ عمر أثقل مما كان، فمهما كان فقر ابن عمه وعدم قدرته فإنه كان عونا له على تحمل الأيام والمشاركة فى الرأى، الآن عليه أن يباشر زيارة ابن عمه فى سجنه فى معسكر بلوكات الأمن والنظام فى طلخا، يستيقظ مع الفجر ويحمله ياسين على مطيتهم محملا بما تعده رئيفة لزوج أختها، أو بما تعده سكينة زوجته، ويأخذ قطار الفجر من محطة برقين، وفى المنصورة يمشى حتى شاطئ النيل، ويستقل مركبا ينقله إلى الشاطئ الآخر، حيث بوابة المعسكر القريبة.

الآن يعرف السراسوة أن من شهدوا ضد نوح زكريا وقطب الطوخى هم أهل السمدانى العربى، وعلى رأسهم شقيقه حمدان عمدة شنوان، صحيح أنه لم يشاهد الحادث، لكنه أورى أن خلافا حادا كان ناشبا بين أخيه المقتول وبين نوح وقطب معا، بسبب رغبتهما فى أخذ أتاوة منه،

جزء من أرباحه فى مقاولة الأنفار فى مشروع إنشاء الترعة الجديدة، بحجة أن الباشا هاشم حفظى لم يلزم بها الحكومة إلا إكراما لخاطر السراسوة، ولكن تلك الشهادة كما يقول المحامى لا تنصب على فعل القتل نفسه، ولا تعد فى صحيح القانون شهادة، إذ هى لا تخرج عن كونها مجرد قرينة على وجود خلاف سابق بين الطرفين، القتيل والمتهمين بقتله، وكما تكون الخلافات السابقة دافعا للقتل تكون أيضا دافعا للابتعاد عن أى إيذاء خشية الوقوع فى الاتهام.

القضية كما يقول المحامى ليس فيها إلا تقرير البوليس واستعراف الكلب هول على قطب، فالتقرير أورى أن المتهمين قتلا المجنى عليه فى الغيط المعثور على الأثر فيه ثم نقلاه أمام داره لتضليل البوليس، وتقرير الاستعراف عن طريق الكلب هول وصف استعراف الكلب على قطب، ولكنه لم يتحدث عن واقعة الشيخ كامل واتهامه لحارس الكلب ومدربه بتحريضه على النباح على المتهم، وهو ما استدعى نسخ صورة من قضية الشيخ كامل للاستعانة بها فى الدفاع عن المتهمين، وكانت الأخبار تأتى من لدن المحامى فيتناقلها الناس دون تقاعس، حتى تصل إلى النساء فى دورهن.

منذ وفاة موسى غريبا لم يمر رهطه بمثل ما يمر به الآن، فحتى فى أسوأ أيامهم لم يعانوا مثل هذه المعاناة، الشيخ عبد الرحمن خرج مبكرا من حلبة الصراع، أوحت إليه فردوس الغاوى أنهم يتجاهلونه طوال الوقت، والآن يتذكرونه لأنهم فى حاجة إليه، وهكذا أغلق كل أبوابه فى وجه أخيه، الذى لم يكن يبحث لديه إلا عن المؤازرة، فلقد تمكن من تدبير

أتعاب المحامى ومصاريف القضية ولا يحتاج شيئا منه، والشيخ سليمان لم يكلف خاطره ويناقش صديقه حمدان السمدانى فى شأن ما ادعاه من وجود خلاف بين أخيه المقتول وبين نوح وقطب، والشيخ يوسف السرسى زار "نوح" فى محبسه مرة واختفى بعد ذلك، ولا يعقل أن يكون التحاق ابنه رفقى بالكلية الحربية سببا فى اختفائه، إذ لا تأثير لما يجرى بوضع ابنه، وهو لم يسأل حتى إن كان الشيخ عمر ابن عمه الذى يباشر قضية ابن أخيه وابن حماته فى حاجة إلى شىء، والطوايخة وقفوا يتفرجون على ما يفعله دون أن يطرف له جفن، فقطب كما أسلفنا ليس منهم، إنه من أحفاد سيد احمد وواحد من رهطه.

لا أحد إذن يمد إليه يد العون، قديما كان يونس الراوى يشاركه أمر متابعة قضية مقتل الجنود والخفراء وحريق العزبة فى واقعة العبادى صقر الشهيرة، وكان لديه الشيخ كامل ابن عمه، وها هو يقبع فى السجن ويحتاج إلى من يساعده، فقط رئيفة هى من تشعر به، وابنه ياسين، الذى يحاول أن يعيد إلى أبيه ثقته فى الناس، وفى أن كل شىء سينتهى إلى ما يوافق الحق، والحق كما يعرف الفتى هو أن ابن عمه وابن خالته بريئان من تهمة قتل السمدانى العربى، ولن يخرج الأمر عما يتناقله الناس، من أن عباس الأحمر هو من قتله.

فى آخر زيارة إلى المحبوسين نوح وقطب حمل الشيخ عمر إليهما طعاما أعدته سُلَيْمَة سرحان، وتهكم إن كانت قد أخذت إذن الشيخ سليمان فى هذا، وغضبت رئيفة، فمهما فعل الشيخ سليمان هو ابن خالها الشقيق، وهو بمثابة خال أبنائها، ولا يجب الاستهزاء به، لكن الشيخ عمر استرضى

سُلَيْمَة وحمل الطعام الذى أتت به وأوصله إلى المحبوسين، لم تحدد سُلَيْمَة لمن صنعت الطعام، لكن المفهوم أنها صنعته لقطب، فالشيخ سليمان بمثابة أبيه، وإذا كان لم يقم بزيارته فى محبسه فلا أقل من أن تصنع زوجته له بعض الطعام، وعندما أخبر المحبوسين بمصدر الطعام سرح قطب، وذرفت عيناه بعض الدمع، أرجعها الشيخ عمر إلى حزنه لامتناع خاله عن زيارته.

لم يرد تقرير الطب الشرعى النهائى بعد، فلقد صمم المحامى على ضرورة فحص الشىء الذى اعتبرته النيابة أثرا، وجزءا من جثة القتيل، لبيان ما إذا كان هذا الشىء آدميا أم لا، وتعللت النيابة بصعوبة ذلك، وعدم وجود الجهاز الذى يجرى عليه البحث لدى مصلحة الطب الشرعى، وأنه لا يوجد إلا فى معامل قوات الاحتلال الانجليزى فى المستشفى الميدانى فى الاسماعيلية، ولم ييأس المحامى، أبلغ الشيخ عمر أنه يحتفظ أيضا بحقه فى بحث هذا الأمر، حتى ولو ادعت النيابة عجز أجهزة الطب الشرعى عن تحقيقه، وهكذا فهم الشيخ عمر أن المحاكمة ستطول حتما، حتى يمكن تحقيق كل ما رفضت النيابة تحقيقه، فإذا كان التحقيق قد استغرق عدة أشهر فإن المرجح أن تستغرق المحاكمة وقتا مثل ذلك.

تخلصت الوسية من ناظرها العتيد المرحوم الشيخ زكريا السرسى، ومن المنسر الذين سكنوا إحدى دورها حتى لا يسرقونها، ومن نوح الذى بان جليا أن مكرم بك وكاتبه نسيم افندى لم يكونا على علم بالكيفية التى سيزيحانه بها، وبمجرد أن ألقى القبض عليه وانشغل عمه بمتابعة القضية خرج حنا وهيب إلى مجتمع العزبة هو وزوجته عجايب، وسكنا الدار التى كانت تشغلها الجارية، لكنهما لم يدخلاها إلا بعد أن جلبا قسا ليطهرها

من الرجس الذى يعشش فى أركانها، وسمع السراسوة لأول مرة القس الذى قدم خصيصا من السنبلاوين ليقرأ آيات قالوا إنها من الإنجيل، وأخرى قالوا إنها من التوراة.

بانت المؤامرة كأوضح ما تكون، فلقد جلس المعلم حنا مكان المرحوم الشيخ زكريا، وحل مختار ابن الشيخ سليمان السرسى محل نسيم افندى ككاتب، واستغنت الوسية عن خدمات الكثيرين ممن كان الشيخ زكريا يستعملهم، فحل سليمان الضبع محل المشرف على الحظائر والثيران، و لم تردعه أخوته لمليحة زوجة نوح، وانتظمت الأمور فى الوسية دون أن يأسف أحد على العائلة التى ظلت تباشرها لعقود، و لم يكن الشيخ عمر فى حال تسمح بأن يتوقف ليرى ما يدور، إنه الآن فى مرحلة الخروج من المأزق الذى يوجد فيه رهط موسى، وهو المنوط به إخراجه، وعليه ألا ينشغل بأى شىء آخر، خاصة إذا كان هذا الشىء مما يثير حزنه، وغضبه.

لكن منصور "أبو" دومة الذى تم الاستغناء عن خدماته بدأ التفكير جديا فى مهاجمة الوسية، كان يتحين الفرصة لنيل رضا الشيخ عمر، وبلغ الخبر شاهين الطحان فأقسم ليطلقن الباتعة منه إن هو فعل ما يزينه له شيطانه، فهو برغم تقدمه فى السن لا يزال قويا إلى درجة تثير الخوف، لكن "أبو" دومة ليس الرجل الغر الذى ينطلى عليه مثل هذا التهديد، يكفيه أن يقف أمام حميه ويعلن براءته مما بلغه، وسينقلب الرجل إلى مصدق له، وسيهاجم نيابة عنه كل من يتهمه بالتخطيط للاعتداء على الوسية، فلقد عرف أن الخبر وصل حماه عن طريق مختار ابن الشيخ سليمان، وهكذا ضحك أبو دومة فى داخله، فها هم السراسوة الذين يملأون الدنيا صخبا

حول شرفهم وتآلفهم عند الخطوب ينقلبون على أنفسهم ويدوسون فوق رقاب بعضهم البعض، ودون حرج.

واستيقظ الناس ذات صباح على صراخ سليمان الضبع، فلقد نقب اللصوص جدار الحظيرة الكبيرة، وسرقوا خمسة من الثيران، وكان أبو دومة والباتعة فى ضيافة أبيها فى تلك الليلة، وقضيا ليلتهما فى داره، ولم يستطع أحد أن يتهم "أبو" دومة فى شىء، وتندرت العزبة على خنا وهيب، المعلم الذى يبرم شاربيه طوال الوقت ليحافظ على استقامتهما، وينطق الطاء ضادا، والذى يجرى هنا وهناك صارخا بلهجة لا يفهمونها، ويصب التراب على رأسه، فالوسية التى تسلمها لتوه سرقت فى أوائل أيام نظارته، ولم يحمها استعمال ابن الرجل الأشهر الشيخ سليمان السرسى ككاتب لها، ولا استعمال بعض ممن كانوا مبعدين عنها لدرء الأخطار.

بدأ الانتقام، فالذى لا يعرفه أحد أن الجارية ورجالها أرسلوا سرا لمكرم بك ليستعملهم كما كان الشيخ زكريا يفعل، ولكنه رفض، وهددهم على لسان نسيم افندى بالإبلاغ عنهم إن جرى لممتلكاته شىء، ولم يلبث أن جاء الخبر بمهاجمة مخازنه فى وسيته الأخرى فى كفر النعمان، وسرقة أقطان وغلال وموازين، وسرعان ما تناقل السراسوة خبر حريق سراية مكرم بك فى بنى سويف، إن حقيقة أو لمجرد التمنى، كأن الانتقام شمل كل أملاك الرجل، حتى فى ذلك البلد البعيد، وتجرأ بعضهم فأعلن أن هذا هو ذنب نوح، ابن الرجل الذى حافظ لمكرم على وسيته فلم تمس لعقود، والذى استعمل المنسر لصالحه، وبدلا من أن يثيبه على ما فعل انقلب على ابنه بمجرد أن رحل.

لم تكن القضية قد أحيلت بعد إلى محكمة الجنايات عندما جاء مكرم بك بشاى إلى العزبة، رآه الناس هو وزوجته فى فراندة السراية يستمتعون بشمس الخريف، ورأوا غليونه العتيق ينفث الدخان فى الهواء، وغير بعيد منهما يجلس المعلم حنا على الأرض، لو أن ما جرى للوسية هو محور الحديث بين الزوجين وناظر زراعتهما لكان قد أجرى داخل السراية، بحيث لا يراهم أحد، هذا ما قاله البعض، لكن من لديه الحصافة قال إنه لا يوجد شىء يتحدث فيه البك مع الناظر إلا سرقة ثيران الوسية، وخبر البلاغ الذى قدمه الناظر وكيلا عن البك، وهجوم البوليس على العزبة واصطحاب الكثيرين للتحقيق معهم، فلقد ألقى القبض على نافع النجدى ورزق الحبال وسليمان الضبع وواحد من أبناء طه إبراهيم، وتنبه على مختار ابن الشيخ سليمان كاتب الوسية الجديد بالحضور إلى ديوان مركز البوليس فى أقرب وقت، وصارت العزبة كلها متوجسة مما سيجرى فى حضور البك نفسه.

بلغ السراسوة من العاملين فى الوسية، الذين وضعتهم الظروف قريبا من السراية أن مكرم بك فى حديثه إلى ناظر زراعته الجديد توعد السراسوة بالجلد والحبس إن مر يوم دون أن ترد إليه بهائمه، وها هو اليوم المضروب ينصرم ولا خبر عن البهائم المسروقة، كما بلغهم أن البك أرسل فى طلب الشيخين سليمان ويوسف السرسى ليتباحث معهما حول ما جرى لحظائر الوسية، لكن كل ذلك لم يمنعهم من الشماتة فى البك الذى يرغى ويزبد، ويهدد ويتوعد، ويرسل فى طلب مأمور المركز ليكون حاضرا لقاءه مع ممثلى السراسوة.

الشيخ عمر كان فى ذلك اليوم فى زيارة المحبوسين، الشيخ كامل ونوح وقطب، ووصل فى قطار المساء ليجد ياسين فى انتظاره بالركوبة أمام محطة السكة الحديد فى برقين، وعندما وصل إلى العزبة أبلغته رئيفة أن خالها الشيخ يوسف أرسل يسأل عنه أكثر من مرة، يعرف لماذا يسأل عنه الشيخ يوسف، فياسين أبلغه بكل ما جرى فى العزبة، من لحظة أن غادرها مع الفجر وحتى عودته، ولأن مكرم بك لم يرسل فى طلبه فإنه يفضل ألا يحضر اللقاء المنشود، إذ لو أن البك يريده ما الذى يمنعه من الإرسال فى طلبه!؟، وبمجرد أن استقر فى داره جاء مؤمن إبراهيم ليبلغه بأن الشيخ يوسف ينتظره فى السراية.

قصد أن يكون رده صادما، ولأن مؤمن هو من سيبلغ الرد فإنه سيقوله أمام الجميع، وهذا عين المطلوب، رده أنه فى داره، ومن يريده فمرحبا به، هذا بالضبط ما نقله مؤمن للشيخ يوسف السرسى، وسمعه كل فى السراية، من أول مكرم بشاى وحتى الخادمة محبوبة، ولا بد أنه أسقط فى يد السراسوة الحاضرين، الذين هرولوا ليلبوا نداء مكرم بك دون أى اعتبار لهؤلاء الذين يصطلون بنار الحبس فى السجن، ودون أن يكلفوا خواطرهم بالسؤال عنهم أو عن مسار قضيتهم، بل وقام الشيخ سليمان بتقديم ابنه للوسية ليعمل كاتبا بها، ضمن مؤامرة استهدفت خلع نوح زكريا منها للأبد.

الأحداث التى توالت نقلها إليه ياسين، لم يرها بنفسه، فمأمور المركز وهو رجل ضخم ذو شاربين مشرعين جاء ومعه قوة من البوليس، ومفتش بوليس قالوا إنه من المديرية، وجمعوا كل الكلافين والعمال ونجارى

السواقى، وحتى خِوَلَة الأنفار، وأوثقوهم فى جرن الوسية الكبير، ونشطوا للبحث عن منصور "أبو" دومة فهاجموا داره وأهرقوا شالية لبن كانت تحملها زوجته الباتعة، وحطموا جرار الدقيق والأرز، وحتى يتوقف الهجوم جاءهم به صهره شاهين الطحان، وكان مختبئا لديه، فأوثقوه هو الآخر، ودفعوا به مع الآخرين فى الجرن، وبدأ الحفل.

لم يقترب أحد من دار الشيخ عمر، ولم يرسل إليه مكرم بك ليناقشه فى شيء، وعرف السراسوة أن مكرم بك هدد الشيخين سليمان ويوسف السرسى بإجراءات أكثر قسوة إن لم يفصح السراسوة عما لديهم من معلومات حول ما حدث للوسية، وأنه ما استدعاهما للحديث معهما إلا لأنه يعلم قدرهما، ويصعب عليه أن يتخذ إجراء ما دون أن ينبه إليه، فإذا كانا يطلبان مهلة للتباحث مع ذويهما من السراسوة لإنهاء الوضع المتوتر ومن ثم إعادة البهائم فهو يقبل بذلك، وإلا فلا يلومانه على ما يفعل، وسمعه الناس يقول للشيخ سليمان، ماذا لو أن ما حدث فى حظائرك أنت!؟، هل كنت ستقف متفرجا ولا تلجأ إلى كل ما يمكنك عمله!؟.

أصوات فرقعات الكرابيج وطرقعات العصى فوق أرجل وأجساد الموثقين ترجعت فى شوارع العزبة وحاراتها، مصحوبة بصرخات تقسم بعدم معرفة أى شيء، وخرج الأنفار الذين يعملون فى شق الترعة الجديدة يتفرجون على عملية التأديب كما أطلق عليها المعلم حنا:

– البك بدأ عملية التأديب، وغدا ستعود الماشية المسروقة، وتظل الوسية آمنة لأعوام أخرى قادمة، حتى يظن أحدهم أن الدنيا سائبة فيحاول شيئا ويعود البك إلى تأديبهم من جديد

قال هذا فى جمع من الناس تجرأوا على الاقتراب أكثر ليروا بأم أعينهم كيف يقوم مفتش المديرية بعمله، وكيف أنه بعد كل شوط من أشواط التأديب يصحب أحدهم إلى داخل مخزن من مخازن الوسية ليقرره.

لكن عملية التأديب لم تسفر عن شيء، بعضهم تحت وطأة الضرب أعلن أن سيتكلم، ثم تبين للمأمور الخبير أن الأمر لا يخرج عن كونه محاولة لوقف تعذيبه فأخضعه إلى مزيد من الضرب، وهكذا ظلوا يعذبون الرجال حتى أذن الشيخ طه السبيلى لصلاة العصر، ومن موقعه فوق سطح المسجد ردد عبارات الآذان ثم رأى أن يستنصر بالله على الظالمين فاخترقت كلماته آذان الجميع، وعندما نزل تلقفته الأيدى قبل أن يؤم الناس القليلين الذين دخلوا المسجد فى ذلك اليوم، وساقوه هو الآخر إلى السراية، وهناك سأله المأمور الضخم وهو يعبث بشعيرات شاربه:

– ومن هم الظالمون الذين تستنصر الله عليهم يا شيخ قرد؟

وامتلك الرجل شجاعة أن يجيبه:

– الذين يعذبون الناس دون دليل يا جناب البك

فطالته ضربة عصا من أحدهم، قبل أن يأمر مفتش المديرية بتعليمه كيفية مخاطبة أسياده، فأوثقوه هو الآخر وأوسعوه ضربا على أجنابه وقدميه، وكان هذا تقريبا آخر شيء حدث فى ذلك اليوم.

لم يظهر أى واحد من المنسر رغم تشديد البحث عنهم، بل إن الجارية اختفت كأنها لم تكن حقيقية ذات يوم، واصطحب المأمور منصور "أبو" دومة وهو عائد إلى ديوان المركز، وكان موثقا من يديه ومربوطا إلى

الحصان، يحجل بقدم واحدة، فلقد أعطبت الأخرى من كثرة الضرب، وقال الناس إن وجهه كان منتفخا، وعينيه مختفيتين، فيما تركوا سليمان الضبع وابن طه إبراهيم موثوقى اليدين والقدمين، و لم يقترب أبواهما منهما ليحلا وثاقهما إلا بعد رحيل آخر خفير من القوة المرافقة للمأمور ومفتش المديرية، وكانت نافذة حجرة مكتب مكرم بك فى السراية مشرعة، ورأس البك تظهر منها وهو يبادل أحدهم الحديث، ورفع طه إبراهيم صوته وهو يصطحب ابنه:

- تريدها حربا يا حنا الكلب أنت وسادتك!؟، حسنا، سنعطيكم الحرب التى لم تروها فى حياتكم

فى تلك الليلة البعيدة أغلقت الدور فى عزبة أحمد السرسى على غضب عظيم، وخوف أعظم، لكن الشبان من جيل ياسين تمكنوا من الخروج من الدور مخالفين تنبيهات آبائهم واجتمعوا خلف سور جرن الوسية، الليل يحمل أنفاس المضروبين التى ثقلت ورفضت أن تغادر المكان، وتترجع فى الأسماع أصوات الكرابيج والعصى وهى تشوى الأبدان، ومنصور أبو دومة الذى لم تخرج منه كلمة استغاثة واحدة كان هو ملهم هؤلاء الصبية، لأول مرة يشعر ياسين بافتقاد نوح وقطب، فلو أن واحدا منهما موجودا الآن إذن لأمكنهم بحث كيفية الانتقام، وفيما هم يتباحثون حول ما يجب فعله شعروا بقدوم أحدهم، وقال أحدهم:

- إنه مختار سليمان

ووقف ياسين فى وجهه، آمرا إياه بالعودة من حيث أتى، فأبوه صهر

الباشا كان يمكنه منع ما حدث، ولكنه وافق البك على التنكيل بأهله، هو وابن مليكة، يقصد خاله الشيخ يوسف السرسى، وعاد مختار كسيرا.

خرج الشيخ عمر من تجربة تأديب العزبة سالما، لم يقترب منه أحد، وشعر فى قرارة نفسه أن مكرم بك تحاشى الاحتكاك بهم، أبناء موسى السرسى، لكنه لم يكن فى حال تسمح بتحدى البك، ففى هذا الظرف يتوجب عليه أن يركز جهده فى اتجاه واحد، هو إنقاذ ابن أخيه، ومعه ابن حماته، وانتظار انتهاء ابن عمه من تنفيذ عقوبته، وعرف من البعض أن مكرم بك غادر السراية فى سيارته الحديدية التى يقودها رجل أسود يرتدى زيا غريبا كأنه من رجال البوليس، ويضع فوق رأسه طاقية من نفس اللون، وأن بعض الصبية جروا وراء السيارة وهم يغنون:

– خواجة فلس وباع البرنيطة

واتجوز بنت ام قليطة

ستكون مغادرة مكرم بك سرايته فى العزبة دون الاهتداء إلى حل لموضوع سرقة مواشيه بداية لحرب جديدة تستمر لعقود، وستكون دار المعلم حنا وهيب مسرحا لاعتداءات أقلها وضع الخراء أمامها فى الليل، حتى إذا ما استيقظت عجايب فى الصباح وفتحت الباب تدهس بقدميها فيه، وتخرج النسوة على صياحها وهى تسب وتلعن، وعندما تملأ كفيها منه وتمضى فى طريقها لتشكو لأحد الكبار مما يفعلونه بزوجها وبها يزفها الأطفال ويشيرون لعجيزتها الضخمة وهم يغنون:

– يا عجايب ياختى

كلتى واتنفختى

إيجو يخطبوكى

مالقوش ابوكى

جيصتى جيص

خزيتى العريس

لكنها فى الحقيقة لم تكن تعرف لمن تشكو ما يحدث لها ولزوجها، فمرة تقصد الشيخ عمر، ومرة الشيخ حسانين الضبع، ومرات الشيخ سليمان، ومرة شاهين الطحان، وفى كل مرة تعود بخفى حنين، فلا هى تكف عن السب واللعن بلهجتها الخشنة المحببة، ولا هى تكف عن كبش الخراء بيديها والتوجه للشكاية، والأطفال من ورائها يغنون، إلى أن تحدث الشيخ سليمان فى المسجد فى صلاة الجمعة، قال إن حنا ضيف على السراسوة، الجميع يعرف أن الرجل ليس ضيفا، إنه ناظر زراعة مكرم بشاى، ولسانه الذى هددهم، وشتان بين وضعه هذا وكونه ضيفا، ولكنهم تفاديا للجدال اكتفوا بالصمت، فلا كونه ضيفا أو نصرانيا له أى دخل فيما يحدث، وإنما الانتقام، كأن مكرم بك انتظر حتى توفى الشيخ زكريا وانقلب إلى شيطان.

فى قرارة نفسه اهتدى الشيخ سليمان إلى حل لذلك التناقض بين اعتراضه على ما جرى وبين تحبيذه له، فأن ينفلت الأمر فى العزبة فهذا يعنى أن مصالحه هو أيضا فى خطر، فإذا مرت سرقة ثيران مكرم بك دون حساب ستكون حظائره هى التالية، ولكن الاعتداء على منصور

"أبو" دومة صهر شاهين الطحان ابن عمة أبيه، وعلى سليمان الضبع الذى أسماه أبوه على اسمه حبا فيه، وعلى رجليه نافع النجدى ورزق الحبال، كل هذا يجعله فى موقف حرج، فلا هو يقدر على التغاضى عنه، ولا هو يستطيع أن يدعى عدم مقدرته على فعل شىء، والمأمور الضخم الذى كان يأمر بتعذيب السراسوة وهو منتفخ الأوداج لا يقدر على غضبة صهره هاشم حفظى باشا، مهما كانت خفايا اتصالات مكرم بك.

خروج الشيخ كامل من السجن أعاد للعزبة شيئا من حيويتها، فالرجل الذى لا يستطيع أن يكتم ما بداخله لم ينتظر طويلا ليعلن أن من يعمل من السراسوة فى الوسية ونوح فى الحبس هو عدوه، من أكبر رأس فى العزبة إلى أصغر رأس، وانضم لدعوته أبناء إبراهيم السرسى بندارى وطه، فيما تأرجح مؤمن لا يدرى إلى أين يتجه، ونشط أبناؤهما فى الدعوة إلى مقاطعة الشيخ سليمان، ليس لأن مختار يعمل كاتبا فى الوسية فقط، ولكن لأنه صادق على ما فعل مكرم بك و لم يعارضه أو يقف فى وجهه، وكان يمكنه تلجيم رغباته ووقفه عند حده، وأيضا مقاطعة الشيخ يوسف السرسى الذى عاد ليتبع ابن أخيه ككلب أمين، وهو الذى طرده من عزبة أبيه وجده شر طردة، وتناقل الناس خبر توسط الشيخ سليمان لدى صهره الباشا لقبول رفقى ابن عمه الشيخ يوسف فى الكلية الحربية، واتباع الشيخ يوسف رغبات الشيخ سليمان لهذا السبب.

وتفجرت الأحداث، أمسكت نار مجهولة بسقف إحدى الحظائر، وسرعان ما امتدت إلى أسطح مخازن العلف ثم أمسكت بالأعلاف نفسها، وتصاعدت لتقضى على أخشاب الوسية وألواح التلويط والمحاريث

البلدية المصنوعة من الخشب، و لم تمتد يد واحدة لتساعد فى إطفاء الحريق، بل إن البعض عندما فكر فى المعاونة وجد الأعين الحمراء فى انتظاره، وفى المسجد القريب أدرك الشيخان عمر وكامل أن التبعة ستكون مضاعفة هذه المرة، وخرج الشيخ عمر من قوقعته وسافر إلى المنصورة ليطلب من المحامى الكبير المشورة فى تقديم شكوى ضد المعلم حنا، لأنه يفتعل الحرائق فى الوسية لإحداث الوقيعة بينهم وبين مكرم بك، ورأى المحامى أن يتقدم بالبلاغ بعض شباب الأسرة فتقدم البعض بالبلاغ المطلوب إلى مدير المديرية، مشفوعا بتأشيرة من المحامى النائب، وذكّرَ بصفته نائبا عن الوفد ببعض مما وقع من المأمور فى واقعة سرقة الماشية.

ألقى القبض على يوسف ابن طه إبراهيم والمعلم حنا وهيب، واصطحبهما الخفراء إلى السنبلاوين، أحد ضباط المديرية هو الذى طلبهما، رأى المدير أن يجرى التحقيق بمعرفة أحد ضباطه ولكن فى مبنى المركز، وانخلعت العزبة من جذورها وسافرت خلف يوسف، حتى أن المعلم حنا لما رأى جمهرة السراسوة يسيرون خلف قوة الخفراء طلب من يوسف الصلح، وفى المقابل يترك العزبة ويعود إلى بلده، وفى الليلتين اللتين قضياهما معا اقتربا من بعضهما البعض، وحكى المعلم حنا لأول مرة صلته بمكرم بك، فكما يوجد فى كل عائلة أغنياء وفقراء هو ومكرم بك من نفس العائلة، فجده وهيب شقيق بشاى، ولما طلبه مكرم بك للقدوم إلى العزبة منذ سنوات رفض، لعلمه أن كبير العزبة هو ناظر الزراعة فى الوسية، وعندما مات الرجل قبل بالأمر.

لم تغير زيارة الشيخ سليمان ليوسف طه فى مركز البوليس وتقديم

أطعمة وأغطية له من نظرة السراسوة إلى كبيرهم الذى تشابكت مصالحه مع مصالح مكرم بك، فيوسف طه الذى أطرق إلى الأرض والشيخ يحدثه لم يبادله كلمة واحدة، فقط راح يومئ برأسه بالإيجاب كلما سأله عن حاله، ويومئ بالرفض إن كان السؤال عن حاجته إلى شيء، وكعادته لم يصنع الشيخ سليمان من زيارته ليوسف بطولة يطلب شيوعها بين السراسوة، يعرف أنه إذا زاره وكفى دون أن يردد على مسامع السراسوة ذلك فإنهم سيقبلون منه ما فعل، ولن يردوه إلى الرغبة فى التظاهر أو الاعتذار عن موقفه السابق.

منظر الحظائر المحترقة والماشية النافقة والأعلاف المتلفة يجعل الرائى يظن أن الحرب التى اندلعت لن تضع أوزارها، وعندما عاد يوسف طه وخبر الصلح بين المعلم حنا والسراسوة يسبقه أدرك الجميع أن نهاية الوسية قريبة، فها هى الوسية تحترق ولا يأتى مكرم بك ويتهم من يتهم، أو يأمر فيلقى القبض على هذا وذاك، فقط يتصالح المعلم حنا ويرجع الحريق إلى شرارة ربما تكون قد انطلقت من فرن أحد الدور أو من لفافة تبغ ألقاها بإهمال أحد العمال أو النجارين، وبات واضحا أن المعلم حنا يقضى أيامه الأخيرة فى الوسية، وأن زوجته عجايب تودع جيرانها الذين لم تهنأ بزيارتهم من قبل، وتعلل المعلم حنا بالمكوث فى العزبة ريثما يأتى مكرم بك ليتسلم منه وسيته.

نشب شجار بين أبناء الشيخ سليمان، فمختار الذى طرده أقرانه عندما أراد الانضمام إليهم لبحث كيفية الرد على الإهانة التى لحقت بالسراسوة من قبل مكرم بك صمم على أن يكف عن التوجه إلى مخازن

الوسية لمباشرة عمله ككاتب، مذكرا بما أعلنه الشيخ كامل من ان كل من سيعمل فى الوسية ونوح محبوس سيكون عدوا لهم، لم تمتد يد أحد من الأبناء على الآخر، فقط حديث صاخب وتهديد بالضرب بين حمدان ومختار، اشترك فيه سليم إلى جانب حمدان، فيما انضم عبد العزيز الصغير إلى مختار، وكادوا يتبادلون الضرب لولا دخول سُلَيْمَة بينهم، ببطنها الذى يسبقها ووجعها الذى ينبئ عن ميلاد قريب، نهرت أولادها وصرخت فى وجوههم، ولما أوشكت على السقوط بينهم نسوا عراكهم واجتمعوا يسندونها لتجلس فوق أقرب أريكة.

لم يبحث أحد من السراسوة عمن أحرق الوسية، فالكل على يقين من أن أصدقاء منصور "أبو" دومة ويوسف طه كثيرون، ويمكنهم فعل ذلك وأكثر، وحمد السراسوة فى نفوسهم أن الأمر وقف عند حد الحريق ونفوق بعض الماشية والأعلاف، وحتى الأخشاب والأسقف، وأنه لم يتعد ذلك إلى قتل المعلم حنا أو غيره من عمال الوسية، إذن لكانت الأمور قد تعقدت إلى حد يصعب وصفه، فهم فى عام واحد متهمون بقتل رجلين، أحدهم من الربع ويجلب عداء قرية بأكملها، والثانى من بقايا أبناء السمدانى القديم.

وجاءت الأخبار من المنصورة تقول إن القضية أحيلت إلى محكمة الجنايات بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، ضد كل من نوح زكريا موسى أحمد السرسى وقطب موسى محمد أحمد السرسى، وتحدد لنظرها أمام محكمة جنايات المنصورة مطلع الأسبوع القادم، وعندما علمت زبيدة بالأمر صرخت صرخة عظيمة وسقطت مغشيا

عليها، فهمت خطأ أن "قطب" حكم عليه، وعندما أفاقت أفهموها الأمر على حقيقته، وكانت حاملا هى الأخرى، على يومها وليلتها، ومن بين من اجتمعوا إليها لإفاقتها رأت سُلَيْمَة ببطنها المنتفخ بشدة، و لم تتمالك إحداهن فقالت:

– جبتك يا عبد المعين تعينى

و لم يضحك أحد، فالخوف يسيطر على زبيدة وسُلَيْمَة معا، يربطهما خيط واحد هو الأمل فى نجاة قطب.

عندما دخل الشيخان عمر وكامل قاعة المحكمة وجدا الشيخ يوسف السرسى جالسا فى الصفوف الأولى، و لم يتنبها إلى وجود الشيخ سليمان إلا بعد أن جلسا، وتداولا الأمر، أيصح الجلوس دون إلقاء التحية!؟، و لم يستطيعا أن يصلا إلى قرار، وسبقهما الرجلان فأقبلا عليهما يحييان، ويتمنيان يوما موفقا وبراءة مستحقة، وتصافحوا وقبلوا بعضهم البعض، وانحنى الشيخ سليمان ليقبل يد خاله الشيخ عمر، و لم يكن يفعل من قبل، وأصر الشيخ عمر على سحب يده لكن ابن أخته قبض عليها وتمكن منها، وفى امتثال يرد الكثير من الاعتبار إلى النفس وضع قبلة فوق ظهرها، وانحنى الشيخ عمر فوضع هو الآخر قبلة فوق رأسه.

فى هذا اليوم البعيد حدثت أمور كثيرة سعيدة، فبعد سماع الشهود ومن بينهم الشيخ كامل السرسى ترافع المحامى مفندا أقوال شهود الإثبات وعلى رأسهم حمدان السمدانى عمدة شنوان، وطعن على استعراف الكلب هول، وقدم نسخة من التحقيق الذى أجرى مع الشيخ كامل فى

قضيته، واتهم مدرب الكلب صراحة بتوجيهه، ودلل على النقص المخل في التحقيق، سواء فيما يتعلق بعدم استجابة النيابة لطلب سماع شهود حول الخلاف بين القتيل وبين الكثيرين وعلى رأسهم عباس الأحمر من المقاطعة، وكذلك عدم استجابتها لطلب إجراء فحص للأثر المعثور عليه لمعرفة ما إذا كان آدميا من عدمه، وإذا كان آدميا فهل هو للقتيل أم لغيره، ووقفت النيابة تنافح عن مسلكها، وعقب المحامى على تعليق النيابة، ورفعت الجلسة للمداولة.

فى عصر ذلك اليوم البعيد وضعت سُلَيْمَة ولدا خامسا، قالت إنها اتفقت مع الشيخ سليمان على تسميته مصطفى، ووضعت زبيدة بنتا أطلقت عليها بناء على ما أرسل به قطب من سجنه اسم أمينة، وقضت محكمة جنايات المنصورة ببراءة نوح زكريا موسى أحمد السرسى وقطب موسى محمد أحمد السرسى من تهمة قتل السمدانى العربى.



عامـود من الذبـاب



وكان القصر قد حاك مؤامرة انشق على إثرها النقراشي وأحمد ماهر عن الوفد، وطردت حكومة النحاس من الحكم في ديسمبر 1937، وبان أن نصوص معاهدة 1936 لم تمنع قوات الاحتلال الانجليزى من الانتشار في كل ربوع مصر، ذلك أن المعاهدة فرضت على مصر تكاليف إنشاء ثكنات في منطقة قناة السويس للقوات الانجليزية، ولضعف الميزانية عجزت مصر عن البناء فظل الانجليز في كل مكان، بل إن الانجليز طلبوا من محمد محمود باشا رئيس الوزراء الجديد عدم بناء الثكنات لتظل قواتهم في كل مكان في مصر، وتم تفريغ المعاهدة من مضمونها، ثم جاءت حكومة على ماهر باشا رجل القصر المعروف الذى أعلن الأحكام العرفية في البلاد بناء على طلب السير مايلز سامبسون السفير البريطاني.

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية تلكأت مصر في إعلان الحرب على ألمانيا وإيطاليا، وأعلن على ماهر باشا رئيس الوزراء أن مصر لن تدخل الحرب إلا دفاعا عن أراضيها، وأصدر أوامره للقوات المسلحة المصرية المرابطة على الحدود بالارتداد إلى داخل البلاد منعا للاشتباك مع الطليان على الحدود

المصرية الليبية فارتدت القوات من السلوم إلى مرسى مطروح، وهو ما يعنى أن الحكومة المصرية غلبت ولاءها لمصر على الولاء للمعاهدة مع انجلترا، وبعد أسبوع واحد من إعلانه هذا وإقرار البرلمان له أبلغت الحكومة الانجليزية الملك فاروق الذى حل محل أبيه الملك فؤاد فوق عرش البلاد بضرورة تغيير الحكومة لأنها لا تعبر عن رأى الشعب ولا عن شعور المصريين ولا تصدر عن مصلحة مصر ولا تعمل بروح المعاهدة بين انجلترا ومصر!.

وكان قطب قد خرج من السجن على داره الجديدة التى كان قد شرع فى بنائها قبل حبسه، وقبل أن يقضى ببراءته استغل الشيخ كامل زوج أمه وقته فى الانتهاء من بناء الدار وتجهيزها ليخرج قطب من السجن إليها، إذا قدر له الخروج، وكان فى استقبال قطب خالاته وأزواجهن وأبناؤهن، مكثوا ساعة ابتهجوا فيها بعودته ثم رحلوا، وها هو ينعم بأول دار مملوكة له، فيها زوجة طيبة وابنة رائعة الحسن وباب يغلق عليه فلا يدرى أحد عنه شيئا، خالاته عمرن الدار الجديدة بجرار الدقيق والأرز الأبيض والبقوليات والجبن القديم وخبز القمح المصنوع بعناية بنات مريم، وكما حدث فى زواجه أرسلت سُلَيْمَة زلعة سمن بلدى وأخرى مليئة بالعسل الأسود وعشرة أقماع كاملة من السكر، وزلعة مليئة بالملح الرشيدى، وأرسل الشيخ يوسف السرسى سحارتى صابون وقنانى زيت وبضعة أحمال من قش الأرز وحطب القطن ليعمر بها سطح الدار، وفى أول ليلة له فى حياة الحرية نام هو وزوجته وابنته فى حجرة واحدة، تحيط بهم الأشياء التى أهديت إليهم.

لكنه مع كل ما تذخر به الدار لا يحتكم على مليم واحد، وصندوق

الدخان الذى يعمر جيبه مع دفتر البفرة يوشك على النفاذ، فأين له مثله إذا طلع الصبح. أذهله خبر ولادة سُلَيْمَة، وأجرى عقله حسابات فاقمت ذهوله، فإذا كانت حاملا فى طفلها وهى تقابله فلماذا لم تذكر أى شيء عنه، ثم إن حساب الأيام يجعل ما بين أول لقاء له معها وولادتها حوالى تسعة أشهر، أين إذن له أو لها يقين يؤكد أو ينفى أى احتمال!؟، وتدبر الأمر، إنه إذا لم يحسن التصرف فإن الفضيحة ستكون قاسية، وقد تؤدى إلى قتله، أو على الأقل طرده إلى الأبد، وكان وهو يتدبر أمره يأخذ زوجته وابنته الرضيعة فى حضنه ويتظاهر بالنوم.

أما دار نوح زكريا فكانت تغص بالبشر، جاءوا للتهنئة من كل صوب وحدب، وكان بمجرد أن استقر فى الدار قد أمر بذبح عجل كبير، وأولم لأهله وأحبائه وأصهاره، وما أكثرهم، وعلى مدى اليوم كله أُنْضِجَت كومات هائلة من الجمر لتدور فوق أحجار الجوز والأراجيل على المهنئين، ولأول مرة منذ انتقال أخيه الشيخ زكريا إلى رحاب ربه يشعر الشيخ عمر بأنه بلا دور، فمنذ نطق المستشار الكبير بكلمة البراءة عاد من المنصورة ليشرف على تهيئة الدار لاستقبال ابن أخيه، و لم ينس أن يمر على دار قطب الجديدة ليرى إن كان ينقصها شيء، فرئيفة مع أخوتها يفعلن كل شيء لجعلها صالحة للسكنى، وها هو انتهى من تهيئة الدار لاستقبال نوح، وها هو نوح نفسه يذرعها جيئة وذهابا، يصافح هذا ويقبل ذاك، ويمزح مع هذا ويسامر ذاك، يفعل كل شيء فى أول أيام حريته، حرى به إذن أن ينسحب تاركا ابن أخيه لأصدقائه وضيوفه، وليذهب إلى داره لينعم بشيء من النوم الذى حُرِمَه منذ عثروا على السمدانى العربى مقتولا، ومع

الصباح يعود ليرى كيف سيصير حالهم مع ما يدور فى العزبة، وما يجرى بين السراسوة والوسية، وقبل أن يغادر رأى المعلم حنا وزوجته عجايب يلجان من باب الدار، وزغرودة الزوجة تشق سماء العزبة، غير عابئة بالقفة الكبيرة التى تعلو رأسها، والعامرة بالهدايا ابتهاجا بعودة صاحب الدار إلى حياة الحرية.

من فى هذا المكان الذى هو عزبة أحمد السرسى، والذى يعرف الشيخ عمر كل طفل فيه وكل رجل وكل امرأة، كل صبى وكل فتاة، بل وكل دابة، من من هؤلاء يوجه خطى هذا الرجل الغريب!؟، من يخطط لبقائه فيجعله يسالم يوسف ابن طه إبراهيم فى ليلتين اثنتين، ويخرج من محنة الحجز فى مركز البوليس صديقا له!؟، من يدبر لاندماجه فى حياة السراسوة فيدفعه للتوجه هو وزوجته محملين بالهدايا إلى دار نوح زكريا لينضما إلى ركب المهنئين!؟، هل يصدق أحد بعد ذلك أن الرجل سيرحل عما قريب!؟، فقط يأتى مكرم بشاى ليتسلم وسيته!؟، إن من يراه أمامه ليس إلا رجلا يتصرف وفقا لخطة مرسومة بعناية، حاصلها أنه لن يرحل عما قريب.

وجاء الصباح محملا بالعديد من المفاجآت، نوح يعلن أمام الجميع أن أمر الوسية لا يعنيه فى شىء، هكذا ودون مشورة، بل ودون عرض الأمر عليه إن كان يريد أن يحل محل أخيه فى نظارتها، ومصر تعلن دخول الحرب إلى جانب الانجليز، وأخيرا فإن موعد دفع البدلية حتى لا يتم تجنيد ابنه ياسين حل، فمواليد سنته تم استدعاؤهم للفرز الأوَّلى تمهيدا لتجنيدهم، وعليه أن يدفع عشرين جنيها كاملة إن كان يريد ألا يتم تجنيده، وهو لا

يمتلك أية نقود، فآخر جنيهات تبقت من ثمن الفدان الذى باعه أنفقها فى احتفالات تهيئة الدار لاستقبال ابن أخيه، ثم إنه لا يستطيع أن يطلب من ابن أخيه ما أنفقه على القضية والمحامين، وأيضا هو لا يستطيع أن يمد يده ليستدين من أحد، ثم من معه مثل هذا المبلغ ليقرضه له!؟، باستثناء الشيخ سليمان والشيخ يوسف ونوح، والأخير لن يكون طلب المبلغ منه إلا كأنه طلب رد ما أنفقه، هو إذن يتمنى الموت ولا يمد يده إلى واحد من الثلاثة.

أخذته قدماه إلى دار ابن عمه الشيخ كامل، عنده يستطيع أن يمد قدميه كما يريد، وأن ينفس عن نفسه ويشكو مر الضائقة، لكن خبر إعلان نوح انقطاع صلته بالوسية كان مخيما على الدار الصغيرة، فالرجل يضرب كفا بكف ويتعجب مما فعل نوح، وبرغم أن أحدا لم يبلغه بشيء فإنه كان على يقين من أن نوح فعل ما فعل دون أن يستشير عمه، وساد الخوف حياة هذا النفر من أبناء السيد السرسى، الشيخ كامل وموسى وأولادهما، فلقد كان ابن عمهما الراحل يستعملهما فى أمور الوسية، من أول الإشراف على الحظائر وحتى القيام بدور خولى الأنفار فى وقت الحاجة، المهم أنهما كانا يرزقان من الوسية طوال الوقت، فضلا عن الأفدنة التى كانا يزرعانها، وكان إذا حل وقت المحاسبة يستأجلان دفع المصروفات إذا كانا مضغوطين بضغوط الحياة، وهى دائما تفعل.

إلى أين يذهب أيضا!؟، لقد انقضى اليوم كله و لم يشعر نوح بغيابه، و لم يرسل فى طلبه أو يأتى ليرى سبب غيابه، وابنه ياسين عاد بمفرده من الغيط، تاركا أخاه رضوان ومختار الضبع ابن عمته عند القطن الذى تم جمعه، خرجوا بعد صلاة الفجر وها هو لم يعد إلا وآذان العشاء يرتفع، سيأخذ

شيئا من الطعام له ولأخيه وابن عمته ويعود إليهم، ورئيفة مشغولة بإعداد الطعام، تصنع من أجل أبنائها رقاقا من دقيق القمح المعجون بالقشدة واللبن الرائب، وسترسل معه الجبن القديم والعسل، وخفوق عشر بيضات أنضجته بالزبدة والملح المخلوط بالفلفل الأسود، وابنه الصغير شاكر يبكى، يريد أن يرافق أخاه فى رحلة عودته للغيط.

لماذا لا يأخذ الولد شاكر ويرافق ياسين إلى الغيط، إنها فرصة ليختلى بالليل فيشكو له ما عجز عن فعله لدى الشيخ كامل ابن عمه، وربما يتفتق الذهن عن حل لمعضلة البدلية، التى إن لم يسرع بدفعها سيكون قد حكم على ابنه الأقرب إلى نفسه بالتجنيد لسنوات قادمة، قد يرحل فيها عن الحياة والابن العزيز غائب، وقد يتدهور به الحال فلا يعرف كيف يدير الأمور فى غيبته، فرضوان ابنه الثانى من رئيفة يواصل الليل بالنهار فى العمل، لكنه يميل إلى حياة الليل، ويتسلل إلى دار منصور "أبو" دومة ليجالس المنسر الذين عادوا لزيارة العزبة، وربما يكون قد انضم إليهم ذات مرة فى الهجوم على زراعاتَ أحدهم واقتلاعها، أو تدمير سواقى أحد آخر، أو حتى نقب حظيرته وسرقة ماشيته، وأمله هو أن تتمكن حكمة ياسين من إثناء رضوان عن الطريق الذى يريد أن يسير فيه.

وجدهما يختبئان داخل الأقطان المجموعة، الموضوعة داخل أكياس غير مكتملة، وبش مختار لخاله فيما ابتأس رضوان، فهو يخطط لترك المحطة(*) واللحاق بقطب ابن خالته لدى "أبو" دومة، فموعدهم الليلة

(*) المكان الذى يضع فيه عمال الجنى القطن، وقد يكون الاسم من فعل حط أى وضع، أو يكون هو الإسم المعروف، مكان تجميع القطن.

للسطو على سواقى عائلة شلبى فى الحجايزة، والمقامة على ترعة بعيدة مارة من خلف "أبو" الشقوق، انتقاما من ابن لهم أهان قطب فى سوق الأحد بـ"أبو" الشقوق، وكان قطب ذاهبا لشراء عجلة صغيرة يعمر بها الحظيرة الصغيرة الملحقة بداره الجديدة، رضوان رأى أن مجىء أبيه يعنى أنه سيضطر لملازمته، وحتى إذا تركهم وعاد إلى الدار فإنه لن يلحق بموعده مع الرفاق، الذين تعاهدوا على التجمع فى دار "أبو" دومة بعد صلاة العشاء.

أخذه الليل فى ركابه، الشيخ عمر ابن موسى السرسى، عاشق الليل كأبيه، ورأى أن ينفرد بنفسه، به رغبة حارقة لأن يبكى بعيدا عن تطفل الآخرين، حتى لو كانوا أبناءه وابن أخته، ومن بين الموجودين لم يشعر به إلا ياسين، عرف أنه يريد أن يختلى بالليل، يبثه همومه ولواعجه، وربما يذرف دمعات تغسل نفسه المتألمة، لكنه خشى على أبيه غواية الليل، فلقد سمع ذات مرة أنها تأخذ بقدمى صاحبها إلى الهلاك، تظل تغويه فيبكى، وتغويه فيبكى، ولا يجد مفرا من البكاء كلما أخذته الغواية، حتى يهلك أو يفقد عقله، وغير بعيد منه شعر الشيخ بابنه يتسلل من خلفه، ناداه:

– تعال يا ياسين

فظهر واضحا يغلفه ثوب الليل، ولما مثل بين يديه سأله:

– هل تحب أباك إلى هذا الحد!؟

فأطرق الولد إلى الأرض، فأجلسه إلى جانبه:

– إذن لا تتركنى، أريد أن أموت فى حضنك

وتهدج صوته بالبكاء:

– لا تتركنى أموت وحيدا كأبى

فى تلك الليلة البعيدة سرَّى ياسين عن أبيه كما لم يفعل ابن من قبل، أخذه فى حضنه وربت على ظهره وقبل رأسه وغسلها بالدموع، وصمتا حتى استوعب قلباهما كل ما يشعران به من الحب، وعندما تطرقا إلى شئون الدنيا رفض ياسين دفع البدلية، قال إن مبلغ العشرين جنيها أكبر من طاقتهم على دفعه، فالأقطان التى يجمعونها لن تأتى لهم بمثل هذا المبلغ، ومن ثمنها سيدفعون إيجار الأرض المستأجرة والميرى الذى تراكم لسنوات، وما يتبقى سيشترون به جاموسة بدلا من بهائمهم التى تصرفوا فيها بالبيع، فمنظر الحظيرة الخالية يشعره بالحزن، قال إنه سمع من بعضهم أن عمدة كفر النعمان يأخذ عشرة جنيهات ويتوسط لصاحبها فيخرج من الفرز غير لائق طبيا، وأنهم قد ينجحون فى جعل العشرة جنيهات خمسة، أو حتى سبعة، وساعتها سيكونون قد ربحوا خمسة عشر جنيها كاملة، ونظر الفتى فى وجه الليل وهو يقول:

– أنظر ما الذى يمكن أن تفعله لنا خمسة عشر جنيها

فى تلك الليلة البعيدة حمل الشيخ ابنه الصغير شاكر وعاد إلى الدار قرير العين، ولحق رضوان برفاق الليل، فلأنه قدر أنهم غادروا فى موعدهم التقاهم عند تل اللجة، أو تل الذئاب كما يطلق عليه السراسوة، فهو على يقين من أنهم سيتجنبون السير فى السكك المطروقة حتى لا يربط أحد بينهم وبين ما سيقع لسواقى عائلة شلبى، ونام ياسين فوق أكياس القطن مسلحا بسكين خبأه فى صديريه، وفرد خرطوش معمر بطلقة جاهزة

استعاره من صديق له من السمارة ليحرس به محصوله وقت الجمع ثم يعيده، ربطه على خاصرته بحبل متين، وبدون أن يدرى سرح فى نجوم الليل البعيدة، وتأرجح بين الرغبة فى النوم والسقوط فى غواية الليل.

اشترى نوح خمسة عشر فدانا من إحدى الوسايا المجاورة، يصلها الماء بيسر عند اكتمال مشروع شق الترعة الجديدة، واستبقى بعض المال من خبيئة أبيه لتكون تحت تصرفه فى تجهيز الأرض وجعلها صالحة للزراعة، وكان قد جرى إهمالها لصعوبة ريها ومن ثم صارت مرتعا للذئاب والثعالب وبنات آوى، والقوارض من كل نوع، وخرج السراسوة يساعدون فى تمهيد الأرض وإعادتها إلى الحياة، ولفترة طويلة ظل الناس يتناقلون قصص مضحكة وأخرى مبكية عن أفاعيل الذئاب بالبشر والمطايا، وحتى بالكلاب التى اصطحبوها، وهاجمت الحيوانات الهاربة أطراف العزب والقرى المجاورة، كل ذلك دون أن يستشر عمه، وفهم الشيخ عمر أن ابن أخيه لا يحتاج إلى مشورته فى شيء، وعليه أن يتصرف على هدى من ذلك، يزيح ابن أخيه من فوق كاهله ويطرحه أرضا.

تسلم المشترى فدانه الذى دفع ثمنه منجزا وقبل تأجيل تسلمه إلى ما بعد جنى القطن، ووقعت معركة بين أبناء الشيخ عمر بسبب تسليم الفدان للمشترى، فلقد هجم فتح الله أكبر الأبناء على ياسين وهو يضع علامات قياس الفدان وأوقعه أرضا، وأمسك بزوره يريد اقتلاعه، وتحشرجت أنفاس ياسين لولا أن قطب ابن خالته ألقى بنفسه فوق فتح الله وقبض على رقبته واضطره لترك ياسين، لكن فتح الله استدار وتمكن فى لحظة من نهش أذن قطب فقطع منها جزءا كبيرا، وانفجر شلال الدم ساخنا أغرق

رقبة قطب وصدره، و لم تجد محاولات ياسين لوقف نزيف الدم إلا بعد فترة، وفى طريق العودة من الغيط كان قطب يترنح من الضعف من كثرة ما نزف من دماء.

على غير توقع أعلن فى العزبة أن "مختار" ابن الشيخ سليمان سيتزوج نِعَم ابنة الشيخ يوسف السرسى، وضحك نوح زكريا فى نفسه، فها هو الشيخ سليمان يعود بالكلية إلى حظيرة سيد احمد ويقدم ابنه ليغطى على فضيحة ابنة عمه!، وجرى العرس على ما يجب أن يكون، أو لم الشيخ سليمان وليمة عرس فخيمة، دعا إليها أصدقاءه وأصهاره وأقاربه، كبيرهم وصغيرهم!، غنيهم وفقيرهم!، وفى ليلة الدخلة فعلوا كما يفعل كل الناس، دخلت صالحة زوجة نافع النجدى مع الماشطة حجرة العروسين، وأخذت نيابة عن مختار المضطرب وجه نعم!، وأخرجت منديل العرض الأبيض مخضبا بالدماء!، وانطلقت البواريد ابتهاجا!، ورقصت الفتيات والنساء!، وجعر الشبان من رفاق مختار احتفالا بفتاهم الذى لم يتردد فى فض بكارة عروسه!.

أشيع بين الناس أن نوح زكريا تزوج حفيظة ابنة حسان الغاوى، وكانت طلقت من زوجها لأنهما لم ينجبا، وسرعان ما تأكد الخبر، فالمرأة الشقراء ذات العينين الخضراوين كزرع البرسيم خطرت فى الدار بثقة زادت من حسرة مليحة، وصار نوح لمليحة أسبوعا ولحفيظة مثله، وربت عيسى ابن نوح الأكبر على كتف أمه مليحة وقال:

– لا تبكى يا أمى، لن أدع أحدا يغضبك

فتبسمت ضاحكة، لكنها اعتادت البكاء فى كل مرة ترى امرأة زوجها

الجديدة ترتدى غالى الثياب، وما يشف عن جسد أبيض كالشمع، وتظل تتقصع فى أروقة الدار طوال اليوم، حتى إذا ما حل أسبوعها تسمعهما يتضاحكان ويتعابثان فى حجرتها طوال الليل، إلى أن يحين الفجر.

لم تبرأ سُلَيْمَة من داء قطب، فبرغم مرور ولادة مصطفى ابنها الأخير على خير عادت لتمنى النفس بلقياه، ورآها الناس تفتعل المناسبات لزيارته فى داره الجديدة، لكن "قطب" كان منغمسا حتى أذنه المنهوشة فى نشاط المنسر، فلا يكاد يفرغ من تقليع زرع حتى يشرع فى نقب حظيرة وسرقة ماشيتها، أو كسر ساقية وتخريبها، وهكذا كان يلتقط رزقه الشحيح، لكن مع حياة مهددة بالتوقف فى كل لحظة، حتى أنه صار زبونا دائما لدى مركز البوليس، يرسلون فى القبض عليه مع وقوع كل سرقة، أو حريق، أو إتلاف مزروعات.

وجاء موعد الفرز لشبان التجنيد، وكان عمدة كفر النعمان قد قبل أخذ سبعة جنيهات من الشيخ عمر إكراما لخاطر السراسوة، ولود قديم بين جديهما، وسافر ياسين محملا بكل الأمنيات الطيبة إلى معسكر الفرز فى طلخا، حيث سلاح الجيش المرابط الذى سيوجه إليه كل المطلوبين من دفعته، طمأنه العمدة إلى أنه بمجرد أن تطأ قدمه أرض المعسكر سيطلبه أحدهم بالإسم، وسينهى كل شىء ليخرج من باب غير المقبولين، ونصحه بعض أصدقائه ممن مروا بتجربة الفرز بعمل خلطة من الحلاوة الطحينية والشطة السودانى تعبأ فى ورقة كبيرة يخفيها فى ملابسه، وكذا خليط من الخل والعسل الأسمر يعبئه فى قارورة يخفيها مع الخلطة السابقة، حتى إذا ما جاء وقت عرضه على اللجنة يأكل كمية كبيرة من الحلاوة الطحينية

المخلوطة بالشطة السوداني، على الفور سيصيبه ما يشبه الحمى، وحتى لا ينفجر دماغه أو يتلف من الحرارة يخرج القارورة ويدهن بخليط الخل والعسل رأسه المحلوقة، وبهذا يخرج من باب غير اللائقين للخدمة، إذ هم لا يأمنون أن تصيب الحمى غيره من المقبولين.

لم يسافر مع ياسين أحد، بكى أبوه فى الخفاء فيما أجهشت رئيفة وهو ينطلق مع الفجر، وكذلك فعل أخوته، رضوان وشاكر، ويحيى الصغير، وصرخت الرضيعة مريم فى فرشتها دون سبب، وكانت رئيفة قد وضعتها منذ أيام. رافقه أخوه رضوان إلى برقين ليأخذ من هناك قطار الفجر إلى المنصورة، ثم يعبر النيل فى معدية إلى حيث معسكر الفرز فى طلخا، لم يشأ أن يتناول أى طعام مما أعطته له أمه، حتى إذا ما خاب تدبير عمدة كفر النعمان ووجد نفسه وحيدا فى مواجهة لجنة الفرز يحدث مهروس الحلاوة الطحينية والشطة أثره.

عندما استقر فى طابور المطلوبين تمهيدا لعرضه على اللجنة انتظر أن ينادى أحد على اسمه، لكن انتظاره امتد بلا طائل، وسمع بأذنيه نداءات على أشخاص غيره، وظل ينتظر النداء على اسمه إلى أن صار بينه وبين الدخول إلى اللجنة شخص واحد أو اثنين، لذا انتحى جانبا وسف كمية كبيرة من الحلاوة المخلوطة بالشطة، وفى أقل من دقيقة شعر بالنار تخرج من بطنه ورأسه فأخرج القارورة وصب ما بها على رأسه، ودعك رأسه بيديه حتى شعر بالخدر يسرى فى جلدتها.

بدأ الأمر بواحدة، أو اثنتين، جذبتهما رائحة الخليط المدعوكة به رأسه فكان يطردهما، لكنهما رواغتاه وهاجمتا من الجهة الأخرى والتصقتا

برأسه، وحاول أن يزيحهما، وسرعان ما جلبت الرائحة العشرات، ثم المئات والآلاف، وفى لحظات صار الذباب عامودا طويلا فوق رأسه، يطن كما النحل، وانطلقت الضحكات من الشبان فى الطابور، وكذلك من الجنود الذين يشرفون على تنظيمهم، والمستخدمين الذين خرجوا على أصوات القهقهات، منظر عامود الذباب الذى يدور بحثا عن مكان ينقض منه على الرأس المدهونة بالعسل أثار ضحك الجميع وسخريتهم، بل وفزعهم، و لم يعد ياسين يعرف كيف يتخلص منه فسقط على الأرض مغشيا عليه.

أفاق على الماء يقطر من رأسه وملابسه، ورجليه مضمومتين ومرفوعتين إلى السماء، وأحد ضباط الصف برتبة جاويش يمسك بخيزرانة سميكة ويضربه على قدميه، كل ضربة تأخذه من الحياة وترده إلى الغياب، من فرط قوتها والآلام التى تبعثها فى جسده، فضلا عن النار التى تنبعث منه، فلقد فعل مهروس الحلاوة والشطة السودانى عمله، وانبعثت الحمى فى الجسد كله، زادتها قسوة الضرب حدة، فلم يشعر الجاويش بأن الفتى فاقد الوعى إلا عندما طرقعت الخيزرانة دون صدور استغاثة، وتوقفت الخيزرانة فى الهواء، فلقد ظن الجاويش أن الفتى مات.

تركوه مطروحا أمام المبنى الذى يجرى فيه الفرز، وكانوا قد فتشوا المكان فعثروا على بقية مهروس الحلاوة الطحينية والشطة، وكذلك قارورة خليط الخل والعسل، وأمروا أحدهم بدلق جرادل الماء فوقه، وأزاد الماء الطين بلة، إذ سرعان ما اجتمع الذباب على الفتى المطروح على الأرض كجيفة وفوق الماء الذى رشح فى المكان من حوله، واقترب

منه فتى من الحجايزة، قال لأحد الجنود إنه يعرفه، وتمكن من سحبه من المكان، وتنظيف ثيابه، ولما اطمأن إلى أنه أفاق من الغيبوبة أطعمه شيئا من الطعام الذى عثر عليه قريبا منه، الطعام الذى صنعته من أجله أمه، ثم مضى وتركه وحيدا ليواجه ليل المعسكر القاسى، محملا برجاء الذهاب إلى أبيه وطمأنته.

مر آخر قطار قادم من المنصورة و لم يهبط منه ياسين، وانكفأ رضوان وشاكر عائدين بخفى حنين، وما أن وصلا إلى العزبة تلقفهما أبوهما، ولما أخبراه بأنه لم يهبط من القطار ولولت رئيفة، حتى أن الدور القريبة اجتمعت عليها، وعرف الجميع أن ياسين الذى خرج مع الفجر مسافرا إلى المنصورة لم يعد، وتعددت الاجتهادات، كلها لا تتوقع خيرا، وفيما دار الشيخ عمر تغص بالمتعاطفين دخل عليهم الشاب القادم من الحجايزة، وأبلغهم بخبر الغائب، وأنهم أبقوه فى المعسكر لأنه لم يستكمل الفرز.

انتحى به الشيخ عمر جانبا، وكذلك قطب الذى كان على وشك السفر إلى المنصورة بحثا عن ابن خالته، وسألا الفتى عن حقيقة ما جرى، وعما إذا كان يخفى عنهم أمرا، فأبلغهما بكل ما جرى، وانقلب الشيخ عمر إلى أهله والقلق يقتله، والرغبة فى البكاء تطبق على صدره وتضيق الخناق عليه، ورأته رئيفة يكاد يسقط على الأرض فأطلقت صرخة طويلة، شقت سكون الليل فى العزبة النائمة، وتجمهر من تبقى من أهل العزبة على الدار الحزينة، لكن الشيخ لم يتركهم نهبا للقلق، فلقد أعلن من خلال دموعه أن ابنه بخير، وجاء نوح زكريا مع من جاءوا، ولما علم بالأمر خاطب عمه متعجبا:

- وكيف يذهب ياسين إلى الفرز دون أن أعلم!؟

ولما لم يجبه عمه بشيء عاد ليسأل لائما:

- ولماذا لم تدفع له البدلية فلا يذهب إلى هناك من الأساس!؟

ونظر الشيخ إلى ابن أخيه بهدوء، وأجابه:

- لا أدرى يا ابن أخى

علم ياسين أن أباه و"قطب" ابن خالته و"نوح" ابن عمه يقفون عند بوابة المعسكر يريدون الاطمئنان على حاله، كما علم أن أباه يسعى لدفع البدلية المزدوجة وقدرها أربعين جنيها، طالما لم يدفعها قبل أول استدعاء، هو أول من يعرف أن أباه إذا فعل يكون قد قضى على مستقبل الأسرة برمتها، فالأربعون جنيها ثروة تبدأ بها أسرة مسيرة نهضتها، فكيف يتم تدبيرها!؟، وإذا أمكن تدبيرها كيف يمكن تجاوز آثارها المدمرة!؟، وعزم على منع أبيه بأية وسيلة من المضى فى ذلك، وطلب من أحد الجاويشية إذنا للقاء أبيه عند بوابة المعسكر فأذن له، يعرف أن الفكرة هى فكرة نوح ابن عمه، الذى لا تهمه النقود فى شىء، فلا يمكن أن تكون فكرة قطب ابن خالته، إذ لا يملك قطب مليما واحدا يمكنه من التفكير فى دفع مثل هذه الثروة، ودون أن يلقى عليهم السلام رفع سبابته فى وجه أبيه محذرا، وقال والدمع يملأ عينيه:

- إذا سمعت قولهم ودفعت البدلية المضاعفة فسأختفى من حياتك ولن ترانى بعد اليوم

وقفل عائدا إلى المكان الذى قدم منه، أبوه لا يدرى كيف يوقفه، ويد

قطب تمتد بصرة الطعام الذى أعدته له خالته، ونوح يمد يده كأنه يسترده، وصعب حالهم على أحد الحراس فأخذ الصرة من يد قطب وهرول وراء ياسين ليعطيها له.

عرفت الجيرة كلها أن الفتى ياسين ابن الشيخ عمر السرسى تم تجنيده فى القوات المرابطة، أو كما يقولون الجيش المرابط، فى أحد معسكراته فى طلخا، وهى قوات زائدة عن حاجة الجيش العامل خصصت لتقديم خدمات للقوات العاملة ومدها بالمؤن والعتاد، وقال من رأوه فى معسكر الإعداد إنهم أزالو شعره تماما بموسى حلاقة، وجردوه من ملابسه وألبسوه لبسهم، سترة زيتية اللون وبنطال قصير عند الركبة، وطاقية ميرى، وحذاءً ضخما برقبة طويلة، فوق جورب خشن يصل إلى ما تحت الركبة، ولعب الخبر برأس أمينة ابنة عمه فسألت أمها متعجبة:

- كيف يبدو فى هذا اللباس!؟

وأجابتها أمها وهى تلعب بوزها يمنة ويسرة:

- كما يكون من يرتديه يا ابنتى!

لا تعرف أمينة لماذا تتهكم منها أمها، فكلما حاولت أن تلمح إلى ما سبق وتحدثتا فيه قبل وفاة أبيها تغلق أمها الباب ولا تسمح حتى بمجرد الطرق عليه، واليوم هى تحاول أن تعود إلى طرق الباب، وأمها تغلق فى وجهها كل السبل، فإذا كانت أمها قد قالت ما قالت قبل وفاة أبيها فإن الأمور بعد وفاته تختلف، والخطاب الذين كانوا يتقاطرون وتتعلل الأم فى رفضها لهم بصغر سنها تباطأت خطاهم، وقلت جودتهم، حتى أن واحدا

من خدم أبيها فكر فى التقدم لخطبتها، لولا أن أحدهم حذره من ذلك فى اللحظة الأخيرة، حتى لا يفقد عمله فى الدار التى تتكفل بإطعامه.

وحتى تضع أمها أمام الأمر الواقع أكثرت من زيارة دار عمها، بل وساعدت زوجة عمها رئيفة فى الكثير من الأعمال، ولم يخف على رئيفة مقصودها، لكن الواقعة القديمة يوم أن تركها خالها فى الشارع هى وبهائمها لا تجعلها متقبلة الفتاة على أى نحو، لكنها لم تشأ أن توصد الباب حتى لا تتسبب فى تعاسة ابنها، فهى على يقين من أنه يحبها ويتمنى الزواج منها، وإن كان منذ تلك الواقعة القديمة لم يعد إلى ذكرها مرة واحدة، ومن طرف خفى نظرت رئيفة إلى الفتاة، وتعجبت، تساءلت عما يغرى ابنها بالزواج منها، فهى لا يميزها فى دنيا البنات شىء يلفت النظر.

مرت شهور التدريب ثقيلة ومتباطأة، ولم يقم عمدة كفر النعمان برد السبعة جنيهات التى قبضها من الشيخ ليسلمها كبرطيل إلى واحد يعرفه من أعضاء لجنة الفرز، وفيما هم جالسون فى الدار فى إحدى الأمسيات دخل عليهم ياسين بلباسه العسكرى، أمه لم تعرفه لأول وهله، تفرست فى ملامحه وهى تبتسم فى دهشة، ثم أطلقت صرخة عظيمة وارتمت فوقه تستوعبه كله فى حضنها، وكذلك فعل أبوه، فيما تناثر الأبناء من حوله يمسكون بملابسه العسكرية ويتحسسون حزامه العريض ورقبة حذائه الغليظة، وبكى يحيى الصغير لأنهم تجاهلوه، فرفعه رضوان وقربه من وجه أخيه فقبله، وتلقفه ياسين واحتضنه بشدة، ثم انحنى وقبل مريم فى مهدها، وأقسم لأمه أنها ابتسمت وهو يقبلها.

ذاع خبر وصول ياسين فى أجازة لمدة يومين فتقاطر على الدار كل الأقارب والأصحاب، وقامت رئيفة قبل الفجر لتعد لابنها الطعام الذى يحبه، سيكون إفطاره الفطير المدفوس التى ورثته عن أمها، وكان رضوان قد أحضر لها من السنبلاوين ورق الزبدة الذى تريده، وهكذا صنعت عجينة الفطير من الدقيق العلامة، وأضافت رشات محسوبة من الملح وقطعة من السكر، وجلست فى حجرة الخبيز يسامرها شاكر الذى استيقظ معها، قسمت العجينة إلى قطع، كل قطعة تكفى لعمل فطيرة واحدة، وراحت تفرد قطعة العجين على يدها وتأخذ باليد الأخرى من طاجن القشدة وتدهن به سطحها، وتطويها على يدها وتفردها من جديد، وتعيد الكرة، حتى تمتلئ العجينة بالقشدة، ولا يكون هناك محل لإضافة قشدة أخرى، ثم تضع العجينة على صينية واسعة وتفردها برفق حتى لا تتساقط منها القشدة، وما أن تصل إلى الحجم الذى تريد تتركها لحظات ثم تغلفها بورق الزبدة وتطويها طيات متعاقبة حتى تصير فى حجم الاسطوانة الصغيرة، ويكون شاكر قد مارس إحماء الفرن بدس المزيد من الدمس، وتمارس رئيفة دورها، تمد عود الحديد وتفتح للفطيرة الملفوفة فتحة داخل النار وتدفسها فيها، وتعيد غلق النار عليها، هى وغيرها حتى إذا ما مر وقت تعلمه تخرجها على صينية أمامها، وتخرج الفطائر وأوراق الزبدة كما هى، فالسمن يمنعها من الاحتراق، وعند الأكل تفتح الفطيرة وتزيل عنها ورق الزبدة، وتكون جاهزة للأكل.

هو فطير أمها المدفوس الذى اشتهرت به الأسرة فى المنطقة كلها، ولكم جلست نسوة مع رئيفة ليتعلمن منها صنعة الفطير المدفوس، لكنهن أمام

حرفة فرد الفطيرة على اليد ودهنها بالقشدة باليد الأخرى يقفن عاجزات، فتقول الواحدة منهن:

– وماله الفطير المشلتت المفرود، إنه على الأقل أخف على المعدة!!؟

وجاءت أمينة زكريا مع طلوع الشمس، لكن ياسين لم يكن فى الدار، فلقد سرح إلى الغيط بعد أن صلى الفجر، هو ورضوان، ورأى بعينيه كيف أن رضوان يباشر الأرض كما كانا يفعلان معا، بل إنه ابتدع زراعة الخضروات لأمه على الشطوط وفى بطال خطوط الزرع، حتى لا تحتاج إلى شىء تشتريه، البصل والثوم واللوبيا والفاصوليا والبسلة والبامية، والخس والجرجير والفجل والكرات والبقدونس والشبت والكزبرة، السمسم والحلبة والكمون والملانة، كل شىء تحتاج إليه الدار، و لم يتمالك ياسين فاحتضن شقيقه، هو الآن ليس قلقا على أبيه، قلقه الوحيد على شقيقه، بسبب صداقاته للمنسر وأبناء الليل، وانقياده لقطب ابن خالته الذى لم يعد يعمل أى شىء إلا السرقة وأعمال الليل الخطرة.

تناول إفطاره الفخيم، وشاركه مختار سليمان، الذى قدم ليسلم ويتناول الإفطار معه، الفطير الذى لم يتذوقه منذ ماتت عمته مريم، وكذلك قطب ابن خالته وأبناء أعمامه من كل الفروع، الطوايخة والضبوعة وأحفاد إبراهيم والسيد، كلهم كانوا هناك فى المندرة يتدافعون ليحصلوا على نصيبهم من الفطير الذى لم يعد بالنسبة إليهم إلا مجرد ذكرى، وقرب الظهر خلت الدار من المهنئين فانفرد الأب بإبنه:

– أريد يا ياسين أن تصدقنى القول، هل لك شوق فى أمينة ابنة عمك؟

السؤال مباغت، وعند الباب وقفت رئيفة تتسمع، وأطرق الفتى قليلا ثم قال:

- لا يا أبى

تساءل الشيخ منزعجا:

- هى ابنة عمك يا بنى، وسبق وطلبتها للزواج!

أجابه آسفا:

- تهكمت على أمها، وطُرِدَت أمى من دارهم، تركوها فى الشارع تبتلع حرجها وتمسح عرق خزيها

وأطرق قليلا ثم أردف:

- إن أنا تزوجتها سأظلمها

ورأى الشيخ أن يلجِ الموضوع من زاوية أخرى، علها تكون أجدى:

- جاءها عريس من عزبة سرحان، وينتظرون ردنا

وأجاب ياسين:

- مبروك عليها، يا زين ما اختارت أم العبادى

وحتى لا ينفتح باب آخر للحديث فى نفس الموضوع استأذن أباه ليخرج إلى أصدقائه.

بكت رئيفة من الفرحة، فابنها الأكبر يعرف كيف يحافظ على كرامتها، ومن استكثروا أنفسهم عليها وعلى ابنها ذات يوم لن تكون الحياة معهم سلسة، وفى اليوم الثانى لم تأت أمينة، أبلغ الشيخ ابن أخيه

بأن يبارك للعريس المتقدم لأخته، ووجم نوح قليلا، ورأى أن يقول لعمه كآخر محاولة:

– أم العبادى امرأة حمقاء، أحيانا لا تعرف ما تقول، ألا تغفرون لها زلتها!؟

وكاد عمه يذكره بما قال أبوه، لكنه أطرق إلى الأرض وهو يجيب:

– إنه النصيب يا بنى، إنه النصيب

وصادق نوح على القول:

– ونعم بالله

عندما أذن الظهر انطلقت الركائب إلى برقين، جمع غفير من شباب السراسوة يرافقون ياسين إلى محطة القطار، يودعونه ويرفعون الأيدى بالتحية والقطار يمضى إلى المنصورة، حتى يلحق ياسين بالمعسكر قبل هبوط الشمس.



ورحيــل



لم يكن يخفى على أحد أن الملك فاروق كان مواليا لدول المحور، لذا فإنه لم يرضخ لرغبة الانجليز فى إسناد تشكيل الوزارة إلى أحمد ماهر باشا الذى يميل لإعلان الحرب على دول المحور، واسندها إلى حسن صبرى باشا الذى ألف الوزارة فى 27 يونية 1940، ولكنه لم يقبل إعلان الحرب برغم تغلغل القوات الإيطالية فى مصر حتى وصلت إلى سيدى برانى، وانسحب الوزراء السعديون من الحكومة، وأعقبها حكومة حسين سرى باشا وأحمد ماهر باشا، لكن الانجليز فى 4 فبراير 1942 حاصروا القصر بالدبابات لفرض وزارة وفدية على الملك المتمرد.

لم يفهم السراسوة أبدا كيف يقبل الوفد المجىء إلى الحكم بدبابات الإنجليز، وعرفوا كما عرف غيرهم أن الانجليز طلبوا من الملك الشاب فاروق إسناد أمر تشكيل الحكومة إلى مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد، وإزاء رفض الملك حاصرت دبابات الاحتلال القصر، وهدد الانجليز بخلع الملك، ورضخ فاروق للأمر وأسند أمر تشكيل الوزارة للنحاس باشا، و لم يكن السراسوة ليدعوا الأمر يمر مرور الكرام، وكانوا من قبيل التفكه

يحاصرون قريبهم الشيخ سليمان بالأسئلة، ويسمعون منه التبرير تلو التبرير، فمرة الوفد هو حزب الأغلبية بالفعل، وسواء ترأس زعيمه الوزارة بفضل الانجليز أو بغيرهم فهو الأحق بالحكم، ومرة يرجع الأمر إلى قيام فاروق بالاتصال بالطليان والألمان والتآمر معهم على الانجليز فكان أن فعل الانجليز ما فعلوا، ولكن السراسوة لم يستطيعوا أبدا أن يفهموا كيف أن الحزب الذى ظل سنوات طويلة يقود المقاومة ضد الاحتلال هو نفسه الذى يتحالف الآن مع المحتل!؟.

أيام طويلة قضاها ياسين مجندا فى الجيش المرابط، الذى جعلته الحرب آلايات لتقديم الدعم والخدمات الخلفية لقوات الحلفاء، وهكذا ظل ياسين فى المعسكر الرئيس فى طلخا، يخرج ضمن فرقته ليؤدى بعض الخدمات لقوات الحلفاء ثم يعود، سافر إلى مرسى مطروح، وإلى الإسماعيلية والسويس مرارا، وفى كل مرة كان يعود إلى المعسكر الرئيس بعد انتهاء المهمة، الأمر الذى هون كثيرا على أبيه، فكلما غاب يسافر الرجل إلى المنصورة ويطلبه عند البوابة، يجلس معه قليلا ويسلمه الطعام الذى صنعته من أجله أمه، ثم يعود إلى داره قرير العين.

والسنوات التى قضاها ياسين فى الجيش حفلت بالكثير من الأحداث، فقطب ابن خالته لا يخرج من السجن إلا ليعود إليه، أجهد الشيخ كامل زوج أمه فى متابعته والعدو خلفه، هنا وهناك، فلا الشيخ كامل يمل نصحه ولا قطب يعمل بالنصح، وعندما حان انتهاء فترة تجنيد ياسين كان قطب يكاد ينهى حكما بحبسه ستة أشهر، فى واقعة سرقة ماشية من عزبة

غرور المجاورة لقرية بيضاء السوق، هو ومنصور أبو دومة هذه المرة، وجاءه وهو فى السجن خبر حرب ضروس اندلعت بين الشيخ يوسف السرسى وبين عائلة حراز فى الربع، لزم فيها الشيخ يوسف السرسى داره وغيطانه، لم يجده تخرج ابنه رفقى من الكلية الحربية وتعيينه ضابطا فى سلاح المدفعية، فالشيخ يحرص طوال الوقت على المباعدة بين ابنه وبين الخلافات التى تقع بينه وبين الآخرين، حفاظا على ابنه وصونا له، ثم إنه فى هذه المرة فى حراسة السراسوة الذين استعان بهم ليكونوا من حوله هو وأهل بيته، جلبهم الشيخ سليمان لمؤازرته، السراسوة من كل نوع، لكن لا ذكر لنوح زكريا ولا لأحد من أخوته، وأراد رضوان عمر أن يذهب مع الذاهبين فوقف أبوه فى وجهه، وكانت رئيفة تود لو أن أحد أبناءها يساهم فى حراسة خالها، لكن الشيخ عمر ذكرها بتقاعس خالها عن نصرتهم لما اتهم نوح زكريا بقتل السمدانى العربى، ونوح زكريا هو من هو، على نحو ما تعرف من واقعة اتهامه بقتل حراز الذى يشاع أنه فجر بابنتهم.

وكما رحلت أمينة الجمل بعد غياب طال عند أهلها رحلت فاطمة حفظى، رحلت بعد مرض قصير، تاركة ابنة صغيرة أسمتها "بدر"، وانضمت الطفلة الصغيرة إلى محسن ابن أمينة الجمل فى ركن الأيتام فى دار أبيهما، وعاد الشيخ سليمان بكليته إلى سُلَيْمَة، لكن سُلَيْمَة لم تعد المرأة التى تقضى الأيام والشهور والسنين فى انتظاره، رآها مختلفة فسأل عما بها، ونظرت فى عمق عينيه:

– أسأل متى تأتى العروس الجديدة!؟

واضطر للابتسام، فرحيل فاطمة حطم جزءا كبيرا من قلبه، وبرغم أنه اضطر لعمل مأتمها فى السنبلاوين حسب رغبة أبيها إلا أن السراسوة نزحوا إلى هناك، برجالهم ونسائهم، وحتى بأطفالهم، وصنعوا من حوله مشهدا يصعب تكراره.

لكن التطور الأكبر كان فى وسية مكرم، فالرجل الغريب الذى كان يجهز أغراضه للرحيل طاب له المقام فى العزبة، وانتظمت أحوال الوسية إلى حد بعيد، فإعلان نوح زكريا أنه لا يرغب فى شىء فيها جعل الحرب مع مكرم بلا معنى، وعادت الأعمال التى تمارس فى الخفاء، كسرقة الغلال أو مقطفا من القطن، أو شالية لبن، أو حتى بعض الأخشاب أو قبض أجرة غير مستحقة، عاد كل ذلك إلى وصفه الصحيح، مجموعة من الجرائم الصغيرة مما تقع كل يوم، وليست مفردات حرب تدور بين السراسوة والوسية، لكن البعض ممن أحاطوا بالمعلم حنا عرفوا أنه يحمل فى داخله نفسا نزاعة إلى الانفلات، فتمادوا فى غيهم استنادا إلى غيه.

صار معلوما أن كشوف الأنفار يوضع بها على الدوام أسماء زائدة، تقسم أجرتهم بين المعلم حنا ومختار، فلقد وجد الرجل ضالته فى هذا الفتى الرائع، الذى يفيد ويستفيد، وكذلك فى مجموعة الكلافين الذين يتم تسجيل أسمائهم كأنفار فلا يسألون عن أجرهم، فهم لم يعملوا بالأجرة التى تصرف عن تسجيل أسمائهم، وفى المقابل يضمنون بقاءً دائما فى أعمال الوسية، وعينا مغمضة عن أخطائهم الصغيرة، ونوبة من نوبات توزيع ألبان الأبقار الأسبوعية، وسلفة نقدية صغيرة كلما اقتضى الأمر.

نسى الناس أو هكذا تظاهروا ما جرى من مكرم بك فى واقعة سرقة

الوسية، حتى أن سليمان الضبع الذى كسرت ترقوته من الضرب عاد ليعمل فى الوسية، وكأن شيئا لم يكن، وكذلك نافع النجدى وزوجته، ورزق الحبال وزوجته، وغيرهم وغيرهم، فأرض الوسية مقسمة إلى جزئين، أحدهما مزروع على الذمة، لحساب الوسية نفسها، ومن ثم فإن كلفة كل شىء على عاتق الوسية، الأنفار والحرث والزرع وتنقية الحشائش والجنى والتقليع، والجزء الآخر مؤجر للفلاحين بأجر سنوى، وعليهم كل الكلفات، ولكن لأن الوسية ترغب فى أن تكون الزراعة جيدة حتى تتمكن من تحصيل الإيجار المفروض تمد الفلاحين بالتقاوى والأسمدة وغيرها من الأغراض لتسهل على الناس الزراعة، هذا هو المعلن، أما فى الحقيقة فمكرم بك يتجر فى البذور والأسمدة، يشتريها بسعر ويعيد بيعها للفلاحين بأسعار أعلى، وعند الحساب يخصم البك ماله لدى الفلاحين، بل ويحصل على الإيجار فى صورة أخذ الجزء الأعظم من المحصول، فإذا كان الفلاحون يعوزهم المال الجاهز لأن يدفعوه مقابل ما حصلوا عليه من بذور وأسمدة، بل ومقابل عمل وابور الوسية ومحراثه فى الأرض، فإنه يحصل منهم على جزء من المحصول مقابل النفقات والإيجار، وفى الغالب ينتهى الأمر بأن يعجز المحصول نفسه عن سداد كل ذلك، فيضطر البك إلى الموافقة على تأجيل دفع جزء من الأجرة، تظل تتكدس سنة بعد سنة، حتى يجيئ الوقت الذى يصير فيه الأمر مستحيلا فيتم طردهم من الأرض والإتيان بغيرهم، والفلاحون يعرفون ذلك، ولكنهم يغمضون الأعين مقابل أن يكون للواحد منهم غيطا يستيقظ مع طلوح الصبح فيذهب إليه، وأيضا ليستوعب هذا الغيط أبناءه وبعضا من الغنم أو الماعز،

أو حتى الدواجن التى تأكل من خشاشها، هذا إذا لم يتمكن من تربية بعض الماشية على هامشها.

فى نهاية السنة يسمع الناس صوت وابور سيارة البك وهو يهدر فوق الطريق، فيخرج الأطفال وتطل النساء من الأبواب والنوافذ ليروا البك وإلى جواره زوجته فى المقعد الخلفى للسيارة، والرجل الأسود الذى يقود السيارة بزيه العجيب، وغطاء رأسه الذى يأخذ ألوان الزى، فإذا كنا فى شهر أكتوبر فهذا يعنى أن مكوث البك فى العزبة سيطول، إلى أن ينتهى من بيع محصول القطن أو تخزينه، وستجرى محاسبة المستأجرين وقبض القسط الصيفى من الإيجار، وهو بمقدار ثلثى الإيجار، إذ يتم تحصيل ثلث الإيجار فى الزرعة الشتوية، ولكن أهم ما يجب على الجميع عمله هو حبس ماشيتهم وأغنامهم ومعيزهم من التواجد فى الغيطان برغم أن ذلك الوقت هو أهم أوقات السنة لتنال الماشية أعلافا مجانية، مما تحفل به الغيطان من بقايا المحصول الذى تم جنيه، فالبك فى كل أصيل يمسك بيد زوجته ويخرج من السراية ويتوجه إلى الغيطان، لذا فإن خلو السكك من الروث والبعر وغيره من النفايات يكون واجبا، فهما يتريضان وسط الغيطان التى تتجرد فى الخريف من أرديتها، وتنفث فى ذلك الوقت من العام عطرا غامضا.

يرقب البعض المستأجرون وهم يساقون إلى السراية للمحاسبة، بعضهم يقدم رجل ويؤخر الأخرى، يطرق إلى الأرض ورأسه تتأرجح فى استكانة، كأنه ذاهب لنيل عقوبة، وبعضهم يخب فى مشيته لا يعرف إلى أين يسوقونه، فكل الأمور تستوى لديه، وهو سيخرج فى نهاية الأمر

مدينا، وسينتظر البك وصلة الاستعطاف التى سيقرر بعدها تأجيل دفع ما تبقى من الدين إلى العام القادم، وبعضهم يسير وهو يسترجع بعض عمليات الحساب فى دماغه، فلقد تمكن من بيع بعض الماشية أو الغنم، وادخر شيئا من المال لمثل هذا اليوم، ووفقا لحساباته فإن ما فى جيبه سيسدد عنه الإيجار المطلوب، لكن ما هو مسطر فى دفاتر المعلم حنا بخط مختار ابن الشيخ سليمان كبير السراسوة يفاجئه، فيسمع الناس لغط يعلو، لكنه سرعان ما يخفت احتراما لوجود البك.

وينتهى موسم الحساب فيعود البك إلى "مصر" محملا بالأرز الأبيض والديوك الرومية والبط والأوز وزغاليل الحمام، وبرطمانات القشدة التى تحبها الست وبناتها وأزواجهن، وبمجرد أن تغيب السيارة عند منعطف الطريق تجرى المحاسبة الثانية، فالمعلم حنا ومختار يصفون حساباتهم الخاصة، ويجردون المخازن وما تبقى فيها، وبراميل المبيدات فى المخزن الصغير، ويحلو للبعض وهو يجالس الآخرين عند المسجد أن يقول:

– وبدأ حساب المنسر بعد أن رحل كبيرهم

ويضحكون فى مرارة، فمختار لن يحصل فى النهاية إلا على الفتات، فالمعلم حنا يفاجئه هو الآخر بحسابات تجعل نصيبه فى الغنيمة أقل كثيرا مما ظل يحلم به طوال الوقت.

بعد رحيل مكرم بك بأيام قليلة خرج قطب إلى حياة الحرية، وكذلك سلم ياسين مخلاته إلى المعسكر وعاد إلى العزبة فى انتظار شهادة المعاملة العسكرية، وفوجئ السراسوة بفتاة صغيرة تشغل جناح المرحومة فاطمة حفظى، قالوا إنها خديجة ابنة الدكتور عبد الحميد حفظى، أخرجها

أبوها من المدرسة ليزوجها للشيخ سليمان، فهاشم باشا يقول إنه لا يقدر على مرور يوم لا يكون فيه الشيخ سليمان صهره، الفتاة أصغر من زينب وحمدان ومختار، وهى قمحية تتميز بطيبة نادرة، فما أن مرت أيام قليلة حتى رآها الناس تجلس إلى جوار سُلَيْمَة فى فراندة الدار، كأنها ابنتها، بل ورأوها تجلس مصطفى الصغير على رجليها وتداعبه، وكذلك تفعل مع عبد العزيز الذى يكبره بسنوات.

وكان هاشم باشا قد تقلد وزارة العدل فى وزارة الوفد الجديدة، وأمام هجمة بعض المنتمين إلى الحزب الوطنى وجمعية مصر الفتاة على الوفد، وكذلك شعب الأخوان القليلة التى لم يقدر لها الانتشار فى المنطقة إلا فى الربع وأبو داوود السباخ وشبراسندى، أمام هذه الهجمة تولى الشيخ سليمان شرح ملابسات قبول الوفد الوزارة لكل من يقصده، وكان نشاط الأخوان محاصرا فى كل القرى الأخرى فى المنطقة، وعلى رأسها المقاطعة، إذ هم أخوال هاشم حفظى باشا القطب الوفدى ووزير العدل، قال الشيخ لمحدثيه:

– الملك الطفل يلعب بالنار، يمد يده لعصابات الأخوان والفاشيين فى الحزب الوطنى ومصر الفتاة، وينشد معهم إلى الأمام يا روميل!

ويستزيده المستمعون فيضيف:

– فاروق ملك غر، يجر البلاد إلى طريق الشر، طريق هتلر وموسولينى، طريق الخراب، وبغض النظر عن أن الإنجليز كانوا يحتلون مصر حتى تحقق استقلالها فى معاهدة الشرف والكرامة التى أبرمها معهم النحاس

باشا إلا أنهم يمثلون العالم الحر فى صراعه مع الشر، ونحن مع العالم الحر، وضد الشر والهمجية

وأمام إطراق الأنصار وعدم اقتناعهم بالمبررات يضطر إلى القول:

– حتى بمنطق الانتهازيين، فإن الوفد يأخذ جانب الفريق المنتصر

ويشير فى اتجاه الشمال:

– أنظروا إلى ما يجرى فى أوروبا، الألمان ينكسرون فى كل مكان، فى روسيا وفرنسا والمجر وبولندا التى أقامت الحرب من أجل ضمها، والنمسا وبلاد التشيك والسلوفاك، إنهم ينهزمون فى كل مكان، والملك الغر لا ينظر إلا إلى ما ينظر إليه عزيز المصرى، كأن ما يفعله روميل فى صحراء ليبيا وصحرائنا من كر وفر هو كل الحرب، وكأن دخول الألمان مصر هو الانتصار على كل العالم

بكت زبيدة لما أخبرها قطب أنه خارج لقضاء بعض شئونه، فهذا فى عرفها لا يعنى إلا أنه عائد إلى حياة الليل والجريمة، وصرخت بكل قوتها حتى يجتمع عليه أقرباؤه، وشاركها الصراخ بنتاها، ولما أرسلت ابنتها فى طلب الشيخ كامل اضطر قطب إلى البقاء فى الدار وعيناه مبللتان بالدمع، فبالأمس رفض سعد الضبع الذى افتتح دكانا صغيرا للبقالة فى إحدى حجرات داره أن يعطيه صندوق دخان لف على الحساب، تهكم منه:

– من ليس قادرا على ثمن الدخان يحرم عليه الكيف

وضحك بعض من كانوا جالسين، فاضطر إلى العودة إلى الدار محزونا، وناقما، وطوال الليل كان يفكر فى سرقة الدكان الصغير، الذى لا تساوى

بضاعته كما يقدر جنيها أو اثنين، وهداه تفكيره إلى خطة، سيتسلق جدار دار حسانين الضبع المجاورة، التى تطل على حارة جانبية ضيقة، وسيتسلل كقط فوق الجدار حتى يصل إلى سطح دار سعد، ولأنه يعرف كل شيء عن المكان سيزيل سدادة الناروزة التى فى سقف الدكان ويسقط منها إلى داخله، وسيفتح باب الدكان للانصراف منه بعد تمام السرقة، إذ يغلقه إبراهيم من الداخل، ولكنه فى حاجة إلى من يعاونه، وكان خارجا للاتفاق مع أحدهم على القيام بدور الناضورجى ريثما يتمكن من السرقة، وها هى زبيدة تجلب عليه الجميع وترسل فى طلب زوج أمه.

تركوه لحزنه وقلة حيلته، وبنتيه اللتين أمسكتا بجلبابه وهما تبكيان لتمنعاه من الخروج، فخروجه كما أفهمتهما أمهما يعنى عودته إلى السجن، و لم يبق معه إلا ياسين ابن خالته، نظر كل منهما فى عينى الآخر وقرآ ما بداخلهما، قطب يقرأ فى عينى ابن خالته لوما على استسلامه لحياة الليل، وعدم قدرته على النظر فى اتجاه آخر، وياسين يقرأ فى عينيه شكوى قديمة، عن اليتم ونكران الأهل وغيرها من الأمور التى لا تفعل شيئا، إلا المزيد من التدمير لداره وأسرته، والشيخ كامل لم يغادر دون التفوه بكلمة واحدة إلا لأن ياسين حاضر، إذن ليخرجا حتى يتمكن ابنا الخالة من الحديث بحرية.

كل ما تحصل عليه مختار سليمان من المعلم حنا ثمانية جنيهات ونصف، انفق ثلاثة منها وبقيت خمس جنيهات ونصف، ولما نقر ياسين نافذة حجرته خرج إليه، ولما رأى قطب ابتأس وفكر فى العودة، لكن ياسين قبض على يده، لم يكن يعرف أن البعض يتحدث عن علاقة قطب

بسُلَيْمَة، وهذا يجعل مختار كارها لكل ما يمت إلى قطب بصلة، بل وإلى من يصادقه، ولكن من أين لياسين أن يعرف هذا وهو حديث العهد بالعزبة بعد السنوات التى قضاها مجندا فى الجيش المرابط، و لم يكن مختار ليفصح لياسين عن مكنونه، فمجرد التفكير فى الأمر يزيد من آلام جراحه البالغة، ويجعله يتمنى لو يهجر العزبة إلى الأبد، هو وأمه، بعيدا عن قطب وكل شىء يذكره به.

كيف سيحصل لقطب على بضعة جنيهات تمكنه من بدء حياة خالية من الخطر، هذا ما كان يفكر فيه ياسين، قصده بعث رسالة عبر مختار إلى خاله الشيخ سليمان ليستعمل قطب ضمن من يستعملهم لحماية الشيخ يوسف السرسى وأبنائه وداره وغيطانه فى الربع، فإذا كان خاله قد استعمله من قبل مقابل جنيهات كانت فى ذلك الوقت كافية لنجدته وانتشاله من حياة الجريمة، فما المانع أن يتكرر هذا الأمر الآن!؟، وقطب بما هو معروف عنه فى المنطقة كلها سيكون رادعا لكل من تسول له نفسه الاعتداء على خاله أو أحد من أبنائه، أو حتى غيطانه ومصالحه، ولكن هل يقدر مختار على فعل ذلك!؟. هل يقدر على مفاتحة أبيه بمثل هذا الوضوح وتكون النتيجة إيجابية!؟.

صندوق الدخان المطلوب حصل عليه ياسين من سعد الضبع بعد أن أعطاه ثمنه، ولامه على ما قال لقطب، وحذره من طرف خفى إن هو عاد إلى التعريض به أو التهكم عليه، لكن "سعد" الضبع لم يكن من الحصافة بحيث ينهى الحديث عند هذا الحد، إذ ما أن شعر برائحة التهديد فى لوم ياسين حتى أطلق عقيرته فى حق قطب، واصفا إياه باللص، وبأنه رد

سجون، وهكذا كان الطريق المجاور للترعة الجديدة مليئا بأفكار شتى تصاحب الثلاثة السائرين فى ركاب الليل، مختار وقطب وياسين، مختار يفكر فى كيفية الفرار من الموقف الذى وضعه فيه ياسين، وياسين يفكر فى كيفية دفع مختار لإقناع أبيه بحيث يقبل استعمال قطب فى حراسة سراسوة الربع، وقطب يفكر فى كيفية رد الصاع صاعين لسعد الضبع لقاء ما زعق ووصفه به.

مع الصباح وقبل أن تشرق الشمس استيقظت العزبة على صياح سعد الضبع، فلقد سرق اللصوص دكانه، جردوه من كل بضاعته، وهكذا وضعت الظروف قطب وياسين معا فى طريق الشيخ سليمان، فسعد الضبع الذى شق ملابسه حتى الذيل أخذ نفسه وتوجه إلى دوار الشيخ سليمان، يشكو له تهديد ياسين وما أسفر عنه هذا التهديد، والرجل الذى استيقظ من لدن زوجته الجديدة على الصياح الكريه طلب من سعد أن يكف عن الصراخ ويذهب إلى داره ويأتيه بعد صلاة العصر، لكن "سعد" المفجوع فى دكانه اتهم الشيخ بمحاباة أبناء عمته، وأقسم لينطلقن إلى السنبلاوين ليقدم بلاغا فى المركز، وهكذا أمر الشيخ سليمان بفتح باب المندرة وأرسل فى استدعاء ياسين وقطب.

أقسمت زبيدة بأغلظ الأيمان أن قطب منذ عاد إلى داره صحبة مختار وياسين لم يغادر لدقيقة واحدة، وأنه بعد انصرافهما نام فى حضنها حتى طلع الصبح، وشهد مختار بأنه عاد من مشواره معهما إلى دار قطب، وقضى بعض الوقت ثم انصرف مع ياسين، حيث افترق كل منهما عن

الآخر قاصدا داره، وقال ياسين إنه لم يهدد سعد الضبع بشيء، فقط لامه على التعريض بابن خالته والتهكم عليه، وانتهى التحقيق الذى حضرته العزبة كلها إلى لا شيء، وبناء على نصيحة الشيخ سليمان ظل قطب صامتا حتى النهاية، فلم ينبس ببنت شفة، ولما سمحوا له بالحديث قال إنه منذ عاد إلى داره سامح "سعد" الضبع، وألقى بصندوق الدخان ودفتر البافرة اللذين اشتراهما له ياسين ابن خالته أمامه، فالصندوق لم يفتح، إذ أنه طوال الوقت كان يستجمع العزم على التوقف عن التدخين، وليس على سرقة دكان سعد الذى لا تساوى بضاعته جنيها كاملا.

وكأنما فتحت كلمة قطب الأخيرة الباب، أو كأنها كانت كلمة السر فامتدت يد واحد من شباب الضبوعة وقبضت على قطعة حجر أو كانت قد جهزتها لذلك الغرض وقذفت بها رأس قطب فأصابته، وتفجر الدم غزيرا، وصاح الذى ألقى بالحجر فأصاب قطب:

– نظفوا أنفسكم من الوساخة قبل أن تضيعوا حقوق الناس

وصاح آخر قالوا إنه ابن سعد الضبع نفسه:

– أمور النجاسة وأولاد الحرام التى تملأ دوركم لا تلزمنا

وهو الأمر الذى دعا رضوان عمر للرد، فبحث عن شيء يضرب به، وعثر على قطعة خشب هوى بها على رأس ابن سعد فأسقطه على الأرض، ولم يعد أحد يعرف من يضرب من، وامتد الشجار إلى الدور فجذب أبناء طه إبراهيم، وكانوا على الحياد، لكن واحدا من الضبوعة قذف دار زكريا طه بالطوب فخرجوا عن بكرة أبيهم يقاتلون الضبوعة، وسقط كثيرون

من الضبوعة مصابين، ومن الجانب الآخر وقع قطب ورضوان مصابين، وأصيب نوح زكريا وهو يحول دون تفاقم الشجار، واعتلت نساء عائلة طه إبراهيم الأسطح ورحن يقذفن المارة بالزلط والحجارة، فأصيب من جراء ذلك عامر الضبع وشاكر عمر وأبناء شاهين الطحان ومحمد ابن صالح أبو العز وأبو دومة ابن منصور أبو دومة، كما أصيبت سكينة وأمينة بنتى مريم، لكن إصابة ابن سعد الضبع التى أحدثها رضوان عمر كانت بالغة، إذ أحدثت كسرا برأسه فقد على إثره الوعى، فحملوه إلى دار أبيه وهو بين الحياة والموت.

كل الأطراف داووا جراحهم بأنفسهم، لم يبلغ أحد عما حدث، فالكل يعرف تبعة الوقوع فى أسر الاتهام، وتجربة اتهام نوح زكريا وقطب فى قتل السمدانى وتكلفتها المادية تجعلهم يحجمون عن فعل أى شيء يأخذهم إلى هناك، حيث البوليس والنيابة والمحكمة، والمحامين والنفقات التى تخرب البيوت العامرة، لكن ابن سعد الضبع فى حالة خطيرة، فإذا مات سينفتح باب جهنم على العزبة، و لم يسمع الشيخ عمر نصيحة أحد ممن حاولوا إثناءه عن تنفيذ ما يريد وقصد إلى دار سعد، وهناك حاول أحد أبناء حسانين الضبع منعه من دخول الدار للاطمئنان على حال المصاب، لكن "سعد" الضبع نهره، وكذلك فعل حسانين الضبع الذى لطم ابنه ففر من أمامه، وجلس الشيخ عمر بين الجالسين، يرقبون أنفاس المصاب وهى تنتظم وتضطرب بدون توقع، وكان النزيف قد توقف.

زيارة الشيخ عمر جلبت نوح زكريا ومختار عامر الضبع وغيرهم ممن يتمنون هدوء الحال، ولكن الكلمات التى قالها أبناء الضبوعة جعلت

الشيخ سليمان يستعيد الموقف الذى عاشه كأنه حلم، يتمنى أن يسأل أحدا ممن يجلسون معه عن معنى ما يقصده من قال ذلك، وخشى أن يكون المقصود هو تلك الشائعة التى أطلقوها على نعم ابنة عمه الشيخ يوسف، زوجة ابنه مختار، ومن باب التحوط سأل مؤمن إبراهيم ابن عم أبيه، والرجل بطيبته وبساطته وعدم تحسبه أخبره بأنهم يقصدون أن قطب على علاقة بسُلَيْمَة، وانفجر الرعب فى دماغ الرجل الذى ظن إلى ما قبل دقيقة أنه يسيطر على أمور داره كأحكم ما تكون السيطرة، وسقط فى جب سحيق.

أشيع فى العزبة أن الشيخ سليمان سقط صريعا فانقلب الناس على داره، ملأوا الباحة بين الدار الكبيرة ودار عمته القديمة، وخرج الأبناء إلى الناس يطمئنونهم، فالشيخ من جراء المجهود المضاعف الذى بذله ليوقف الشجار أصابته وعكة، وهو فى سبيله إلى التعافى منها، إن هم تركوه يأخذ حظه من الراحة، وفى مرواحها ومجيئها لم يلحظ أحد أن الرجل الصامت كجمل صائم يرقب سُلَيْمَة بعينين زائغتين، أتراها خانته مع الفتى الذى عطف عليه يوما!؟، أتراها فعلت ذلك به!؟، وراح يسترجع كل ما مر من مواقف، فلا يجد فيها شيئا يدله على الحقيقة، وتزداد حالته سوءا، لكنه يستغفر ويستغفر، ويعود إلى بعض الطمأنينة، حتى إذا ما خطت سُلَيْمَة خطوة واحدة فى اتجاهه يعود إلى حال الاضطراب، وتعود حالته إلى المزيد من السوء.

لم يكن الشيخ عمر حاضرا الشجار الذى أصيب فيه الجميع، حتى زوجته رئيفة لم تكن حاضرة، وقصد إلى دار سعد الضبع لعيادة المصاب،

وعندما عاد إلى الدار وجد ابنه رضوان مختبئا منه، أمنه على نفسه إن هو ذكر له الحقيقة، ولا شيء غيرها، فأبلغه بما دار بالضبط، دون زيادة أو نقصان، وأدرك الشيخ أن ما قيل على لسان أبناء الضبوعة تقصف بسببه الرقاب، وأنه إذا ما كان قد وقف على تلك الحقائق لما توجه إلى دار سعد الضبع، وإذ أدرك الفتى أن أباه وعى المسألة أخبره بأن الضبوعة يشيعون أن مصطفى طفل خاله الشيخ سليمان هو فى الحقيقة ابن قطب فى الحرام.

خلت الدار إلا من يحيى الصغير ومريم الطفلة، فالشيخ وزوجته وأبناءه هرولوا إلى دار ابن أخته الشيخ سليمان، فهو لم يكن فى أى وقت بحاجة إلى من يقف إلى جانبه بقدر حاجته الآن، حتى ولو كره اجتماع الناس من حوله، فشعوره بقرب أهله منه سيهون عليه الأمر، وسيجعله يسترد الثقة فى نفسه وفيهم، ومن داخله شعر الشيخ عمر بأن الأمر لا يخرج عن كونه حديث العيب الذى اعتاده الضبوعة، فهم يجيدون هذه اللعبة، ويحطمون نفسية خصمهم بذلك، ومن ثم يربحون أية معركة قبل خوضها، وهم اليوم وبالرغم من أن ابنهم يوشك على الموت ربحوا المعركة، وأصابوا ابن أخته فى الصميم، لكن ما رآه بأم عينيه فى دار ابن أخته جعله على يقين من الأمر ليس مجرد عيب نطق به أهل العيب، وإنما هو أمام شخص يختبئ من الناس، وبدون لجاجة أو جدل رافقته رئيفة فى رحلة العودة إلى الدار، يدفعها خوف على طفليها يحيى ومريم.

المصابون من جراء المشاجرة وقذف الطوب تعافوا، وبقيت حالة ابن سعد الضبع حرجة، فلا هو حى ولا هو ميت، يصفو قليلا فيتخيلون أنه يفتح عينيه، يرونها من خلال شق صغير فى الورم الذى يضرب كل

وجهه، وتتقطع أنفاسه فكأنه مقدم على الموت، حتى مر أسبوع بكامله، فقط كانوا يقطرون الماء وعصير الليمون والبرتقال فى فمه فيمتصها أحيانا ويلفظها أخرى، وقرب نهاية اليوم السابع سمعوه يهذى بكلمات، جاءوا من كل مكان فى الدار فوجدوه يتحدث إليهم، يطلب أن يقلبوه على أحد جانبيه، لم يكونوا يعرفون هل يمكنهم فعل ذلك أم لا، ولكنهم فرحا بعودته إلى الوعى قلبوه برفق، وأسندوا الرأس المكسور فوق وسادة مخصوصة، أمر أبو منصور بشرائها من الأجزخانة، فسافر سعد الضبع إلى المنصورة واشتراها من هناك.

خبر عودة الولد إلى الوعى ملأ جنبات العزبة، فأن يقوم الولد من رقدته يعنى أن رضوان لن يتهم بموته، وعندما يقوم ويمشى هنا وهناك لن يدع الشيخ الأمريمر دون الجلوس مع الضبوعة فى جلسة عرفية ليرى فيها قضاة العرف من أخطأ ومن لم يخطئ، ونسبة الخطأ فى مسلك كل من الطرفين، ورأى ياسين أن يسلك كما يريد أبوه، حتى لا يتهم بأنه من وراء كل ما حدث للعزبة، بل إنه امتنع مؤقتا عن مقابلة قطب ابن خالته والتزم الدار والغيط، يخرج من الدار قبل طلوع الشمس فيذهب إلى الغيط، ولا يعود إلا مع آذان العشاء.

أما قطب الذى تعافى سريعا من البطحة التى أحدثتها الطوبة فى رأسه فقد التزم داره، وامتنع عن التحدث إلى الجميع، حتى أمه، بل إن زوجته ظلت لأيام تتحاشى مواجهته والنظر إليه، تخشى إن هى فعلت أن تغضبه فيثور، وأوحت إلى ابنتيها ألا تتركا أباهما منفردا بنفسه، وتحافظا على قربهما منه، وسؤاله عما يريد، حتى ولو لم يطلب شيئا، ونجحت خطتها

فى إخراجه من صمته، فكان أول حديث له معها أن أخبرها بعزمه على ترك هذه العزبة الضالة، والذهاب بهم إلى بلاد الله الواسعة، وأبلغها أن أحد أصدقائه وجد له عملا كخفير ليلى فى إحدى الشون فى قرية صدقا.

واضطرب قلب زبيدة، فزوجها إذا خلعها من العزبة ببنتيها وبطنها الحبلى بطفل ثالث يكون قد أضاعهم، فهى وابنتيها يستظلان بظل الأهل إذا هو ألقى القبض عليه أو جرى حبسه، وبعيدا عن العزبة سيتركهم فى حال القبض عليه لكلاب السكك، ولكن كيف يمكنها الاعتراض على ما يخطط له دون إثارته!؟، عليها إذن أن تتحين الفرصة للتحدث إليه حديث العقل، ولكن متى يكون ذلك!؟، ولاحت فرصة عندما طلب منها أن تنظر إليه وتجيبه على ما أخبرها به، هنا رفعت رأسها وواجهته بأهداب مبللة:

- ألا تخبر أمك والشيخ كامل؟

سألها معترضا:

- ما دخل أمى والشيخ كامل!؟

اقتربت منه متوددة، مسحت براحتيها فوق رجليه المربعتين:

- أنت لم تكن هنا، وهما لم يتركانا لحظة واحدة

فاغرورقت عيناه، يحلو له إذا أراد أن يبكى يتمه الذى لا يفارقه، إنكار أعمامه له، رحلة أمه خلف أزواجها، لكن زبيدة ترده إلى منطق العقل وصوت الحقيقة، فهو بالفعل لم يكن هنا، كان فى السجن، ولا يصله أحد

إلا ياسين ابن خالته والشيخ كامل زوج أمه، إذن فهى على حق، وعليه أن يخبر أمه والشيخ كامل، بل عليه أن يأتنس برأيهما.

لم يكن قد شرع فى تنفيذ أى شيء عندما أخبره ياسين ابن خالته أن وسية عقيلة هانم مرسال زوجة على بك الطوبجى تطلب حارسا بسلاحه لحراسة محاصيل الوسية فى الجرن الكبير فى العزبة الصغيرة الملاصقة، وأنصت مندهشا، فهم فى وسية عقيلة هانم يعرفون سيرته، فكيف يقبلونه ليقوم بدور الحارس!؟، وإذا فرض وقبلوه فمن أين له بالسلاح الذى يطلبون!؟، وقبل أن يتحدث إلى ابن خالته فى ذلك أخبره ياسين أنه أبلغ يعقوب افندى ناظر الوسية بأنه يحمل بالفعل سلاحا ناريا ويقبل بكل شروطهم ليلتحق بالعمل، وحول خوفه من أن تكون سيرته عائقا طمأنه ياسين، فالرجل ربما يكون قد قبل استخدامه فى الوسية بسبب هذه السيرة، فمخازن الوسية وأجرانها تتعرض منذ سنوات للسطو، ولم يعد أمام يعقوب افندى إلا الاستعانة بأحد أبناء الليل ليمنع تعدى زملائه.

المشوار الصغير العاجل الذى قاما به إلى قرية السمارة التى تبعد مسير ساعة أثمر، وانتهى اليوم نهاية موفقة، فصديق ياسين أعار فرد الخرطوش الخاص به لقطب بضمانة ياسين، وذلك حتى يتمكن من شراء واحد له، وسلمه بالإضافة إلى السلاح عشر طلقات، وعند أعتاب تل اللجة جرب قطب السلاح، وأطلق به طلقتان، وعند أعتاب منتصف الليل دقت يد ياسين باب يعقوب افندى، واستيقظ الرجل منزعجا، وطمأنه ياسين ففتح بابه، وخرج معهما إلى أطراف الجرن حيث اتفقوا على كل شيء، فالعمل

يبدأ من لحظة غروب الشمس وحتى يطلع الصبح، والأجر فدان يزرعه قطب بغير إيجار، وفدان آخر بإيجار مثل الآخرين، وأولوية فى العمل نهارا كخولى أنفار إن هو أراد.

مع الصباح سقط الشيخ عمر مريضا، اجتمع إليه نفر من السراسوة، إذ لم تكن الأسرة فى حال التماسك التى كانت عليه طوال حياتها، ولزم الشيخ كامل دار ابن عمه، وجاء أخوه عبد الرحمن متلفتا، فلقد حذرته زوجته من أنهم قد يطردونه، ولما رحبوا به وأجلسوه بالقرب من أخيه ذرف بضع دمعات، وتظاهر بالنوم على نفسه فنصحه رضوان ابن أخيه بالنوم قليلا، فاستأذن ليلحق بموعد قيلولته، وبقى الشيخ كامل ملازما الدار، وفى صباح اليوم التالى حمله ياسين وقطب ونوح زكريا والشيخ كامل وذهبوا به إلى المنصورة، رآه طبيب سمع به ياسين وهو فى خدمة الجيش المرابط، وطمأنهم الطبيب، وعادوا به للطبيب مرة بعد مرة، وفى فجر أحد الأيام ساءت حالته، وجلس ياسين من خلفه واحتضنه، وابتسم الرجل الذى يعانى سكرات الموت، فها هو ابنه يحتضنه، وطلب أن يحتضنه بشدة، وشهق شهقة صغيرة ثم زفر آهة، كأنها إعلان عن شعور عميق بالراحة والرغبة فى الرحيل، وسقط الرأس الأشيب على جانب فأدرك ياسين أن أباه مات، وظل على احتضانه له فترة، ثم انسحب وأراح الجسد الساكن على السرير، فيما رئيفة تسقط الدمع صامتة وهى تضطلع بكل ما يلزم، أغلقت العينين وأطبقت الفم ومسحت بالآيات على الجبهة المضيئة.

طراااااااااااااخ



كأنما انتظر نوح زكريا رحيل عمه الشيخ عمر ليعلن الحرب على قطب، بدأت بوادر الحرب ليلة مأتم عمه، وكان قد أقيم سرادق كبير فى جرن الوسية، ورفض ياسين الاقتصاد فى مأتم أبيه فجلب مقرئا عظيما من نواحى طنطا، وأرسل إليه أخواه من أبيه فتح الله وزكريا بأنهما لن يتحملا مليما واحدا فى تكلفة المأتم، فإن كان يريده فرحا لا مأتما فليكن، ولكن على نفقته، وابتسم ياسين فى سره، ولما سأله قطب عما يثير ابتسامه أبلغه بما أرسل به أخواه، وزجر قطب واصفا فتح الله بالخسة، وسمع نوح زكريا ما يدور فانفعل على قطب، وعلا صوته فسمع من بالسرادق تعنيفه له، ولأن قطب لا يريد لليلة المأتم أن تنقلب فوضى وعراك ابتلع الإهانة، وإذ وجد أن "نوح" لا يريد أن ينهى الموقف انصرف من المكان وجلس بعيدا.

الكل يعرف أن خبر عمل قطب فى وسية عقيلة هانم أثار ضده أحقادا كثيرة، فالرجل الذى يدعى البيومى سلام المقيم بعزبة مرسال هو وزوجته زكية الضبع وأولاده الصغار منها، بالإضافة إلى ابنه الأكبر سراج من زواج

سابق، هذا الرجل ساءه بشدة اضطلاع قطب بالعمل كخفير ليلى فى الوسية، كان يريد أن يعهد بذلك إلى ابنه سراج، وفى نفس الوقت فإن قيام قطب بالحراسة سيعنى أن أيديهم المطلقة فى خطف ما يمكن خطفه من خيرات الوسية ستغل، ولدى أول حادثة سيقف السراسوة إلى جانب قطب، لا يجديه مصاهرته لهم، وبدأ فى البحث عن صداقة تضمن له حياد السراسوة فى الصراع القادم، ووجد ضالته فى نوح زكريا.

عزبة مرسال التى ورثتها عقيلة هانم عن أبيها فتسمت باسمها تبلغ مساحة أراضيها خمسين فدانا، ومساحة لا تزيد عن فدان تتناثر فيه مبانى الوسية وسكن العزبة، مخازن ودوار صغير وحظيرتان بهما عدة ثيران للحرث والتلويط وبقرتان لدر اللبن ليعقوب افندى وأسرته الصغيرة المكونة من زوجته برسكال وابنته الوحيدة نعمت، ويعقوب افندى رجل متمرس، عمل فى وسايا ودوائر عدة حتى حط به الرحال فى هذه الوسية الصغيرة، فلقد اختارته عقيلة هانم بنفسها وبتأكيد من زوجها على بك الطوبجى القاضى بمحكمة استئناف القاهرة، والعزبة لا تضم إلا دارين اثنتين، واحدة ليعقوب افندى والثانية للبيومى سلام، وباقى العزبة جرن كبير تقوم عند أحد أطرافه الحظائر والمخازن، وتتوزع فى أركانه المختلفة أغراض الوسية.

قبل أن يأتى قطب للعمل فى الوسية الصغيرة كان البيومى سلام يرتع فى أرجائها، يقبض أجر الحراسة والكلافة وخوالة الأنفار، ويطلب على الدوام شيئا من اللبن التى تدره البقرتان، ونصيبا من الخضروات التى يزرعها

يعقوب افندى على شطآن القنوات والمصارف توفيرا لنفقات الحياة، وإذا تذمر يعقوب افندى يقوم سراج بتأديب الوسية، فيسرق أحد الثيران، ثم يرده بعد قبض الحلوان، ولكن عن طريق أصدقاء، أو يضع شيئا من النار فى سطح أحد المخازن ويتولى هو وأبوه وأخوته الإطفاء، وهكذا لم يجد يعقوب بدا من استعمال من يستطيع أن يتعامل معهم بنفس طريقتهم.

بدأت جرجرة قدمى نوح زكريا لوحل النزاع بشكوى حملتها زكية إليه، فهى عمة زوجته، مما يفعله قطب بها وبزوجها وأبنائها، وتضييقه عليهم واتهامهم بالسرقة، وبكل الموبقات، لا يقصد إلا طردهم من العزبة الصغيرة التى يلتقطون من أركانها رزقهم الشحيح، وانطلى الموقف على نوح، صحيح أنه كان مهيأ لتصديق أى شىء فى قطب، فشهور الحبس الطويلة التى جمعتهما فى قضية مقتل السمدانى العربى لم تزد حالة الجفاء بينهما إلا حدة، وكذلك تلك الحادثة الأخيرة التى اتهم فيها بمعاشرة زوجة خاله وخيانة العيش والملح الذى طعمه فى الدار الكبيرة، وبالإجمال فإنه لم يتمكن من حب قطب أبدا، ولا يعنيه كثيرا أن يبحث عن الأسباب.

لم يكن قطب قد بدأ حراسة جرن ومخازن وحظائر وسية عقيلة هانم بمفرده، فى البداية شاركه ياسين السهر، وكذلك فعل رضوان، وتسلل محسن ابن الشيخ سليمان من المرحومة أمينة الجمل ليشاركهم السهر، إلى أن مرض الشيخ عمر فكانوا يقسمون مزاملة قطب الحراسة على أنفسهم، فلا يكون بمفرده أبدا، و لم يتمكن سراج البيومى من مغافلتهم وسرقة أى شىء أو حتى إتلافه، وشعر يعقوب افندى بالفخر لما هدأت أحوال الوسية

وامتنع على العابثين اللعب بمقدراتها، إلى أن انتقلت سهرة نوح زكريا إلى دار البيومى سلام فى العزبة الصغيرة، وصار كل من هب ودب يقصد عزبة مرسال ليشارك "نوح" السهر هناك.

أول من شعر بالخوف هو قطب، فيعقوب افندى لم يقدر انتقال سهرة نوح زكريا إلى دار البيومى حق قدره، و لم ينزله المنزلة الخطيرة التى يستأهلها، إذ هو ابن الشيخ زكريا العظيم الذى لم تكن عقيلة هانم وزوجها يطأون بأقدامهم تراب عزبتهم إلا بعد أن يزوروه فى داره، لإلقاء السلام عليه وطلب مؤازرة يعقوب افندى فيما قد يلجأ إليه فيه، وكانا يجدان كل الترحيب من الرجل العظيم، بل إنه لم يكن يتركهما أبدا إلا بعد أن يتناولا الطعام لديه، تعده مجموعة من النساء الخبيرات فى صنع الأطعمة الفلاحية التى تعشقها عقيلة هانم، ويتدله فى طلبها زوجها القاضى الكبير.

لكن "قطب" كان يعرف أن التطور المريب لن يسفر عن خير، ولما تناقل الناس تعنيف نوح لقطب فى مأتم عمه الشيخ عمر عرفوا أن الحرب أسفرت عن وجهها، فنوح يبعث برسالة إلى الكافة، وهى أنه لم يعد يطيق "قطب"، وأن "قطب"عليه أن يضع نفسه فى الحجم الذى يليق به، اليتيم القديم واللص الذى لم ينفض عن كعبيه بعد غبار السكك الحرام، والخائن الذى يتجرأ على عرض من يأتمونه ويدخلونه دورهم، و لم يكن ياسين على علم بكل تلك التطورات، إذ كان غارقا حتى الأذنين فى متابعة مرض أبيه والبحث عن علاج له، لذا فإنه عندما عنف نوح "قطب" لم يستطع أن يفهم السر من وراء الثورة التى رآها مصطنعة.

فتح الله عمر الذى وصفه قطب بينه وبين ابن خالته بالوصف الذى سبق ذكره انضم إلى سهرة نوح فى دار البيومى سلام، وبات واضحا أن "نوح" أبلغه بما قاله قطب، وهكذا فإن ياسين لما علم بالأمر من قطب ومن أخيه رضوان بدأ فى التفكير، كيف يتفادى قتالا لن يتمكن فيه من نصرة ابن خالته حتى النهاية، إذ سيكون عليه إذا فعل محاربة ابن عمه الأكبر نوح زكريا، بل وأخيه الأكبر فتح الله.

وكانوا قد جلسوا ليسووا أمر ميراث أبيهم، وتبين أن الشيخ عمر ترك فدانين اثنين لا غير، ودارين، واحدة تسكنها رئيفة وأبناؤها، وأخرى تسكنها إحسان وأبناؤها، وبرغم أن نصيب رئيفة وأبنائها يزيد عما هو مستحق لإحسان وأبنائها أعلن ياسين رضاءه بأن يستقل كل فريق بالدار التى يسكنها، وإذ لمح فى أعماق عينى فتح الله لونا من ألوان الرفض أو محاولة عرقلة اليسر الذى تسير فيه الأمور خيرهم بين الدارين، وأسقط فى يد فتح الله، وأعلنت أمه على الملأ أنها تقبل بالدار التى يسكنونها.

وجاء دور الأرض، قبل أن يتحدثوا عن الأرض أخرج ياسين دفترا حصر فيه ديون أبيه، وهى معروفة للقاصى والدانى، ولكل من حضروا توزيع الميراث، الشيخ كامل والشيخ عبد الرحمن الذى لم يكف عن التظاهر بالنوم حتى يدعوه ينصرف، والشيخ سليمان الذى أصرت رئيفة على حضوره، رغبة منها فى التقريب بينه وبين أبنائها، إذ هو الأقرب إليهم على الإطلاق، حتى من نوح زكريا ابن عمهما الشقيق، قالت لأبنائها إن الشيخ سليمان ابن عمتهم الشقيق، وزيادة على ذلك فهو ابن

خالها الشقيق أيضا، وأمها هى من تولت تربيته، فلا أحد أقرب إليهم منه فى عزبة أحمد السرسى.

لما صادق الحضور على ديون الراحل الذى يوزعون ميراثه وجدوا أنها تقريبا تساوى ثمن الفدانين، ولأن فتح الله وزكريا ومن ورائهما أمهما يفتقرون إلى الخيال والجسارة أعلنوا أنهم يتنازلون عن ميراثهم فى الأرض مقابل إعفائهم من سداد نصيبهم فى الديون، وهكذا انتهى تقسيم الميراث، كل زوجة فى دارها بأبنائها، والأرض لياسين وأخوته لقاء تحملهم كل ديون أبيهم.

لا يتبقى إلا الكلمات المعتادة فى نهاية كل مناسبة كمناسبتهم هذه، عن الأخوة والعلاقات الحسنة، وما يريده كل منهم من ملابس أبيه، ولأن ياسين يعرف ما يريده فتح الله سمح بأن يأخذ كل ملابس أبيه، فقط يترك له ولأخوته قطعة على سبيل الذكرى، وعندما قاموا ليحضروا الملابس لم يجدوا منها شيئا، فلقد تمكن فتح الله من أخذ كل شىء فيما هم منشغلون فى تقسيم الميراث، وقبل أن يتساءل الحضور عن الملابس وأين هى أبلغتهم رئيفة، هكذا دون مواربة، أنها بكل خيط منها فى دار إحسان، وأن بنتيها نقلتاها على عينها، ولم تشأ هى أن تعترض حتى لا تعرقل العمل الذى يقومون به، وأطرق الجميع إلى الأرض، لكن زكريا قام من مكانه وانصرف على عجل، وفيما هم يتبادلون الحديث عن حسن النوايا دخل عليهم ومعه الجلباب الذى رحل أبوه وهو يرتديه، وأعطاه لياسين فقرت به عيناه، وتبللتا بدمعتين ساختنين.

استيقظوا فى الصباح التالى على قطب وهو يشق جلبابه، ويصرخ بصوته العريض، وتفاحته تجرى صاعدة هابطة بطول رقبته، والبندقية الخائبة ترقد على كتفه الهزيل، فلقد تمكن اللصوص من سرقة حظائر الوسية حراسته. ليت الأمر وقف عند هذا الحد، وإنما استيقظ يعقوب افندى فلم يجد ابنته الوحيدة نعمت، واختفى من العزبة سراج الابن الأكبر للبيومى سلام، وربطوا بين سرقة الحظائر واختطاف نعمت، هكذا أسمى أبوها عملية اختفائها، وتقاطر الناس على عزبة مرسال حتى امتلأ بهم الجرن الكبير، وفاضوا عن طاقة الجرن فاصطفوا على جوانب القنوات والمصارف فى طوابير طويلة لم تألفها العزبة الصغيرة من قبل.

قطب يعنيه أمر الحظائر المسروقة، فيما يعقوب افندى وبرسكال يتقلبان فى تراب الجرن الكبير حزنا على ابنتهما الوحيدة، التى اختطفها سراج البيومى ولا أحد غيره، فأمها لم تغفل أبدا عن محاولاته التودد إلى ابنتها، لكنها لن تصرح لأحد أبدا أنها لاحظت ميلا من ابنتها للفتى، إذ سيعتبر تصريحها تبرئة للفتى، أو تقسيما للمسئولية بينه وبينها، ولن يعد أحد تلك الحادثة خطفا، ولا حظ ياسين أن الحادثة التى جلبت إلى المكان كل هؤلاء البشر لم تجلب إليه ابن عمه "نوح"، ولا أحدا من أصدقائه، ربما يكون نائما أو مسافرا، لكن شيئا ما فى داخله يقول إن ابن عمه على علم بما وقع، وإذا لم يكن على علم فهو على الأقل يتوقع حدوثه.

من بين الذين تجمهروا فى الجرن الكبير واصطفوا فى طوابير طويلة على جوانب القنوات والمصارف فى وسية عقيلة هانم لم يكن يقبض على

النار إلا يعقوب افندى ناظر الوسية وزوجته برسكال، وقطب الذى وئدت أحلامه فى العيش الكريم من العمل فى الوسية الصغيرة، ففى خفرته وحراسته لها وقع الحادث الذى لم يسبق أن وقع فيها من قبل، من إذن سيتركه يستمر فى العمل!؟، وهو ما أدركه أيضا الشيخ كامل زوج أمه وياسين ورضوان وحتى شاكر أبناء خالته، وأبناء أعمام قطب الذين لاذوا به لما استقر شأنه فى العمل فى الوسية.

شق الشيخ كامل الصفوف ونادى بصوت جهورى على البيومى سلام، وخرج الرجل يخفى اضطرابه، بحث فى وجوه الحضور عمن يمكنه الاحتماء به إن جد الجد وفكر أحد من السراسوة فى الاعتداء عليه فلم يجد، تساءل: ألم يصل خبر ما يجرى إلى أحد من أخوته أو أبناء أعمامه القاطنين فى عزبتهم الناشئة على بعد مئات الخطوات!؟، وقبل أن يبادره الشيخ كامل بأى قول ظهر أبناء أعمامه، ومعهم واحد من أخوته، وتمكنوا من شق الصفوف هم أيضا ووقفوا إلى جواره.

الشيخ كامل الذى علمته التجارب برغم اندفاعه كيف يتفادى العقبات طلب من البيومى سلام تفسيرا لما جرى، وسأله عن ابنه المتهم بسرقة الحظائر واختطاف الفتاة، ولأن الرجل تشجع بوجود أخيه وأبناء أعمامه أجاب بثبات:

– أنا لا أعرف شيئا عن علاقة ابنى بابنة يعقوب

هكذا، يعقوب، دون أية ألقاب:

– ربما يكون معها، وربما لا يكون

وابتلع ريقه قبل أن يردف:

– أما سرقة الحظائر فهذا عمل اللصوص، وابنى ليس لصا، و لم تتخط قدماه عتبة سجن من قبل

يُعرّض بقطب، بل ويكاد يتهمه بافتعال الواقعة، لكن الناس الذين وقفوا يصيخون السمع وتحالفوا للصمت حتى لا تفوتهم كلمة كانوا على يقين من أن الواقعتين مرتبطتان بصورة واضحة للأعمى، ولأن الشيخ كامل لا يريد أن تبدأ حرب لا يعرف إلى أين ستنتهى استدار للناس يطلب منهم الانصراف فى هدوء، فأمامه هو والمهتمين من السراسوة عمل كبير، ليتمكنوا من العثور على البهائم المسروقة وإعادة الفتاة المخطوفة إلى أبويها.

تاريخ طويل قطعته علاقة سراج البيومى بنعمت، ليس أوله تلك المماحكات التى وقعت قديما بينه وبينها، وهما بعد طفلان لم يبلغا الحلم، فهما تقريبا فى سن واحدة، أو هو يكبرها بقليل، لم يكن فى العزبة الصغيرة من أطفال سواهما، فكبرا معا، وتشاحنا كثيرا، ولعبا كثيرا فى الجرن الكبير، وعند شواطئ القنوات بحثا عن الطعم الذى سيستخدمانه فى تعمير السنارتين اللتين يصطادان بهما الأسماك الصغيرة من الخليج القاصد للعزبة، وفى بطون القنوات الجافة بعيدا عن أعين الرقباء اكتشفا أنهما مختلفان، وجذبتهما أحاسيس غامضة فامتدت أيديهما تعبث بذلك الشىء المختلف لدى كل منهما، ووجدا أن ذلك الأمر ممتعا فأكثرا منه، حتى اهتديا إلى النوم متجاورين وملامسة أعضائهما.

مع الوقت صارت الفتاة متحفظة، فمرة تسمح له بالاقتراب ومرات تراوغه، حتى جاء وقت امتنعت فيه عن الاستجابة لرغباته، وكانا عند الأعتاب الأخيرة لطفولتهما السعيدة، ولما امتنعت عنه تماما و لم تعد تلتقيه حتى فى الظروف العادية تَحَيَّن الفرصة لينفرد بها، وجمعهما عرس عامل فى الوسية فسألها وهو حزين:

– لماذا تهربين منى!؟

فتصنعت الابتسام، نظرت هنا وهناك لترى إن كان أحد يلحظهما، وأجابت:

– أنت مسلم وأنا مسيحية

لأول مرة فى حياته يدرك هذا الفارق بينهما، فمنذ أدركا معا الفارق بينهما عندما كشفا لبعضهما البعض عورتيهما لم يكن يظن أن هنالك فارقا آخر، هاله أنها لم تقرأ أمامه أبدا الفاتحة كما كان يفعل طوال الوقت، وهو يتباهى بحفظ سور قصيرة كثيرة من القرآن، وآيات طويلة كآية الكرسى وغيرها، و لم يسمع منها أبدا ما تحفظه، فقط كانت تستعيذ بقدرة غامضة وترسم على صدرها صليبا تخيليا تعلم منها أن يصنعه، كما تفعل هى فى كل مفاجأة، سارة أو حزينة، لم يدرك أبدا الفارق بين أن يقول هو باسم الله الرحمن الرحيم أو أن تقول هى باسم الآب والإبن والروح القدس، إله واحد آمين، ظنه أنهما معا متكاملان، لا يفرق قول عن قول، والفارق الوحيد بينهما هما هذان العضوان اللذان يجدان اللذة فى اقترابهما واحتكاكهما.

فى إحدى مرات اشتراكه مع أشبال جوالة الأخوان المسلمين فى معسكر التدريب فى جبانة أبو مدين القريبة من شبراسندى اقترب من أحدهم وحكى له، وهداه صديقه إلى الطريق، فنعمت نصرانية، وهى بهذه الصفة لا تحل له، إذ هى ليست من أهل الكتاب القدامى الذين يحل للمسلم الزواج من بناتهن، إنها مشركة، تؤمن بثلاثة أرباب، وأن عيسى ابن الله، لا يحرم دينها الخمر ولا لحم الخنزير، فإذا هو قدر على هدايتها وانتشالها من طريق الشرك فأجره عند الله عظيم، وعاد الولد من معسكر جوالة الأخوان محتشدا بالرغبة فى التقرب إلى الله، وليس أبلغ من هداية حبيبته للإسلام وردها عن الشرك وسيلة للتقرب إليه.

تعلل بالرغبة فى تعلم القراءة والكتابة، ولما وافقت على تعليمه راح يصب فى أذنيها ما يقترحه عليه صديقه فى الجوالة، وما ينقله إليه من تعليمات أمير الشعبة الذى أطلعه الصديق على الأمر، حدثها عن جهالة معتقداتها حول بنوة عيسى لله فسألته:

– ألا تقولون فى القرآن إن المسيح وُلِدَ بدون أب!؟

وصحح لها ما رآه خطأ فى سؤالها:

– ليس نحن من يقول، ألله جلت قدرته وتقدست صفاته هو الذى يقول

فعادت لتسأل:

– ألا يقول القرآن إن مريم ولدت المسيح بغير أب!؟

أومأ موافقا فأردفت:

– وأن الله أرسل إليها ملكا نفخ فيها من روحه فحملت به!؟

ولما أجابها بنعم تساءلت مندهشة:

– وهذا بالضبط ما نقول نحن، إنه من روح الله

لكنه عاد ليسفه عقيدتها، ومع مرور الوقت استجابت الفتاة لمحاولاته، وصارت كلما انقلبت إلى الدار ترى فى أمها وأبيها مجرد خاطئين يستحقان أن تعمل الفكر لتهديهما إلى صحيح الدين، ولكن كيف تستطيع.

لم يقلقها كثيرا تلك الأمور الصغيرة التى يفعلها حبيبها، فأن يسرق شيئا من أشياء الوسية فهذا أمر عادى، فالمؤمن قد يسرق أو يكذب ويكون خاطئا، لكنه لا يخرج من ربقة الإيمان، الشرك وارتكاب الكبائر هو ما يخرج المؤمن من حظيرة الإيمان، ولما أبلغها أنه لا يمكنه الزواج منها إلا إذا أعلنت إسلامها نطقت بالشهادتين، ولكن هذه المرة فى حضور أمير الشعبة، وعقد الأمير لسراج البيومى عليها وبارك دخولها حظيرة الإيمان وانتسابها إلى الإسلام، وزواجها فى نفس الوقت من أخ صحيح الإسلام، وتمكن الفتى من عروسه فدخل بها فى دار أحد الأخوة، وأمر الأمير بدق الدفوف، وأولم لأعضاء الشعبة وفتيان الجوالة على نفقته.

لم تستطع الفتاة أن تخبر أمها بشىء، ولا أباها بالطبع، فقط يتسلل سراج إلى غرفتها وينام لديها حتى يقترب الصبح، ثم يتسلق السطح ليعود من حيث أتى، ولما قدم قطب لحراسة الوسية لم يستطع أن يتسلل إلى غرفتها، فقطب لا يكل ولا يمل، هو ومن يرافقه من أقاربه، ياسين ورضوان وأبناء أعمامه الذين ظهروا فى الصورة لما عمل فى الوسية،

وإذ عرف من احتشاد الدار بأصدقاء نوح زكريا أن المطلوب هو العمل على طرد قطب من الوسية أبلغ صديقه في الشعبة بما يجري، وخططا معا لسرقة الحظائر والفرار بالفتاة حتى لا تفتتن وترتد عن الإسلام، وهكذا اجتمع نفر من أشجع أخوان الشعب القريبة، وتحينوا الفرصة حتى كانت الليلة التي اجتمع فيها السراسوة لتقسيم ميراث الشيخ عمر فكمنوا في دار البيومي سلام، وفي إحدى دورات مروره على العزبة دسوا لقطب حبوبا منومة في براد الشاي، ولما راح في النوم فتحوا أبواب الحظيرتين وقادوا الثيران والبقرتين وخرجوا بها من العزبة، وكانت نعمت قد جمعت ملابسها وأغراضها، ووقفت عند باب غرفة أبيها وأمها، قلبها يكاد ينخلع من جوفها، لكنها تغلبت على ترددها وانطلقت إلى خارج العزبة، لتقابل سراج وتمضي معه إلى حيث يذهب.

مر يوم من بعد يوم ولا خبر عن الفتاة المختفية، ولا عن محمد البيومي، وبإلحاح من السراسوة على تصوير الأمر على أنه اختطاف للفتاة راحوا يدفعون في اتجاه إبلاغ البوليس، لكن برسكال التي لم تعثر في الدار على أي شيء يخص ابنتها خشيت إن هي فعلت أن يكشف البوليس السر، و لم تقدر على إخفاء الأمر عن زوجها، وهكذا ابتلع يعقوب افندي لسانه وراح ينظر كالمجذوب في وجوه محدثيه، لكنهم بعد إمعان النظر حمدوا للرجل امتناعه عن الإبلاغ، وصوروا الأمر على أن أحدهم يساوم الرجل ليعيد الفتاة والمسروقات مقابل حلوان معقول، بشرط عدم إبلاغ البوليس.

لم يغادر قطب عزبة مرسال طوال أيام الانتظار والجري في المكان، وجاء الرفاق بمعلومات كلها تشير إلى ضلوع سراج البيومي في الأمرين

معا، اختطاف الفتاة وسرقة الماشية، وتجرأ أحد الشبان من عزبة قريبة فأعلن أن بعض الشباب ربما يكونوا على صلة بما حدث، وجرد أعضاء الشعبة حملة لتأديب الفتى حتى لا يعود إلى مثل ما قال، وحمله ملثمون فى قلب الليل من داره واقتادوه إلى سبخاية عزيزة الواقعة عند أقدام تل اللجة، وهناك جلدوه بتهمة القذف فى حقهم، ثمانين جلدة هى الحد الشرعى للقاذف، ومن باب التعذير قطعوا جزءا من لسانه.

الجرى فى المكان وعدم الاهتداء إلى أى شىء عن الحادث دفع السراسوة إلى محاولة تغيير طرائق البحث، وبناء على الرأى الغالب استعانوا بالمنسر، لكن البحث طال دون جدوى، فلا أثر للفتاة أو الماشية المسروقة، وحتى يضع نهاية لحالة العجز التى يشعر بها تحصل رضوان على بندقية من أحد أصدقائه وتوجه إلى عزبة سلام المجاورة، وعند السواقى القريبة من عزبتهم اقترب من ماشيتهم المربوطة إلى الأشجار المحيطة بالمدار وأطلق النار على بطونها ومؤخراتها فأرداها، قبل أن يتمكن أحد من أصحابها من الاقتراب.

خرج الناس على صوت الأعيرة التى أطلقها رضوان، ورأو الماشية وهى تلفظ أنفاسها، ورأوه وهو يعود مشهرا بندقيته غير عابئ بأحد، ووصل الرجال إلى مدار السواقى فوجدوا ماشيتهم قد ماتت، لم يتتبعوا رضوان، إذ هم لو فعلوا لوقعت مقتلة كبيرة قد تؤدى إلى اقتلاعهم من المكان، وعودتهم إلى بلدهم البعيد خلف بنها العسل، الذى خرجوا منه من قحط وجدب كادوا يهلكون بسببه، وبدلا من تتبع رضوان انقلبوا إلى

عزبتهم ريثما يكون قد وصل إلى داره، أو إلى مستقره الذى يريد، ولما رأوه اختفى من أمام أنظارهم انطلقوا فى اتجاه عزبة السرسى يقصدون دار نوح زكريا.

ما أن عبروا الكوبرى الجديد الذى أنشأه البناءون فوق الترعة الجديدة ليصل بين الغيطان الجنوبية الشرقية وبين العزبة حتى خرج الناس وساروا معهم إلى دار نوح زكريا، وعند دار نوح وقفوا يستأذنون فى الدخول، كانت المندرة الكبيرة مفتوحة، وواحد من أبناء حسانين الضبع ينضج الجمرات ويدس براد الشاى الضخم فى أحد المناقد، ودخلوا فدخل معهم متطفلون كثر، وامتلأت المندرة عن آخرها، ولما دخل نوح من الباب الداخلى لم يجد مكانا ليجلس فيه، رحب بالرجال فى اقتضاب ووقف ينظر هنا وهناك، واضطر فى النهاية لأن يطلب ممن ليس له علاقة بالأمر أن ينصرف غير مطرود، وتباطأ الناس فى الخروج فهب فيهم أحد رجاله، وخلت المندرة إلا من أصحاب المسألة، ونفر قليل ممن فضلوا التطفل على السباب.

لم يكن قد أرسل فى طلب أبناء عمه الشيخ عمر عندما فاجأهم ياسين قادما إلى المندرة ممسكا بيد أخيه، ألقى بالسلام ثم جلس فى أقرب مكان، وأجلس رضوان إلى جواره، وكان وهو فى طريقه إلى دار ابن عمه قد التقى عمه الشيخ كامل وطلب منه ألا يأتى إلى المندرة، إذ هو لو أتى سيتشعب الأمر، وطلب منه أيضا أن يبعد قطب، إذ هو ورضوان أخوه أقدر على التعامل مع ابن عمهما الأكبر نوح، والشأن معه خاص بهم دون

تدخل من أحد، وتفهم الشيخ منطقه فعاد من حيث أتى، وأرسل فى طلب قطب ليحذره من الذهاب إلى مندرة نوح، وهكذا اكتمل فى المندرة من يُقَدِّرْ ياسين أنه النصاب الكافى للخوض فى الموضوع الذى جاء آل سلام للحديث بشأنه.

نظر نوح فى المندرة فلم يجد الشيخ كامل ولا "قطب"، وأدرك أن ياسين ابن عمه قد أعد للأمر جيدا، لذا فإنه قبل أن يتحدث أحد بشىء أعلن أن حظيرته مليئة بالبهائم، وأنه ينوب فيما يريدون عن أبناء عمه، واستدار إلى أحد رجاله وأمره بإخراج بهائم من حظيرته بعدد التى قتلها رضوان وتسليمها لآل سلام، يريد أن ينهى الأمر عند هذا الحد، فلا يتحدث آل سلام بشىء مما جرى، ولا يتحدث ابنا عمه فيصير الأمر سجالا يتطرق إلى ذكر علاقته هو بالبيومى سلام، وما جرى فى عزبة مرسال، وانحيازه إلى جانب البيومى ضد قطب، لكن واحدا من آل سلام قال:

– فداكم ألف بهيمة يا أبناء موسى السرسى، فقط أريد أن أعرف لماذا كل هذا!؟

وهم رضوان بالحديث فلكزه أخوه، يريد أن يفرغ آل سلام من الحديث قبل أن يتحدث هو بكلمة واحدة، وإذ وقف الرجل عند السؤال لا يضيف كلمة ران صمت على المندرة، صمت يستجدى أحدهم ليقطعه، الناس يتحلقون حول النوافذ وتكاد رؤوسهم تنفذ من بين أعمدة الحديد التى تتخللها، والشارع فى الخارج غاص بالكثيرين، كلهم يطرقون إلى الأرض ويرهفون السمع كيلا تفوتهم كلمة.

سيحكى ياسين لأبنائه بعد عقود أنه لما تحدث أصاخ الجميع السمع، حتى النساء من أهل دار ابن عمه، ذَكَّر الجالسين فى المندرة بطلب وسية عقيلة هانم عون قطب ابن خالته فى حراستها، لما تبين ليعقوب افندى ناظرها أن وقائع سرقة أغراض الوسية وبهائمها وآلاتها مستمرة، ولا أمل فى توقفها، بل هى تنذر بالتفاقم، وأن "قطب" ابن خالته لم يعتد على أى شيء يختص به البيومى سلام الذى هو فى مقام زوج عمته، و لم ينافسه فى أى عمل يقوم به للوسية، فهو مجرد حارس ليلى يحفظ على الوسية أمنها، بل وأمن دار البيومى أيضا، كيف إذن يناصبه البيومى العداء!؟، ويعمل على إفشال عمله من أول يوم وضع فيه قدمه فى الوسية!؟، راح يعدد التصرفات التى أتاها البيومى وابنه سراج للكيد لقطب، واستفز الحديث نوح زكريا فسأل مستنكرا:

– وهل أنت مسئول عما يحدث لقطب!؟، أليس لقطب هذا لسان يأتى إلى هنا ويتحدث به!؟

سيحكى ياسين لأبنائه بعد عقود أنه لم يفاجأ بسؤال ابن عمه، ولا بتهكمه على ابن خالته، فقط ترك السؤال يرن فى فضاء المندرة، ثم ابتسم فى حزن وأجاب:

– نعم أنا مسئول عما يحدث لابن خالتى يا ابن عمى، ولابن خالتى هذا لسان يستطيع أن يتحدث به عما فعله معه البيومى وابنه، ولكنى فضلت أن ينحصر الأمر فينا حتى لا تضيع المسئوليات

وانطلق يحكى عن محاولات سرقة سلاح قطب والاعتداء على أغراض

الوسية، حتى جاء على ذكر الحادث الأخير، سرقة الحظائر واختطاف ابنة يعقوب، وهب أحد آل سلام متعجبا:

– ما لكم وابنة النصرانى يا ابن الشيخ عمر!؟

وابتسم ياسين فى غضب، إذ هل يرى أن اختطاف بنات الناس مباح لأنهن نصارى!؟، ولما أخرس سؤاله الرجل عاد ليكمل، فالأمران معا يقصد بهما البيومى وابنه إظهار عجز ابن خالته عن حراسة الوسية، وطالما أن الأمر على هذا النحو فإن ما بينهم وبين البيومى من الآن فصاعد هى الحرب.

لا يعرف أحد من الجالسين أن ياسين لما عرَّضَ البيومى بقطب ووصفه باللص الذى اعتادت قدماه تخطى عتبات السجون ذهب إلى حسين سلام ابن عمه ليشكوه إليه، ووعده حسين بالرد عليه، ومن يومها وهو فى انتظار الرد، ولكن بغير طائل، نظر الجميع إلى حسين سلام فأقر بزيارة ياسين، وأن ابن عمه قرر أنه لم يكن يقصد أحدا بعينه، وإنما كان يدافع عن ابنه المتهم بالسرقة وخطف ابنة يعقوب، وكان البيومى قد وصل منذ فترة وجلس إلى جوار باب المندرة بعد أن حيا بيديه الحاضرين، وسمع بأذنيه قول ياسين إن ما بينهم وبينه هى الحرب، ولما قال ابن عمه إنه لم يكن يقصد التعريض بأحد وإنما الدفاع عن ابنه صادق على ما قال وحاول أن يتدخل فى الحديث، فالأمر يخصه ويخص ابنه الغائب فى المقام الأول، ولكن "نوح" لم يسمح له بالحديث فجلس يأكل غيظه.

فى تلك الليلة المشهودة فى حياة السراسوة المحدثين تكالب على مندرة نوح زكريا أناس لم يكن ينتظر وجودهم، من خارج السراسوة، من

عائلة الغاوى أصهار نوح الجدد، ومن عائلة "أبو" العز، ووقف منصور أبو دومة خارج المندرة يقلب الأمر على مختلف جوانبه، لكن الليلة انتهت إلى قرار لم يتوقعه أحد، فقط ياسين وأخوه رضوان هما من توقعا ما حدث، فلقد طلبا صراحة أن يحمل البيومى سلام أغراضه ويترك عزبة مرسال إلى الأبد، لأنه إذا لم يفعل ستكون الأعيرة القادمة موجهة إليه هو وليست لبهائمه، وبقدر ما اعترض نوح على منطق ابنى عمه بقدر ما وجد أن الأمر لن ينتهى إلا برحيل الرجل، وهكذا تعهد آل سلام بأن يغادر البيومى عزبة مرسال، ولا تعود له أية صلة بوسية عقيلة هانم.

فى الخارج كان الناس يضربون أكفهم بأكفهم، فرضوان يبطش بآل سلام ويقتل مواشيهم، وعندما يلجأون إلى كبير أبناء موسى لا يغنمون إلا الهزيمة، ولا يعوضون، وفوق هذا يُطْرَد ابن عمهم إلى الشتات!.



الثورة من جديد



انتهت الحرب، وألقت الولايات المتحدة الأمريكية قنابلها النووية على اليابان لتشهر قبضتها فى وجه العالم، غير عابئة بمئات الآلاف الذين صرعهم الجحيم، والملايين الذين سيعيشون الجحيم نفسه لعقود طويلة، وقبل أن تصمت المدافع طرد الوفد من الحكم، وانتهت إلى الأبد دولة الوفديين الأقحاح، رفاق زغلول والنحاس، وبدأت دولة الوفديين الجدد، الذين يمتلكون آلاف الأفدنة ويطمحون إلى المزيد، ويحلمون بالسيطرة على كل شيء والتحكم فى كل المقادير، وانعكس ذلك على حياة الناس، وعلى قدرة الوفد على مناوءة القصر والسفارة الانجليزية، وأيضا على الرؤية الاجتماعية للحزب العتيد، من كان يصدق أن تقال قصائد غزل فى علاقة الوفد بدار المندوب السامى البريطانى، صحيح أنها لم تعد تسمى رسميا كذلك، ولكنها بقيت لاعبا رئيسيا فى منظومة الحكم المصرية، وموجها رئيسيا لمسار ما يحب أن يطلق عليه البعض من باب غض الطرف التجربة الديموقراطية المصرية، أو كما يحلو للبعض أيضا أن يقول من باب التمنى منظومة الليبرالية المصرية.

وقع النحاس باشا زعيم الوفد فى قبضة كبار ملاك الأراضى الذين انضموا إلى الحزب العتيد، وحتى يُخْرِجَ الوفديون الأخوان من لعبة الصراع على الحكم أمدوهم بمعونات سرية ومعلنة، وحقق البنا بالتلويح بالاشتراك فى الانتخابات ما لم يكن قادرا على تحقيقه إن هو دخلها بالفعل، وهمس فؤاد سراج الدين فى أذن النحاس أن حان الوقت لملاينة القصر وملاطفة الملك، تماما كما تماهوا مع الضرورات الانجليزية، حجته أن الوفديين يعانون فى كل مكان فى مصر، فى المدن والقرى والنجوع والكفور، وحتى فى العزب، وحان الوقت للحصول على هدنة يلتقطون فيها الأنفاس قبل أن يعودوا إلى النضال من جديد، وانقاد النحاس باشا للغواية.

مع تراخى الوفد فى الإصرار على برامجه الاجتماعية تقلدت أحزاب الأقلية مقاليد الحكم، وزادت المظالم، وتحت وطأة الأزمة الاقتصادية العالمية التى واكبت الحرب العظمى وصبغت وجه الأيام التى تلتها تشدد كبار ملاك الأراضى فى تحصيل متأخرات الإيجار من الفلاحين المطحونين، ونتج عن ذلك طرد أعداد هائلة منهم من الأراضى التى يستأجرونها، وتحولوا بين يوم وليلة إلى عاطلين لا يجدون قوت يومهم، أو أجراء يعملون يوما ويدورون مع ظلال الحوائط أياما، يبعدون عنهم الذباب فى كسل، ويحكون جلودهم لتخفيف وطأة لدغات القمل والبراغيث، ولأول مرة ترفض عزبة أحمد السرسى الخروج للانتخابات كعقاب للوفد، برغم ما بذله الشيخ سليمان السرسى من جهود لإقناعهم بالتوجه إلى المقاطعة للتصويت، وينبرى منصور الطوخى قائلا:

– قبل المعاهدة...

يقصد معاهدة 1936:

– كان الوفد وكيل الأمة عن حق، محامى مصر

ويقرن حديثه بالشرح بكلتا يديه:

– والمحامى يتعامل مع القضية بثلاث طرق... ولا توجد طريقة رابعة

لاحظ المستمعون أنه يتحاشى استخدام كلمة "ذلك" التى تسببت ذات يوم فى إطلاق لقب "ذلوكة" عليه، أردف:

– إما يكسب القضية، وإما يخسرها، وإما يجرى فيها صلحا، والوفد أجرى فى قضية مصر صلح 36

ويخفض من صوته كأنه ينصح السامعين:

– النحاس باشا الذى كنا نستقبله كولى من أولياء الله الصالحين، بعد صلح 36 صار يضرب بالبيض والطماطم فى محطات القطار

وينتهى إلى القول:

– علينا من هذا بكم!؟، الوفد حزب الأغلبية، نعم هو كـ"ذلك"...

وتكتموا الضحكات لاضطراره لذكر الكلمة المحببة لديه، لكنه راح يكمل بكل جدية:

– هو حزب الأغلبية ولكننا لن ننتخبه

وقال صالح أبو العز:

– ربما إذا انتخبنا مرشح الأحرار الدستوريين يرأف بنا مكرم بك، ويؤجل تحصيل متأخرات الإيجار للعام القادم

ويجيبه زكريا ابن طه إبراهيم:

– على الأقل هم لا يقولون شيئا ويفعلون عكسه

ويذكرهم أحدهم بالترعة التى أنشأها هاشم حفظى باشا القطب الوفدى فيجيبه بندارى إبراهيم:

– إنها لرى أراضيهم هم، فنحن لا نمتلك قصبة حتى لندفن فيها

ويضيف وهو يحصى على أصابعه:

– يخرج الشيخ سليمان السرسى لينتخبهم فهو صاحب أرض، والشيخ يوسف السرسى أيضا فهو صاحب أرض، ونوح زكريا فهو صاحب أرض، وبنات مريم سيد احمد فهم أصحاب أفدنة، أما نحن فلا

واتفقوا على أن يرسلوا لمكرم بك عبر المعلم حنا إن كان يشير بمرشح بعينه ينتخبوه، وضحك المعلم حنا ملء شدقيه، وبرم شاربيه بشدة، و لم يعدهم بشيء.

فاز مرشح السعديين، وفى أصيل حزين حمل الشيخ سليمان السرسى زوجته الجديدة خديجة حفظى وطفلتيها وطفلة ابنة عمها الراحلة وخرج إلى المنصورة، تاركا سُلَيْمَة وأبناءها لحياة السراسوة، الذين لم يعرف أبدا كيف يروضهم، فكلما ظن أنه تمكن منهم إذا هم يستعصون على الخضوع، وكلما أحنوا رؤوسهم وظهورهم ازدادوا عنادا وقدرة على إحداث المزيد من الجروح.

لن ينسى لسُلَيْمَة ذلك التعريض الذى لقيه من أبناء الضبوعة، صداقته لحسانين الضبع لم تشفع له، وأهانه أبناء أخوته على الملأ، لن ينسى لسُلَيْمَة جعله مضغة فى أفواه السراسوة، إن شماتة فيه وفى رهط سيد أحمد السرسى كله، وإن حزنا يسمع معه مصمصة الشفاة فيكره صوتها المقزز، لن ينسى لأبنائه تركهم أمهم لينهش الناس سمعتها ويطعنون فى عرضها، هكذا جهارا وبدون مواربة، لن ينسى غفلتهم وإهمالهم، لن ينسى هوان أمره على أهله وهو من هو، وهوان أمرهم على أقاربهم وهم من هم، ولن ينسى لكل من أساء إليه، حتى ولو بدا للسراسوة أنه يمضى إلى المنصورة قرير العين، إذ هو فى الحقيقة يشعر بأنه مطرود، وأن سياطا مخيفة تفرقع من خلفه ليسارع بالرحيل، وأن صوتا من داخله يقول:

– ها نحن معشر سيد احمد، أخطاؤنا مرصودة وأفضالنا مجحودة

لم يكن فى وداعه من السراسوة إلا من يحب أن يكونوا فى وداعه، فقطب غائب، إذ هو غارق فى أمور وسية عقيلة هانم مرسال، فبعد أيام من رحيل البيومى سلام حمل يعقوب افندى زوجته برسكال ورحل، عاد إلى ديروط بعد يأسه من عودة ابنته، وبعد أن جاءت عقيلة هانم وعهدت إلى قطب بأمور نظارة العزبة، بل وكل ما يتعلق بأمور الوسية من الألف إلى الياء، ونوح زكريا غائب، إذ هو الآخر غارق حتى أذنيه فى متعة زوجته الجديدة هانم، أو أم غالب كما يسميها، ابنة غالب شاهين صديق أبيه القديم، وأبناء الضبوعة الذين طعنوه فى كرامته اختفوا من الشوارع بأمر من كبيرهم حسانين الضبع، وكذلك غاب الطوايخة أبناء عمومة قطب، ولم يكن هناك سوى أبناء خاله الشيخ عمر، ياسين ورضوان وشاكر،

وبنات عمته مريم، رئيفة وسكينة وأمينة، وأيضا أبناء خالتيه، وعلى رأس الحضور وقف الشيخ كامل يكتم دمعه ويتساءل:

- أكان لا بد أن ترحل يا بن أختى!؟

ويمسح عينيه ويعود للتساؤل:

- ألا يمكنك أن تعدل!؟

وأبكت كلماته أبناء الشيخ عمر، ورئيفة وأختيها، والخالة أم الخير، وحليمة أخته من أمه، وكانت تتعلق بيديه ترفض أن تفلته.

كانوا يحملون الأغراض ويضعونها على العربات ذات الأربع عجلات ودموعهم تسيل ساخنة فوق وجناتهم، فيما تجلس خديجة حفظى والبنات فى المقعد الخلفى لسيارة الأسطى محمود نسيم، التى ينقل فيها الأعيان إلى وجهاتهم بالأجر، وحان وقت الرحيل، دخلوا ليتأكدوا إن كانوا تركوا شيئا، ولما تبين أنهم أخذوا كل شيء خلفوا أبواب جناح خديجة مفتوحة على مصراعيها، وانطلقت السيارة، يجلس فى مقعدها الأمامى إلى جوار السائق الشيخ سليمان، وفوق الأغراض يركب ياسين ورضوان ومختار الضبع رغم رفض الحوذية، أبوا إلا أن يوصلوا أغراض قريبهم الغالى إلى داره الجديدة فى حى توريل فى المنصورة.

اختفت سُلَيْمَة، بكت طوال اليوم حتى تورمت عيناها، ورفضت أن يتحدث إليها أحد من أبنائها، و لم تتدخل هذه المرة فى توجيههم إلى ما يجب عليهم أن يفعلوه، فإذا أرادوا أن يساعدوا فى إجلاء أبيهم عن الدار التى تحمل كل طوبة فيها ذكرى من ذكرياته فليفعلوا، وإن رأوا أن يختفوا

حتى لا يجعلوا الأمر صعبا عليهم وعلى أبيهم فليفعلوا، بل إنها رفضت أن تبيت زينب ابنتها لديها، وكانت معها بالأمس، جاءت لتسلم على أبيها قبل أن يرحل إلى المنصورة، ولكنها برغم بكائها وتورم جفنيها وقفت خلف شيش النافذة ترقب رحيل الرجل الذى لم تقدره حق قدره، إنها لم تكره نفسها فى أى يوم مثلما تفعل الآن، تكره نفسها بشدة، وتشعر أن مياه الدنيا كلها لا تقدر على إزالة أدرانها.

برحيل الشيخ سليمان السرسى عن عزبة أبيه وأجداده شعر السراسوة بأن رؤوسهم صارت صلعاء، فلم يعد بينهم من يضعون الأثقال فوق كتفيه فلا ينوء بحملها، ولا من يطعنون فيه ولا يستغنون عنه، ولا من يجعل عزبة آبائهم وأجدادهم خالصة لهم، صار صالح أبو العز وحسين القماش ومنصور أبو دومة وحسان الغاوى وغيرهم من الغرباء يتقدمون الصفوف على السراسوة أنفسهم، وفى وجود الشيخ سليمان كانوا يتأخرون، كان يمكن أن يملأ هذا الفراغ نوح زكريا، ولقد حاول أن يفعل على نحو أو آخر، لكن الجفاء الواقع بينه وبين ابنى عمه الشيخ عمر ياسين ورضوان جعله ينكفئ شاعرا بشيء من المرارة والخجل، إذ هو لم يقدر أبدا أن "قطب" ليس مجرد يتيم قليل الشأن، أو أنه مجرد لص، إنه ابن خالتهما، وكان عليه أن يعرف أن ابنى عمه سيقاتلان من أجله حتى النهاية، فالعمل فى وسية عقيلة هانم كان الفرصة التى لا تتكرر لجعل قطب إنسانا قويما، وهو الآن يشعر بالغباء، والغيظ، فابنا عمه كانا على حق، ولم يرهبهما وقوفه فى وجه قطب، بل إنهما تجاسرا على الوقوف فى وجهه هو، إلى جانب ابن خالتهم، الذى يتبوأ الآن مكانته الجديدة كناظر لوسية عقيلة هانم، ويرتدى

أفخر الثياب، ويرد الجميل للشيخ كامل زوج أمه، فيستعمله هو وأبناءه فى شئون الوسية، ويخلق لنفسه عزوة جديدة باستعمال أبناء أعمامه.

لم يكن زواج ياسين عمر من ابنة عمدة قرية طرانيس البحر مجرد مصادفة، فخاله الشيخ سليمان السرسى هو من أشار عليه بالزواج منها، وصحبه ليطلبها من أبيها، وتم الزواج فى ظل ضائقة اقتصادية عمت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، فمصر التى مرت بفترة عصيبة عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية كانت تعانى كل أنواع الضعف، ولأن فترات الضعف السياسى تنتج فى الغالب ظواهر متماثلة فقد اكتشف الوفديون أن معاهدة 36 التى أطلقوا عليها فى حينها معاهدة الشرف والاستقلال لم تكن فى الحقيقة إلا ترجمة حديثه لتصريح 28 فبراير القديم.

اكتشف الوفديون أن استقلال البلاد منقوص، ولكنهم لم يكونوا يملكون جسارة النظر إلى المستقبل، فالوفد فى أضعف حالاته، والأمور تفلت من بين يديه، والأصوات السياسية الناشئة تهاجمه بغير تحسب، مصر الفتاة والحزب الاشتراكى والحزب الوطنى، واجتذب العمل السياسى فى الوفد أعدادا متزايدة من الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال، واعتلوا قمة الوفد، وحار الوفديون بين سيطرة الملاك والأغنياء على قيادة الحزب وترعرع نوع من اليسار فى أروقته حيث نشأت الطليعة الوفدية كنوع من انتفاض الجسد ضد سيطرة رأس المال.

وجاء دخول مصر الحرب ضد العصابات الصهيونية متسقا فى الظاهر مع مجريات الأمور، ذلك أن مصر كانت قد دعت وبتشجيع من انجلترا إلى

تشكيل جامعة الدول العربية، وتقرر أن تكون العاصمة المصرية مقرا لها، واتفاقية الدفاع العربى المشترك تلزم العرب بالدفاع عن فلسطين، التى تضيع بتواطؤ الانجليز مع تلك العصابات، وفى نفس الوقت أراد الملك فاروق أن يلعب دورا يرفع من أسهمه فى عيون شعبه ويزهو به على دول المنطقة، غير مراع لحقيقة ما تمر به البلاد من ضعف سياسى ظاهر، ومن سيطرة رأسمالية على مقدرات الحكم، ونزوع الوفد للوصول إلى الحكم حتى ولو كان ذلك بالرضوخ للقصر وملاينة الانجليز، وفى هذا السياق أعلن النقراشى باشا رئيس الوزراء دخول الحرب.

من يقرأ باهتمام خريطة تشكيل مجلس النواب المصرى فى العام 1950 سيكتشف – بصرف النظر عن محاولات التعتيم والتجهيل السياسيين– أن كثيرا من النواب كانوا ضالعين بشكل أو بآخر فى أمور تتعلق بالتجارة فى المخدرات (*)، ومن بينهم ويا للأسف نواب نجحوا باسم الوفد، وكانت الهزيمة التى لقيتها الجيوش العربية أمام العصابات الصهيونية المدعومة من الانجليز والغرب الاستعمارى كله قد انعكست بالسلب على أوضاع المصريين فى بلدهم، إذ راحت الفرق السياسية تكيل الاتهامات لبعضها البعض حول المسئولية عن دخول الحرب، وعن الهزيمة التى لقيها الجيش المصرى باعتباره أكبر الجيوش العربية المشاركة، وأدرك الوفد أن البلاد تنزلق إلى هاوية سحيقة فأعلن رئيسه النحاس باشا إلغاء معاهدة 1936، ودخلت مصر دوامة الفوضى السياسية والاجتماعية، واحترقت القاهرة كنتيجة مباشرة لهذه الفوضى، وبلغ الظلم الاجتماعى مداه.

(*) أول تقرير للإدارة العامة لمكافحة المخدرات فى العام 1951.

لم يرزق ياسين بولد، رزق بثلاث بنات، وكان رضوان قد تزوج هو الآخر ورزق ببنت، ونظرت الجدة رئيفة إلى الدار فوجدت أربع بنات ولا ولد فضربتها الحسرة، ورأت عائشة زوجة ياسين ذلك فى نظرات حماتها فتوارت لتأخذ حظها من البكاء، وأدركت كبرى بناتها أن أمها تريد أن تختلى بنفسها لتبكى فخافت عليها، وتسللت إلى حيث تتوارى أمها وجلست غير بعيد منها، تبكى كما تبكى أمها، ولما علت نهنهات أمها مدت يدا حذرة لتمسح على رأسها، وأدركت عائشة أن ابنتها معها فاحتضنتها وانفجرتا معا فى بكاء طويل.

لطالما حلم ياسين بولد ينذره للقرآن، ليعيد سيرة جده الأكبر موسى السرسى، طوال الوقت كان ينتقى لولده اسما، ولما تزاحمت عليه الأسماء حلم بأولاد عدة، يعطى كل واحد منهم اسما من الأسماء التى انتقاها، لكنه فى كل مرة كان يرزق ببنت، ولما علمت عائشة بأن مولودتها الثالثة بنتا رفضت أن تتلقاها من يد القابلة، فتلقفتها يدا الجدة رئيفة وهى تبسمل وتحوقل، وتقرأ أورداها القديمة، وأطلق ياسين اسم أمه على الطفلة الجديدة، وذات يوم كانت عائشة ترتق ملابس بناتها فى حجرتها، وفى صالة الدار كان زوجها يتحدث إلى أمه وخالته أمينة، وسمعت خالته تقول:

– تزوج يا ياسين، تزوج يا ابن أختى لترزق بالولد

فخرجت إليها ثائرة وقالت:

– انصحى زوجك بهذا، فأنت لم ترزقى إلا ببنت!!؟

وشهقت الجدة رئيفة من جرأتها، ونظرت إلى ابنها فقام إلى زوجته،

لم يكن يريد أن يضربها، لكنه أمام وقوفها وعدم فرارها من أمامه ظن أنها تتحداه، فلطمها على خدها، وأخذتها المفاجأة فأطلقت صرخة صغيرة، لكنها سرعان ما استعادت رباط جأشها وزعقت:

– تضربنى لأننى أمنع خالتك من التسبب فى خراب دارك!؟

وانكفأت عائدة إلى غرفتها وهى تقسم:

– والله لأتركن لك الدار

وكان الغضب قد أخذ منه كل مأخذ، فبحث عن شيء ليكمل به الاعتداء عليها، ووجد خيزرانة صغيرة يسوس بها مطيته فاستلها ودخل عليها الغرفة، وسمع الجميع صوت استغاثة عائشة، ورأوا بناتها وهن يستجدين الناس ليدرأوا عن أمهن الاعتداء.

عائشة كانت حاملا فى طفلها الرابع، وبينها وبين نفسها انتوت أن تلد طفلها لدى أهلها فى طرانيس البحر، فإذا جاء ولدا فبها ونعمت، تنعم به وينعم أهلها مثلما سيفرح السراسوة، أما إذا جاءت بنتا رابعة فإنها لن تكون مضطرة إلى سماع مصمصة شفاة الجدة رئيفة، وغنائها الذى يقصم الظهر:

– لما قالولى دا ولد

انشد ضهرى وانسند

لما قالوا دا غلام

انشد ضهرى واستقام

ولما قال دى بنية

انهد سقف الدار عليه

صار الذهاب إلى طرانيس البحر أمرا لا مفر منه، فبعد الاعتداء الجسيم الذى وقع عليها لا يمكنها البقاء فى الدار لدقيقة واحدة، ولأنها تريد أن تتخلص من كل شيء حتى حياتها فإنها بعد أن ظلت مطروحة على الأرض ساعة أو تزيد استطاعت أن تجمع شتاتها، قامت لتغير ملابسها، بناتها كن إلى جوارها، ونظرت فى وجوههن، لم تشعر إلا بالكراهية، كراهية بطنها التى لا تلد إلا البنات، وكراهية قول أمها إن الرجل هو من يبذر البذرة والمرأة مجرد ماعون، وما يزرعه الرجل يحصده، فإذا كان الأمر كما تقول أمها لماذا إذن يكرهونها لأنها أنجبت ثلاث بنات!!؟.

خرجت متسربلة ببناتها، تدفعهن فيصرخن، ويعدن للالتفاف حول رجليها، لكنها تمكنت من طردهن، وجمعتهن الجدة رئيفة من الزوايا التى اختبأن فيها ليبكين رحيل أمهن، وجاء الليل فعاد ياسين إلى الدار، بناته كن يستلقين على الأرض نائمات، الكبرى نائمة على ظهرها فاردة ذراعيها، وعلى كل ذراع ترتكن رأس واحدة من اختيها، وانهمرت الدموع من عينيه، فهذا هو الوضع الذى تربى عليه أخواه شاكر ويحيى، بعد رحيل أبيه كان كل منهما ينام على ذراع من ذراعيه، فلا يسحب ذراعيه حتى لا يوقظهما، وها هى ابنته الكبرى تفعل كما كان يفعل، وعندما انحنى ليضع قبلة على وجناتهن رأى آثار خيوط البكاء مسطورة فوق وجوههن، لم يستطع أن يصل بفمه إليهن، سبقته الدموع التى سقطت ساخنة فوق الوجوه الصغيرة.

ولدت عائشة بنتا رابعة، بكت فى فرشة الولادة ما شاء لها البكاء، ورفضت أن تنظر إلى وجه الطفلة التى قالت القابلة إنها كفلقة القمر، وأرسل أبوها إلى زوج ابنته ليختار لها اسما، وذهب ياسين ليزور زوجته، وعندما دخل عليها أشاحت بوجهها، فلقد رأت القابلة آثار الضرب على جسدها، و لم تستطع هى أن تبرر الأمر، فانطلقت تبكى بحرقة، واقترب منها، ومد يده ليتحسسها فجفلت، وشعر برعدة الجسد فقال:

– أمر بظروف لا يتحملها بشر

وانتظر أن تسأل عن تلك الظروف، لكنها كانت تبكى فى ركنها، أخذ المولودة بين يديه، يا ألله!، يا للجمال الأخاذ!، ودمعت عيناه، كأن ابنته الرابعة تبرر مجيئها بهذا الجمال الفتان.

عادت إلى الدار التى خرجت منها مهانة، وذلك بعد أن حمَّلَت الجدة رئيفة الركائب بالهدايا وتوجهت إلى طرانيس البحر احتفالا بولادة طفلتهم الرابعة، وكان للزيارة التى قامت بها مفعول السحر لدى العمدة وزوجته وأقاربهما، لذا فإنه عندما عادت عائشة بطفلتها الجديدة هللت الجدة رئيفة لقدومها، ومدت يديها لتتلقى منها الطفلة، ولما قربتها منها شهقت:

– تبارك الخلاق العظيم، إنها أبوك يا ياسين، الخالق الناطق، بشقرته، وفمه المخضوب، وجبهته العريضة، وعينيه الرماديتين، وشعره الذى يشبه خيوط الذهب.

فى ليلة شتوية دفأتها أحاسيس رائعة وقبل وفاته بأعوام قليلة قال الحاج

ياسين لأبنائه إن ثورة 23 يوليو أعقبت ميلاد ابنته الرابعة بقليل، ربما بشهرين أو ثلاثة، وإنه لما بشر بالثورة وجد الطفلة نائمة إلى جواره فرفعها وقبلها، وهيئ له أنها تبتسم فقال بأعلى صوته:

– تعالى يا وش السعد

واغرورقت عيناه، لم يستطع أن يرجع الأمر إلى سبب مفهوم، تساءل: هل هو الفرح!؟، هل هى الذكرى!؟، تمنى لو يرسل إلى أسلافه فى بطون الحكايات يخبرهم بأن آخر أحفاد محمد على باشا غادر إلى غير رجعة، من الآن لا يستطيع أحد منهم أن يعطى المملوك القديم قفل زمام بلد بأكمله، الآن لا يستطيع أى قفل أن يجعل الناس عبيدا، الآن يستطيع الأسلاف أن يهنأوا بجنتهم فى سرس القديمة، وابتسم فى أسى مشوب بالفرح، تمنى لو يكون الأمر بهذه البساطة، وأن يقدر بمجرد التمنى على تغيير الماضى، وتبديل حادثاته التى تشكل وجدان اللاحقين.

من ذا يصدق أن نفرا قليلا من أبناء مصر يقوض كل هذا البنيان الذى أسسه والى مصر القديم محمد على باشا الكبير!!!؟، وأن يغادر آخر ملك من ملوك تلك الأسرة إلى إيطاليا، حيث كان يعيش أبوه الملك فؤاد بجوار أبيه الخديوى إسماعيل الذى كان منفيا هناك!!!؟، لكن هذا حدث بالفعل، واضطربت أحوال الوسايا تحت ثقل الحدث الكبير، و لم يكد يمر شهر ونصف الشهر حتى هبطت على العزبة لجنة عسكرية يتقدمها ضابط برتبة يوزباشى، قصدت من فورها إلى مخازن وسية بشاى، وخرج المعلم حنا ليستقبلهم، نسى أن يضع طاقيته فبانت القليطة غريبة ومتهدلة،

ترتج فى مؤخرة رأسه كخصية كبيرة متورمة، لكنها مليئة بالشعر الحليق، وكان اليوزباشى قد اتخذ من أحد مخازن الوسية مكتبا وبدأ فى استدعاء من يريد.

لم يتنبه حنا إلى وضعه إلا عندما همس مختار سليمان قرب أذنه، فبحث عن طاقيته وعمامته، وأسرعت الخالة عجايب فأحضرتها، ورأى الناس لأول مرة المعلم حنا وهو يحشر قليطته فى الطاقية الصوفية، وكيف أنه بعد أن نجح فى حشرها هناك راح يلف عمامته من حولها ليدارى بروزها.

فى ذلك الصباح بدت عزبة أحمد السرسى مختلفة تماما، فالمعلم حنا يقف شابكا يديه ببعضها فى امتثال غريب، وسيده صاحب الوسية لم يتصل به ليعرفه كيف يسلك إزاء ما يواجهه، واليوزباشى ومعه مجموعة كبيرة من الموظفين يفحصون سجلات الوسية ودفاترها، لم يكن أحد من أهل العزبة يعرف ما الذى سيسفر عنه ذلك الهجوم الكاسح الذى شل قدرة الناس على التفكير، فمن قائل إنهم يفحصون حسابات الوسية، وسيعيدون إلى الفلاحين ما نهبه منهم صاحب الوسية على مدى عقود، وما سلبه حنا وأعوانه، لكن كلمات قليلة صدرت عن أحدهم أخرجت العزبة عن بكرة أبيها، فاللجنة التى تحتل مخازن الوسية جاءت لتنزع ملكية أرض مكرم بشاى وتوزعها عليهم، وأحدثت الكلمات زلزالا فى العزبة الصغيرة فانفجرت كالبركان، وأمام المكتب الذى اتخذه اليوزباشى مقرا للجنته تجمهر الناس، رجالا ونساء، كبارا وصغارا، ملأوا جرن الوسية الكبير، وفاضوا عن سعة الجرن فوقفوا فوق الأسوار وتسلقوا الأشجار

والأسطح القريبة، حتى الأطفال كانوا هناك، يتسللون بين الأرجل ويتحينون الفرصة لرؤية اليوزباشى الذى جاء ليعيد إليهم حقوقا طال اغتصابها.

لم تتضح الأمور تماما إلا بعد أسبوع من قدوم اللجنة، فمكرم بشاى يمتلك هو وزوجته أكثر من ألف فدان، فى الدقهلية وبنى سويف، واللجنة التى تنفذ قانون الإصلاح الزراعى ستنتزع ملكية خمسمائة فدان منه، وقبل أن يخير بين أراضى الدقهلية وبنى يوسف وضعت لجنة نزع الملكية يدها على الأراضى هنا وهناك، وحتى ينهى وضع يد الحكومة على وساياه وأراضيه أسرع وحدد للجنة التى تنفذ قانون الإصلاح الزراعى الأراضى التى يريد الاحتفاظ بها، ولأن أملاكه فى بنى سويف لا تفى بالمساحات المستولى عليها فقد جرى الاستيلاء على أكثر من مائة فدان من وسيته فى عزبة أحمد السرسى، وبقى له أكثر من سبعين فدانا.

تكالب السراسوة على المكتب المؤقت للجنة الإصلاح الزراعى، وقدموا طلبات لبحثهم ضمن من سيتم توزيع أرض الإصلاح المنتزعة عليهم، وهكذا لم يعد فى العزبة أحد لم يتم بحثه، إلا هؤلاء الذين لم يتقدموا بطلب، وفى صباح شتوى طلعت شمسه ضاحكة جاءت اللجنة محمولة فى سيارات عسكرية ضخمة، برفقتها مهندسون من مديرية المساحة، وفنيون يحملون أغراضهم الرائعة، وما أن دخلوا فى حيز العزبة حتى خرج الناس بقضهم وقضيضهم، فاليوم – كما سبق وأرسلوا ليعلموا الناس – سيتم توزيع الأرض المستولى عليها على المبحوثين.

لم يستثن من توزيع الأرض فى العزبة سوى الشيخ سليمان وأولاده،

ونوح زكريا وأبناء عمه الشيخ عمر، فيما حصلت كل دار من دور السراسوة من كافة الأفرع على مثل ما حصل عليه الشيخ كامل السيد، فدانين، وسلمت الأرض للمبحوثين بعد أن شقت القنوات والمصافى والطرق لتناسب التنظيم الجديد، وتخللتها على نحو رائع، وشق طريق واسع تم تمهيده ليفصل بين أراضى الإصلاح وبقية الأرض التى احتفظ بها مكرم بشاى، وفى نهاية اليوم جلس الشيخ كامل السيد أمام مسجد العزبة ونظر فى اتجاه الغيطان وقال:

– كأننا نحلم يا اولاد

وأطرق إلى الأرض يتذكر ما مضى، ثم رفع رأسه وعاد ليقول:

– كأننا نحلم

ورأى الجالسون الدموع وهى تترقرق فى عينيه، وقال الشيخ منصور الطوخى وهو يكاد يبكى:

– لا أصدق كل ما جرى فى الشهرين الفائتين

وجأر مؤمن إبراهيم:

– معجزة، من شهرين اثنين لو قال لى أحد هذا لاتهمته بالجنون

ونظر فى نفسه غير مصدق:

– فليقرصنى أحد يا ناس، أريد أن أصدق أننى يقظان، وليست بى لوثة

توارى المعلم حنا وهيب عن الأنظار، وتعددت الاجتهادات، فمن قائل إنه غادر إلى بلده فى بنى سويف، وزكى هذا الاعتقاد اختفاء الخالة

عجاييب وأطفالها، ومن قائل إنه ذهب إلى "مصر" بناء على استدعاء مكرم بشاى، ليتدارس معه كيفية التعامل مع الأمر بعد توزيع القسم الأكبر من الأرض على الفلاحين، ومن قائل إنه سقط مريضا فنقله مختار سليمان سرا إلى المنصورة، وأدخله المستشفى الميرى، وأن الخالة عجايب ترافقه، وأطفالها لدى أحد أقارب مكرم بشاى فى السنبلاوين، و لم يعثر لمختار سليمان على أثر ليقفوا منه على الحقيقة.

بدأ أصحاب الوسايا التفكير فى بيع أجزاء منها، وبتدبير من الشيخ سليمان اشترى الشيخ يوسف السرسى مائة وخمسين فدانا من وسية حبشى المجاورة، كتب خمسين باسمه، والباقى بأسماء أبنائه الذكور البالغين، وتناقل الناس خبر اعتراض الملازم أول رفقى على تصرف أبيه، وأمام إصرار الشيخ سليمان على نقل عمه من الربع إلى العزبة أشاعوا أن الضابط الشاب تقدم بطلب إلى مجلس قيادة الثورة يشرح فيه تصرف أبيه، وأجاز له المجلس شراء الأرض التى يرغب فى شرائها، بعد أن تم الفحص وتأكد للفاحصين أنها ليست أرضا مهربة من الإصلاح الزراعى.

وفى يوم صيفى حار عاد السراسوة يتقدمهم الشيخ سليمان السرسى بالشيخ يوسف من الربع، بلد أمه وزوجته، ليس إلى دار أبيه القديمة، ولكن إلى سراية صغيرة تتوسط الأرض التى اشتراها، وحولها مجموعة من الدور الصغيرة، وسرعان ما أطلق عليها السراسوة عزبة يوسف السرسى.

امتلأت المنطقة بالأخبار السعيدة، فها هى حكومة الثورة الوليدة تواصل الاستيلاء على مئات الأفدنة من الوسايا المحيطة وتعيد توزيعها على الفلاحين المبحوثين فى زمامات القرى التى تقع فيها، وفى أول زيارة

للعزبة بعد الثورة نظر مكرم بشاى إلى الناس بارتياب، لكنه اضطر إلى وضع ابتسامة باهتة على وجهه، وصفها أحدهم بأنها صفراء وتتحين الفرصة للانقضاض، ومع أول موعد مع زارعى ما تبقى من أرض الوسية ترفق المعلم حنا فى محاسبتهم، فلم يبلغ فى سرقتهم مبلغ ما كان من قبل، وشعر الفلاحون بأن الدنيا من حولهم تتغير، فحتى أدوار ورود المياه إلى الترع لم تعد تحابى الوسايا على حساب الناس، وعرف السراسوة لأول مرة أن الملازم أول رفقى السرسى ابن الشيخ يوسف واحد من الضباط الأحرار، صحيح أنه ليس من قياداتهم ولكنه واحد منهم، و لم يصدق أحد من دار الشيخ يوسف على الخبر أو يكذبه، وعاد السراسوة ليقولوا إن الضابط الذى يدعى جمال عبد الناصر وهو القائد الحقيقى للثوار وليس اللواء محمد نجيب هو من اختار رفقى فى تنظيمه، ووصف الشيخ كامل السيد جمال عبد الناصر بإنه ولد شارب من "بزّ" أمه بصحيح.

اقترب موعد وضع عائشة لطفلها الخامس فاستأذنت لتذهب إلى أهلها لتضع طفلها هناك فى طرانيس البحر، ولاطفها ياسين لتقبل بولادة طفلهما فى العزبة، لكنها صممت، فرافقها بنفسه إلى هناك، ومر فى الطريق بالناس وهم يبتهجون بأرضهم الجديدة التى حصلوا عليها من الإصلاح، هناك كانوا مع أطفالهم وبهائمهم ومطاياهم، كأنهم يحتفلون بالأرض على طريقتهم، وتمنى هو الآخر لو أنه كان فى أرضه ليحتفل بها مثلهم.

وكانت مريم عمر ابنة الأربعة عشر عاما قد صارت فتاة رائعة الحسن، ورآها ابن عمها نوح زكريا لما كان فى زيارة أبناء عمه فقال لياسين:

– لا تقبل حديث أحد فى مريم يابن عمى

و لم يفهم ياسين قصده، وأسرع نوح ليقول:

– أريدها زوجة لابنى عيسى

فى ركنها ابتأست الجدة رئيفة، شعرت بغصة فى حلقها، فأن تتزوج ابنتها من ابن نوح زكريا يعنى أنها ستعيش حياة رغدة، لكن السيد ابن أختها سكينة من الشيخ كامل السيد يريدها، وهى إذا تدخلت فى الحديث لتعلن عن ذلك ستخلق مشكلة كبيرة، ففى يقينها أن أولاد موسى السرسى لا يقارنون بأنفسهم أحدا، لذا فإن ابن أختها سيخسر السباق مهما فعلت، ورأت أن تنتظر قول إبنها، فربما جاء الفرج من عنده، وكان ياسين قد ابتلع ريقه بعد أن أفصح ابن عمه الأكبر عن قصده، ثم قال وهو منشرح الصدر:

– ومن يجرؤ على طلبها يا ابن عمى إن كنت تريدها لإبنك!؟

وابتسم نوح، فمريم الرائعة الحسن ستكون زوجة ابنه طالما قال ياسين هذا، و لم يترك رضوان عمر فرصة لأحد ليسأله رأيه، إذ ضحك فى وجه ابن عمه وهو يقول:

– هى لابنك

وخفض صوته حتى لا تسمعه أمه ثم أردف:

– ولكن أسرع، فكلما أسرعت كان الأمر أهون

وأُعْلِنَ فى العزبة أن عيسى ابن نوح زكريا خطب الجميلة مريم، وكان عيسى ضئيل الجسم فحاولت الفتاة أن تتمرد، ولما زارهم الفتى لأول مرة

كخطيب لها انتحى بها جانبا، ورأته يقول باعتداد:

– لا يغرنك هذا العود الناحل، فغدا سيمتلئ، وإذا رأيتك تخرجين من باب الدار إلى أن يحين موعد انتقالك إلى دارى فسيكون لى معك شأن

وتصنعت الغضب، فيما قلبها يرفرف مع الكلمات كأنها زغرودة أخرجتها من حيرتها، فعيسى الذى يقولون عن اعتداده بنفسه الكثير يظهر أمامها كما تحب، و لم تعد ترى أمام عينيها إلا عينيه اللامعتين بنجوم بعيدة.

سافرت إلى المنصورة لتقضى فى دار خالها الشيخ سليمان أياما، تعلمها فيهما خديجة حفظى وصفات الطهى الحديث، وتنتقى لها ملابسها وحاجياتها، وأقيم حفل عرسها فى العزبة ودعا إليه نوح كل رجال الناحية، وجاء السراسوة من كل مكان، وتصدر الملازم أول رفقى يوسف الحفل، وكان عرسا مشهودا.

فى طريقها إلى طرانيس البحر لتضع حملها لدى أهلها رأت عائشة غيطان القطن ولوزاتها المنتفخة، ونباتات الأرز المحملة بسنابلها الصفراء الناضجة، ودعت ربها أن يرزقها بالولد، فهى إذا لم تضع ولدا فإن زوجها سيصغى لغواية خالته، ياسين يسير إلى جوارها ويحمل على كتفه طفلتهما الجميلة الرابعة، أخذتها منه لتحملها قليلا، وإذ شعرت بثقلها على بطنها المنتفخ أنزلتها إلى الأرض، وأمسكت بيدها لتخطو إلى جوارها، سألتها:

– هل تقدرين على المشى يا حبة عينى؟

فأومأت الطفلة أن نعم، فضحكت وهى تحذرها:

– ستتعبين

لكن الطفلة التى اجتهدت لتخطو خطوات منتظمة هزت رأسها نافية.

عندما تمكنت القابلة من جذب الطفل من بطنها التفتت عائشة لتراه، وكانت أمها أسبق منها فشهقت فى فرح:

– ولد يا عائشة، ولد

ولم تصدق ما تقوله أمها، ومدت يديها لتأخذه من يد القابلة، لكن أمها كانت أسبق إليه، تلقفته من يد القابلة وعرضته عليها:

– ألم أقل لك إنه ولد!!؟

وطفر الدمع من عينى عائشة، وانطلقت فى أذنيها زغرودة جميلة، بطول أيام معاناتها.

2011/4/20

المؤلف في سـطور

أحمد صبري أبو الفتوح

- من مواليد محافظة الدقهلية فى العام 1953.
- درس القانون فى جامعة القاهرة، ثم عمل وكيلاً للنائب العام، وتدرج فى مناصب القضاء حتى عمل رئيسًا للنيابة العامة، ثم استقال من القضاء وعمل بالمحاماة.
- حصلت روايته "ملحمة السراسوة" (الخروج) على جائزة ساويرس لكبار الأدباء فى العام 2010.

صـدر له:

1 – "طائر الشوك"، رواية، دار زويل، القاهرة 2000.
2 – "وفاة المعلم حنّا"، قصص قصيرة، دار ميريت، القاهرة 2002.
3 – "جمهورية الأرضين"، رواية، دار ميريت، القاهرة 2005.
4 – "ملحمة السراسوة" (الخروج)، رواية، دار ميريت، ط1: القاهرة 2009، ط2: 2010، ط3: 2010، ط4: 2011.
5 – "ملحمة السراسوة" (التكوين)، رواية، دار ميريت، ط1: القاهرة 2010، دار العين، ط2: القاهرة 2011.
6 – "ملحمة السراسوة" (أيام أخرى)، رواية، دار ميريت، القاهرة 2010.
7 – "أجندة سيد الأهل"، رواية، دار العين، القاهرة 2011.

البريد الإلكتروني:

ahmd_sbry@yahoo.com



ملحمة
السَّراسْوة
شياطين .. ملائكة

" "ملحمة السرَّاسْوة" رواية فاتنة، وكاتبها أحمد صبري أبو الفتوح أطار النوم من عينيّ بملحمته البديعة".

د. جابر عصفور

"أكاد أُجزم أن رواية "ملحمة السرَّاسْوة" سيكون لها شأن عظيم في تاريخ الأدب العربي".

أ. خيرى شلبي

"نحن أمام رواية تروي عن الخوف العظيم والمطامع العظيمة، ماذا يفعلان بالناس وماذا يفعل الناس في ظلهما؟ لقد أدرك السرَّاسْوة بعد قتل المملوك "قُفْل" والخروج من جنتهم في سرس القديمة ثم صراعهم مع الأعرابي الجبّار في مستقرهم الجديد أن المكان البعيد الآمن الذي كانوا يحلمون بالوصول إليه لن يكون أبدًا مكانًا في الجغرافيا أو زمانًا في التاريخ، بل سيكون دائمًا مكانًا في العقل، منحىً في التفكير، رؤية للحياة قادرة على أن تكشف نقاط الضعف عند القوى ونقاط القوة عند الضعيف، دائمًا تعتمد الذكاء والبصيرة والخيال والصبر".

أ. أبو المعاطي أبو النجا

"إن وقفة متأنية بصدد رواية "ملحمة السرَّاسْوة" تفصح عن معالجة مقتدرة لروائي فذ وموهوب ساوق بين معارفه العريضة العميقة وبين حرفية فنية نادرة لإنجاز ملحمة، بحق، خليقة بأن تكون منعطفًا في تاريخ القص العربي المعاصر".

د. محمود إسماعيل

"حين يتحمس أحدهم لكتاب يقرأه في نفس واحد، لكن رواية "ملحمة السرَّاسْوة" تلتهم قارئها، هذا عمل يعمد صاحبه، ويعبد له طريقًا سالكة، إذ تجلو ملحمته الممتعة موهبته وتظهر طاقته التي لا تباري وإخلاصه الكبير الذي يحفظ على الأدب قدره".

أ. أسامة الرحيمي

الغلاف: بسمة صلاح


9 789774 901614

